المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب والبلاغة والنقد

تصوير هلاك المكذبين في القرآن الكريم

من زمن نوح عليه السلام إلى بداية عهد موسى عليه السلام

دراسة في أسرار التنوع

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد

إعداد الطالب

محمد بن صالح بن محمد العلياني

الرقم الجامعي (٤٢٤٧٠٠٠٦)

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود بن توفيق بن محمد سعد

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م

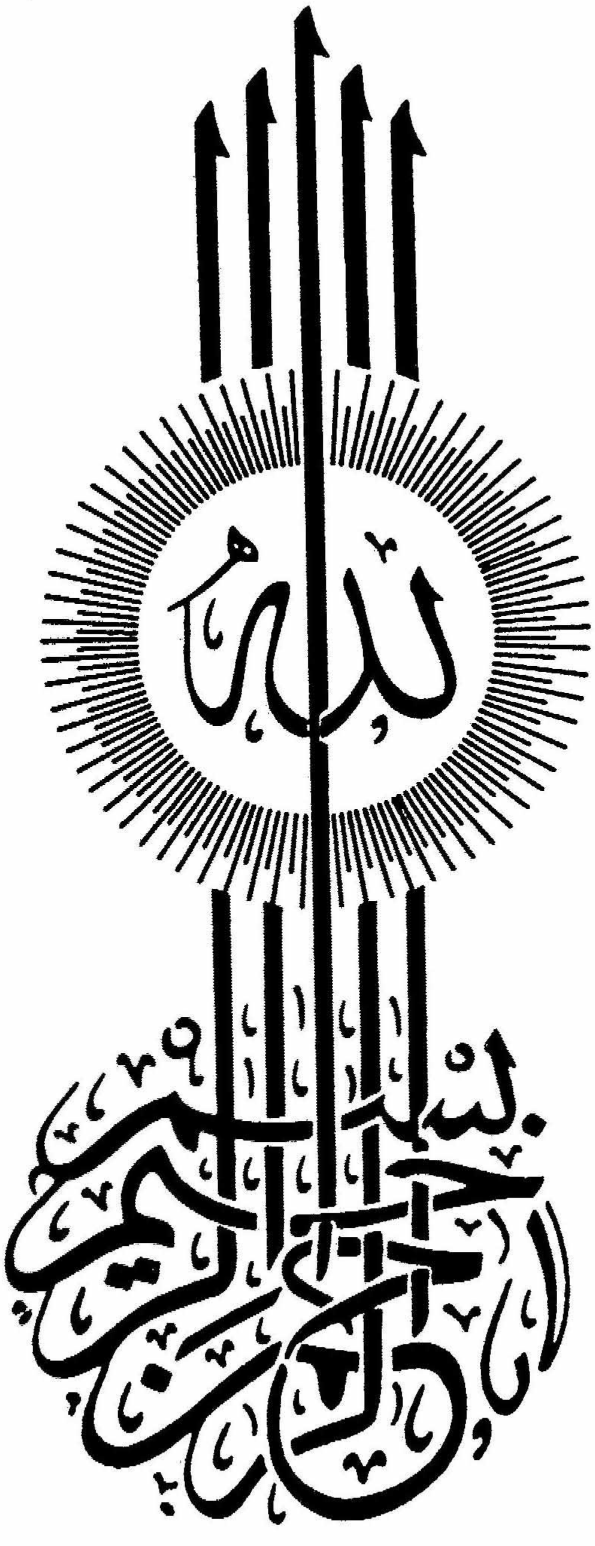
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : تصوير هلاك المكذبين في القرآن الكريم من زمن نوح عليه السلام إلى بداية عهد موسى عليه السلام دراسة في أسرار التنوع .

فكرة الموضوع : دراسة الأساليب المتنوعة في قصص الأمم المهلكة دراسة بلاغية تهتم بتحليل أساليب النظم الحكيم في عرض صور الإهلاك للأمم المكذبة .

هدف الدراسة : الكشف عن أوجه الإعجاز البياني في تصوير هلاك المكذبين عن طريق تحليل الأساليب ودراسة الصور في إيجازها وتفصيلها وتنوعها في العرض والأسلوب .

أبواب الرسالة : الباب الأول : أسرار اصفاء المفردات وتنوعها في تصوير هلاك المكذبين ويشمل خمسة فصول كل فصل يختص بدراسة أسرار اصطفاء المفردات وتنوعها في تصوير هلاك كل قوم من الأقوام المكذبة ويختتم بالفصل الخامس الذي يقارب بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها .

الباب الثاني : أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك الأقوام المكذبة ويشمل ستة فصول كل فصل يختص بدراسة بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك كل قوم من الأقوام المكذبة ، قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، ويختتم بالفصل السادس الذي يقارن بين ضروب التنوع في كل فصل من الفصول ويبين أسرارها .

الباب الثالث : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه ويشمل ستة فصول كل فصل يختص بدراسة أسرار التنوع في موقع المشهد من سياقه في هلاك كل قوم من الأقوام المكذبة ، ويختتم بالفصل السادس الذي اختص بالمقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل من الفصول ويبين أسرارها ، ثم ذيلت الدراسة بخاتمة ، وقائمة مفصلة بالمصادر والمراجع وفهرسة لأبواب الرسالة ومباحثها .

والحمد لله أولاً وآخراً

الباحث المشرف

محمد صالح محمد العلياني أ.د. محمود توفيق محمد سعد

The summary of the research

The title: the image of the liers' perish in the Holly Q'uran from the age of Nouh to Mousa (PBUT). This is a study in the secrets of difference.

The idea: to study the different techniques in the perish states stories. This is a rhetoric study which cares the analysis of the wise order techniques at the show of the lier states perish.

The aim: the discover of the statement miracle' images at the destroy of the liers. That is by the study analysis and the study of the images especially in its details, techniques and its unique difference show.

The units of the study: unit 1: the secrets of the meanings and their differences in the liers' destroy image. It consists of five lessons. Each one studies the secrets of the meanings choice and their difference in the liers' destroy of each people. It ends with the near difference in each one and its secrets.

Unit 2: the different style of the image building and its evidence. It contains six lessons, each one contains that image in Nouh, Houd, Saleh and Shoaib's people – peace be upon them all. It ends with the compression between the kinds of difference in each one and their secrets.

Unit three (3): the secrets of the relations' difference at the scene. It contains six lessons . each one studies the secrets of difference in the scene from its style. That is in the destroy of each people who are liers. It ends with the sixth one which studies the compression of the kinds of differences in each class and their secrets. Then, it ends with the conclusion and a list of the sources and searches. In addition to, the contents of the study and its researches.

Thanks to God at first and at the end

The researcher: Mohammed Saleh Mohammed AL-Elyany

The supervisor: P.D. Mohammed Tawfeek Mohammed Saad

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين المؤيَّد بناصع الحجة ورفيع البيان وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد كان من توفيق الله تعالى وفضله ، أن يكون الموضوع المتخير يتصل بأعظم غاية ، ألا وهي خدمة كتاب الله تعالى ، بالتأمل في معانيه والكشف عن بعض أسرار محاسنه ، ولاشك أن علم البلاغة هو الطريق الذي به يعرف إعجاز القرآن الكريم ، ويبصر به المتأمل علو قدره ، ورفعة منزلته حيث لا يقارن بيانه بيان ، وقد كانت الوجهة والاختيار لموضوع البحث تتجه إلى صورة الإهلاك والعقوبات للأمم الغابرة ، في القرآن الكريم من زمن نوح عليه السلام إلى بداية عهد موسى عليه السلام دراسة في أسرار التنوع ، وقد كان لهذا الاختيار أسباب منها :

١ - أن هذا الموضوع لم يحط بدراسة مستفيضة ، ومختصة به من قبل ، إلا ما وجد من دراسات متناثرة لبعض جزئياته عند علماء التفسير ، وأهل البلاغة ، وممن كتب في علوم القرآن ، ومتشابه الآيات ، ولاشك أن لها الفضل الأول في فتح أبواب المعرفة ، والولوج إلى خضم هذا الموضوع .

٢ - أن الحاجة مازالت تدعو إلى مزيد دراسة لأساليب التنوع في عرض صور الإهلاك في إيجازها وبسطها ، وما أبرزته السور الكريمة من بيان وإعجاز في جلائها للصورة بما يوافق أجواء السور ، وما انتهجته في إبراز مواضيعها التي

اختصت بها ، وبما يوضح للمتأمل نفي شبهة التكرار في أساليب النظم الحكيم في عرضه للمشاهد في السور الكريمة بين إيجاز وبسط كان لهما الأثر في إبراز مشاهد الإهلاك في صورة متكاملة ، تتوزع على السور في نظام بديع يحتاج إلى أن يوقف عليه وينظر في أسراره .

٣ – أن دراسة أسرار النظم ، والنظر في خصائصه البلاغية ، وأسراره التعبيرية ، وتدبر تلوينه البديع في التعبير عن المعنى الواحد ، بأنماط مختلفة طبقاً لملابسات المشاهد في كل حلقة معروضة ، يبين عن وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وكذلك ما وجد للعلماء من تحليل بديع لهذه الأسرار ، وما انتهجوه من طرائق في التحليل ، نراه يصب في جوهر البلاغة ويضيف إليها ، وكل هذا أوجد في نفسي العزيمة ، وحب استظهار ما في هذا الموضوع من أسرار وبدائع ، بما يوفق الله تعالى إليه ويفتح به ، ولقد كان المراد بمصطلح الصورة في عنوان البحث : الصورة في معناها الواسع ، أي صورة المعنى بأبعادها الثلاثة : البعد التركيبي (النظم) ، والبعد التصويري (التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز) والبعد التحسيني (البديع) وكل ذلك مكون للصورة ، والبلاغيون لا يعرفون حصر الصورة في التشبيه والمجاز ، والدراسة لما كانت شاملة لقصص الأمم المهلكة في إيجازها وتفصيلها ، كان الاهتمام ينصرف إلى دراسة التنوع في الأساليب ، بما يظهر بلاغة النظم ويكشف عن أسراره ، وقد كان منهج الدراسة في ذلك منهجاً تحليلياً وصفياً يتناول تحليل الآيات تحليلاً بلاغياً يستكشف أسرار التنوع ويقارن بين الأساليب بما يجعل القواعد البلاغية خادمة للمقاصد القرآنية .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة ، ثم في ثلاثة أبواب وخاتمة ، هذا وقد كان الباب الأول يختصُّ بدراسة أسرار التنوع في المفردة القرآنية في تصوير هلاك الأقوام ، لكل قوم فصل خاص بهم ، وقد اشتمل كل فصلٍ على مبحثين اثنين :

المبحث الأول : اهتم بدراسة أسرار تنوع المفردة في المتشابه من الآيات ، وأما المبحث الثاني : فقد اختص بدراسة اصطفاء المفردة وبيان أسرار ورودها في سياقها في غير المتشابه من الآيات ، ودرس معها ما ورد في المفردة من قراءات تكشف لنا عن أسرار التنوع الذي ينبئ عن تكامل القراءات في أدائها للمعنى وتوضيح الصورة ، وقد اقتصر في دراسة القراءات على القراءات العشر المتواترة، ثم اختتم الباب بفصل يهتم بالمقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وبيان أسرارها ، وقد كانت الدراسة في هذا الباب ، يتبين من خلالها إظهار ميزة المفردة في الأسلوب القرآني وما تفردت به ، وما كان لها من وقع صوتي يتلاءم مع المعنى، ثم ما أحدثته الكلمة في معناها من ائتلاف مع دلالات المعاني المصاحبة لها، بحيث لا نستطيع أن ننتزعها من موقعها ، أو نأتي بمرادف لها ، إن المفردة القرآنية قد جاءت توحي لنا بالمعنى المراد في تصوير المشهد دون زيادة أو نقصان، لقد جاءت متماسكة مع أخواتها ومتلاصقة مع رصفائها ، متمشية مع المعنى والغرض .

وأما الباب الثاني : فقد اختص بدراسة مشاهد الإهلاك للأمم ، وقد بيَّن من خلالها وجه بناء الصورة من حيث الإيجاز والتفصيل في ذكر المهلك وبين وجه

دلالتها من حيث الغرض والسياق الذي وردت فيه حيث جاءت للإنذار والتحذير والتهويل والزجر للمكذبين ، وكانت هذه الصور تختلف في تأثيرها من سورة إلى أخرى ، حيث نجد بعض السور تعلو فيها نبرة التهويل والإنذار ، فتأتي الصور فيها مفصلة لصورة المهلك تفصيلاً يدخل الهول والرعب ، وحين تجمع السورة بين التحذير والتهويل نجد حدة التهويل في الصورة لا تبلغ ما بلغته في السور التي كانت تهتم بزجر المكذبين وترهيبهم .

إن الصورة تختلف في تأثيرها من سورة إلى أخرى حسب سياق السور ووقت نزولها على المصطفى ﷺ في مكة ، والدراسة قد اهتمت ببيان ذلك مع تحليل المشاهد تحليلاً بلاغياً يكشف عن أسرار بيانها ، وأثرها النفسي على المتلقي، وما رمت إليه هذه الصور من أهداف بارزة تنذر كفار مكة ، وتزجرهم وتحذرهم من مغبة التكذيب والإعراض ، وقد بني هذا الباب على ستة فصول درس في كل فصل صورة مهلك كل قوم ، وكان ختامه بالفصل السادس الذي يقارن بين ضروب التنوع في صور الإهلاك للأمم في كل فصل ويبين أسرارها .

وأما الباب الثالث : فقد اختص بدراسة موقع المشهد من سياقه حيث بُين فيه ملاءمة المشهد الوارد لسياقه ، ولموضوع السورة التي جاء فيها ، فيرى المتأمل ورود حلقات مشاهد الإهلاك للأمم تتوزع على السور ، يذكر في كل حلقة من القصة ما يتلاءم مع كل سورة في إيجازها أو بسطها في غاية من الإحكام والالتحام ، وكل ذلك يكشف عن وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وقد

تمَّ في هذا الباب دراسة ارتباط المشهد بما قبله من حوار دائر بين الأنبياء ورسلهم، وما ظهر من خلال الدراسة من بيان أن دعوة الأنبياء لأقوامهم كانت تمثل مقامات مختلفة بما يوضح أن لا تكرار في عرض الموقف ، وقد بين من خلال ذلك أيضاً صورة نماء المعاني بين السور على حسب ترتيبها في النزول ، وقد لوحظ تسلسلها من خلال هذا الترتيب تسلسلاً بديعاً ، يبين للمتأمل نمو المعاني من السور السابقة في النزول حتى نصل إلى آخر السور نزولاً ، وهذا الباب قد قسم إلى ستة فصول ، اشتمل كل فصل على ذكر علاقة مشاهد الإهلاك لكل قوم من الأقوام الخمسة المهلكين ، وختم بالفصل السادس الذي كان يركز على عقد المقارنة في أثر السياق في إيراد مشاهد الإهلاك في السور الكريمة بما يتمشى مع مواضيعها وسياقها وأجوائها في الإنذار والترهيب . وأما الخاتمة فقد جاءت تبرز أهم نتائج البحث .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان لسعادة المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور / محمود توفيق سعد على ما بذله معي من جهود موفقة كانت تسدد وتصوب ما اعوج ، وتدعو إلى ما هو أكبر مما وصلت إليه ، ولو كانت لي قدرة واستطاعة لما طلب لوصل البحث إلى آفاق بعيدة ورحيبة فجزاه الله خيراً ، وأجزل له العطاء في الدنيا والآخرة ، وأتوجه بالشكر العظيم إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى على ما يجده كل باحث من رعاية واهتمام ، كما أُقدم عظيم الشكر والامتنان لمن سيقرأ هذا العمل ويناقشه ويقومه ليصل إلى الغاية المطلوبة .

وبعد ، فإني لا أزعم بأن هذا العمل قد وفَّ هذا الموضوع الكبير حقه تمام الوفاء ، فأسرار القرآن لا تحاط ، وعجائبه لا تنتهي ، ولكن حسبي أني قد قمت بما استطعت ، وهذه الدراسة إن حالفها التوفيق في كل الفصول أو في بعضها فما هو إلا فضل الله وتأييده ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان .

وأسأل الله تعالى ألا يحرمني أجر المجتهدين ، وأن يجعل هذا العمل في رضاه وابتغاء وجهه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين .

الباحث

محمد صالح محمد العلياني

٤٢٤٧٠٠٠٦

١٥/ ١٢/ ١٤٢٩ هـ

الباب الأول

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك المكذبين

ويشمل خمسة فصول :

الفصل الأول : أسرارتنوع المفرداتواصطفائهافي تصوي هلاك قوم نوح

الفصل الثاني : أسرارتنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم هود عليه السلام .

الفصل الثالث : أسرارتنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم صالح عليه السلام .

الفصل الرابع : أسرارتنوع المفرداتواصطفائهافي تصوير هلاك قوم لوط وشعيب عليهما السلام .

الفصل الخامس : مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها.

الفصل الأول

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصور هلاك قوم نوح

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات .

المبحث الثاني : أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات .

المبحث الأول

أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات

أ) أسرار تنوع المفردات في تصوير النجاة لنوح عليه السلام ومن معه :

إن أول ما يلحظ من تنوع للمفردات في تصوير نجاة نوح عليه السلام ومن آمن معه ما أوردته الآيات الكريمات من تنوع بديع في استخدامها للفعلين المزيدين (أنجينا) و(نجَّينا) . وقد وردا في سور متعددة حيث يقول تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الآية : ٦٤] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآية : ٧٣] .

وفي سورة الشعراء ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الآية : ١١٩ – ١٢٠] .

وفي سورة الأنبياء : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآية : ٧٦] .

وفي سورة المؤمنون : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآية : ٢٨] .

وفي سورة الصافات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآية : ٧٥ - ٧٦] .

وفي هذا التنوع البديع نجد أن أهل العلم بالمتشابه تختلف توجيهاتهم في ذكر أسراره .

فالإسكافي - رحمه الله - يرى أنه لا فرق بين الفعل المضعف (نجَّى) على صيغة (فعَّل) وبين الفعل (أنجى) بالهمز فقد جاءا على معنى واحد [(١)] وليست الجيم المزيدة في (نجّينا للكثرة ، وإنما هي المعاقبة للهمزة)[(٢)] .

وأما الكرماني - رحمه الله - فيرى أن التشديد في (نجَّيناه) يدل على الكثرة والمبالغة[(٣)] .

---

(١) ذهب إلى القول بأنهما بمعنى واحد من غير علماء المتشابه ، الأزهري ، وابن أبي زرعة والعكبري ، ينظر : كتاب معاني القراءات لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ط(١) ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ص ١٥٦ . حجة القراءات لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، ط(٥) ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، ص ٣٧٧ . التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الشام للتراث ، بيروت ، ص ١٤٨ .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ، اعتنى به خليل مأمون ، ط(١) ، بيروت : دار المعرفة ، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ١١٢ .

(٣) ينظر : البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، تحقيق أحمد عز الدين عبد الله ، ط(١) ، بيروت : دار صادر ، عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ١٩٠ .

والمتأمل في ورود هذين الفعلين في الآيات السابقة يلحظ أن النظم القرآني يستخدم كل فعل في سياق خاص به بحيث لا يمكن استعمال أحدهما مكان الآخر ، وهذا يؤكد الفارق كما سيأتي بيان ذلك ومن ذهب إلى التفرقة بين الصيغتين فقد طابق الصواب وأما الخطيب الإسكافي فإنه يبرر حجته في عدم التفريق بين الصيغتين فيقول : وزن (أفعل) أصل في هذا الباب ، وهو أكثر من وزن فعَّل ، وأنَّ الآية في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ سورة الأعراف الآية (٦٤) . جاءت على الأصل الأكثر ؛ ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على (أنجينا) كقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٧٢] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ٦٥] . وقوله : ﴿ فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٢٤] .

والدليل على أنَّ الجيم الميزدة في (نجَّينا) ليست للكثرة ، وإنما هي المعاقبة للهمزة قوله تعالى في ذي النون : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٨٨] ولا كثرة هناك .

=

وهو ما ذكره أهل اللغة في صيغة (فعَّل) حيث بيَّنوا أنها تأتي للتكثير غالباً ، ينظر شرح شافية ابن الحاجب للشيخ رضي الدين محمد بن الحسين الاستراباذي ، تحقيق محمد نور الحسن وآخرين ، (ط) بيروت ، دار الكتب العلمية (١ / ٩٢) .

ويبيَّن أن (أنجينا) الذي جاء على الأصل الأكثر يأتي معه اسم الموصول (الذين) على الأصل كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٦٤] وأنْ الاسم الموصول (من) يجيء بمعنى (الذين) وأنهما يشتركان في المعاني ، فالقرآن الكريم في الآية السابقة استعمل الأصل في اللفظتين (أنجينا والذين) ولَمَّا كرَّر هذا الذكر في الآية الأخرى عدل إلى اللفظين الآخرين اللذين هما بمعناهما وهما (نجَّينا) و(مَنْ) أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء[(١)] . ولا يخفى ما في هذا الكلام من البعد عند التحقيق وسيأتي تفصيل ذلك .

ونجد ابن الزبير في كتابه (ملاك التأويل) يميل إلى كلام الإسكافي السابق حيث يقول إن زيادة الهمزة في (أنجيناه) فيه إطالة للكلمة فناسبها الموصول (الذين) بزيادة حروفه على حروف (مَنْ) ولَمَّا قيل في الثانية : (فنجَّيناه) ، جيء بما هو أخصر في الخط ، ناسبه من الموصولات (مَنْ) المفرد في معنى (الذي) وهو أخصر[(٢)] .

وهذا الكلام وإن كان فيه ملاحظة التناسق بين النظم إلا أنه لا يطرد بدليل ما في كتاب الله تعالى من آيات مخالفة ، فقد ورد مع (أنجيناه) بالهمزة الاسم

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات للخطيب الإسكافي ص ١١٢ .

(٢) ينظر ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، ط(١) بيروت : دار الغرب الإسلامي عام ١٩٨٣ م ١٤٠٣ هـ (١ / ٥٣١) .

الموصول (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

وأمَّا قول الإسكافي السابق بأن (أنجينا) قد جاءت في القرآن الكريم أكثر من الفعل المضعف (نجَّينا) فيُرد عليه بما وجد من إحصاء للآيات في القرآن للفعل (نجَّينا) فقد ورد في سبعة وثلاثين موضعاً ، في حين ورد الفعل (أنجى) في ثلاثة وعشرين موضعاً وهذا يعني زيادة اطراد الفعل (نجَّى) في القرآن الكريم عن الفعل (أنجى) بأربعة عشر موضعاً[(١)] .

ولكنّا نجد توجيهاً آخر للكرماني فيه طرافة ولكنه غير مطرد أيضاً حيث يقول وقد جاء الفعل (نجَّينا) في آية يونس مع (من) في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [الآية : ٧٣] لأنه أنسب وأليق إذ إن لفظ (مَنْ) يقع على أكثر مما يقع عليه لفظ (الذين) لأن (من) اسم موصول يصلح للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث[(٢)] ، بخلاف (الذين) فهو لجمع المذكر فقط، ومن أجل تحقيق المناسبة بين الفعل واسم الموصول في كل آية جاء التعبير القرآني في الأعراف ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ وجاء في يونس[(٣)] ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ .

---

(١) ينظر دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل ، د/ محمد فاضل السامرائي ، ط(١) ، عمان : دار عمار ، عام ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م ، ص ١٠٢ .

(٢) فناسب إيراده مع (نجَّينا) الدال على الكثرة والمبالغة .

(٣) ينظر البرهان في متشابه القرآن (ص ١٩٠) .

والدليل على عدم اطراد كلام الكرماني في ربطه بين الفعل (نجّى) الدال على الكثرة والمبالغة وبين (مَنْ) ما يلحظه المتأمل في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ١١٩] فقد وردت (مَنْ) مع الفعل (أنجى) .

والخلاصة بعد هذا كله أن التفريق بين الفعلين هو الأولى .

وأفضل وأجود ما وجدته من كلام في التفريق بين الفعلين ما وُجد في تفسير البقاعي من قول للإمام الحرالي(١) حيث يقول « أنجينا من الإنجاء وهو الإسراع في الرفعة عن الهلاك إلى نجوة الفوز » .

ويرى في (نجّى) المضعف أن فيه تنجية على تدريج حينما تحدث عن آيات سورة البقرة في نجاة بني إسرائيل من بلاء فرعون لما طال عليهم فكان الفعل المضعف أنسب له(٢) ، وجعل النجاة لبني إسرائيل من البحر إنجاءً لما كان وحياً في سرعة وقت(٣) .

---

(١) هو الإمام المفسر أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي المالكي الحرالي كان عارفاً متقناً للنحو والكلام والمنطق سكن حماة وله تفسير عجيب (مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل) توفي سنة ٦٣٧ أكثر البقاعي من النقل عنه ، ينظر سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، ط(٩) ، بيروت ، ١٤١٣ هـ ، مؤسسة الرسالة (٢٣ / ٤٧) .

(٢) فقد دلَّ هنا في هذا السياق على المكث والتمهل وأن النجاة لم تأت إلا بعد طول بلاء فرعون على بني إسرائيل فكانت نجاة عظيمة .

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، ط(٢) ، بيروت٢٠٠٣ م -١٤٢٤ هـ ، دار الكتب العلمية (١ / ١٣٠) .

وقد ذهب إلى هذا القول الدكتور فاضل السامرائي في التفريق بين الفعلين فقال في الفعل المضعّف إن فيه تمهلاً ومكثاً وفيه معنى البطء[1] .

ولاشك في إفادته من القول السابق وإن لم يشر إليه ، وعند الرجوع إلى معاجم اللغة نجد ما يؤكد أن من معاني (أنجينا) السرعة والخلاص من الشيء ، يقال: ناقة ناجية ونجاة سريعة ، والنجاة والنجوة من الأرض وهي التي لا يعلوها سيل، وقولهم بيني وبينهم نجاة من الأرض أي سعة من الباب لأنه مكان يسرع فيه وينجى وفي الحديث :« إذا سافرتم في الجدب فاستنجوا»[2] يريد لا تبطئوا في السير ولكن انكشفوا ومرُّوا ، ومن الباب النجو : السحاب والجمع النجاء وهو من انكشافه لأنه لا يلبث قال ابن السكيت : انجت السحابة : ولّت[3]

ومن هنا يلحظ أن (أنجينا) في السور التي تتحدث عن نجاة نوح ومن معه من المؤمنين تدل على معنى السرعة ، وفيها تصوير لسرعة تخليص الله تعالى لنبيه واستجابة دعائه .

---

(١) حيث يرى أن من مقتضيات التكثير والمبالغة في الحدث ، استغراق وقت أطول وأنه يفيد تلبثاً ومكثاً . ينظر : من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني د/ فاضل صالح السامرائي ، ط(١) ، عمان ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، دار عمار ، ص ٧٠ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥١٣٢) ، (٣ / ٣٨١) ، نشر مؤسسة قرطبة ، القاهرة .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط دار الجيل ، بيروت ، (٥ / ٣٩٧ - ٣٩٨) مادة (نجى) . المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد ، (ط) دار المعرفة - بيروت ، ص ٤٨٣ . لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، ط(٣) ، بيروت : دار صادر ، عام ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م ، (١٥ / ٣٠٦) مادة (نجى) . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، (ط) المكتبة العلمية - بيروت (٥ / ٢٠) مادة (نجى) .

والدكتور فاضل السامرائي : قال إن (أنجى) تفيد معنى السرعة ، ولا خلاف هنا في معناها ، وأن (نجَّى) المضعف يدل على معنى المكث والتمهل ، وهذا نجده صحيحاً لا مرية فيه في الموقفين المختلفين في قصة إنجاء الله تعالى لبني إسرائيل في سورة البقرة . لمّا كان آل فرعون يذبِّحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم وكان هذا العذاب والبلاء العظيم قد مكثوا فيه وقتاً طويلاً ، فنجاهم الله منه ، بعد هذه المدة فكان المناسب هنا الفعل المضعف ، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٩] ولما فرق الله البحر أغرق آل فرعون وأنجى بني إسرائيل وهنا كان الإنجاء في مدة قليلة وسريعة حيث أنجى الله وأغرق ، فناسب الفعل (أنجى) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٥٠] .

ولكنا هنا في قصة نوح عليه السلام في موقف واحد والزمن واحد فكيف نقول إن هنا سرعة في إنجاء الله تعالى لنوح عليه السلام ومن معه ، وأن هناك في (نجّينا) مكثاً وتمهلاً في معنى النجاة ، ويحتج السامرائي لصحة ما ذهب إليه بقوله : (إن المرجع في ذلك إلى السياق ، فقد يتطلب المقام ذكر الإسراع في النجاة فيستعمل (أنجى) وقد لا يتطلب ذلك ، فيستعمل (نجّى) وكل ذلك صحيح، فقد نستطيل أمراً ونستقصره بحسب المقام ، فقد تقول في مقام : (الدنيا طويلة)

وقد تقول في مقام آخر: (الدنيا قصيرة) ولكل مقام مقال)[1] .

وهذا الكلام لا أجد ما يسوغه[2] إذا كان من معاني (نجّى) معان أُخر يتطلبها السياق القرآني ويتسع لها ، ولغيرها من الدلالات الأخرى التي لا تتعارض .

والذي يظهر أنَّ الفعل (نجَّينا) في قصة هلاك [3] قوم نوح عليه السلام يصوِّر لنا حال السفينة وهي تعاصر أهوال الطوفان وتخالط الموج وتعالجه فهي في وسط أمواج هائجة تعلو كالجبال في ارتفاعها وضخامتها فجاء الفعل (نجّينا) بالتضعيف ليصوِّر لنا شدة الأمر ، وأن الله بقدرته مع كل ما كان يحيط بتلك السفينة من الصعوبات والأهوال قد (نجَّاها بمن فيها) فقد انتزع الله تلك السفينة من وسط هذا العذاب الذي لامسها ، ونجد هذا المعنى يتضح بكثرة في معنى (نجّى) الذي يدل على إحاطة العذاب بمن نُجِّي منه في قوله تعالى :
﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٧١ – ٧٢] .

فقال تعالى : ﴿ نُنَجِّي ﴾ بالتضعيف ، ولم يكن في النظم الحكيم (نُنْجي) بالتخفيف ؛ ليتوافق مع الصورة والمشهد الذي يرون فيه النار ويمرون عليها ، ويعاصرون الشدة في الموقف ، ويشعرون بهول الأمر حتى يتوسطوها

(١) من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط(١) ، (دار عمار ، عمان ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م) ص ٧٣ .

(٢) في تحديد الدلالة .

(٣) في السياق الذي يبين شدة الأمر في قصة هلاك قوم نوح عليه السلام .

(فنجِّي) بالتضعيف تدل على هذا المشهد وتصوره في أدق تفاصيله ، وكذلك امرأة فرعون لمّا كانت في وسط الكرب والشدة محاطة بفرعون وقومه كان قوله تعالى عنها ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ [سورة مريم الآية : ١١] .

وفي الحديث عن أبي أُمامة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ وهو متوكئ على عصا ، فقمنا إليه ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً ، قال : فكأنا اشتهينا أن يدعو الله لنا فقال : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، وارض عنّا ، وتقبل منّا ، وأدخلنا الجنّة ، ونجِّنا من النار ، وأصلح لنا شأننا كله ، فكأنا اشتهينا أن يزيدنا فقال : قد جمعت لكم الأمر »(١) .

فقال (نجّنا) بالتضعيف على المعنى الذي ذكرته سابقاً لأنه لابد من المرور على الصراط فقال (نجِّنا) ، ومن هنا نتبيّن أن (أنجينا) في سورة الأعراف والشعراء يصوِّر لنا سرعة إنجاء الله تعالى لنوح ومن معه وسرعة تخليصه من القوم الظالمين ، وهذا الذي يحدده السياق من خلال تتبع الآيات حتى نصل إلى كلمة (أنجينا) التي صوَّرت لنا هذا المشهد ، فالمحاجة في سورة (الأعراف) و(الشعراء) بين نوح وقومه أوضح منها في سورة (يونس) التي ورد فيها الفعل المضعف حيث لم يذكر فيها من المحاجة إلا أنهم كذبوه ، أما في الأعراف فإنهم قد رموه بالضلال بعد أن دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحذرهم من عذابه ، ومع ذلك نجده عليه السلام يقابل شناعتهم باللطف فبين لهم أنه رسول من الله،

---

(١) ينظر الحديث في كتاب الدعاء (رقم ٣٨٣٦) . سنن ابن ماجه (٢ / ١٢٦١) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (ط) دار الريان للتراث ، والحديث رواه أبو دواد في سننه ، كتاب الأدب (٣٥) باب في قيام الرجل للرجل (١٦٥) برقم (٥٢٣٠) ، (٢ / ٧٧٩) .

وليس به ضلالة ، وما هو إلا مبلغ وناصح لهم ، يعلم من الله ما لا يعلمون، ولكن القوم المسرفين لم يقابلوا تلطفه بهم إلا بالجفاء والغلظة والتكذيب ، فاقتضى السياق التعجيل بذكر النجاة للنبي الكريم ومن معه ، فجاء الفعل (أنجى) دالاً على معنى السرعة في الإنجاء وهو ما يلائم هذا السياق[1] والله أعلم .

يقول تعالى في ذلك : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآيات : ٥٩ - ٦٤] .

ويأتي (أنجينا) بمعنى السرعة في التخليص والنجاة في سورة الشعراء يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) إن السياق في سورة الأعراف كلها قد اقتضى التعجيل بذكر عقوبات الأقوام فجاء الفعل (أنجينا) على أحسن موقع يدل على ذلك ولم يرد في السورة الفعل (نجّى) بالتضعيف .

﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ [الشعراء ، الآيات : ١٠٥ – ١٢٠] .

هنا يلحظ أن المشهد قد طالت فيه المحاجة بين نوح وقومه ، وكان تهديدهم شديداً وصارماً ، لقد ازداد عتوهم حيث وصفوا من آمن بنوح واتبعه من الضعفاء بالأراذل ، وطلبوا من نوح طردهم ، ولمّا لم يستجب لهم هددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوتهم ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ ولمّا بلغ به الكرب مبلغاً من إعراضهم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴾ فدعا لنفسه بالنجاة ولمن معه من المؤمنين ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فاستدعى هذا السياق وطول المحاجة الإسراع في النجاة له ولمن معه فقد بلغ الأمر غايته ، فالفعل (أنجينا) يصوِّر لنا سرعة إجابة الله تعالى لنبيه ، وسرعة إنجائه ومن معه من القوم الظالمين .

وفي سورة العنكبوت لم يكن فيها محاجة طويلة بين نوح وقومه وقد جاء الفعل (أنجينا) في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الآيات : ١٤ – ١٥] .

فهنا نجد أن الله تعالى يبيّن مدى صبر عبده نوح في دعوة قومه كلَّ هذه المدة الطويلة ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً ، فلما بين تعالى طول صبره واصطباره على قومه كان الأنسب هنا (أنجينا) الدال على السرعة في الإنجاء؛ لأنه لما ضاق بهم ذرعاً ونفد صبره دعا ربه، فكانت الإجابة سريعة بعد هذه المدة الطويلة والله أعلم .

وأما ورود الفعل (نجّى) في سورة (المؤمنون) في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الآية٢٨] فقد جاء متلائماً مع سياقه الذي بيّن لنا مراحل النجاة مفصلة فكانت المنة والفضل العظيم يتتابع منذ أن أمر الله تعالى نبيه بصنع الفلك ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ فالفلك وسيلة النجاة من الغرق .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾[الآية : ٢٧] فهنا يبين الله تعالى لنبيه وقت حدوث الطوفان ليستعد للنجاة بمن معه من المؤمنين والمخلوقات ، وهكذا نجد الفعل المضعف يتناسب مع دلالة السياق على مراحل النجاة المتدرجة ابتداءً من صنع الفلك حتى الاستواء على ظهر السفينة فناسب مجيء الفعل (نجَّى) المضعف هنا والله أعلم .

إذن الفعل (نجَّى) المضعف لم يبق على معنى واحد أو دلالة واحدة فمرة يحكي لنا ويصوِّر لنا مراحل النجاة، ومرة يصوِّر لنا إحاطة الهول والشدة (بالمُنجى) .

وكل ذلك على حسب مقتضيات السياق والأحوال في القصة . وكذلك يأتي الفعل (نجّى) المضعف ويعقبه ذكر للكرب كما في قوله تعالى من سورة الأنبياء

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآية : ٧٦] فالتضعيف في الفعل يتناسب في دلالته على المبالغة في معنى النجاة من الكرب العظيم .

ولما لم يأت تفصيل هنا عن طريقة النجاة كيف كانت، جاء الفعل المضعف ليدل ويشير إلى أن تلك النجاة كانت عظيمة، وأن كيفيتها عظيمة .

ومثل هذا الموضع ما في سورة (الصافات) من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآية : ٧٥ - ٧٦] .

ب) أسرار تنوع المفردات في المتشابه من سورتي (هود) و(المؤمنون)

وأول ما يلحظ فيهما ما يجده المتأمل في قوله تعالى من سورة (هود) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الآية : ٤٠] .

وقوله تعالى من سورة (المؤمنون) : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الآية : ٢٧] .

فالفروق كثيرة بين المفردات في الآيتين الكريمتين .

ففي سورة هود : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ ﴾ وفي المؤمنون ﴿ فَإِذَا جَآءَ ﴾ فذكر (حتى) هنا التي تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، وهنا دخلت على جملة

فعلية وجاء بعدها (إذا) [1] التي هي ظرف للمستقبل لتدل على أن مجيء الأمر في المستقبل ، وإلى ما دلّت عليه (حتى) من الغاية .

فالله تعالى قد أوحى إلى عبده ورسوله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وأن الأمر قد قضي ، فأمَره الله تعالى بصنع السفينة استعداداً لحلول هذا الوعد المقضي ، وبينما هو يصنع السفينة يمرُّ عليه الملأ من قومه فيسخرون من فعله ويكذبونه فيما يقول ، و(حتى) هنا تصوِّر تلك المدة الزمنية فهي غاية لـ(يصنع الفلك) أي يصنعه إلى زمن مجيء العذاب ، وهي في دلالتها على تلك المدة الزمنية مدة صنع الفلك إلى مجيء زمن العذاب تتناسب مع ما في سورة (هود) من تفصيل واسع لقصة الهلاك في ثلاثٍ وعشرين آية ، بينما لم نجد هذا الاتساع في سورة (المؤمنون) التي جاء فيها التعبير (بإذا) حيث يلحظ أنَّ السورة الكريمة ذكرت دعاء نوح عليه السلام وطلبه للنصر بعد تكذيبهم له ، فكان الوحي إليه بصنع الفلك بعد طلبه النصر ، فجاءت (إذا) هنا مناسبة . فـ « ناسب التعبير المتراخي القصَّ المتراخي بسبب كثرة عدد الآيات ، في سورة هود ، وناسب التعبير السريع في سورة (المؤمنون) القصّ السريع »[2] .

وكان التعبير في الآيتين الكريمتين (بإذا) التي تفيد تحقق وقوع هذا العذاب وأنه لا مرية في حلوله .

وسورة (هود) عليه السلام قد زادت عن سورة (المؤمنون) في بيان تلك المدة الزمنية بين صنع الفلك ومجيء العذاب بـ(حتى) .

---

(١) تأتي في الغالب ظرفاً للمستقبل مضمنة معنى الشرط ، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية .

(٢) الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن الكريم ، د/ عودة الله منيع القيسي ، ط(١) ، الأردن : دار عمار ، عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ١٠٥ .

« وإذا ظرف مضمن معنى الشرط ، ولذلك جيء له بجواب وهو جملة (قلنا احمل) وجعل الشرط وجوابه غاية باعتبار ما في حرف الشرط من معنى الزمان وإضافته إلى جملة الشرط ، فحصل معنى الغاية عند حصول مضمون جملة الجزاء وهو نظم بديع بإيجازه »[1] .

ومن المتشابه بين الآيتين قوله تعالى في سورة هود ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ وفي (المؤمنون) ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ .

وقد بيّن ابن الزبير هنا أن لفظ (الحمل) أوسع مواقع في اللغة وأكثر تصرفاً في الكلام ، تقول : حملت الشيء إلى فلان ، وحملته على كاهلي ، وحملت العلم عن فلان ، وحمل فلان الأمانة ، وحمل الفارس على صاحبه وحملت المرأة الشجرة ولا تقول في شيء من هذا سلك . إلاّ أن يكون المحمول فيه جسماً فيتعاقب سلك وحمل إن لم يعرض من المعنى ما يمنع .

وأما (سلك) فإن العرب تقول : سلكت الشيء في الشيء وأسلكته أي أدخلته وأمَّا (حمل) ففيها اتساع لا يكون في (سلك) ، فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى ومن حيث ما اقترن بها من لفظ قلنا ، فطال الكلام لفظاً لسعة المحامل وقد ناسب مجموع هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصة نوح – عليه السلام – وطول الكلام بذلك وأمّا آية (المؤمنون) ففي قصة نوح فيها إيجاز وإجمال ، لذلك ورد من سورة (المؤمنون) لفظ : اسلك

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، للإمام محمد الطاهر بن عاشور ، ط (الدار التونسية للنشر) ، (١٢/ ٧) .

لإيجازه من حيث معناه وعروه من اقتران لفظ (قلنا) وغيره مما يحرز الطول ، بخلاف ما في سورة هود ، ومما يعضِّد هذا المقصد ويشهد له قوله تعالى في سورة (هود) : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وفي سورة (المؤمنون) : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ فتأمل تنظير (حتى) وهي على أربعة أحرف بفاء التعقيب في سورة (المؤمنون) في قوله ﴿ فَإِذَا ﴾ وإنما الفاء على حرف واحد ، فنوسب بالفاء موضعها المبني على الإيجاز و(بحتى) موضعها المبني على الاستيفاء والطول[١] .

ويرى الطاهر بن عاشور : أن سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان ، وذلك وقت ضيق ، فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم ، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلاً للإسراع بإركاب ما عُيِّن له في السفينة ، حتى كأن حاله في إدخاله حال من يحمل شيئاً ليضعه في موضع ، وآية سورة (المؤمنون) حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباءً بما يفعله عند حدوث الطوفان ، فأمره بأنّه حينئذ يدخل في السفينة من عيَّن الله إدخالهم مع ما في ذلك من تفنن في حكاية القصة[٢] .

ومن اللطائف البديعة في تفريق النظم القرآني بين (احمل ، واسلك) أنَّ ما أخذه نوح عليه السلام معه في السفينة من مخلوقات الله منها ما كان يحمل حملاً ومنها ما كان يُدخل إدخالاً ، ومن المعلوم أن تلك المحمولات من الحيوانات

(١) ينظر ملاك التأويل (٢/ ٦٥٥ - ٦٥٦) .

(٢) انظر التحرير والتنوير (٨/ ٤٦) .

مختلفة الأحجام فمنها ما يحمل فيدخل ومنها ما يُدفع فيسلك(١) .

وإذا رجعنا إلى الأصل اللغوي للكلمتين فإنا سنجد اختلافاً في المعنىفمعنى الحمل : إقلال الشيء ، يقال حملت الشيء أحمله حملاً . والحِمْل : ما كان على ظهر أو رأس(٢) .

وفي (البصائر) أنّ معنى (احمل) في الآية : وضع الشيء في موضعه عناية به(٣) . وأما سلك : فمعناها : السلوك النفاذ في الطريق ، يقال سلكتُ الطريق وسلكتُ كذا في طريقه . قال تعالى : ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [سورة : نوح ، الآية : ٢٠] ، ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٦٩] .

وذكر من معانيها الإدخال : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ ، ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٣٢](٤) .

والذي يلحظ هنا في معنى (سلك) النفاذ في الطريق ، وقد يستشف من هذا المعنى أيضاً بالإضافة إلى معنى الإدخال أن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يأخذ معه من

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام ، د/ فؤاد محمود سندي ، ط (١) ، مكة المكرمة ، عام ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٨١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (حمل) ٢ / ١٠٦ . المفردات للراغب ، مادة (حمل) ١٣١ . وعلى هذا نجد فرقاً فسورة هود نازلة قبل سورة المؤمنون فكانت المرحلة الأولى حمل الحيوانات على السفينة ، والمرحلة الثانية دفعها وإدخالها إلى الموضع المناسب لها في السفينة بما يفهم من دلالة السلك والله أعلم .

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مادة (حمل) ٢ / ٥٠١ .

(٤) المفردات ٢٣٩ ، البصائر ٣ / ٢٤٩ .

كلٍّ زوجين من كل صنف من المخلوقات ، فإنّ البهائم والحيوانات التي لا تعقل تحتاج إلى من يسوقها ويقودها إلى الطريق الذي يوصلها إلى السفينة فكان (اسلك) في أصل معناه يدلُّ على هذا ، حتى إذا ما وصلت الحيوانات إلى السفينة بعد سوقها من أماكنها التي كانت فيها جاء بعد ذلك دور الحمل إلى السفينة ، فهي لا تستطيع أيضاً الصعود إلى السفينة حتى تحمل ، ولعل القول المحكم أن يقال : إن نزول سورة (هود) قبل سورة (المؤمنون) يؤكد على أن الحمل يصوِّر مرحلة سابقة على معنى (السلك) وهي المرحلة الأولى التي يتم فيها حمل الحيوانات ووضعها على السفينة ، والمرحلة الثانية تكون في كلمة (السلك) وهو دفع هذه الحيوانات وإدخالها إلى الموضع المناسب لها في السفينة بما يفهم من دلالة السلك على الإدخال ، فتكون كلمة (الحمل) اختصت بإقلال الشيء ورفعه والحِمْل ما كان على ظهر أو رأس ، وبهذا نجد أن كل كلمة أدت معنى لا يظهر في الأخرى ، وقد توافقت مع سياقها بما يبين لنا دقة المفردة القرآنية التي لا تحمل معنى مكرراً[1] .

ومن اللطائف في الآيتين أن كلمة (منهم) لم ترد بعد قوله تعالى ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ في سورة هود ، وجاءت (منهم) بعدها في آية سورة (المؤمنون) والسرُّ في ذلك أنَّه لما ذكر إغراق الابن الكافر في سورة (هود)

(١) وعلى هذا تكون المرحلة الأولى أشق لأن في الحمل إقلالاً للشيء ورفعاً وأما السلك فهو أسهل منه حيث أصبحت الحيوانات كلها على ظهر السفينة ولم يبق إلا إدخالها ودفعها إلى الموضع المناسب لها من السفينة والله أعلم .

أغنى عن مجيء كلمة (منهم) متعلقة (بأهلك) حتى يكون الاستثناء في ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ ﴾ مختصاً بأهل نوح فقط دون غيرهم من الكافرين فهم مغرقون كلهم .

وورد في سورة (هود) قوله ﴿ وَمَنۡ ءَامَنَ ﴾ ولم يرد في سورة (المؤمنون)لأن في سورة (المؤمنون) بعد آية علامة الطوفان جاء قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ ﴾ فشملت أهل نوح ومن آمن معه.

وفي سورة (هود) لم يرد مثل هذه الآية لذا قال فيها : ﴿ وَمَنۡ ءَامَنَ ﴾ أي : واحمل يا نوحُ في السفينة مع أهلك من آمن معك . ويلحظ أن سورة (هود) ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ لأن قبلها قال : ﴿ وَءَامَنَ ﴾ فناسب أن يشير إلى عدد المؤمنين معه فعددهم قليل(١) .

---

(١) ينظر من لطائف التعبير القرآني / ص ٨٢ – ٨٣ .

المبحث الثاني

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات

١ - ما ورد في سورة الأعراف :

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الآية : ٦٤] .

يلحظ أن النظم الحكيم هنا يستعمل مفردة (التكذيب) في الفعل الماضي (كذبوه) دون استعمال مفردة (الإعراض) مثلاً فلم يقل (فأعرضوا عنه) ؛ لأن كلمة التكذيب جاءت هنا لتختصر كلَّ مظاهر الإعراض التي سبق الحديث عنها[1] وتلخص الموقف وهي أدل في هذا الموقع ؛ لأن منشأ الإعراض كان بسبب تكذيبهم الذي أوصلهم إلى البعد والإهلاك ، والمكذب بعيد عن تلمس الحقائق أو النظر فيها واستخدام النظم الحكيم هنا لمفردة (الفلك) دون (السفينة) فيه تلاؤم صوتي بديع ، ولخفة هذه المفردة وكونها أخصر من مفردة (السفينة) تلاءَمت مع السياق من حيث أن (أنجى) - كما مرَّ تقرير معانيها - تدل على معنى السرعة في التخليص فكانت مفردة (الفلك) في خفتها أنسب للمقام ، والسفينة تقتصر على المفرد ، وجمعها[2] فيه ثقل ، ومن هنا ندرك سبباً من أسباب كثرة استخدام الفلك في النظم الحكيم دون (السفينة) حيث ورد في

---

(١) في الآيات السابقة لهذه الآية من سورة الأعراف .

(٢) لم يستعمل النظم الحكيم الجمع (سُفن) لثقله بتقارب مخارج حروفه وثقل تتابع الضمة .

ثلاثة وعشرين موضعاً ، ولم يرد ذكر السفينة إلا في ثلاثة مواضع مرة في آية العنكبوت[1] ومرتين في آيتي الكهف في قوله تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ وقوله ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[2] [الآية : ٧١ ، ٧٩] .

ثم نجد في الآية الكريمة استخدام كلمة (عمين) في الفاصلة دون (عامين)، يقول الزمخشري : « عمين ، عمى القلوب غير مستبصرين ، وقريء : عامين . والفرق بين العميّ والعاميّ أن العمى يدلُّ على عمى ثابت ، والعاميّ يدلُّ على عمى حادث »[3] والأول أبلغ لأنه صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت [4] ، ولأن اسم الفاعل دونها في الدلالة على الثبوت .

---

(١) من اللطائف أن كلمة السفينة قد استخدمت في السياق الذي يقلل من شأنها فالنجاة في قصة الطوفان كانت بفضل الله وعنايته والسفينة لم تكن إلا من ألواح ودسر لا تستطيع مواجهة العنف لولا فضل الله ولطفه . وكذلك السفينة في سورة الكهف لم تكن إلا لمساكين يعملون في البحر وهذه من بدائع اللطائف الملاحظة .

(٢) تلحظ الدكتورة عائشة بنت الشاطئ ملمحاً دقيقاً بين مفردتي الفلك والسفينة حيث تقول « فهل يكون في الفلك ما يربطها بالفَلَكِ في آيات القدرة الإلهية والنظام الكوني ، وتكون السفينة لمجرد المركب المائي ؟ ذلك ما ألمحه من بعيد » ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية ، ط (٢) القاهرة : دار المعارف ، ص ٣٩٦ .

(٣) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، ضبط وترتيب ، محمد عبد السلام شاهين ، ط (١) بيروت : دار الكتب العلمية ، عام١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م ، (٢ / ١١١) . التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، ط (٤) ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، عام (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م) ، (٥ / ٢٩٩) .

(٤) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ، ط (٢) ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ ، (٤ / ٣٩٢) .

٢ - ما ورد في سورة هود :

وأمَّا في سورة هود فأول موضع يلقانا فيها عن قصة هلاك قوم نوح عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الآية : ٣٦] .

ويلاحظ هنا أن الفعل (أُوحي) قد جاء مبنياً للمفعول بمعنى أنّه لا موحي إلا هو وهو ملك الملوك[١] .

ويلحظ هنا أن كلام المفسرين عن البناء للمفعول في الفعل (قيل) فيما سيأتي ذكره من آيات ينطبق أيضاً على البناء للمفعول في (أُوحي) فبناؤه للمفعول فيه اختصار لظهور فاعل القول ، ولأن مثله لا يصدر إلا من الله[٢] .

والوحي لنوح بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن فيه إخبار بأمر غيبي لا يكون إلا من الله تعالى وحده .

وهذا الفعل (أُوحي) في بنائه للمفعول يتلاءم مع هول الأمر وفيه تمهيد لذكر ما سيأتي من الإخبار بإنزال العذاب . فلما كان الأمر مهماً وعظيماً جاء البناء للمفعول ، وفيه جذب للانتباه إلى معرفة ما سيكون من كلام بعده ، فضمير الشأن بعد الفعل يدل على أن ما بعده أمر خطير لأنه تيئيس له من إيمان بقية قومه

---

(١) ينظر نظم الدرر (٣ / ٥٢٩) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٢ / ٧٨) .

كما دلّ حرف (لن) المفيد تأبيد النفي في المستقبل وذلك شديد عليه[1].

وقال تعالى في الآية ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ ولم يقل : (فلا تحزن) والسرُّ في ذلك راجع إلى المعاني والدلالات التي تتوافق مع السياق، وعند الرجوع إلى معاني كلٍّ من الكلمتين نجد من معاني (تبتئس) البأس الذي هو الشدة يقول الراغب : فلا تبتئس : لا تلتزم البؤس ولا تحزن . والبؤس والبأساء الشدة والمكروه إلا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثر ، والبأس والبأساء في النكاية[2] .

ويقول ابن منظور في لسان العرب : عن ابن بري : أن مبتئساً مفتعل من البأس الذي هو الشدة ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي فلا يشتد عليك أمرهم ، فهذا أصله ؛ لأنه لا يقال ابتأس بمعنى كره ، وإنما الكراهة تفسير معنوي لأن الإنسان إذا اشتد به أمر كرهه وليس اشتد بمعنى كره[3]

وأمّا معنى الحزن والحزن في اللغة : فمعناه ما هو نقيض الفرح وهو خلاف السرور[4] .

ومن هنا يتضح الفرق في المعاني فالحزين قد يحزنه أيُّ شيء ولكنه لا يكون في شدة وبأس في كل أحزانه .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٦٥ .

(٢) المفردات للراغب : ٦٦ .

(٣) لسان العرب ٦ / ٢١ .

(٤) المرجع نفسه ١٣ / ١١١ مادة (حزن) .

وأما البائس فإن في حالته حزناً وشدةً وضيقاً . يقول الإمام الطبري هنا في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبۡتَئِسۡ ﴾ .

فلا تستكن ولا تحزن بما كانوا يفعلون فإني مهلكهم ومنقذك منهم ومن اتبعك وأوحى الله ذلك إليه بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وهو تفتعل من البؤس ، يقال : ابتأس فلان بالأمر يبتئس ابتئاساً[1] .

يقول صاحب الإعجاز اللغوي في قصص نوح « والبؤس أشد إيلاماً للنفس من الحزن ، ونوح مرشح للبؤس الذي هو أقسى من الحزن ، لأن هؤلاء الذين لن يؤمن منهم إلا من قد آمن هم من ناحية قومه ، والله تعالى محيط علمه بأن نوحاً سيحزن لمصيبة قومه ، والغرق أم المصائب ، والله يرشده ألاّ يصل إلى هذه الدرجة لأنه يؤمن أن حدوث الأشياء أو عدم حدوثها إنما هو بإرادة الله تعالى ولذلك قال تعالى ﴿ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ ﴾ ولم يقل حزين أو محزن »[2] .

وكلامه جميل هنا إلا أن (البؤس) هنا محدد في الآية ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ وتفسير الطبري السابق لم يدخل فيها أن بؤسه من أجل غرق قومه فهو لم يخرج عن دلالة الآية الكريمة .

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ضبط وتعليق محمود شاكر ، ط(١) ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان) ، (١٢ / ٤١) .

(٢) الإعجاز اللغوي ص ٨٧ .

فالحزن والأسى منصرف في الآية إلى ما كان يحدث من قومه من إعراض عنه وعن دعوته ؛ ولذا جاء النهي من الله تعالى لنبيه بأن لا يصل إلى درجة البؤس بسبب أفعالهم ، وهذا من التسلية له عليه السلام والرفعة ، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يزدد منهم في كلِّ يوم إلا عناداً وبؤساً ، فجاءت هذه الكلمة مناسبة في موقعها ، تصوِّر لنا حال نوح عليه السلام وما وصل إليه ، وتهيء نفسه لما سيؤول إليه حال قومه من الهلاك ، فنصر الله قادم ، والعزة لهذا الدين وإن قلَّ فتبعوه ويلاحظ أن الله تعالى قال ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفۡعَلُونَ ﴾ ولم يقل ﴿ بما فعلوا ﴾ لأن الفعل المضارع يصوِّر لنا استمرار هؤلاء القوم فيما هم فيه من غي وسخرية وعناد يتجدد ويزداد في كل يوم من أيامهم ، فلم تزدهم دعوة نوح إلا نفوراً وبعداً وجاءت (ما) هنا تصوِّر لنا كلَّ ما يمكن أن يخطر في الخيال من أنواع العناد والاستكبار والاستهزاء والإيذاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [الآية : ٣٧] .

قال تعالى هنا (اصنع) ولم يقل (اعمل) والفرق بين الكلمتين يتضح عند معرفة معانيهما .

يقول الراغب : (الصنع) إجادة الفعل ، وهو أخص من الفعل والعمل فكلُّ صنع فعل ، وليس كل فعل صنعاً ، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل .

قال تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

وهكذا تتدرج هذه الألفاظ الثلاثة في المعنى : فالعمل أخص من الفعل والصنع منهما معاً والصنع إجادة الفعل[1] .

وفعل الأمر (اصنع) هنا أنسب في موقعه ؛ لأن الفلك ستكون بأمر الله تعالى وسيلة النجاة من الغرق فاقتضى الفعل (اصنع) الإجادة وإحكام الصنعة بدقة ، فالخطب عظيم ، والله تعالى أقدر على نجاتهم من دون الفلك ، ولكن حكمته اقتضت أن يجعل لكل شيء سبباً ، وما الحياة الدنيا إلا دار عمل وكدح وابتلاء .

وقال تعالى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بصيغة الجمع لما فيها من معنى العناية والحفظ من الله تعالى لنبيه في مواجهة كيد قومه وبلائهم .

وهذا الجمع « يطرد في الحديث عما غمر الله به نوحاً عليه السلام من فضل عنايته ، وهو يأمره بصنع الفلك استعداداً ليوم تتفتح فيه أبواب السماء ، وتتفجر ينابيع الأرض عن طوفان مدمر ، لم تشهد البشرية له مثيلاً ، انتقاماً من قوم طال كفرهم وعصيانهم ، فكان إقدام نوح على صنع سفينة يتعلق بها مصير عصابة الحق ، على أعين قوم ساهرين على إفساد كل ما يتخذ من أسباب النجاة ، بحاجة إلى المزيد من تثبيت قلبه والنفث في روعه أن الله تعالى يحيطه ببالغ رعايته لذا

---

(١) المفردات للراغب : مادة (صنع) ص ٢٨٦ .

جاءت الأعين جمعاً في كل موطن أُمر فيه نوح بصنع الفلك ، كما جاءت جمعاً تعبيراً عن رعاية الله لها وهي تجري بهم في أمواج كالجبال »[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي ﴾ ولم يقل (ولا تسألني) يقول الطبري في تفسير هذه الكلمة : لا تسألني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك ولا تراجعني بمعنى تشفع لهم[2] .

ويقول البقاعي هنا ولا تخاطبني : « أي بنوع مخاطبة وإن قلت » وأما معناها في اللغة : فالخطاب والمخاطبة والتخاطب المراجعة في الكلام ، والخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب قال تعالى : ﴿ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ .

وقال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ وفصل الخطاب ما ينفصل به الأمر من الخطاب[3] .

فالمخاطبة هنا آتية من (الخَطْب) وهو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب ، ولهذا كانت عظمة الله وخطورة الشأن تستدعي عبارة (ولا تخاطبني) دون غيرها[4] .

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، د/ محمد الأمين الخضري ، ط (١) ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٤٢) .

(٣) مفردات الراغب ، مادة (خطب) ص ١٥٠ . لسان العرب ، مادة (خطب) ١ / ٣٦١ .

(٤) انظر مثل الشأن والأمر فهي لا تدل على عظمة الموقف وخطورته كما دلت كلمة الخطب .

وفي المخاطبة كما مرَّ معاودة ومراجعة فالنهي شامل لكل شفاعة أو كلام في شأن العذاب النازل بقوم نوح .

يقول الطاهر بن عاشور « المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة ، وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة ولعل هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف »[1] .

وقال تعالى : ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ ولم يقل (في الظالمين) مع أنه ورد في الآية (٤٤) قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤] والسبب والله أعلم : أنَّ (الذين ظلموا) تصلح مع الأحياء الذين ما مرَّ من عمرهم كان مكرساً للظلم . أمَّا الظالمون فتعني الذين انتهت حياتهم وهم ظالمون ، و(الذين ظلموا) حكم يدل على زمن ، أما الظالمون فحكم قاطع مستقر ثابت لا يخرجون منه لا في الحاضر ولا في المستقبل ، لأنه لا يكاد يلحظ فيه الزمن .

وجاءت أيضاً : ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ وليس : (في الذين يظلمون) لأنها تعني أنَّ ما مارسوه من الظلم في الماضي على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً وهي مدة مكث نوح فيهم ، كاف لعقاب الله تعالى لهم بإغراقهم ، يضاف إلى ذلك أن التعبير بالفعل الماضي (ظلموا) يشعر وكأن ماضيهم كله قائم على الظلم فليس في ماضيهم ممارسة لأي سلوك يوصف بالعدل لأن دعوة الحق (عميت عليهم) كما

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٦٧ .

ورد في الآية(٢٨) . وأمَّا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ فإنها أدل في مكانها وأقوى من لو قيل (غارقون) لأن (غارقون) توحي أنهم غرقوا لأنهم لا يعرفون السباحة ، أمَّا (مُغرقون) فتدل على أن الله جلّ جلاله هو الأمر بإغراقهم ، وذلك يعني أنهم غرقوا رغم أُنوفهم أي : أُغرقوا ، والإغراق عقوبة على أخطاء(١) .

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه بصنع الفلك وأنه في عمله هذا تحت توجيه وعناية من ربه يأتي المشهد التالي يصوِّر لنا دأب نوح عليه السلام واستمراره في تحقيق الأمر الذي أُوكل إليه . في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الآية : ٣٩] .

وعند النظر إلى المفردات المستعملة في هذا المشهد نجد أن النظم الحكيم هنا استخدم الفعل المضارع (يصنع) دون الفعل الماضي (صنع) الذي يتلاءم مع حكاية قصة ماضية . لأن في صيغة المضارع استحضاراً لتلك الصورة الماضية وفيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره أعني قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾(٢) .

---

(١) ينظر : الإعجاز اللغوي ص (٩٦ – ٩٨) .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، (ط) دار الفكر ، (٣ / ٣٠) .

والآية هنا ذكرت الملأ خاصة وهم علية القوم وأعيانهم يقول الراغب : الملأ الجماعة التي تجتمع على رأي فيملأون العيون رواءً ونظراً والنفوس بهاءً وجلالاً . ويقال فلان ملأ العيون أي معظم عند من رآه كأنه ملأ عينه من رؤيته و(كلما) تدل على تكرر المرور على نوح عليه السلام بما يبين أنهم يتابعون صنع السفينة للسخرية به وتسفيه أفعاله ، ولإدخال الاحتقار لما يقوم به في أعين الناس .

وقال تعالى : ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ ولم يقل (استهزءوا به) لأن كلمة (السخرية) أنسب في هذا المقام ؛ لكون المستهزئ قد يخفي استهزاءه ولا يظهره يقول الفيروزآبادي « الهزء مزح في خفية »[1] . والسخرية تعني الاحتقار والاستذلال[2] .

والاستهزاء لا يلحظ فيه الاستذلال مثل ما يلحظ في السخرية ، والساخر لا يعبأ بالمسخور منه ، بل يعلن السخرية ويظهرها للاستخفاف والاحتقار « ومشهد الساخر لا يكاد يخلو مما يتلهى ويضحك على قوله »[3] .

وإذا رجعنا إلى تلمس هذه الكلمة وحسن دلالتها في السياق اتضح لنا سر استعمالها حيث كان نوح عليه السلام يصنع الفلك في برية بهماء في أبعد موضع من الماء ، وفي وقت عزته عزة شديدة ، وكانوا يتضاحكون ويقولون يا نوح

---

(١) البصائر (٥ / ٣٢٥) .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، مادة (سخر) ، (٣ / ١٤٤) .

(٣) الكشاف (٢ / ٥٦٥) .

صرت نجاراً بعدما كنت نبياً ، أو أن القوم ما كانوا يعرفون السفن ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك ، وسخروا منه ، وقيل إنه عليه السلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عيناً ولا أثراً عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص فعلوا ما فعلوا من السخرية والاستجهال له[1] .

فحسنت هذه الكلمة هنا لأنها تبين شدة استغرابهم من تحوُّل نوح عليه السلام في نظرهم من رسول مهتم بالدعوة إلى نجار يبني سفينة في مكان بعيد عن الماء على أرض قاحلة مما يجعل نزول مطر من السماء يحمل سفينة ضخمة كهذه أو إمكانية نقلها إلى مكان تسبح فيه أمراً لا يتم إلا عن طريق المعجزات وهم لا يؤمنون بالمعجزات ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ نجد الفعل الماضي (قال) يدل على أن نوحاً عليه السلام قد قال هذا القول لهم مرة واحدة ، ولعلها كانت في آخر عبارات سخرية وجهها ملأ

(١) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ضبط وتعليق محمود شاكر ، ط(١) ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي (١٢ / ٤٥) . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي ، ط (١) بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م ، (٣/ ١٧٠) . التفسير الكبير للفخر الرازي (٦/ ٣٤٥) . تفسير العلامة أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، (ط) دار الفكر (٣ / ٣١) . الفتوحات الإلهية بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ، (ط) دار الفكر (٢ / ٣٩٥) .

قومه له بعد أن نفد صبره ، وقارب صنع الفلك نهايته ، بدليل أن النظم استعمل هنا فعل : (قال) ولو أنّه عليه السلام قد كان يكرِّر هذا القول ، لكان البيان يقتضي أن يؤتى بعبارة تدلُّ على ذلك ، مثل : (ويقول إن تسخروا منا)[١] .

وقال (منّا) ولم يقل (مني) لأن ذلك يشير إلى أنهم يسخرون منه في عمل السفينة ومن الذين آمنوا به إذْ كانوا حوله واثقين بأنه يعمل عملاً عظيماً[٢] .

وسخريتهم من الذين اتبعوه من المؤمنين المستضعفين ستكون أشد من سخريتهم بنوح عليه السلام حيث لا يرونهم إلا من الأراذل وهي نظرة الملأ من قوم نوح وقد تعالوا واستكبروا ، وقال ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ ليدل على مواجهتم بمثل ما يواجهونه ومن معه بلا زيادة ، والفعل المضارع يدل على استمرار القوم في سخريتهم كلما مرّوا عليه ، وأهل التفسير يرون أن السخرية مما لا تليق بمقام النبوة وأن إطلاق السخرية عليه للمشاكلة[٣] .

فسخرية نوح والمؤمنون هي سخرية الحال من جهل القوم وانصرافهم عن الحق وانغماسهم في الباطل ، وهي سخرية الزمن القادم الذي تتفتح فيه أبواب السماء بماءٍ منهمر وتنفجر الأرض عيوناً ، وأما سخرية القوم وهي السخرية الأولى

---

(١) ينظر : نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، عبد الرحمن حبنكة ، ط (١) ، دمشق دار القلم : ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ص ١١٤ .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ٦٨) .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٦ / ٣٤٦ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠ .

فإنها كما ذكرها المفسرون سخرية الاستجهال والاستخفاف والاستحماق[(١)] ، إنها سخرية الغافلين البلهاء ، والسخرية والاستهزاء لا يقعان غالباً من حكيم أو عاقل وإنما هما سمة المستخف الطائش ، وعليه فالسخرية الواقعة من القوم هي الأدخل في تحقيق المعنى الحقيقي للكلمة ، أما ما وقع من نوح نبيَّ القوم وحكيمهم والمجتهد في هدايتهم والكدود في دعوتهم إلى الإيمان فليس على شاكلة ما وقع منهم ، وإنما هو الإشفاق والحسرة والألم على ما يصيبهم بسبب استهزائهم وتكذيبهم ، إنه رثاء من نوح لحال قومه وليس سخرية واستهزاء الخفة والطيش والنزق ؛ لذا فقد أوقع سخرية نوح مشبهاً لنقصانها في هذا الباب وسخرية القوم مشبهاً به لتمامها فيه فالكلام جرى على سبيل المشاكلة[(٢)] .

وفي تمام الآية يقول الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل (فستعلمون) لأن سوف أبعد في الزمن من السين ، وسوف حرف ينقل الفعل من الحال إلى الاستقبال ، والفرق

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٣/ ١٧٠) . تفسير البحر المحيط ، لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حبّان الشهير بأبي حبان الأندلسي الغرناطي تحقيق د/ عبد الرزاق المهدي ، ط(١) ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م .

(٢) اللفظية حيث سمي الجزاء هنا سخرية ليكون أوقع في نفس الساخر ليقلع عما هو فيه .

ينظر : التشبيه البياني في نظم القرآن د/ هاشم الديب ، ط(١) ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، عام ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م ، ص ٧٥ .

بينه وبين السين أن في سوف معنى التسويف ، وهو تعليق النفس بما يكون من الأمور التي يمكن أن تحدث .

وأكثر ما تستعمل سوف في التهديد والوعيد وتستعمل السين في الوعد والوعيد(1) .

(فسوف) هنا تدل على التهديد والوعيد ، وتدل على أن العذاب يأتي بعد مدة من الزمن ، أي بعد الانتهاء من صنع السفينة ، وإرادة الله تعالى لنزول العذاب ، ونجد في الآية الكريمة أنه قد أسند (العلم) إلى ضمير المخاطبين دون الضمير المشارك بأن يقال : فسوف نعلم« إيماءً إلى أنَّ المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك ، وهذا يفيد أدباً شريفاً بأن الواثق بأنه على الحق لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساخرين»(2) .

وفي اصطفاء كلمة (الإتيان) للعذاب دون (المجيء) (3) لأن الإتيان كما

(1) ينظر : البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد الفضل إبراهيم ، ط (٣) ، دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م (٤ / ٣٨٣) . الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط) بيروت - لبنان ، المكتبة العصرية ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (٢ / ١٩٧) .

وينظر معترك الأقران للسيوطي ، ضبطه وصححه ، أحمد شمس الدين ، ط(١) (دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م) (٣ / ٢٢٤) .

(2) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢ / ٦٨ .

(3) في الغالب يلحظ أن العذاب يرتبط بكلمة المجيء لما فيه من شدة وصعوبة كما سيأتي ملاحظة ذلك في صور إهلاك الأمم ولكن السياق هنا اقتضى كلمة (الإتيان) لبيان سهولة مجيء العذاب وحصوله لأن القوم ينكرونه ويستبعدون حدوثه .

يقول الراغب : مجيء بسهولة ، وهو أخص من مطلق المجيء ومنه قيل للسيل المار على وجهه ، أتيٌّ وأتاويٌّ وبه شبه الغريب فقيل أتاوي ، والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبر ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والأعراض[1]

ومن هنا ندرك الفرق بين الكلمتين ، فكلمة الإتيان هنا فيها تصوير لسرعة مجيء العذاب بسهولة حتى لكأنه يسعى نحوهم باختياره وإرادته .

وكلمة الإتيان أدق هنا لأنها تعني مجيء العذاب من مكان قريب أيضاً فالماء قد خرج من الأرض وتفجرت به عيوناً ، وهذا يصوِّر طغيان هذا الماء ومسارعته في الانتشار والاختلاط بماء السماء النازل وقال تعالى : ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ دون (من يأتيهم) .

(وهذا يعني أن الله سلط العذاب على المفرد لا على الجماعة ، مع أنهم كُلَّهم معذبون ، لأنهم لا يعدون أنْ يكونوا آحاداً ، مهما كان عددهم ، والعذاب يقع على الجماعة جملة واحدة أخف من العذاب الذي يخص كل فرد بعينه بمعزل عن جماعته)[2] .

وقال تعالى : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ والخزي يعني الهوان والذلة والهلاك .

وهو مصدر خزي يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس وأخزاه أذله على

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، مادة (أتى) ، ص ٨ .

(٢) الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام / ص ١٠٢ - ١٠٣ .

رؤوس الأشهاد ، وفي الخزي قهر للمعذب وإهانة علنية ، وذلك معنى مستقر في نفوس الناس ، والخزي لا تطيقه الأنفس[1] .

ولقد أحسن أبو السعود حينما بيّن جمال موقع هذه الكلمة مع كلمة السخرية من قبل وتلاؤمها مع كلمة (الإتيان والحلول) ، حيث قال « ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد وتخصيصه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة »[2] .

فالخزي وما يحمله من معنى الهوان والذل لهؤلاء القوم تناسب مع موقف القوم الساخر المستهزئ بنوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، فكان الجزاء من جنس العمل وقال تعالى ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ . وحلَّ في اللغة كما يقول ابن فارس: نزل ، وهو من هذا الباب لأن المسافر يشد ويعقد فإذا نزل حلَّ[3] ويقال حلَّ الدين وجب أداؤه ، والحلة القوم النازلون والمحلة مكان النزول[4].

وحلَّ في الآية مستعمل في المجاز حلّ بهم العذاب أي نزل بهم وصار استعمال الحلول والنزول مقروناً بإنزال العذاب والعقاب والنكال في كتاب الله تعالى .

---

(١) ينظر : تفسير الطبري ١٢ / ٤٧ . البحر المحيط ٥ / ٢٨٨ . التحرير والتنوير (٤ / ١٩٨) . المفردات للراغب ، كتاب الخاء ، مادة (خزى) ، ص ١٤٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣١ .

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (حل) ، (٢ / ٢٠) .

(٤) المفردات للراغب ، مادة (حل) ، ص ١٢٨ .

وفي استعمال الإتيان والحلول في الآية الكريمة دلالات بيانية دقيقة فالعذاب الذي يأتيهم هو عذاب الهلاك بالغرق في الدنيا ، وعبَّر عن العذاب الدائم بالحلول والإقامة كالنازل الذي يريد أن يحل بمكان ويستقر فيه ويتخذه مقراً فكانت كلمة (الحلول) وكلمة (مقيم) تشير إلى العذاب المستمر الذي لا يتحول ، وفي هذا إشارة إلى عذاب الآخرة وهو العقاب المؤجل كما أشار إلى ذلك أهل التأويل(١) .

ولَمَّا كان العذاب في الأولى هو عذاب الدنيا بالطوفان المغرق ناسبه أن يوصف بالفعل في قوله ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ .

لأن الفعل يدل على حدث وزمن ، وكل شيء يتلبس بالحدث والزمن فانٍ وعذابهم في الدنيا منتهٍ فناسب الفاني الفاني .

أما العذاب في الثانية فصفته اسم الفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ واسم الفاعل وصف خالٍ من الزمن المؤقت ، فلاءَم عذاب الآخرة الدائم ، فسبق كلمة العذاب الأولى الفعل (يأتي) وسبق كلمة العذاب الثانية الفعل (يحل) لأن (يأتي) سريع الزوال كسرعة زوال عذاب الدنيا أما (يحل) فيدل على التلبث(٢) .

---

(١) ينظر : تفسير الطبري ١٢ / ٤٧ . المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ١٧٠ . تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون ، ط(١) الرياض ، دار عالم الكتب ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، (٧ / ٤٣٦) .

(٢) ينظر : الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام بتصرف ، ص ١٠٤ .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ [1] أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [سورة هود ، الآيات ٣٩ - ٤٠] .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾[2] الفوران انبعاث بشدة وجيشان أدى إلى تفجر الأرض وتشققها من شدة الضغط المندفع حتى أصبحت كلها عيوناً تفور وهذا ما تصوره كلمة الفوران والتنور قيل فيه : إنه يعني فلق الصبح وقيل إنه أعلى الأرض وأشرفها وقيل : تنور الخبز الذي يوقد فيه .

يقول الطبري : (وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل : (التنور) قول من قال : هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب)[3] .

والتنور أمارة جعلها الله لنوح عند فورانه بالماء أن يركب السفينة هو ومن آمن معه ، ويشبه أن يكون وجه الأمارة أن مستوقد النار إذا فار بالماء فغيره أشد فوراناً وأحرى بذلك[4] .

---

(١) مرّ التطرق لهذه الكلمات في مبحث التشابه من الآيات .

(٢) تقول فار الشيء فوراً وفوراناً جاش وفارت القدر تفور فوراً وفوراناً إذا غلت وجاشت ، وفي الحديث فجعل الماء يفور من بين أصابعه أي يغلي ويظهر متدفقاً وفور كل شيءٍ : أوله . لسان العرب ، مادة (فور) ، (٥ / ٦٦ ، ٦٧) .

(٣) تفسير الطبري ١٢ / ٤٩ .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز ٣ / ١٧٠ .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ قرأ (حفص) (كلٍّ) بالتنوين ، والتنوين عوض عن المضاف إليه ، أي من كل ذكر وأنثى ، و(زوجين) مفعول : (احمل) و(اسلك)[1] و(اثنين) نعت (لزوجين) وفيه معنى التأكيد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [النحل : ٥١] .

والتقدير : احمل فيها زوجين اثنين من كل شيء ، ثم حذف ما أضيف إليه (كل) فنون (كلٍ) .

وقرأ الباقون (كل) في الموضعين بترك التنوين ، وذلك على إضافة (كل) إلى (زوجين) والفعل عدِّي إلى : (اثنين) وخفض (زوجين) لإضافة كل إليهما ، والتقدير : احمل فيها اثنين من كل زوجين ، أي من كل صنفين[2]

فعلى قراءة حفص يكون اثنين صفة لـ(زوجين) أي لا تزد على اثنين فيكون

---

(١) في سورة المؤمنون ، الآية رقم (٢٧) .

(٢) ينظر : النشر في القراءات العشر ، لمحمد بن علي بن يوسف بن الجزري ، تحقيق د/ محمد سالم محيسن ، نشر ، مكتبة القاهرة ، (٣ / ١١٤) . الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي تحقيق ، د/ محي الدين رمضان ، (ط) عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م (١ / ٥٢٨) . البحر المحيط (٥ / ٢٩) . روح المعاني (٦ / ٢٥١) . التبيان في إعراب القرآن للعكبري ، ص ٢٠١ . إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة ، تأليف شمس الدين محمد بن خليل القباني ، تحقيق ، د. أحمد خالد شكري ، ط(١) (دار عمار ، عمان ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م) ص ٤٤٣ .

هنا معنى التأكيد ، لأن الموصوف تقوم تثنيته مقام وصفه فأكد هنا لرفع الإبهام ، لأن حاصل المعنى هنا احمل ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات ، فالزوج هنا الواحد المزدوج بآخر من جنسه لا مجموع الذكر والأنثى ، وإلا لزم أن يحمل من كل صنفٍ أربعة أصناف [(١)] ، ولمَّا كانت كلمة (الزوج) مما يلتبس معناها على العامة فيطلقونها على المثنى مع أن المراد بها الصنف المفرد مما يوهم بأن الزوجين أربعة ، ولم يكن هذا معنى التنزيل فأكد باثنين لزيادة البيان ورفع ما يرد على الأذهان من هذا الإبهام ، وقراءة الإضافة وهي قراءة الجمهور أدت ما أدته قراءة التنوين من أصل المعنى ولكن لنا أن نحس من الوجهة البلاغية المحضة بأن التصريح بلفظ الصفة على قراءة التنوين كان أشد توكيداً وبياناً من الإضافة[(٢)] .

وعلى كلٍّ فالقراءتان قد تكاملتا في الأداء البياني للمعنى . فالمعنى فيهما اثنان من كل نوع فرد ذكر وفرد أنثى ، وحتى لا يحمل أكثر من زوجين اثنين في النوع الواحد فلا يحمل مثلاً أكثر من بقرة معها ثور واحد .

---

(١) ينظر : الكشاف ٣ / ١٧٩ . البحر المحيط ٥ / ١٦٤ . حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، على تفسير البيضاوي ، ط (١) ، بيروت - لبنان ، دار الكتب العلمية عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م (٥ / ١٦٢) . روح المعاني ٦ / ٢٥١ . التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص ٢٠١ .

(٢) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية د/ أحمد سعد محمد ، ط (٢) ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، ص ٣١٨ .

وقد لمح الشهاب الفرق بين القراءتين حيث يقول : « زوجين على الأول – (يعني قراءة حفص) بمعنى فردين ، وعلى الثاني بمعنى صنفين »[1] .

فهنا نجد التأكيد على الفردين في الأولى ، وفي الثانية على الصنف والنوع . بمعنى صنف واحد ذكر وصنف واحد أنثى من نوع واحد ، ثم ينتقل إلى نوع آخر من أنواع الحيوانات وهكذا .

فتكاملت القراءتان على هذا المعنى ووجد في كل قراءة ما يكمل المعنى في الأخرى والتأكيد باثنين فيه رفع للإبهام كما مرَّ بيان ذلك ، والموقف خطير والتعليمات محددة لنوح عليه السلام ، فالسفينة لها سعة محددة ، فالمراد من حمل هذه الأصناف من الحيوانات حفظ النسل وبقاء الحياة .

ولعل نوحاً عليه السلام قد حمل أجود ما وجد من الزوجين وأصلح وهذا ما يفهم من إطلاق اثنين دون تقييده بصفة معينة كأن يقول : اثنين صالحين ؛ ليشمل كل الصفات المطلوبة في الجودة ، فهو لن يحمل ذكراً فيه عيب أو مرض يؤثر على سلامة النسل فيما بعد .

وقدَّم حمل الحيوانات على الأهل وسائر المؤمنين لكونه عريقاً بالحمل المأمور به لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعض من بعض وتعيين الأزواج ، وأما البشر فإنما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل[2]

(١) ينظر : حاشية الشهاب ٥ / ١٦٤ .

(٢) ينظر : روح المعاني ٦ / ٢٣٥ .

وفيه دلالة على أن معظم حمولة السفينة كانت من الحيوانات وأفرد الأهل لمزيد العناية بهم[1] ، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ، قرأ « حفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف (مَجريها) بفتح الميم على أنه مصدر (جرى) الثلاثي وقرأ الباقون (مُجريها) بضم الميم ، على أنه مصدر (أجرى) الرباعي »[2] .

فنجد أن القراءتين قد تكاملتا في الدلالة على الجري والإجراء (فمجراها ومُرساها) بضم الميمين في قراءة الجمهور هما مصدرا أجرى السفينة إذا جعلها جارية أي سيّرها بسرعة وأرساها إذا جعلها راسية أي واقفة على الشاطئ ، يقال : أرسى إذا ثبت في المكان[3] ، وأما على قراءة حفص وحمزة والكسائي (مَجراها) بفتح الميم على أنه مَفعل للمصدر أو الزمان أو المكان[4]

فيكون المجرى والمرسى ظرفا مكانٍ أي مسمين موضع جريانها وبسم الله

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ط(٢) مصر ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٢٤ م ، (٢ / ٤٩٩) .

(٢) النشر في القراءات العشر ٣ / ١١٤ . الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٥٢٨ . المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر للإمام ابن الجزري ، تأليف د. محمد سالم محيسن ، ط(١) ، القاهرة ، المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠٠٢ م ، (١ / ٣٦٧) . المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ، د. محمد سالم محيسن ، ط(٣) ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، (٢ / ٢٤٥) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٧٣ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه ١٢ / ٧٤ .

حال من الواو في (اركبوا) ويجوز أن يكون زماناً أي وقت جريانها [1] . أي اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها أو مكانهما على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر[2] .

فقراءة الضم دلت على حركة السفينة وسرعتها وإجراء الله تعالى لها بحفظه فمُجراها من أجرى السفينة إذا جعلها جارية أي سيرها بسرعة وقراءة الفتح المجرى دلت على المكان والزمان .

وهنا تظهر العناية الإلهية بهذه السفينة في حركتها وفي المكان الذي تجري فيه ومنذ أول لحظة تحركت إلى أن وقفت واستوت على الجودي وهي في حفظ الله وباسمه ، ومعنى القراءتين يؤكد حفظ هذه السفينة في كل أحوالها والموقف هنا موقف خوف وهلع يتطلب من نوح عليه السلام أن يخبرهم بأن جريَ هذه السفينة ورسوها باسم الله تعالى وتحت حفظه ورعايته وهو أمر متحقق .

يقول الألوسي رحمه الله : أخبرهم بأن إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى أو بأن إجراءَها وإرساءَها باسمه تعالى متحققان لا يشك فيهما .

(وفي ذلك حث على الركوب وإزالة لما عسى أن يختلج في قلوبهم من خوف الغرق ونحوه)[3] .

---

(١) ينظر : التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص ٢٠١ .

(٢) ينظر : تفسير الطبري ١٢ / ٥٤ . البحر المحيط ٥ / ٢٩٣ . حاشية الشهاب ٥ / ١٦٥ . تفسير أبي السعود ٣ / ٣٣ . روح المعاني ٦ / ٢٥٥ .

(٣) روح المعاني ٦ / ٢٥٥ .

فموقف الخوف في النفوس والهم المحيط بهم في كيفية سوق هذه السفينة وتوجيهها وليس لديهم معرفة بها أو إلى أين ستتجه وتقف بهم كان الجواب على هذه التساؤلات في قول نوح (اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) تحدد لهم أن المُجرى لها والموجه هو الله وبأمره تجرى وبأمره ترسو ، في القراءة بالضم (المُجرى) وقراءة الفتح (مَجريها) تدل على الحفظ في المكان الذي تجري فيه وحفظ السفينة في مكان جريانها يدل على سهولة عبورها بدون اضطراب شديد أو ارتجاج يخيفهم فهي محفوظة بمن فيها ، ولمَّا صوَّر الله لنا خطورة (المجرى) في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ أدركنا ما تعنيه جملة (باسم الله مَجريها) بالفتح من قبل حيث بينت قراءة الفتح أمن هذه السفينة في المكان الذي تجري فيه والزمن فهي تسير برخاء وسلام مدة ووقت جريانها حتى استوت على الجودي .

وعند النظر في قوله تعالى : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ نجد أنها جملة مستقلة وقوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ جملة مستقلة من مبتدأ متأخر وخبر مقدم وتقديم الخبر فيه تعجيل للمسرة . والسكون عند الجملة الأولى ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ يصوِّر لنا ترددهم وخوفهم لأنهم مقبلون على شيء لم يعهدوه من قبل وأمر فيه خطورة وكأنهم خافوا الرُكوب حتى قال لهم باسم الله مجريها ومرساها فاطمأنوا وركبوا – والله أعلم .

« وأما المُرسى فإنه لم يجر مرسيها بالفتح وإن قريء مجريها بالفتح لأنه يقال :

جرَتْ السفينة مجرى وأرساها الملاح مُرسى ، لأنها إذا أخذت في الجري لا ترسو بنفسها »[1] .

وفي ذلك دفع للبس لئلا يلتبس باسم المَرسى الذي هو المكان المعد لرسوِّ السفن[2] .

كذلك تلاحظ الإمالة في (مجراها) دون (المرسى) والإمالة في (مجراها) فيها مناسبة لجوها السياقي فالأمر بركوب السفينة هنا متجه إلى هؤلاء المؤمنين من أتباع نوح عليه السلام – وقد أُمروا بركوب تلك السفينة الغريبة العجيبة التي لا عهد لهم بها من قبل ، فطمأنهم الله تعالى إلى أن هذه السفينة سوف تجري بمشيئته وبركته (بسم الله) وأن جريها سوف يكون سهلاً رخاء بلا معاناة ولا مشقة ، ومن ثم جاءت الإمالة في مجراها لتعبر عن حركة تلك السفينة حيث تشق عباب الطوفان في يسر وسهولة ورخاء .

وحينما أراد الله تعالى أن يطمئنهم لرسوها ، جاء بلفظ (مرساها) بلا إمالة ليعبر عن حال رسو السفينة وما يناسبه من الثبات والاستقرار مما لا يتلاءم مع صفة الإمالة الواردة في مجراها[3] .

---

(١) وضح البرهان في مشكلات القرآن للعلامة محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي ، تحقيق صفوان عدنان ، ط (١) ، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، (١ / ٤٣٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ٧٤) .

(٣) ينظر : جهود ابن جني في الكشف عن الدلالة الفنية للأصوات د/ عبد الحميد هنداوي في مقدمة تحقيقه لكتاب الخصائص لابن جني ، ط (٢) بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م (١ / ٤٩) .

وقال تعالى في ختام الآية ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يقل في الختام (عزيز ، أو قدير) ، أو نحو ذلك مما يتناسب مع القوة والغضب الإلهي على القوم الظالمين[1] ، والمناسبة هنا دقيقة ؛ وذلك لأن الله تعالى لما أراهم سطوته وعذابه الأليم في إغراق المكذبين كأن الفزع والخوف اشتد عليهم لما رأوا العذاب فجاءت الفاصلة تؤكد أنَّ الله مع سطوته فهو غفور رحيم بعباده ، وأن هؤلاء القوم الذين استمروا على غيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً لو عادوا إلى ربهم لغفر لهم ورحمهم فمن هنا نجد أن الآية تبعث في النفوس الاطمئنان والتعلق برحمة الله وحسن الظن به ما دام العبد في رجوع وإنابة إليه .

وقال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود ، الآية ٤٢] .

والجري : هو المرُّ السريع وقد استعمل القرآن كلمة (تجري) ومشتقاتها مع السفينة إحدى عشرة مرة ، واستعمل كلمة (تجري) للأنهار كقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الآية : ٤٣] .

---

(١) يقول ابن عطية : « فيه تنبيه لهم على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإنابتهم » المحرر الوجيز (٣ / ١٧٣) .

« وفي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز أن الله وعده بنجاتهم وذلك من غفرانه ورحمته وأكد بـ(إنَّ) ولام الابتداء تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق » التحرير والتنوير (١٢ / ٧٤) .

ويقول ابن كثير : « وهذا الختام في الآية (إنَّ ربي لغفور رحيم) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم » تفسير ابن كثير (٧ / ٤٣٩) .

ولهذا كانت مادة (جرى) ومشتقاتها أنسب الصيغ الممكنة للتعبير عن حركة السفينة في البحر لأنها تلاءمت مع استخدام هذه المادة مع الأنهار فناسبت الكلمة التي استخدمت مع حركة الماء الكلمة التي استخدمت مع الآلة التي تتحرك في الماء ، فهي أكثر التصاقاً بمجالها من : تتحرك أو تسير أو تمشي .

وقال تعالى : ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ ولم يقل : (في أمواج) . لأن الموج أضخم من جرس كلمة (أمواج) إن هذا الموقف الرهيب يناسبه ضخامة الجرس المضغوط ولم يقل موجات لأن جمع المؤنث السالم يعني القلة غالباً[1]

والذي استظهره هنا أنَّ اتحاد ماء السماء بماء الأرض والتحامه به كوَّن موجاً واحداً مندفعاً في عتو شديد في طريق واحد ليهلك قوم نوح علت منه الأمواج وهذا أدعى للقوة وأعظم في الاندفاع ، فالأمواج مندفعة في اتجاه واحد ، ولعل هذا هو السر في إفراد الموج هنا فكان بعكس تلك الأمواج التي تتفرع يمنة ويسرة فمنها القوي ومنها الضعيف قد انبثت في اتجاهات مختلفة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ﴾ كلمة (المعزل) في اللغة تعني : التنحية والإمالة تقول : عزل الإنسان الشيء يعزله إذا نحّاه في جانب وهو بمعزل وفي معزلٍ عن أصحابه ، أي في ناحية عنهم والعزلة : الاعتزال[2] .

---

(١) ينظر بتصرف الإعجاز اللغوي : ص (١٢٠ - ١٢٢) .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (عزل) ٤ / ٣٠٧ .

يقول الزمخشري : المعزل : مفعل ، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده يعني وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين ، وقيل : كان في معزل عن دين أبيه[1] .

يقول ابن عطية : (في معزل) أي في ناحية ، فيمكن أن يريد في معزل في الدين ، ويمكن أن يريد في معزل في بعده عن السفينة ، واللفظ يعمهما[2]

فهو في معزل من حيث المكان فربما أنَّ الطوفان قد عزله في مكان لا يبعد كثيراً عن السفينة وعزله عن قومه المعرضين ، فناداه نوح عليه السلام ظناً منه أنه قد اعتزل القوم وجاء إليه فأبى لأنه قد عزل نفسه عن الهدى وأظهر ما كان يبطنه بإعراضه عن ركوب السفينة مع المؤمنين .

« والمنعزل ضعيف لانفراده لأنَّ يد الله مع الجماعة ، والانعزال مرض يدل على خور الشخصية وشذوذها ، ولو لم يكن هذا الشاب كذلك لآمن» لأبيه[3]

واستعملت ياء النداء التي للبعيد لمناسبتها للموقف الخطير الذي يحتاج إلى مزيد تنبيه ولكون الابن قد ابتعد عن أبيه فهو في معزل في ناحية عنه وقد ازداد بعداً لما أصرَّ في نفسه على الكفر ولذا قال الله تعالى لنوح ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ ونوح عليه السلام لم يكن يعلم بكفر ابنه لأن ابنه كان يبطن

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣ / ١٧٤ .

(٣) الإعجاز اللغوي ، ص ١٢٤ .

الكفر ولا يظهره لما لمقام الأبوة من منزلة في نفسه ، والدليل على ذلك ما يتضح في قول نوح عليه السلام ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولم يقل له : ولا تكن من الكافرين . فدل على أن نوحاً لم يكن يعلم أن ابنه قد كان كافراً ، لأنه لو كان يعلم ذلك لكان المناسب أن يقول له (ولا تكن من الكافرين)[1] .

وفي قوله (يا بنيَّ) قرأ (حفص) يا بنيَّ بفتح الياء وشعبة . وقرأ الباقون بكسر الياء[2] .

فأمَّا توجيه قراءة الكسر فكلمة (بنيّ) صيغة التصغير ، وكلمة (بَنَوٌ) صيغة التكبير[3] .

---

(١) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ص ١٢١ .

(٢) انظر : النشر في القراءات العشر (٣ / ١١٥) . الكشف عن وجوه القراءات العشر (١ / ٥٢٩) .

(٣) من الواضح أن لام الكلمة في المكبر محذوفة ، ولكنها تُرد عند التصغير ، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، ويمكن لنا أن نتصور مراحل بناء الكلمة استناداً إلى القوانين الصرفية على هذا النحو :
١ - صغرت كلمة (بَنَوٌ) = فُعَيل . ٢ - أضيفت بعد التصغير إلى ياء المتكلم فصارت (بُنَيْوي) ٣ - اجتمعت الياء والواو والسابق منهما ساكن فقلبت الواو ياء (بُنَيْيي)
٤ - أصبحنا أمام ثلاث ياءات : ياء التصغير + لام الكلمة + ياء الإضافة ٥ - حوَّل القرآن العظيم العسر في هذه الكلمة إلى يسر حتى يصير تأليفها متلائماً من الطبقة العليا ، فأدغمت الياء الأولى في الثانية يا بنيِّ ٦ - حذفت الياء الثالثة وهي ياء الإضافة ، لدلالة الكسرة عليها وقرأ حفص (بُنَيّ) وكل ما قيل هنالك ، يقال هنا مع فارق أساس ، وهو الإبدال ، فقد أبدلت الكسرة الطويلة فتحة طويلة تخفيفاً ، ثم استغني عن الكل بالبعض ، وهو الفتحة القصيرة ، فحذفت الألف لدلالة الفتحة عليها ، ينظر : التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم ، د/ صبري المتولي ، (ط) القاهرة ، دار غريب للطباعة والنشر ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م ، ص ٢٥٣ .

وتصغير ابن هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة ، واطرد التصغير في نداء الأب لابنه للدلالة على الشفقة والتحبب فقد قال تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام في سورة يوسف ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ﴾ [الآية : ٥] ، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

وقال (اركب معنا) فأطلق الركوب دون ذكر الفلك لتعينها وللإيذان بضيق المقام[١] . وفي رد الابن بقوله ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ ما يشير إلى عدم تصديقه بخطر الطوفان ظناً منه أنه كالسيول المعتادة التي يُحتمى من مائها بالأماكن المرتفعة بدليل تسميته للطوفان (بالماء) .

وكانت كلمة (سآوي) مناسبة لما يجول في نفسه والمأوى مصدر أوى يأوي أُويّاً ومأوىً ، تقول أوى إلى كذا انضمَّ إليه وآواه غيره يُؤْويه إيواءً [٢] . فهو يريد أن يحتمي ويمتنع بالجبل من الغرق ، وفي استخدام السين [٣] والمد في كلمة

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٥ .

(٢) المفردات للراغب ، كتاب الألف ، مادة (أوى) ، ص ٣٤ .

(٣) السين فيها معنى التأكيد فهو متأكد بأنه سيتمكن من المأوى ينظر في دلالة السين على التأكيد أحوال الإسناد الخبري في مبحث التأكيد ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدين السبكي ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، ط (١) ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر (١ / ١٣٠) .

(سآوي) بيان للتراخي في نفسه والأمل الذي قد غمره بأنه ما زال في الوقت فسحة تكفي للوصول إلى الجبل ظناً منه أن هذا الماء كسائر المياه التي تأتي بها السيول المعتادة فيتفصّى منها بالهرب إلى الجبال ، وقال (يعصمني) لأن فيه توكيداً للسلامة التي يتوهمها ويتوهم بأنه لن يجد من العقبات شيئاً يعيقه ولذلك لم يقل (ينجيني) لشدة تأكده من سهولة ، الأمر وكل هذا ينبيء بما امتلأ في قلبه من عتو النفس الكافرة المكذبة مع ما كان يحيط بالموقف من موج يرتفع إلى الجبال، ولم يكن بينه وبين الإغراق إلا يسير من الوقت ، وفرصة النجاة تستحيل في الواقع فالأمواج تحيط به من كل مكان ، فأين المهرب والمنجى ؟ فلذلك جاء رد نوح على ابنه ينفي ما في نفسه من التعلق بالظواهر الطبيعية وأنها لا تنفع ولا تغني من أمر الله فقال ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ [1] إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ يقول أبو السعود« سلك طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع أفراد العاصم ذاتاً وصفة كما في قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أي أحد من الناس للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين ، وزاد (اليوم) للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية ، وعبَّر عن الماء في محل إضماره بأمر الله أي عذابه تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماء ، وتعليلاً للنفي ، فإن أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيداً لحصر العصمة في جناب الله»[2] .

(١) سيأتي مزيد تفصيل في الأبواب القادمة حول الاستثناء في الآية وما ورد فيه من أقوال .

(٢) تفسير أبي السعود (٣ / ٣٥) .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ ﴾ كلمة (حال)[1] أبلغ من لو قيل فحجز بينهما الموج لأن حال : تصور سرعة الموج الخاطف المداهم المانع الحائل من بلوغ ما كان يؤمل فيه ويبتغى فكأن هذا الموج كان ينتظر انتهاء المحاورة ليفصل بين نوح وابنه ، وقال تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ دون أن يقول (صار) مبالغة في كونه من المغرقين الكافرين ، وأنه قد قضي أمره وأمرهم ، يقول أبو السعود : (فيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه)[2] فهو لم يغرق وحده بل كان أحد الأعداد الهائلة المغرقة من قومه الكافرين وقال تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٤] .

وأول ما يلفت النظر في هذه الآية الكريمة بناء الأفعال للمفعول المتناسب مع البناء في قوله تعالى من قبل ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ . يقول الزمخشري : « ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأنّ فاعلها واحد لا يشارك في أفعاله[3]

(١) حال الشيء يحول حؤولاً واستحال تهيأ لأن يحول ، وباعتبار الانفصال قيل حال بيني وبينك كذا ، المفردات للراغب ، كتاب الحاء ص (١٣٧) .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٦ .

(٣) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨٣ .

ويقول ابن عطية « بناء الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت ، وكذلك بناء الأفعال بعد ذلك في سائر الآية ، وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : هذا كلام القادرين »(١) .

ويقول ابن القيم : « إن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن ، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ، ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنيَ الفعل معها للمفعول »(٢) والأفضل أن يقال يأتي هذا غالباً في القرآن دون تعميم (٣) ، ويرى الطاهر بن عاشور : أن بناء فعل (قيل) للمفعول اختصار لظهور فاعل القول ، لأن مثله لا يصدر إلا من الله ، والقول هنا أمر تكوين(٤) ولم يذكر بأن دلالة الحذف في هذا الموضع تدل على الجلال والكبرياء ، وقد يقال عدم ذكره لهذا أصوب ، لأن ذكر لفظ الجلالة يكون أكثر بياناً وإفادة لتلك المعاني المفهومة منه كالجلال والكبرياء والعظمة والعز

---

(١) المحرر الوجيز ٣ / ١٧٥ .

(٢) بدائع الفوائد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية تحقيق بشير محمد عيون ، ط (١) ، دمشق ، مكتبة دار البيان ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م ، (١ / ٢٥٩) .

(٣) لأن هذه القاعدة لا تنطبق على آيات كثيرة وردت مخالفة لها مثال ذلك ما جاء في قوله تعالى في العقوبات ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر ، الآية ٢٦] فهنا لم يأت الفعل مبنياً للمفعول بل كان إظهار الفاعل ولفظ الجلالة في هذا السياق أولى لما يظهر من رهبة وهول عظيم .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٢ / ٧٨) .

والمنعة والقوة والجبروت والألوهية من بناء الفعل للمفعول[1] ولكن الذي يظهر لي أن قول الزمخشري – رحمه الله – فيه صواب كبير ؛ لأن السياق في الآيات هنا يبين سهولة هذه الأمور وحقارتها في قدرة الله ؛ ولذلك لم يذكر لفظ الجلالة لامداد التهاون بها والله أعلم .

فالبناء للمفعول هنا يبين سهولة انقياد هذه المخلوقات لخالقها ، وفيه إيجاز وصرف للذهن إلى الحدث نفسه .

وفيه توافق مع المشهد السريع المتلاحق وكأنه تمَّ في لحظة واحدة إنّه « تصوير لمعنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله بل القابض عليه كله ، تتصرف به كما تشاء وليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير ؛ ألا ترى كيف علقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف على كلمة صغيرة هي (وقيل) لتصوِّر لك سهولة الأمر ، وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها »[2] ، ولمَّا كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون ، أو يروا قائله ، بني الفعل للمفعول[3] .

---

(١) خصائص بناء الجملة القرآنية في كتاب التحرير والتنوير إعداد : إبراهيم الجعيد ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، ص ٢٩٦ .

سيأتي مزيد تفصيل في باب الصورة .

(٢) ينظر : من روائع القرآن د/ محمد سعيد رمضان البوطي ، ط (١) ، دمشق ، مكتبة الفارابي : ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م ، ص ٣٠٩ .

(٣) ينظر : من بلاغة القرآن ، د/ أحمد أحمد بدوي ، ط ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٣٧٠ هـ – ١٩٥٠ م ، ص ٥٥ .

وقال تعالى : ﴿ ٱبۡلَعِي ﴾ ولم يقل : (جففي ماءك) .

لأن التجفيف لا يكون إلا بعد أن ينتهي الماء من على وجه الأرض ، وأما ما دام الماء موجوداً فالبلع هو الأولى .

والبلع في اللغة يعني ازدراد الشيء تقول : بلعتُ الشيء أبلعُه والبالوع من هذا لأنه يبلع الماء[1] .

والبلوع : الشراب وبلع الطعام وابتلعه : لم يمضغه ورجل بُلَعٌ ومبلعٌ وبلعه إذا كان كثير الأكل .

فالبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم ، وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة ، ومعنى : بلع الأرض ماءَها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع[2] .

وقال (ابلعي) دون (امتصي) لأن الامتصاص لا يدل على الإسراع في التشرب وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر[3] .

إنّ كلمة (البلع) هنا تصور عظمة الاقتدار في مقابل ما صوره قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ حيث انقلبت مسام الأرض

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (بلع) ٣/١ . لسان العرب ، مادة (بلع) ٢/١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ٧٥ .

(٣) من بلاغة القرآن ، د/ أحمد أحمد بدوي / ص ٥٥ .

وشقوقها إلى أفواه شرهة تبتلع المياه ابتلاعاً تنفذ أمر خالقها وموجدها في سرعة هائلة .

وقال (ماءَك) بالإفراد دون الجمع ، لمّا كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل : ابلعي ، بدون المفعول ، أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال ، والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذي هو مقام عظمة وكبرياء[1] وعبَّر عن الماء بالماء هنا بعدما عبّر عنه فيما سلف بأمر [2] الله تعالى لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل[3] .

وقال تعالى ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ الإقلاع عن الشيء تركه : والمعنى أقلعي عن الإمطار[4] ومن معاني الإقلاع : الكف والمسك وهنا لم يقل (أمسكي) أو (كفي) لأن الإقلاع فيه توقف بسرعة عن الإمطار بالكلية وحجب لأي قطرة

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، علق عليه نعيم زرزور، ط(٢) ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م (ص ٤١٩) .
وينظر : روح المعاني للألوسي ٦ / ٢٦٣ .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [الآية : ٤٠] .

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود (٣ / ٣٦) . المحرر الوجيز (٣ / ١٧٥) .

(٤) ينظر : الكشاف (٢ / ٣٨٢) . المحرر الوجيز (٣ / ١٧٥) . تفسير ابن كثير (٧ / ٤٤٠) . تفسير أبي السعود (٣ / ٣٦) . معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (غيض) (٤) .

من أن تسقط على الأرض والإمساك ، و(الكف) فيه منع ولكنه قد يكون فيه رشات من المطر خفيفة بعد أن تمسك السماء مطرها الغزير أو تكفه فهنا نجد أن كلمة الإقلاع لا يقوم مقامها ما يقارب معناها مثل الكف والمنع والمسك .

لأنك لن تجدها تدل على انقشاع [1] الغيوم وانجلاء السماء مثل دلالة أقلعي على ذلك . وقال تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ يقول أهل التأويل (غيض) معناه نقص وكذلك عند أهل اللغة[2] وهذا المعنى غير كامل في دلالة الكلمة فهي تدل أيضاً على معانٍ أُخر منها أنه غار فذهب وفي حديث سَطيح : وغاضت بحيرة ساوَةَ أي غارَ ماؤها وذهَب والمغيض : المكان الذي يغيض فيه الماء وغِيضَ الماءُ فُعِلَ به ذلك[3] .

فمن المعاني التي أُغفلت : أن (غيض) تعني ذهاب الماء في باطن الأرض وفي أغوارها البعيدة وبهذا لا نجد تكراراً بينها وبين كلمة (البلع) في المعنى ؛ لأنه لولا أن الماء غاض وغار في باطن الأرض البعيد لما استوعبت الأرض ذلك الماء كله والذي جاء عن طريق البلع ، فبلع وغاض تدلان على أن الأرض متسعة لهذا الماء اتساعاً يستوعب كل المياه التي نزلت من السماء وفارت من الأرض فالابتلاع مستمر والماء بعد البلع يغيض ويتسرب إلى باطن الأرض والله تعالى أعلم .

---

(١) ثم إنها تصوِّر شدة الأمر فالإقلاع يواجه قوة الماء المنهمر المندفع والقوة تواجه القوة .

(٢) ينظر : الكشاف (٢ / ٣٨٢) . المحرر الوجيز (٣ / ١٧٥) . تفسير ابن كثير (٧ / ٤٤٠) . تفسير أبي السعود (٣ / ٣٦) . معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (غيض) (٤٠٥) .

(٣) ينظر : لسان العرب ، مادة (غيض) (٧ / ٢٠١) .

والذي يدل على عدم التكرار في المعنى بين (ابلعي) - و(غيض) . أن غيوض الماء كان كالنتيجة للإقلاع والابتلاع أو المحصلة فبعد أن أقلعت السماء وبلعت الأرض ماءَها غاض الماء أي ذهب وغار في باطن الأرض يقول ابن أبي الإصبع « فإن غيض الماء يصير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاض الماء »[1] .

ونجد في تفسير كلمة (غيض) بمعنى نقص عند أهل التفسير وأهل اللغة ما لا يتناسب مع معاني العظمة والاقتدار في إذهاب الماء بسرعة عاجلة إلى باطن الأرض لأن كلمة النقص تدل على معنى البطء فالماء ينقص شيئاً فشيئاً ، وسياق الآيات الكريمة يصوِّر عظمة الاقتدار وسرعة الاستجابة فكان ما يناسب هنا أن غيض تدل على سرعة غيوض الماء وذهابه إلى باطن الأرض والله تعالى أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ ﴾ يعني الفلك ، استوت على الجودي ، وهو جبل فيما ذكر بناحية الموصل أو الجزيرة ، واستوت تمكنت واستقرت[2] ولم يقل تعالى : (ورست على[3] الجودي) ؟

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق حفني محمد شرف ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ص ٨٢ .

(٢) ينظر : تفسير الطبري (١٢ / ٥٧) . المحرر الوجيز (٣ / ١٧٦) . البصائر (٢ / ١٠٦) .

(٣) لما في كلمة الاستواء من الدلالة على الثبات المستقر .

ولفظة (رست) أو (ترسو) مستخدمة كثيراً مع السفن عندما تتوقف إلى جانب الميناء السبب في ذلك أن كلمة (رسا) ومشتقاتها إنما تستعمل مع توقف السفينة على الماء على جانب الميناء ؛ لأن الماء ضحل في محاذاة الميناء ، بحيث يسهل أن تُلقي مراسيها على أرض البحر ، أمَّا وماءُ الطوفان قد انحسر عن القيعان فذلك يعني أَنه انحسر عن الجبال من باب أولى . فلم يعد وقوف السفينة على قنة الجبل ولا ماء رسواً ، وإنما أصبح (استواءً) ثم في الاستواء معنى آخر ، وهو الاعتدال التام فليس أحد جانبيها مائلاً ، وليست مقدمتها أو مؤخرتها مائلة(1)

واستعمل النظم القرآني (استوت) بدلاً من (استقرت) لأن الاستواء فيه معنى التمكن من الثبات وعدم الحركة ، والاستقرار قد يكون على شيء غير قادر على حمل السفينة وقتاً طويلاً ويوشك أن يهوي بها بعد وقت قصير ، فالاستواء يعني أن السفينة بكل ثقلها وحمولتها استقرت على جبل متين قادر على حملها .

وقال تعالى ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولم يقل تعالى : (وقيل بعداً لقوم نوح) لقد ترك النظم الحكيم هنا إضافتهم إلى نوح عليه السلام لأنه لم يعد له علاقة بهم ولا يستحقون أن ينسبوا إليه بعد أن كذبوا وحقت عليهم كلمة العذاب وحل عليهم غضب الله وقد كانوا من قبل يضافون إليه في بداية دعوته إليهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود ، الآية : ٢٥] لأنه كان يرجى منهم التصديق والإيمان .

---

(١) الإعجاز اللغوي ص ١٤٢ .

والبعد كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء فلذلك يقال بعد أو نحوه لمن فقد إذا كان مكروهاً[1] .

وهو دعاء بالهلاك غير مقيد بزمن ولا بفاعل .

ولقد لمس الأثر النفسي في دلالة هذه العبارة الدكتور أحمد بدوي وسيأتي مزيد تفصيل لذلك في الحديث عن وجه بناء الصورة[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ قال ونادى نوح ولم يقل ونادانا نوح ليشعرك من بادئ الأمر إلى أن ما دعا به نوح مما لا يجاب إليه مهما أفرط في دعائه وبالغ في شكواه ومن ثم حكى الله النداء بعنوان الربوبية ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾[3] فنداؤه ربه هو نداء توسل وضراعة .

وقال نوح ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ بالتأكيد ولم يقل (ابني من أهلي) فالخبر هنا مستعمل في الاعتذار والتمهيد ؛ لأنه يريد أن يسأل سؤالاً لا يدري قبوله ولكنه أقحمه لأن المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه وتأكيد الخبر بـ(إنَّ) للاهتمام به[4] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٧٩) .

(٢) في الباب الثاني من أبواب الرسالة .

(٣) ينظر من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء ، ثم) ، د/ محمد الأمين الخضري ، ط(١) ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، (ص ٤٦) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٢ / ٨٤) .

وطلب نوح عليه السلام هنا في قوله ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ طلب العبد الصابر فهو لم يتقدم بسؤال يسأل فيه ربه وإنما توسل إلى ربه بصيغة الخبر فقال﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ فكان ابتعاده عن إظهار السؤال خشية الجرأة والتسرع .

ولما وعده الله تعالى في قوله﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ تذكر هذا الوعد وتذكر بأنّ ابنه من أهله فكأنه نسي قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ فحنان الأبوة وظنه أن ابنه لم يكن بعد من أهل الكفر جعله يؤكد الخبر في نفسه هو عليه السلام حتى يرفعه إلى ربه ولديه شيء يطمئن به عند الطلب .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة هود ، الآية ٤٦ - ٤٧] .

ذكر تعالى هنا (قال) وكان بالإمكان أن يقال (يا نوح إنه ليس من أهلك) بدون (قال) لأنها جاءت بعد أن غاض الماء وانتهى الطوفان فصح أن ترد (قال) في هذا الوقت المتسع ، وفي ذلك التفات من المولى الرحيم لنبيه يخاطبه في شأن ابنه لتصحيح ما خالج نفسه في هذا الشأن ولا يخفى ما في هذا الالتفات من اهتمام به عليه السلام .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ قرأ (الكسائي ، ويعقوب)

(عَمِلَ) بكسر الميم وفتح اللام[1] ، وقرأ الباقون (عَمَلٌ) بفتح الميم ورفع اللام منونة ، خبر (إنَّ) و(غيرُ) بالرفع صفة على معنى : إنه ذو عمل غير صالح ، أو جعل ذاته ذات العمل مبالغة في الذم ، على حد قولهم « رجل شرٍ »[2] .

فعلى هذه القراءة الثانية قراءة فتح الميم ورفع اللام منونة أصله إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة ، وجعل نفسه ذات العمل مبالغة في الذم كما قالت الخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت ... فإنما هـي إقبـال وإدبـار

أي ذات[3] إقبال وإدبار[4] .

على أن الضمير في إنه عائد على ابن نوح لا على النداء المفهوم من قوله : ونادى المتضمن سؤال ربه .

فحذف المضاف على هذه القراءة فيه نكتة المبالغة المفهومة من جعل ابن نوح هو العمل الفاسد نفسه، ولا يقدر المضاف لأنه يفوت المبالغة المقصود منه[5].

---

(١) (عَمِلَ) فعل ماضٍ والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (ابن نوح) و(غيرَ) بالنصب مفعول به (لعمل) أو صفة لمصدر محذوف والتقدير : إنّ ابنك عمل عملاً غير صالح ، وجملة (عمل غير صالح) في محل رفع خبر (إنَّ) . وبه قرأ الأخفش . ينظر : معاني القرآن للأخفش سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي ، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد ، ط(١) (عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م) (ص ٤٨٧) .

(٢) انظر : النشر في القراءات العشر ٣ / ١١٥ . الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٥٣٠ .

(٣) أسندتها إلى المصدر إقبال وإدبار وإنما أرادت أنها مقبلة مدبرة فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية والشيخ عبد القاهر الجرجاني يرى أن تقدير المحذوف يفسد المعنى . ينظر : دلائل الإعجاز ٣٠٢ص

(٤) ينظر الكشاف ٢ / ٣٧٣ . المحرر الوجيز ٣ / ١٧٧ .

(٥) البحر المحيط (٥ / ٢٩٩) . حاشية الشهاب (٥ / ١٧٤) .

وأمّا على قراءة الكسائي ﴿ إنَّه عَمِلَ غير صالح ﴾ فإنها تتعلق بأولى مراحل الحدث ، وتشير إلى بداية العصيان والعمل غير صالح وتشعر بأنه كانت هناك فرصة للعودة والتوبة ، فلما تمادى وازداد في عصيانه أشارت القراءة الثانية إلى هذا التمادي في العصيان بالتعبير عنه بأنه غير صالح أي صار كله عملاً غير صالح فلا فائدة تُرجى منه[1] .

يقول أبو حيان في قراءة حفص وكون الضمير في أنه عائدٌ على غير ابن نوح عليه السلام تكلف وتعسف لا يليق بالقرآن[2] هذا وقد ثبت عن ابن عباس أن الضمير في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ عائد على السؤال وأن المراد سؤالك عما ليس لك به علم .

أي سؤالك إياي أن أنجّيَ ابنك عمل غير صالح فيكون عود الضمير إلى سؤال نوح[3] .

وفي عود الضمير على السؤال لانعدم أن نجد وجهاً بيانياً ، وهو أن هذا التغيير عدم مواجهة بالسوء ، ففرق بين أن تقول لإنسان : (إن عملك فاسد) وأن تقول : (إن عملك غير صالح) ويؤيد هذا أنه سبحانه قال إنَّه عَمَلٌ ، ولم يقل إنك عملت ، وفي هذا الوجه لطف في الخطاب ولم يقل تعالى : إنه عمل فاسد ،

---

(١) ينظر (بتصرف يسير) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية د/ أحمد سعد محمد ، ص ٤١٤ .

(٢) البحر المحيط (٥ / ٢٩٩) .

(٣) تفسير الطبري (١٢ / ٦٤) .

(وقال إنه عمل غير صالح لأن في ذلك إيذاناً بأنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم ، لا لأنهم أهله وأقاربه)[١] .

وكلمة فاسد لم ترد في القرآن كله ولكن وردت فيه صيغ أخرى من الفعل (فسَدَ) مثل (فَسَد ، وأفسد ، ولتفسدن ، ولا تفسدوا ، الفساد ، إفساد ، المفسد ، المفسدون) .

وعبارة (غير صالح) : أخف وقعاً من كلمة فاسد[٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ ﴾ القراء فيها على سبعة أوجه :

الأولى : لقالون ، والأصبهاني ، وابن ذكوان (تسألَنِّ) بكسر النون مشددة وحذف الياء في الحالين ، وفتح اللام .

الثانية : للأزرق وأبي جعفر (تسأَلَنِّى) بكسر النون مشددة وإثبات الياء وصلاً ، لا وقفاً ، مع فتح اللام .

الثالثة : لابن كثير (تسألَنَّ) بفتح النون مشددة ، وحذف الياء في الحالين مع فتح اللام .

الرابعة : لأبي عمرو (تسألْنِ) بكسر النون مخففة ، وإثبات الياء وصلاً ، لا وقفاً مع إسكان اللام .

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢ / ٣٨٤) .

(٢) ينظر : الإعجاز اللغوي ص ١٥٣ .

الخامسة : ليعقوب (تسْأَلْني) بكسر النون مخففة ، وإثبات الياء في الحالين ، مع إسكان اللام .

السادسة : لهشام (تسألَنَّ ، تسأَلَنِّ) بفتح اللام ، وتشديد النون مع فتحها وكسرها .

السابعة : للباقين (تسألْنْ) بكسر النون مخففة ، وحذف الياء في الحالين مع إسكان اللام[1] .

ووجه من قرأ بتشديد النون ، وفتحها ، وفتح اللام ، أن النون هي نون التوكيد الثقيلة التي تلحق فعل الأمر للتأكيد ، وفتحت اللام التي قبلها لئلا يلتقي ساكنان ولأن الفعل المسند إلى الواحد مبني على الفتح دائماً مع النون الثقيلة والخفيفة ، وعدي الفعل إلى مفعول واحد وهو (ما) وكذلك العلة لمن قرأ بتشديد النون ، وكسرها مع فتح اللام غير أنه عدّى الفعل إلى مفعولين وهما : (الياء) و(ما) فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها .

وكان أصله ثلاث نونات : نون التوكيد المشددة بنونين ، ونون الوقاية ، ثم حذفت نون الوقاية لاجتماع الأمثال تخفيفاً .

ووجه من أسكن اللام وخفف النون ، أن الفعل لم تدخله نون التوكيد ووصل الفعل بضمير المتكلم ، وهو المفعول الأول ، و(ما) المفعول الثاني ،

---

(١) انظر : النشر في القراءات العشر ٣ / ١١٦ . الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٥٣٢ . البحر المحيط ٥ / ٢٩٩ .

وأسكن اللام للنهي ، وحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها ، والفعل على هذه القراءة معرب ، وجزم للنهي . ووجه حذف الياء أنها لغة (هذيل) ووجه إثباتها أنها لغة الحجازيين[1] .

ولتوجيه قراءة الحذف للياء وإسكان اللام (فلا تسألنِ) في قراءة الجمهور التحذير من السؤال هنا شديد والحذف يشير إلى النهي عن أصل الحدث ، ولعل المعنى في هذه القراءة قراءة الحذف للياء النهي عن السؤال في ابنه فقط ، وقد عدي الفعل مع الحذف إلى مفعول واحد .

ومن قرأ بتشديد النون وإثبات الياء ففي التشديد تأكيد وقطع للتردد ونهي عن الإلحاح أو العودة إلى السؤال مرة أخرى ، والنهي هنا عن أن يسأل نوح في ابنه أو أي شيءٍ آخر مما لا علم له به في المستقبل ، وهنا عُدِّي الفعل إلى مفعولين - والله أعلم .

والنهي هنا نهي موعظة وإرشاد لا نهي تأنيب وتوبيخ وعبارة « إني أعِظك أنْ تكون من الجاهلين » (فيها توجيه لنوح ، غير أنها أخفُّ وقعاً من عبارة : (إني أعظك أن تكون جاهلاً) لأن الجهل في هذه العبارة يتركز على شخص الموعوظ ، ولاشك أن التأنيب الفردي أقسى على النفس من التأنيب الذي يوجه للجماعة)[2] .

---

(١) ينظر : المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة (٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠) .

(٢) الإعجاز اللغوي / ص ١٥٥ .

وكلمة (الجاهلين) تتناسب مع حال السائل ؛ لأن السائل لا يسأل غالباً إلا عن شيء يجهله .

وقال تعالى في نهاية قصة الطوفان : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

كان مقتضى الظاهر أن يقول : قال يا نوح اهبط ، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل للنائب ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصة المتقدمة من قوله (وقيل يا أرض (ابلعي) (وقيل بعداً للقوم الظالمين) فحصل بذلك قضاء حق الإشارة إلى جزء القصة ، كما حصل بفصل هذه الجملة قضاء حق الإشارة إلى أن ذلك القول جزء المحاورة(١) .

وقال تعالى ﴿ٱهْبِطْ ﴾ وكلمة (الهبوط) في اللغة تدل على انحدار وهبط هبوطاً والهبوط الحدور(٢) .

وهذا يدل على ارتفاع مكان السفينة عن الأرض فقد استوت على جبل الجودي واستقرت به حتى غاض الماء ذاهباً في باطن الأرض فأصبحت الأرض صالحة للهبوط عليها .

واستعمل النظم القرآني (اهبط) دون (اخرج) أو (انزل) لأن « التعبير بالهبوط يصوِّر لنا أن الخروج من السفينة قد كان طريقه من أعلاها ، وأن

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢ / ٨٨) .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (هبط) (٦ / ٣٠) .

الوصول إلى اليابسة قد كان على سلالم أو ألواح خشبية مائلة ، يهبط الهابط عن طريقها إلى الأرض ولو كان سطح السفينة في مكان استوائها مساوياً لطرف من أرض الجبل لكان التعبير المناسب أن يقال : اخرج[1] .

ولم يستعمل القرآن الكريم هنا فعل الأمر (انزل) وكذلك لم يُستعمل في القرآن الكريم كله على كثرة ما وردت مادة (نَزَل) ومشتقاتها فقد وردت قرابة مئتين وثمانٍ وتسعين مرة (٢٩٨) أما مادة (هبط) فلم ترد إلا ثماني مرات .

ويقول الدكتور عودة الله القيسي هنا وأرى أن القرآن اختار (اهبط) لأن فعل الأمر إذا جاء بصيغة تتكرر كثيراً كان أقسى وقعاً على النفس ، أما إذا جاء بصيغة قليلة الدوران فإن ذلك يكون أروح على النفس »[2] .

وهذا لا أجده مستساغاً لأن النظم القرآني لا يستخدم كل كلمة إلا لوجود لفتات بيانية دقيقة تجلِّي المعنى المراد .

فالنزول في اللغة : (يدل على هبوط شيء ووقوعه ونزل عن دابته نزولاً ، ونزل المطر من السماء نزولاً)[3] .

وهنا نجد أن الهبوط يزيد على النزول بأن في الهبوط انحداراً والهبوط لا يكون إلا من شيء مرتفع ، وأما النزول فإنه قد يكون نزولاً من شيء قريب

---

(١) نوح وقومه في القرآن ص ١٣٤ .

(٢) الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام ص ١٦٠ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، مادة (نزل) (٥ / ٤١٧) .

كالنزول من على ظهر الدابة أما الهبوط فلا يكون إلا من شيء مرتفع فيه انحدار وهذا ما بيَّنه المعنى اللغوي للكلمة .

وقال تعالى : ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ قدم تعالى السلام على البركات لأن الإنسان لا يتمتع بها إلا إذا كانت مقترنة بالأمن ، وعظم شأن هذا الأمن لما قال تعالى (منا) فهو ناشئ من عند من يملك الأمن وهو السلام ومنه السلام فهو أمن عظيم يحقق الاستمتاع بالبركات والطيبات التي ستحل مع نوح ومن معه .

وقال تعالى : ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ولم يقل : وعلى من معك لأن الحديث لم يقتصر على الذين مع نوح من المؤمنين وحدهم وإنما كان عنهم وعن الذين سيكونون من ذرياتهم وفيهم المؤمن والمعرض الكافر فكان السلام والبركات خاصة بالمؤمنين دون غيرهم .

وقال تعالى : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ « ولم يقل (وأمم ممن معك سنمتعهم) لأنه تعالى لم يرضَ أن يشرِّف الأمم الضالة الذين يأتون بعد نوح بأن يوصفوا بأنهم في معيته »[1] .

٣ – ما ورد في سورة القمر :

يقول الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ

(١) الإعجاز اللغوي ص ١٦٢ .

عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ .

يلحظ هنا كثرة دوران كلمة التكذيب في السور التي ألقت الضوء على قصة نوح وقومه وكما مرَّ بيان ذلك أنّ في التكذيب دلالة على المبادرة به دون التريث أو التأمل فيما يُدعون إليه حتى يتعرفوا على وجه الحق فيه ، وتوحي هذه الكلمة بأن التكذيب أصبح طبعاً لهم وعادة تأصلت في نفوسهم وثبتت على مرِّ الزمن الطويل الذي دعاهم فيه نوح إلى الله تعالى

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ من الزجر وهو المنع والنهي والانتهار [١] . وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثل افتقر واضطر . ونكتة بناء الفعل للمجهول هنا للتوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير (قوم نوح) فعدل عن أن يقال : وازدجروه إلى قوله وازدُجِر محاشاة للدال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم ومرادهم أنهم ازدجروه ، أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة[٢] .

وقال (انصر) ولم يقل (انصرني) ليكون النصر عاماً شاملاً له ولدينه ولمن معه من المؤمنين والانتقام من قومه الظالمين ، وفي ذلك ملاءمة لفواصل السورة التي تنتهي على حرف (الراء) فهنا مناسبة معنوية ولفظية .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (زجر) (٣ / ٤٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨١) .

وطلب هنا النصر ولم يطلب النجاة لأنه لَمَّا ذكر أنه مغلوب دعا بالنصر[1]

وفي قوله تعالى ﴿ فَفَتَّحْنَآ ﴾ قرئت بالتشديد وهي قراءة ابن عامر ، وابن وردان .

وقرأ الجمهور (فتحنا) بتخفيف التاء[2] .

فقراءة ابن عامر بالتشديد لكثرة الأبواب ، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة[3]

ويرى الطاهر بن عاشور أن قراءة الفتح تعني شدة هطول المطر[4]

فتكاملت القراءتان في الدلالة على كثرة الأبواب وهطول الأمطار منها بشدة وكثرة .

---

(١) لأن التنجية تتعلق بالناجي فقط فعندما تقول (نجيته منهم) كان المعنى أنك خلصته ولم تذكر أنك تعرضت للآخرين بشيء كما تقول (أنجيته من الغرق) ولا تقول (نصرته من الغرق) لأن الغرق ليس شيئاً ينتصف منه وأما النصر ففيه جانب الناجي وجانب الذين نجى منهم فعندما تقول (نصرته منهم) كان المعنى أنك نجيته وعاقبت أولئك أو أخذت له حقه منهم وهذه فائدة التضمين ففيه كسب معنيين في تعبير واحد معنى الفعل المذكور والفعل المحذوف الذي ذكر شيء من متعلقاته . ينظر معاني النحو د/ فاضل صالح السامرائي ، ط(٢) ، عمان – الأردن ، دار الفكر ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م (٣ / ١٢ – ١٣) . وهذه القاعدة أجدها تتمشى مع الآيات الواردة في إهلاك الأمم حيث إن الحق سبحانه إذا ذكر النجاة أعقبها بذكر إغراق المهلكين أو قطع دابرهم فالنجاة لم تتضمن معنى الانتصاف من الظالمين فيأتي بعدها ذكر حال من أهلك والله أعلم .

(٢) انظر : النشر في القراءات العشر ٣ / ٥٠ . الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٤٣٢ .

(٣) انظر : روح المعاني (١٤ / ٨١) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٢) .

والفتح : يعني إزالة الإغلاق فالماء هو المفتاح لتلك الأبواب وعبَّر هنا بجمع القلة (أبواب) عن الكثرة لأن عادة العرب أن تستعيره لها وهو أرشق وأشهر من (بيبان) وسياق العظمة يأبى كونه لغيرها .

وقال تعالى ﴿ بِمَآءٍ ﴾ ولم يقل (بمطر) لأن الماء منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب عظماً وكثرة ، ولذلك لم يقل : بمطر لأنه خارج عن تلك العادة[1] .

وقال تعالى ﴿ مُّنْهَمِرٍ ﴾ لبيان استمرار هذا الماء في الصب والاندفاع بقوة وكثرة لم تختلف[2] ولم يقل (بماءٍ منصب) لأن الصب يأتي للماء القليل والكثير وأما المنهمر فإنه لا يكون إلا للكثير المستمر .

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

جاءت صيغة (فعَّل) هنا لتتلاقى مع ظلال التكثير في هذه الآية . وفجّرنا : بمعنى : صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا[3] .

فالتفجير يدل على التصديع والشق ، وأوقع التفجير على الأرض

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٥٠) .

(٢) والهمْر : الصب صب الدمع والماء والمطر ومنهمر : سال وهَمَر الماء والدمع والهمرة الدفعة من المطر والهمَّار السحاب السيال وهَمَر الكلام يهمره : أكثر فيه ، والهمْر شدة العدو وهَمَر ما في الضرع حلبه كله . لسان العرب ، مادة (همر) (٥ / ٢٦٦) .

(٣) انظر : نظم الدرر ٧ / ٣٥٠ .

دون أن يقول (فجّرنا عيون الأرض) ليدل على العموم والشمول وإرادة أن وجه الأرض كله صار عيوناً ، وهذا ما يفهم من إفراد الأرض إشارة إلى شمول هذا الماء الكل .

وقال تعالى ﴿ فَٱلْتَقَى ﴾ ولم يقل (اختلط) لأن كلمة الالتقاء تصوِّر لنا التقاء ماءين ماء الأرض وماء السماء ولو قيل اختلط ما دل إلا على ماء واحد اختلط بعضه ببعض وفي ذلك تصوير للماء وكأنه يعي ما أُرسل له فهو على موعد مع ماء الأرض ليلتقي معه ولينفذ أمر الحكيم العزيز في قوم نوح .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْمَآءُ ﴾ بالإفراد : لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد(١) .

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ قرأ الجمهور على اسم الجنس الذي يعم ماء السماء وماء العيون ، وقرأ الحسن وعلي بن أبي طالب وعاصم الجحدري (فالتقى الماءان) ويروى عن الحسن (فالتقى الماوان)(٢) .

والمعنى التقى ماء السماء وماء الأرض فقراءة التثنية تشير إلى ذلك . والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد وفي التثنية بيان اختلاف النوعين وإلا فالماء شامل لماء السماء وماء الأرض وقيل : فيها إشارة إلى أن ماء الأرض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفي ذلك

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٦٥٥) . روح المعاني (١٤/ ٨١) .

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٤) . البحر المحيط (٨/ ٢٥٢) .

مبالغة لا تفهم من الإفراد[1] .

﴿ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ هنا إشارة إلى سهولة حصول ذلك .

يقول البقاعي : « زاد في تعظيمه (أي الماء) بأداة الاستعلاء فقال : (على أمرٍ) ولمّا تقررت هذه العظمة لهذه الواقعة ، فكان ظن أنه صار جزافاً وزاد على الحد المأمور به ، أشار إلى أنه بالنسبة إلى عظمته في غاية الحقارة فقال : (قد قدر) أي مع كونه مقدوراً عليه في كل وقت بغاية السهولة قد وقع تقديره في الأزل ، فلم يستطع أن يزيد على ذلك قطرة فما فوقها ولا أن يهلك إلا من أمرنا بإهلاكه »[2] فكان في ذلك احتراس حتى لا يتوهم أن هذا الماء الطاغي جاوز حدَّه بل كان على الحدِّ الذي قدَّره المقدر من قبل جلَّ شأنه وقال تعالى ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ ﴾ عدي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره فهو المقصود الأول من هذا الحمل[3].

وقال تعالى : ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ ذكر وصف السفينة دون ذكرها [4] فيه إشارة إلى أن السفينة وإن كانت سبباً ظاهراً للنجاة ، فإن الفاعل الحقيقي هو الله

---

(١) روح المعاني (١٤ / ٨٣) .

(٢) نظم الدرر (٧ / ٣٥٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٤) .

ما قاله الطاهر هنا يبين المنزلة والتشريف لنوح عليه السلام وأما المنة والفضل في الإنجاء فقد شملت من آمن مع نوح عليه السلام .

(٤) كناية عن موصوف .

تعالى ، وإلا فالسفينة ماذا تفعل وسط طوفان هادر يطوقها من الأرض والسماء ، ولئن كانت قادرة على حمله فوق ماء يتفجر من الأرض ، فأنى لها أن تحميه من سماء تنهمر مياهها دون انقطاع أو فتور ؟ ألا ترى كيف قلل الله من شأن السفينة حتى لا يعلق أحد أسباب النجاة عليها ، فكنى عنها بما يهوِّن من قدرها ، فلم يقل حملناه في جارية ، أو في سفينة وإنما قال ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ فيها إلى أنها محمولة بيد الله ، فما هي إلا ألواح ومسامير ، فإذا كان الحامل ضعيفاً واهياً ، والماء عظيماً مدمراً فالنجاة حينئذٍ هي فضل الله ورحمته ، انظر كيف عقب الله ذلك بقوله ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ إدلالاً بكمال القدرة وبالغ الحفظ والكلاءة(١) .

والدسْر : الدفع الشديد ، تقول : دسرتُ المسمار أدسره دسْراً وهو أن تدخله في الشيء بقوة . والدسار : المسمار ، والجمع دُسُرُ ودُسْرٌ وقيل الدُّسُرُ : خيوط تشَدُّ بها ألواح السفينة وبكليها فُسِّر قوله تعالى ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(٢) وكل هذه المعاني صحيحة وهذا ما يدل على شمول المفردة القرآنية واتساعها لكل هذه المعاني التي تصوِّر كل ما يتعلق بالسفينة في تركيبها أو في مواجهتها للموج .

والدسر : الدفع بقوة ينطبق مع كون المراد مقاديم السفينة وصدرها الذي تضرب به الموج وتدفعه .

---

(١) انظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري ، ط(١) ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، (ص ٦٣ - ٦٤) .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢ / ٥٩٩) .

وقال تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ والجرى هو المرُّ السريع [1] والتعبير بالفعل المضارع فيه تصوير للحركة والجري المستمر الذي هو بحفظ الله ورعايته وفي تفسير ذلك يقول الطبري رحمه الله « تجري السفينة التي حملنا نوحاً فيها بمرأى[2] منا ومنظر »[3].

وبمثل ذلك قال ابن كثير إلا أنه بيَّن ما تضمنت ذلك من حفظ وعناية حيث يقول (أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا)[4] والمهم هنا أن السياق قد تطلب الجمع لبيان عناية المولى ومنته وكرمه بعبده ومن معه في هذا الموقف العصيب ، وهذا الحفظ العظيم والرعاية لرسل الله تعالى وهم أفضل الخلق نجدها تتمثل في القرآن الكريم بصيغة الجمع مع نوح عليه السلام في ثلاثة مواضع ، ومع النبي ﷺ في موضع واحد وقال تعالى ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ بالبناء للمفعول دون كلمة (كَفَر) بالفتح وهذا فيه سرُّ الاهتمام بنوح عليه السلام منذ أن أفرده تعالى بالذكر في قوله ﴿ وَحَمَلْنَهُ ﴾ دون من معه لأن هذا الحمل كان إصابة لدعوته فهو المقصود الأول ، فقال في نهاية الآية : (كُفر) أي كُفر به فإن الذي كان كفر به هو نوح عليه السلام ، أي لم يؤمنوا بأنه رسول ، وكان كفرهم

---

(١) البصائر (٢ / ٣٧٨) .

(٢) أي معاينة حفظ ورعاية ، ومذهب أهل السنة والجماعة تقرير صفة البصر لله تعالى عقلاً ونقلاً كصفة السمع .

(٣) تفسير الطبري (٢٧ / ١١١) .

(٤) تفسير ابن كثير (١٣ / ٢٩٧) .

به منذ أن جاءهم بالرسالة فلذلك أقحم[1] هنا فعل (كان) أي لمن كُفِر منذ زمان مضى وذلك ما حكي في سورة نوح بقوله ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[2] .

ونقل الطبري قول مجاهد في معنى كُفر : أنها تعني الكفر بالله ويرى أنه الصواب[3] والحقيقة أن صيغة (كُفر) تعني كل هذه المعاني فدلالتها متسعة لأن الذي كفر بنوح فقد كفر بما جاءَ به وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة وحده ، يقول البقاعي : ويجوز أن يكون المراد به قومه يبين أنه وقع الكفر منهم وقوعاً كأنهم مجبولون عليه حتى كأنه وقع عليهم لتوافق قراءة مجاهد بالبناء للفاعل[4].

لقد جوَّز المفسرون أن تكون الهاء في (تركناها) عائدة على السفينة أو تكون عائدة على (الفعلة) نفسها ، وهي الإغراق بالطوفان ، والذي تطمئن إليه النفس هو عود الضمير على السفينة وهو ما ذكره الطبري حيث يقول « ولقد تركنا السفينة التي حملنا فيها نوحاً ومن كان معه آية عبرة وعظة لمن بعد قوم نوح من الأمم ليعتبروا ويتعظوا »[5] .

(١) هذا التعبير لا يليق بالقرآن (فكان) هنا جاءَت لأن المقام قد تطلبها وقد وقعت أحسن موقع والطاهر أراد أن يبين حسن ورودها في هذا الموقع ولكنه اتخذ تعبيراً لا يليق أن يذكر في الحديث عن نظم القرآن الكريم .

(٢) ينظر التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٥) .

(٣) تفسير الطبري (٢٧ / ١١١) .

(٤) نظم الدرر (٧ / ٣٥١) .

(٥) تفسير الطبري (٢٧ / ١١٢) .

أي أبقينا سفينة نوح محفوظة من البلى لتكون آية تشهدها الأمم الذين أُرسلت إليهم الرسل وتخويفاً بأول عذاب عذبت به الأمم فكانت حجة دائمة مثل ديار ثمود ثم أخذت تتناقص حتى بقي منها أخشاب شهدها صدر الأمة الإسلامية فلم تضمحل حتى رآها ناس من جميع الأمم بعد نوح فتواتر خبرها بالمشاهدة تأييداً لتواتر الطوفان بالأخبار المتواترة[1] فكلمة الترك صورت لنا بقاء هذه السفينة على حالها لم يغيره تتابع السنين والأمم وكانت آية من آيات الله حتى بقي منها ما شهده صدر هذه الأمة المحمدية وهذا يكفي .

وقال تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أفرد العذاب هنا لأنه عذاب واحد حلَّ على القوم الظالمين وجمع النذر لأنها قد تكررت على القوم وكثرت حيث دعاهم نبيهم زمناً طويلاً وأنذرهم وحذرهم وجاءهم من بين أيديهم ومن خلفهم فلم تغن الآيات والنذر عن قوم كذبوا واستكبروا[2] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٦) .

(٢) سيأتي مزيد بسط لما في الآية في الأبواب القادمة .

الفصل الثاني

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم هود عليه السلام

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات .

المبحث الثاني : أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات .

المبحث الأول

أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات

أول ما يلقانا من ذلك ما وجد في سورتي الأعراف وهود ففي سورة الأعراف .

يقول تعالى عن نبيه هود ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ٧٢] .

وفي سورة هود يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [الآية : ٥٨] .

فسورة الأعراف جاء فيها الفعل (أنجى) وفي هود الفعل المضعف (نجّى) وقد مر تفصيل مثل ذلك في قصة قوم نوح عليه السلام والسياق في سورة الأعراف يختلف عن السياق في سورة هود لذلك نجد التنوع الذي يلائم المقام .

فسورة الأعراف طالت فيها المحاجة بين هود وقومه ويظهر هذا من خلال الآيات الكريمة الآتية :

١ - ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الآية : ٦٥] .

٢ - ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الآية : ٦٦] .

٣ - ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ

رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ ﴾ [الآية : ٦٩] .

٤ - ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

٥ - ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ .

فاقتضى المعنى (أنجينا) الدال على السرعة في الإنجاء بعد هذه المحاجة الطويلة بين هود وقومه ثم إنهم استعجلوا العذاب فقالوا ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

فرد عليهم هود بقوله ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ فناسب هنا في سورة الأعراف الفعل (أنجينا) بالهمز دون التضعيف لدلالته على السرعة في الإنجاء والإجابة لهود عليه السلام ، وأما في سورة هود فلم تطل المحاجة بهذا الطول الذي بلغته في الأعراف ، ويرى الدكتور فاضل السامرائي في مثل هذه المواضع أن الفعل المضعَّف يدل على المهلة والتلبث ولكنا لا نجد هذه القاعدة تطرد هنا ، فالمقام في سورة هود مقام امتنان ناسبه التضعيف في الدلالة على عظيم المنة وكأنها نجاة بعد نجاة ، والنظم هنا كرّر النجاة وعطف الثانية على الأولى بحرف الواو الذي يدل على المغايرة بين النجاتين وما هي بمغايرة ولكن

النظم القرآني عندما يبين أهمية شيء يدل عليه بمثل هذا فهنا نجد في العطف إيهام المغايرة وما هو إلا لبيان أهمية هذه النجاة . فكأنها نجاة مغايرة للنجاة الأولى « وذلك لأنه لما ذكر ما نجاهم منه كانت النجاة الثانية كأنها نجاة مختلفة عن الأولى فعطفها عليها تمييزاً لها وتفخيماً لشأنها »(١) .

يقول تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [الآية : ٥٨] .

أكثر المفسرين وبعض أهل البلاغة يقولون بأن النجاة الثانية من عذاب الآخرة وأن الأولى من عذاب الدنيا وأن العطف على هذا يقتضي المغايرة(٢) .

وهذا ما لا يلحظ فيه استقامة مع السياق القرآني لأنه يصور مشهد العذاب الغليظ لقوم عاد في الدنيا ، خصوصاً وأن المخاطبين في زمن النبي ﷺ لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا فكان تكثيف الحديث عن العذاب الدنيوي من بديع نظم القرآن هنا وهو الذي يتلاءم مع المقام والله أعلم .

ويبين الشهاب أنه لا تكرير لبيان ما نجاهم منه ، حيث يقول

« حاصله أنه لا تكرير فيه لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثاني

---

(١) من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، د/ محمد محمد أبو موسى ، ط (٢) ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٨٦ .

(٢) ينظر : الطبري١٢ / ٧٥ . الكشاف٢ / ٣٨٨ . التحرير والتنوير١٢ / ١٠٤ . وينظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ، ط(١) بيروت ، عالم الكتب١٤٠٦ هـ -١٩٨٦ م ، ص٩٠ .

بيان لما نجوا منه وأنه أمر شديد عظيم لا سهل فهو للامتنان عليهم وتحريض لهم على الإيمان »(١) .

فتضعيف الفعل في مقام الامتنان يتوافق مع تعديد النعم وتصوير هول العذاب ، ولطف الخلاص منه ، وقد بين الله تعالى لنا هول الأمر بقوله ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وذلك لما في إضافة (الأمر) إلى ضميره جل جلاله ، واستخدام كلمة المجيء للدلالة على نزول هذا الأمر ما لا يخفى من التفخيم والتهويل ، فالنجاة كانت عظيمة إذا تصورنا أن هوداً عليه السلام قد كان قريباً منهم عند نزول العذاب لما قالوا هذا عارض ممطرنا فرد عليهم ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى في سورة الذاريات﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [آية ٤٢] .

فكونها قد تركت هوداً ومن معه بعد ذلك مع عتوها الشديد فهذا يبين لنا عظمة هذه النجاة . ومن المتشابه في هلاك قوم هود ما يلحظ في قوله تعالى في سورة فصلت ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الآية : ١٦] .

وفي سورة القمر قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ

(١) حاشية الشهاب ٥ / ١٨٤ .

﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [الآية : ٢٠] .

وفي سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الآية : ٨] .

وأول ما يلحظ هنا قوله تعالى من سورتي فصلت والقمر .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ .

جاء بلفظ (أرسل) ، دون (بعثنا) لأن أرسل تدل مادته على التتابع ليدل على تتابع العذاب الذي لا فتور فيه وهو بمعنى التسليط ولذلك عدى (بعلى) إشارة إلى تمكن هذه الريح منهم ومباغتتهم .

ثم إنه تعالى جعل الريح واحدة ولم يقل (رياحاً) بجمع الكثرة والريح اسم جنس يدل على القلة والكثرة ، والقرآن الكريم قد استعمل (الريح) مفردة مع العذاب غالباً وهذا ما يتضح في السور الثلاث التي تصور لنا هلاك قوم عاد ونجد هذه القاعدة تطرد في القرآن الكريم إلا [(١)] ما ورد في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس : ٢٢] .

فقد ذكر في الآية الريح بالإفراد على عكس القاعدة فقال (بريح طيبة) وفي ذلك نجد ابن القيم رحمه الله يبيّن العلة بكلام سديد حيث يقول : « تمام الرحمة

---

(١) كذلك الريح المسخرة لسليمان عليه السلام ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ﴾ سورة ص ، الآية (٣٦) .

- يقصد في البحر إنما تحتمل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة ، من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلفت عليها الرياح ، وتصادمت وتقابلت ، فهو سبب الهلاك ، فالمطلوب هنا ريح واحدة لا رياح - وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعاً لتوهم أن تكون ريحاً عاصفة ، بل هي مما يفرح بطيبها وأما إفراد الريح مع العذاب « فلأنها في العذاب تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه»[1] .

فالريح الواحدة تكون في قوتها واندفاعها أعتى من الرياح التي تتفرع فمنها القوي والمتوسط والضعيف لأنها منبثة تتفرق في أصقاع كثيرة أما هنا فهي ريح واحدة متجهة إلى مكان واحد بقوة هائلة ضاغطة من أجل التدمير والاجتثاث والاستئصال .

وأما (الصرصر) فإنها لفظة من الصر ، وذلك يرجع إلى الشد لما في البرودة من التعقيد[2] .

يقول ابن عطية « واختلف الناس في (الصرصر) فقال قتادة والسدي والضحاك : هو مأخوذ من الصر ، وهو البرد ، والمعنى ريحاً باردة لها صوت . وقال مجاهد : صرصر : شديدة السموم . وقال الطبري وجماعة من المفسرين : هو

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١ / ١٣٠ .

(٢) المفردات للراغب ، كتاب الصاد ، ص ٢٧٩ .

من صرَّ يصر إذا صوت صوتاً يشبه الصاد والراء وكذلك يجيء . صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى »[1] .

وكلمة (الصرصر) تتسع لهذه المعاني وتحتملها وهي بجرسها توحي بصوت الريح الخارق وقال تعالى (الصرصر) ولم يقل (صرصرة) مع أن الريح مؤنثة ؟ قيل في ذلك إن (الصرصر) وصف مختص بالريح ، فأشبه باب حائض وطامث وحامل ، بخلاف (عاتية) ، فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به [2] ، ولكن السر البياني لا يظهر من خلال هذا القول ، والذي يظهر أن التذكير في مقام القوة والانتقام هو الأنسب كما في قوله تعالى ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس : ٢٢] ولم يقل (عاصفة) .

والتضعيف في اللفظ يفيد مضاعفة المعنى يقول ابن ناقيا : والصرصر : الشديد البرد جداً والأصل (صرَّ) ، و(الصرصر) متكرر في البرد كما تقول : (صرَّ) الشيء ، وصلَّ إذا سمعت صوته غير مكرر ، فإذا رأيت الصوت تكرر قلت : (صرصر) و(صلصل)[3] .

---

(١) المحرر الوجيز ٥ / ٩ .

(٢) ينظر : من غرائب آي التنزيل ، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، تحقيق ، د. عبد الرحمن المطرودي ، ط (١) ، الرياض ، دار عالم الكتب ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م ، ص ٥٢٦ . فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، شيخ الإسلام ، أبو يحيى زكريا الأنصاري ، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسين ، ط (١) ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ، ص ٥٩٦ .

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي ، حققه د/ محمد رضوان الداية ، ط (١) ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٢٨ .

ثم إن النظم الحكيم قد عبر عن أيام العذاب لقوم هود في سورة القمر باليوم الواحد في قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ وفي فصلت بالأيام ﴿ فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ .

وفي الحاقة ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ وفي ذلك يرى ابن جماعة أن اليوم في سورة القمر يعبر به عن [الأيام] . كقولهم : يوم الحرة ، ويوم بعاث وقد يراد به اليوم الذي بدأ به الريح [1] أو أن سورتي فصلت والحاقة – فيما يبدو متممتان لصورة (إهلاك عاد) في [القمر] فالإهلاك واحد وهو الإهلاك بالريح الصرصر ولكنا نجد أن سورة [القمر] تركز على بداية الاستئصال والإهلاك وفي سورتي (فصلت والحاقة) نجدها تركز على دوام العذاب وسوء المصير[2] .

ولعل النظر إلى ترتيب نزول السور الثلاث يهدينا إلى تلمس الأسرار فقد جاء نزول سورة (القمر) قبل سورتي (فصلت والحاقة)[3] .

والذي يظهر من خلال تتبع الترتيب النزولي للسور الكريمة – والله أعلم – أن سورة القمر اهتمت باليوم الأول فذكرته دون بقية الأيام لأنه اليوم الفاصل

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة ، تحقيق د/ عبد الجواد خلف ، ط (١) ، القاهرة – دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن د/ إبراهيم طه أحمد الجعلي ، نشر مكتبة المتنبي ، ص ١٥٨ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ١٩٣ .

بين الحياة الآمنة المستقرة والحياة المدمرة الجائحة فقد كانت فجعتهم باليوم الأول أشد وهم في غفلتهم سادرون ، فلم يكن في مخيلتهم أو حسبانهم مداهمة هذا اليوم ومفاجأته فذكر اليوم الأول هنا دون بقية الأيام ، لبيان فظاعته وشدته عليهم وإن كانت الأيام كلها شديدة وعظيمة . لكن المفاجأة في اليوم الأول كانت أصعب لأنه انتقال من حياة الأمن والدعة إلى حياة الشقاء والعذاب ، ثم جاء البيان بعد سورة (القمر) للأيام في سورتي (فصلت والحاقة) بيان لما أجمل في القمر في غاية البيان والروعة والوفاء بالمعاني كل على حسب سياقه وزاد التفصيل في الحاقة لبيان هول وطول مكث العذاب عليهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الآية : ٦ - ٧] .

« ميز (السبع) وهو من قليل العدد بجمع الكثرة (ليال) تكثيراً للعذاب وتطويلاً لمدته ، مما يوحي بشدة غضب الله وعظيم انتقامه ولذا فإنه لم يكتف بذكر الليالي وحدها ، ولا بعدد الأيام وحدها ، بل جمع بين عدد الليالي وعدد الأيام »(١) .

وقال تعالى عن الريح في سورة القمر ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [الآية : ٢٠] .

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن د/ محمد الأمين الخضري، ط (١) ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، ص ١٦٥ .

وقال في سورة الحاقة ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الآية : ٧] .

لقد جاءت كل كلمة تحمل معنى يتوافق مع سياقها وتحمل دلالة لا نجدها في الأخرى .

يقول الراغب : قعر الشيء نهاية أسفله وقوله ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي ذاهب في قعر الأرض وقال بعضهم : انقعرت الشجرة انقلعت من قعرها وقيل معنى انقعرت ذهبت في مقر الأرض ، وإنما أراد تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسم ولا أثر(١) .

إذن القعر يحمل معنى القلع والاستئصال الذي تتناسب معه كلمة (النزع) ونزع الشيء جذبه من مقره كنزع القوس عن كبده وفي هذا تصوير لتشبث القوم بالأرض واحتمائهم بالحفر ومعاناتهم ومحاولاتهم البائسة في مقاومة الريح(٢) .

وأما قوله تعالى ﴿خَاوِيَةٍ ﴾ في سورة الحاقة فمعناه الخربة الساقطة التي قد خلت أعجازها بلى وفساداً(٣) .

---

(١) المفردات للراغب ، كتاب القاف ، مادة (قعر) ، ص ٤٠٩ .

(٢) سيأتي مزيد بسط لذلك في باب الصورة إن شاء الله ، ص ٣٢٢ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز ٥ / ٣٥٧ . تفسير ابن كثير ١٤ / ١١٢ .

وأصل الخواء : الخَلاَ ، يقال خوى بطنه من الطعام يخوي خوى وخوت الدار تخوي خواءً[1] .

فمن هنا نجد من معاني خاويه السقوط والفراغ من الداخل والخراب ، فهذه الكلمة تصور المرحلة الثانية لما آل إليه القوم من اليبس والجفاف وفراغ البطون من الأمعاء ونزداد تصوراً للمشهدين إذا أدركنا أن سورة القمر من حيث النزول أسبق من سورة الحاقة فكانت كلمة (منقعر) تصور المرحلة الأولى من تأثير العذاب وهو الاستئصال والاجتثاث وكلمة (خاوية) تصور ما آلوا إليه من الهلاك والبلى وتقادم الزمن .

والنظم هنا قد استخدم من أدوات التشبيه (كأن) للإشارة إلى قوة الشبه . حيث شبهوا بأعجاز النخل المنقعر إذْ تساقطوا على الأرض أمواتاً ، وهم جثث عظام طوال والأعجاز الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها[2]

ثم إنه يلحظ التذكير للنخل في قوله تعالى ﴿ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ والتأنيث في قوله تعالى ﴿ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

وفي ذلك يقول أهل التأويل أن النخل مما يذكر ويؤنث فإذا حملت على اللفظ تذكر وإذا حملت على المعنى تؤنث كما في ﴿ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ وفي ذلك[3]

---

(١) المفردات للراغب (كتاب الخاء) ، مادة (خوى) ، ص ١٦٣ .

(٢) البحر المحيط (٨ / ٢٥٥) .

(٣) ينظر الكشاف (٤ / ٤٢٦) . المحرر الوجيز (٥ / ٢١٦) .

مراعاة للفاصلة[١] .

ويرى بعض الباحثين أن تردد لفظ (النخل) بين التذكير والتأنيث إنما هو صدى للهجات العرب ، فروعيت لهجات العرب مع مراعاة فواصل الآيات وهذا من روعة الأسلوب القرآني أنه يصور لنا لهجات القبائل فيذكر اللفظ الواحد مرة ويؤنثه أخرى[٢] .

ولكن النظم القرآني لا يقف عند هذا الحد الظاهر من التأنيث والتذكير وذلك أن العرب قد تؤنث للكثرة ، وتذكر للقلة .

يقول الدكتور فاضل السامرائي : والنخل في آية الحاقة أكثر منه في آية القمر يدل على ذلك السياق حيث قال في القمر : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ وقال في الحاقة ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ فذكر في (القمر) أنه أرسلها عليهم في يوم ، وذكر في (الحاقة) أنه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام ، فزاد في وقت التدمير والعذاب . ولاشك أن طول المدة يقتضي تدميراً أكثر وأبلغ . فالريح تقتلع وتدمر في سبع ليال وثمانية أيام أكثر مما تفعله في يوم فزاد في النخل المقتلع في الحاقة .

---

(١) سيأتي الرد على ذلك وقولهم من أجل مراعاة الفاصلة لا يستساغ لأن الفاصلة القرآنية تهتم بالمعنى واللفظ .

(٢) ينظر : الألفاظ المذكرة والمؤنثة في القرآن الكريم بين المشاكلة للفظ والنظر إلى المعنى دراسة لغوية تحليلية ، د/ محمد حسين أبو الفتوح ص ١٧٠ .

ولما زادت الريح عتواً وأمداً في الحاقة ، ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تبق منهم أحداً فقال ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في سورة القمر والنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة فكل نخل منقعر ، هو خاو وليس كل خاوٍ منقعراً .

فأنث الخاوية لأنه أكثرُ من المنقعر ، وأن دماره أبلغ وجعلها في سياق الدمار الشامل[1] . وهذا الكلام جميل ولكن ليس لنا أن نقول إن النخل في (الحاقة) أكثر منه في (القمر) من دون ذكر للسر الحقيقي من وراء ذلك حيث إن سورة (القمر) كما مر نزلت قبل سورة (الحاقة) وسورة (القمر) تصور لنا اليوم الأول من أيام العذاب[2] ولاشك أن عدد المصروعين في ذلك اليوم أقل من عدد المصروعين في ثمانية أيام ، فليس مراداً بذاته فقط تكثير عدد النخل في سورة الحاقة للتهويل لما كان السياق دالاً على التكثير وتقليل عدد النخل في سورة القمر لما دل السياق على التقليل فعدد قوم عاد وما شبهوا به واحد لا يعلم عدتهم إلا الله والمراد على الحقيقة أن الهلاك في أول يوم لم يأت على الكل من قوم عاد فناسب التذكير الدال على القلة ما في سورة القمر التي دلت بسياقها على ذلك ، ولما أراد فناءهم كلهم وأنهم لم يبق منهم أحد ناسب تأنيث النخل الدلالة على التكثير في معناه الحقيقي لا المجازي في سورة (الحاقة) ، بدليل قوله تعالى :

---

(١) ينظر من بلاغة الكلمة ص ٩٤ – ٩٥ .

(٢) وهذا هو مراده هنا ولكنه لم يفصل .

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ أي لم يبق منهم فرد واحد فقد هلكوا جميعاً .

واستعمل النظم الحكيم كلمة (النخل) في سورتي القمر والحاقة في دلالته على القليل والكثير ولم يستخدم كلمة (النخيل) التي تفيد الكثرة في العدد . وفي ذلك نقل الزركشي في كتابه البرهان عن السهيلي قوله : « إذا قلت عبيد ونخيل ، فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس . قال تعالى : ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ [سورة الرعد : ٤] وقال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] وحين ذكر المخاطبين منهم ، قال : ﴿ العباد ﴾ ، ولذلك قال حين ذكر التمر من النخيل : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ [سورة ق : ١٠] و﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [سورة القمر : ٢٠] فتأمل الفرق بين الجمعين في حكم البلاغة ، واختيار الكلام ! »[١] .

ويرى السامرائي العكس حيث يقول : « النخل أكثر من النخيل وذلك أن النخل اسم جنس جمعي ، والنخيل جمع ، واسم الجنس أشمل وأعم من الجمع كما قرَّره علماء اللغة وكما هو الاستعمال القرآني ذلك أن اسم الجنس يشمل المفرد والمثنى والجمع ، ويقع على القليل والكثير ، فيصحُّ أن يقول من شاهد نخلة واحدة أو نخلتين (لقد شاهدت النخل) ولا يقول : (شاهدت النخيل ولا النخلات) »[٢] . وهذا ما أميل إليه .. والله أعلم .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ٢١ .

(٢) من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ١٠٦ .

المبحث الثاني

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات

يقول تعالى في سورة هود ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [الآيات : ٥٨ - ٥٩] .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ استعمل (جاء) دون (أتى) والقرآن الكريم يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) فهنا مجيء بالعذاب الشديد المهلك وما يحمل من رهبة ورعب وصعوبة ونجد ذلك يطرد في كل مشاهد الإهلاك للأمم كما سيأتي[١] .

واستعمال الماضي هنا بمعنى اقتراب المجيء . لأن الإنجاء كان قبل حلول العذاب[٢] .

---

(١) يتميز الفعل جاء في القرآن الكريم بدلالته على الصعوبة ، وتكون راجعة إلى ما في حركته من مشقة وكلفة ، أو إلى ما فيه من شدة ورهبة وقهر أو استفظاع تجعله ثقيلاً صعباً أو لكون الجائي ذا بال وشأن إلى غير ذلك مما يشير إلى أن الفعل له خطره .

ينظر : الإتيان والمجيء فقه دلالتها واستعمالها في القرآن الكريم ، د/ محمود موسى حمدان ، ط (١) ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م ، ص ٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ١٠٣) .

والاهتمام بأمر النجاة[1] هنا لما فيه من عظيم فضل الله وقدرته في نجاة هود عليه السلام ومن معه من بين عاد لم يهلك منهم أحد ، فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له كمال الإحاطة بالكليات[2] .

واستعمل الماضي في (ونجيناهم) في معنى المستقبل لتحقق الوعد بوقوعه[3] على معنى لو أن الإنجاء الثاني من عذاب الآخرة .

ولعل الذي يوافق السياق أن المراد النجاة من عذاب الدنيا [4] الذي حل بقوم عاد المكذبين فلا يكون هنا استعمال للماضي في معنى المستقبل بل هو استعمال للماضي في معنى الزمن الماضي للدلالة على تقرر هذه النجاة وثبوتها – والله أعلم – .

وفي وصف العذاب بـ(غليظ) دون (أليم) مناسبة لطيفة مع حال القوم الأشداء الغلاظ – والغلظة : ضد الخفة والرقة .

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ دون أن يقال (وهذه عاد) ليشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد لتحقيرهم أو لتنزيلهم منزلة البعيد لعدمهم أو الإشارة إلى قبورهم ومصارعهم ، وحينئذ الإشارة للبعيد المحسوس[5] . والإشارة بتلك

---

(١) قد مر تفصيل الحديث عن الفعل أنجى في المتشابه من الآيات .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٨ / ١٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير (١٢ / ١٠٦) .

(٤) قد مر تفصيل ذلك في الحديث عن المتشابه من الآيات .

(٥) ينظر روح المعاني (٦ / ٢٨٤) .

تشير إلى حاضر في الذهن بسبب ما أجري عليه من الحديث حتى صار كأنه حاضر في الحس والمشاهدة .

وقال (جحدوا) دون (كذبوا) لأن الجحد فيه إنكار شديد مثل إنكار الواقعات والمشاهدات ، وهذا يدل على أن هوداً أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ دون الفعل المضارع (يتبعون) لإفادة تقرر ذلك منهم وثبوتهم عليه وعدم حيدتهم وفكاكهم منه .

وقال تعالى : ﴿ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ دون فعل كل جبار لإفادة الخضوع والرضوخ والتسليم بكل شيء دون إرادة المحاكاة فقط ، « وعنيد كما يقول الزجاج هو الذي يجبر الناس على ما يريد ، وفسره الراغب بالمعجب بما عنده والجوهري . بمن خالف الحق ورده وهو يعرفه »(٢) .

وقال الراغب : العنود خص بالعادل عن الطريق المحسوس ، والعنيد بالعادل عن الطريق في الحكم(٣) . وجاء (عنيد) على صيغة (فعيل) للمبالغة في الوصف وكلمة (عنيد) تصور كل المعاني السابقة وتؤكدها .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٠٥) .

(٢) روح المعاني (٦ / ٢٨٥) .

(٣) المفردات (كتاب الغين) مادة (عند) ، ص ٣٥٠ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ اتباع الأمر هنا ينطبق على الأسافل ويختص بهم دون الرؤساء والأتباع .

وقال تعالى : ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ قال (أتبعوا) بالبناء للمفعول دون الفاعل إذ لا غرض في بيان الفاعل ، ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على أن إتباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرد مصادفة[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ الإشارة إليها للتحقير وقال (لعنة) بالتنكير لتهويل شأن هذه اللعنة المنبئة عن شدة الغضب الإلهي .

وقال تعالى ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ للتهويل « ولم يقل ويوم القيامة لعنةً للإشارة إلى مخالفة لعنة يوم القيامة عن لعنة الدنيا وأنها مغايرة لها فحذفت الثانية لدلالة الأولى عليها بكون كل من اللعنتين نوعاً برأسه لم تجمعا في قرن واحد بأن يقال وأتبعوا في هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة[2] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ .

وألا : أداة[3] افتتح بها للإخبار عنهم وهي لا تذكر إلا بين يدي كلام يعظم

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٠٦) .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود (٣ / ٤٥) .

(٣) استعمل النظم (ألا) ومعناها التنبيه ، يقول الرماني : « وهي ألف الاستفهام دخلت على (لا) فالألف تقتضي معنى ، و(لا) تنفي معنى فاقتضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الغفلة ، وكان

=

موقعه ويجل خطبه ، والتأكيد في الإخبار بكفرهم تحقيق لحالهم . وقال تعالى : ﴿ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ فعدي الفعل إلى الذات الإلهية دون أن يقول « كفروا بربهم » للإشارة إلى فظاعة كفرهم يقول البقاعي : « لم يقصر الفعل بل عداه إعظاماً لطغيانهم فقال (ربهم) أي غطوا جميع أنوار الظاهر الذي لا يصح أصلاً خفاؤه لأنه لا نعمة على مخلوق إلا منه ، فكان كفرهم أغلظ الكفر »[1] .

إنّ البقاعي هنا يضع فرقاً بين كفروا بربهم ، وكفروا ربهم ، وكفروا بالله حيث تكون التعدية إلى الذات الإلهية [2] فيها زيادة تشنيع عليهم وإعظام لطغيانهم خصوصاً وأنها قد جاءت في سياق يعدد جرائمهم حيث جحدوا بالآيات وعصوا الرسل واتبعوا أمر كل جبار عنيد فأتبعوا باللعنة في الدنيا والآخرة والله أعلم .

وجعل كفرهم بالرسل مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه السلام لتفظيع حالهم وإظهار كمال كفرهم وإعراضهم ، فكأنهم في عصيانهم لهود عليه السلام قد عصوا وكفروا بجميع الرسل ، وفي هذا إشارة إلى وحدة الرسالة والدين

= حقيقته والله أعلم أن (لا) دخلت على ما بعدها فنفته ثم دخلت عليها همزة الإنكار فنفتها ، ومن المعلوم أن نفي النفي إثبات فرجع المعنى كما كان على أتم وجوه التنبيه والتأكيد » ينظر : نظم الدرر (٣ / ٥٥٢) .

(١) المصدر نفسه (٣ / ٥٤٦) .

(٢) نزع الخافض يجسد تأصل الكفر والإجرام في نفوسهم حيث بالغوا في كفرهم وأوغلوا فيه إيغالاً فاحشاً تجاوز كل حد فكفروا ربهم .

فكلهم يدعون إلى إله واحد ، « ولما كان الأمر عظيماً والخطب جليلاً ، كرر الأداة التي تقال عند الأمور الجليلة فقال ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ وقال ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ مظهراً لاسم النبي هود إيماءً إلى أن استحقاقهم للإبعاد بما جرى لهود عليه السلام معهم من الإنكار والدعاء عليهم »[1] .

وفي سورة (المؤمنون) يقول الله تعالى عن نبيه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآيات : ٣٩ - ٤١] .

قال (انصرني) للإشارة إلى أن الأمر قد بلغ غايته من تكذيب قومه ، فهو يريد الاقتصاص منهم ، فيكون معنى النصر هنا عقاب قومه ونجاته هو ومن آمن معه وقال (بما) ليشمل جميع ما يمكن أن يتصور من أنواع التكذيب والإعراض وفي قوله ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ حذف للموصوف وزيادة لـ(ما) والمعنى : عن زمن قليل ليصبحن نادمين ، والحذف والزيادة يدلان على تأكيد معنى القلة ، والمبالغة في قصر الزمن .

وقال تعالى ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ أي في وقت الصباح « والطريف في استعمال القرآن لأصبح أنها وردت فيه في ثمانية وعشرين موضعاً ، كلها في العقوبات والشر إلا في ثلاث مواطن في قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] وقوله

---

(١) نظم الدرر (٣ / ٥٤٧) .

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] »[١] .

والسر في ذلك أن المصيبة عند الإصباح أعظم وذلك أن الناس إذا ناموا ليلهم ونشطوا من أتعابهم بدؤوا في صباحهم يستفيقون لهذا اليوم المشرق الجديد وهؤلاء سيقومون مذعورين إلى عذاب لا يبقى ولا يذر ، وعبر بـ(نادمين) اسم الفاعل للدلالة على ثبوت هذه الندامة وتحققها لتحقق العذاب فيهم .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ فعل الأخذ هنا يدل على اتساع فاعليته فهو يدل على غاية العنف ، كما يدل على قوة الباطش وسهولة البطش فالأخذ غاية العنف والإحاطة .

وقال تعالى : ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وتعني الصيحة في اللغة الصوت المرتفع ، ولما كانت الصيحة تفزع عبر بها عن الفزع .

ولقد اختلف أهل التأويل في جعل هذه الآيات في قوم عاد لورود الصيحة هنا - وقوم صالح قد أهلكوا بالصيحة وقد جاءت هذه الكلمة بعد قصة قوم نوح وقال الله تعالى بعدها ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : الآية ٣١] .

ورجح الطبري أن يكون هذا القرن هم قوم صالح[٢] .

(١) معاني النحو (١ / ٢١٧) .

(٢) تفسير الطبري (١٨ / ٢٦) .

يقول أبو حيان « يظهر أن هؤلاء هم قوم هود والرسول هو هود عليه السلام وهو قول الأكثرين »[1] .

ولعل ورود وصف ما آلو إليه من الهلاك (بالغثاء) يتفق مع ما آل إليه قوم عاد من جعلهم (كالرميم) في قوله تعالى عن الريح التي جاءت عليهم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الآية :] ووصفهم بالخواء في قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

يقول ابن كثير « والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد ، وقوله ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل . وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه »[2] .

وقد استخدم الفعل (جعلناهم) هنا على معنى التحويل والتصيير للأشياء من حقيقتها إلى صور وهيآت أخرى ، ولما كان مسنداً إلى الله تعالى فقد وقعت التصييرات فيما يبرز القدرة ويجلي الإبداع والعظمة ويفحم بالدليل ويعلى بالبرهان فالمجعولات أشياء فوق متناول البشر خلقاً وإيجاداً ، والمجعول إليه تغيير ليس في عرف الأنماط الكونية والتغييرات العادية التي فطرت عليها النواميس[3] .

---

(١) البحر المحيط (٦ / ٤٩١) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٠ / ١٢٣) .

(٣) التشبيه البياني في نظم القرآن د / هاشم الديب ص ١٨٩ .

وقال تعالى في سورة الذاريات عن قوم هود ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الآية : ٤٢] .

وصف الريح بالعقم للدلالة على أنها من أول أمرها مسيرة للشر ، والعقيم التي لا خير منها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك [١] . وكلمة (عقيم)[٢] لها دلالات أكبر من هذه الدلالات وهي دلالة الهلاك الذي يستأصل ولا يبقى شيئاً من نسل هؤلاء القوم في الأرض ، فقد جاءت هذه الريح للإبادة والاستئصال الذي يتنامى معه معنى العقم والإعقام فهي بالفعل ريح من صفاتها أنها عقيم حيث إنها ستعقم وتستأصل وتخرب الحرث وتقطع النسل وقد لمح هذا المعنى البيضاوي رحمه الله تعالى في قوله « سماها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم »[٣] .

وقال تعالى ﴿ مَا تَذَرُ ﴾ ولم يقل (ما تترك) .

لأن الفعل (تذر) أدل على الاهتمام بكل شيء دقيق أو كبير فالصغير والكبير سواء فهي لا تمر على شيء مهما كان صغيراً ضئيلاً إلا أحالته وغيرت من طبيعته وقال (تذر) بصيغة المضارع لاستحضار هذه الصورة العجيبة .

وهذا الفعل (تذر) يتوافق مع حال الريح التي هي من أدق الأشياء وأسرعها في الانتشار .

(١) الكشاف ٤ / ٣٩٤ . المحرر الوجيز ٥ / ١٨٠ .

(٢) سيأتي مزيد بيان لما فيها من استعارة ودلالة في باب الصورة .

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٨ / ٥٩٩) .

« وأعرق في النفي فقال : ﴿مِن شَيۡءٍ ﴾ ولما كان إهلاكها إنما هو بالفاعل المختار نبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ ﴾ أي إتيان إرادة مرسلها وأما من أريدت رحمته كهود عليه السلام ومن معه رضي الله عنهم فكان لهم روحاً وراحة لا عليهم »[1] .

وجاءت (من) لتأكيد النفي والنكرة المجرورة بـ(من) نص في نفي الجنس ولذلك كانت عامة إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل لأن الريح إنما تبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البلى ، فإن الريح لا تبلي الجبال ولا البحار ولا الأودية وإنما تبلي الديار والأشجار والناس والبهائم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾[2] .

ولنا أن نفهم من قوله تعالى ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ ﴾ أنها قد حدد لها من الله الشيء الذي تأتي عليه وهذا يفهم منه أن هنالك أشياء لم تأت عليها من الجماد الجبال والبحار والأودية ومن البشر هود ومن آمن معه وقال ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ ﴾ ولم يقل جاءت لأن الإتيان فيه مجيء بسهولة يدل على سهولة مجيئها وسرعته .

وقال (عليه) للدلالة على تسلطها وتمكنها من الشيء الذي مرت عليه وقال تعالى ﴿إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ .

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١) .

والجعل تحويل وتصيير بقوة قاهرة لا يعلم كنهها ، وقد مر بيان ذلك وفي عقوبات الأمم هنا كثيراً ما يستخدم القرآن الكريم هذا الفعل في هذه المقامات التي تحمل التدمير والهلاك الذي يسلط على المعذبين .

وقال تعالى في تشبيه ما تهلكه الريح (كالرميم) والرِّمة تختص بالعظم البالي والحبل البالي الرِّم الفُتاتُ من الخشب والتبن وأرمَّت عظامُه إذا سُحقت حتى إذا نفخ فيها لم يسمع لها دويٌّ[1] .

يقول الطبري : الرميم في كلام العرب : ما يبس من نبات الأرض وديس [2] وهذه الكلمة العميقة في إيحاءاتها تبين لنا أن أقوى شيء في أجساد قوم عاد العظام والعظم هو آخر ما يبقى من الميت ، ولكن هذه الريح قد فتت عظامهم وسحقتها . وهذا يبين لنا دقة المفردة القرآنية المعبرة عن المعاني الكثيرة التي تعطي كل مقام وسياق حقه من البيان دون زيادة أو نقص .

وفي سورة الأحقاف يقول الله تعالى عن قوم هود لما رأوا العذاب .

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الآيات : ٢٤ - ٢٥] .

---

(١) المفردات للراغب كتاب (الراء) ، مادة (رم) ، ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير الطبري (٢٧ / ٩) .

والعارض : السحاب الذي يعترض في ناحية من نواحي السماء ، والعرب تسمي السحاب الذي يرى في بعض أقطار السماء عشياً ، ثم يصبح من الغد قد استوى وحبا بعضه إلى بعض عارضاً ، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حيث نشأ[1] .

كما قال الأعشى :

يا من يرى عارضاً قد بت أرمقه   كأنما البرق في حافاته الشعل[2]

وقال تعالى ﴿ مُّسْتَقْبِلَ ﴾ دون (يستقبل) للدلالة على الحال فهم يشاهدون في هذه اللحظات هذا العارض .

وجملة (هذا عارض ممطرنا) تشير إلى أنهم كانوا في حاجة إلى المطر بدليل ما ورد في سورة هود من قول هود لهم ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [الآية : ٥٢] .

وذكر الطبري فيما روى عن أهل التأويل أنهم حبس عنهم المطر زماناً ، فلما رأوا العذاب مقبلاً ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ وذكر أنهم قالوا : كذب هود فلما خرج إليهم فشامه ، قال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) تفسير الطبري (٢٦ / ٣٢) .

(٢) ديوان الأعشى ، (ط) دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، ص ١٤٦ .

(٣) تفسير الطبري (٢٦ / ٣٢) .

وأطلق على المرئي ضمير العذاب لأن المرئي سبب العذاب وهو ما حملته الريح .

والاستقبال : التوجه قبالة الشيء ، أي سائراً نحو أوديتهم وأودية جمع وادٍ ويطلق الوادي على محلة القوم ونزلهم إطلاقاً أغلبياً لأن غالب منازلهم في السهول ومقار المياه ، وجمع الأودية باعتبار كثرة منازلهم وانتشارها[1] .

وفي تنكير (مستقبل) وإضافته إلى (الأودية) للدلالة على شموله وعمومه لتلك الأودية والمساكن فهو متوجه بسرعة نحوها ، وفي اسم الإشارة التي للقريب ما يؤكد حمقهم في يقينهم بأن هذا العارض ما هو إلا مطر نازل عليهم بالخير والرحمة إنه الجهل والتكذيب الذي استمرَّ بهم حتى آخر لحظاتهم .

ويقال إن هذا العارض خرج عليهم من واد لهم يقال له المغيث ، فلما رأوه استبشروا خيراً[2] . وهذا ما يبين لنا السر في استخدام اسم الإشارة (هذا) دون غيره فهم يشيرون إلى شيء قد عهدوه من قبل وتعودوا عليه وفي اسم الإشارة تصوير لما خالج النفوس من البشاشة والفرح الذي سرعان ما يحين انكشافه فقد انعقد غمام العذاب .

وقالوا (ممطرنا) دون (سيمطرنا) لأنه أبطأ في نفوسهم ، وكلمة (ممطرنا) تبين مدى تأكدهم ويقينهم بأنه مطر وليس بعذاب .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٦ / ٤٩) .

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢٦ / ٣٢) .

فجاء الرد عليهم من هود عليه السلام بقوله ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وبل حرف إضراب يدخل على المفردات والجمل فإن دخل على جملة كان معنى الإضراب إما إبطالياً ، وإما انتقالياً[1] .

وهنا دخلت على جملة وقد جاءت الجملة التي دخلت عليها تبطل معنى الجملة السابقة ومن الوجهة البيانية جاءت بل في موقعها للرد قاطعة سريعة تحمل تنبيهاً عميقاً يجعل من سكر بما اعتقده صواباً يتنبه إلى هذا الرد ولكن قد فات الآوان وقضي الأمر .

وهذا الرد يبين الحسرة والكمد الذي أصاب هوداً في نفسه على قومه المهلكين وهم في آخر لحظاتهم ما زالوا في غيهم ماضين .

وقال ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقد مر تفصيل الحديث في كلمة الريح[2] . وهي هنا نكرة ومفردة وهذا يدل على هولها وقوتها .

« وجعل العذاب مظروفاً في الريح مبالغة في التسبب لأن الظرفية أشد ملابسة بين الظرف والمظروف من ملابسة السبب والمسبب »[3] .

---

(١) معاني النحو (٣ / ٢٢٣) .

(٢) في المتشابه من الآيات .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٥٠) .

وقال تعالى ﴿أَلِيمٌ﴾ ليدل على الاهتمام بعذاب القوم فقد جاءت الريح من أجلهم .

فلن يحصل الألم لتدمير الجمادات وإنما الألم لمن يشعر به ويتجرع غصصه وهم هؤلاء الطغاة من قوم هود .

وقال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ بصيغة المضارع لتصوير الحدث واستحضاره وهي في تدميرها مستمرة دائبة لا تبقى ولا تذر .

والتدمير إدخال الهلاك على الشيء[1] .

أي تخرب كل شيء وترمي بعضه على بعض فتهلكه ، وتلقى بعضهم على بعض صرعى هلكى وإنما عنى بقوله ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ . مما أرسلت بهلاكه ، لأنها لم تدمر هوداً ومن كان آمن به[2] .

وهنا نجد أن (كل) قد تقدمت وهي تفيد العموم .

يقول ابن القيم : « إن (كلاً) إذا تقدمت[3] تقتضي الإحاطة بالجنس ، وإذا تأخرت وكانت توكيداً اقتضت الإحاطة بالمؤكد خاصة ، جنساً شائعاً كان أو معهوداً »[4] .

---

(١) المفردات للراغب (كتاب الدال) ص ١٧٢ .

(٢) تفسير الطبري (٢٦ / ٣٣) .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (١ / ٢١٢ - ٢١٣) .

(٤) كل مع النكرة تكون مؤسسة للعموم .

وهي هنا أفادت العموم ابتداءً ، ولم تدع احتمالاً لغير الإحاطة ، وإذا تأخرت وكانت مؤكدة احتمل الكلام العموم وغيره ، ثم جئت بما يرفع احتمال عدم العموم ثم إنها مع التقدم يمكن التعبير بها للدلالة على الإحاطة والشمول بصورة أوسع مما تقع مؤكدة فإنها إذا وقعت مؤكدة أفادت العموم في المعارف فقط ، أما إذا تقدمت ، فإنها تفيد العموم في النكرات والمعارف مفرداً أو غيره مما لا يصح أن يقع مؤكداً وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

وجاءت بعدها كلمة (شيء) وهي أعم كلمة في الإحاطة .

وقال تعالى ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي مما أرسلت بهلاكه وهذه الجملة حال من ضمير (تدمر) وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كل شيء ، أي تدميراً عجيباً بسبب أمر ربها أي تسخيره الأشياء لها فالباء للسببية[(١)] .

وإضافة الريح للرب للدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته ، لأنها من أعاجب خلقه وأكابر جنوده ، وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه [(٢)] . وقال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ . (فأصبحوا) أي صاروا ، وأصبح هنا من أخوات صار . وليس المراد : أن تدميرهم كان ليلاً فإنهم دمروا أياماً وليالي ، فبعضهم هلك في الصباح وبعضهم هلك مساءً وليلاً[(٣)] .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٦ / ٥٠) .

(٢) ينظر الكشاف (٤ / ٣٠٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٥١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ .

قرأ عاصم ، وحمزة ، ويعقوب ، وخلف لا يُرى بضم الياء على البناء للمفعول (ومساكنهم) بالرفع ، نائب فاعل ، والتقدير : (لا يرى شيء إلا مساكنهم) ولذلك ذكر الفعل ، لأنه محمول على (شيء) المقدر والمساكن نائب فاعل .

وقرأ الباقون (لا تَرى) بتاء فوقية مفتوحة ، على البناء للفاعل ، وهو خطاب للنبي ﷺ ، يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ [الآية : ٢١] وبناء عليه فالفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) والمراد به النبي ﷺ ويجوز أن يكون الخطاب عاماً لكل من يصلح له الخطاب و (مساكنهم) بالنصب ، مفعول به[١] .

ومن هنا نعلم أن القراءة بالتاء ، مفتوحة يجوز أن تكون خطاباً لكل أحد يأتي منه الرؤية تنبيهاً على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم[٢] .

وفيها دلالة على بقاء آثار تلك المنازل والمساكن لقوم عاد إلى عهد النبي ﷺ

وعلى قراءة عاصم وحمزة ، ويعقوب ، (لا يُرى) بالضم التقدير لا يرى شيء منهم[٣] ، وفي البناء للمفعول تصوير لهول غيابهم عن الحياة واختفائهم وأن

---

(١) انظر : النشر في القراءات العشر ٣ / ٣٠٥ .

(٢) ينظر تفسير أبي السعود ٥ / ٥٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز (٥ / ١٠٢) .

تلك الديار اختفت مظاهر الحياة منها لكل ذي روح من الناس والدواب والأنعام والحشرات إنه غياب جماعي وفناء أبدي في الحياة الدنيا .

ولعل هذه القراءة تصور غيابهم تحت الرمال بعد أن صرعتهم الريح يدل على ذلك طبيعة أرضهم فهي أرض ذات رمال وهذا ما تدل عليه كلمة (الأحقاف) .

و« الأحقاف جمع حقف وهو من الرمل ما استطال ولم يبلغ أن يكون جبلاً »[1] . وإياه عنى الأعشى :

يلوذ إلى أرطاة حقفٍ تلُفُّهُ   خريفُ شَمالٍ يتركُ الوجهَ أقتما[2]

فالقراءة الأولى تهتم بالمخاطب والثانية تركز على مشهد الغياب والفناء الذي يتلاءم معه البناء للمفعول فقد ذهبوا من غير رجعة وأصبحت ديارهم ناطقة عن حالهم وحال قصتهم .

وقال تعالى عن قوم هود في سورة الحاقة ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ[3] صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الآيات : ٤ – ٨] .

---

(١) تفسير الطبري (٢٦ / ٢٨) .

(٢) ديوان الأعشى ، ط (دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ) ص ١٨٧ .

(٣) مر الحديث عن هذه الكلمات في المتشابه من الآيات .

وفي قوله تعالى (أهلكوا) دون (هلكوا) بيان لهول ما أحدق بالقوم من النقمة والغضب والبأس الشديد وقال تعالى ﴿عَاتِيَةٍ﴾ فوصف الريح باسم الفاعل أي ذات عتو للدلالة على نسبة هذا الوصف لها لا ينفك عنها حتى أهلكت القوم واستأصلتهم ، فصيغة اسم الفاعل بينت استمرار عتوها طيلة أيام العذاب كلها كما تدل الآيات على ذلك أيضاً . والعتو النبو عن الطاعة(١) .

أي عتت على خزانها في الهبوب فتجاوزت في الشدة والعصوف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد(٢) .

والمعنى المراد أنها عتت على قوم عاد بشدتها فهي قاهرة لا يستطيع أحد أن يمتنع بشيء منها فلا مسكن ولا جبل و لا مكاناً منخفضاً أو محفوراً في الأرض يحجب عنهم عتوها وهذا يبين أنها ريح غير معهودة من قبل لأنها جاءت من علي قدير ، ولذلك حسن البناء للمفعول في قوله تعالى : ﴿فَأُهْلِكُواْ﴾ والله أعلم(٣) .

وقال تعالى : ﴿سَخَّرَهَا﴾ دون قوله (أرسلها) لأنه لما بين تعالى عتوها الشديد جاءت كلمة (سخرها) لتبين أن هذا العتو بتدبير ربها لها وتطويعه لها لهذا الغرض وحتى لا يتطرق إلى الذهن كون هذه الريح قد عتت بنفسها وإنما بتصريف مصرف وتدبير مدبر له مقاليد كل شيء .

---

(١) المفردات للراغب (كتاب العين) ، مادة (عتا) ، ص ٣٢١ .

(٢) تفسير الطبري (٢٩ / ٦٠) .

(٣) حيث إن هذا الإهلاك الغير معهود لا يكون إلا من إله مهيمن عظيم .

والتسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً[١] .

ولكن القول بأن هذه الريح قُهرت حتى تؤدي الغرض كلام غير دقيق فالله تعالى يقول للشيء كن فيكون وكل شيء له طائع منقاد والريح من جنوده وإنما الأحسن أن يقال كما قال البقاعي . التسخير استعمال الشيء بالاقتدار[٢] .

وقال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ دون (لهم) ليدل على أنه تسخير تعذيب لا رحمة فكان المناسب ذكر أداة الاستعلاء (عليهم) .

يقول البقاعي « إن الله كلف الريح وذللها للعذاب فلم يمكنها مع عتوها إلا أن كانت طوع أمره وصنيعة عظمته وقهره ، ولما كانت هذه السورة لتحقيق الأمور وكشف المشكل وإيضاح الخفي ، حقق فيها عذابهم تحقيقاً لم يتقدم مثله فذكر الأيام والليالي ، وقدم الليالي لأن المصايب فيها أفظع وأقبح وأشق لقلة المغيث والجهل بالمأخذ والخفاء في المقاصد والمنافذ ، ولأن عددها مذكر في اللفظ وتذكير اللفظ أدل على قوة المعنى ولذلك جعل المميز جمع كثرة ، ولأنها سبع ، والسبع مبالغ فيه وهو أجمع العدد »[٣] .

وقال تعالى : ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ .

فقال حسوماً – بتغليب الأيام على الليالي .

---

(١) المفردات ، (كتاب السين) ، مادة (سخر) ، ص ٢٢٧ .

(٢) ينظر نظم الدرر (٨/ ١٢٢) .

(٣) ينظر المصدر السابق (٨/ ١٢٢) .

و« يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قعود جمع قاعد وشهود جمع شاهد ، غلب فيه الأيام على الليالي لأنها أكثر عدداً إذ هي ثمانية أيام وهذا له معان منها :

١ - أن يكون المعنى يتابع بعضها بعضاً ، أي لا فصل بينهما والحسوم مشتق من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكي أياماً فيكون إطلاقه استعاره ولعلها من مبتكرات القرآن .

٢ - أن يكون من الحسم وهو القطع أي حاسمة مستأصلة ومنه سمي السيف حساماً لأنه يقطع ، أي حسمتهم فلم تبق منهم أحداً وعلى هذين المعنيين فهو صفة لـ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ أو حال منها .

٣ - أن يكون (حسوماً) مصدراً كالشكور والدخول فينتصب على المفعول لأجله وعامله (سخرها) أي سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام ، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن[١] .

ويرجح الطبري أن معنى (حسوماً) متتابعة لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، وكان بعض أهل العربية يقول : الحسوم (التباع) إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره قيل فيه حسوم[٢] .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٩ / ١١٧) .

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢٩ / ٦٣) .

فهنا نجد أن كلمة (حسوم) قد دلت هذه الدلالات وكان تأكيدها على التتابع أدق لأن السياق لما بين طول العذاب ومكثه جاءت كلمة (حسوم) هنا تبين تتابعه وتواصله من غير فتور أو تراخ ، فاليوم الأول والآخر سواء فما أشده من عذاب كان قد مضى في قوم هود ؟؟ والمفردة القرآنية بعد ذلك تدل على المعاني الثانوية من القطع والاستئصال وحسم الأمر وقضائه وما يحمله المعنى من التصوير وغنى الدلالة .

والخطاب في قوله (فترى القوم فيها صرعى) خطاب لغير معين ، أي فيرى الرائي لو كان رائياً وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة[1] . و(صرعى)[2] جمع صريع وهو الملقى على الأرض ميتاً .

وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ .

أي أيها المخاطب الخبير بالناس في جميع الأمصار (لهم) أي خصوصاً وأعرق في النفي وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال (من باقية) أي بقاء أو نفس موصوفة بالبقاء[3] .

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٩ / ١١٨) .

(٢) بقية الكلمات مرَّ عليها الحديث في المتشابه من الآيات .

(٣) ينظر نظم الدرر (٨ / ١٢٣) .

الفصل الثالث

أسرار تنوع المفردات في تصوير هلاك قوم صالح

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات .

المبحث الثاني : أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات .

المبحث الأول

أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات

أول ما يلحظ من ذلك ما ورد من تنوع الكلمات في ذكر الصاعقة التي حلت بقوم صالح وما ورد من جمع الدار وإفرادها في الآيات الكريمة الآتية من قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، آية ٧٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود ، الآية ٦٧] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [سورة الحجر ، الآية ٨٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [سورة القمر ، الآية ٣١] .

وقبل البدء في بيان أسرار التنوع في الكلمات الواردة في الآيات يلحظ اتحاد الآيات الكريمات في إيراد كلمة الأخذ للظالمين لما في هذه الكلمة من الدلالة على غاية العنف وقوة البطش وسهولة إيراده ، وقد ورد في الآيات على صيغة الفعل الماضي للدلالة على تحققه وسرعة مضائه ، وهو يصور أحداثاً ماضية ، والقرآن الكريم يستعمل هذا الفعل في الهلاك وعقوبات الأمم الغابرة لأنه أدل على معنى الاستيلاء والإحاطة وتمكن الآخذ من

المأخوذ وقال تعالى في سورة القمر ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ ولم يكن الفعل (أخذ) هنا لأن الآية هنا تهون من شأنهم فهم لا يحتملون إلا صيحة واحدة فكان أرسلنا هنا دون الأخذ والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ وهذه الآيات تدل على وقوع العذاب في وقت الصباح بدليل قوله تعالى ﴿ مُصۡبِحِينَ ﴾ أي داخلين في وقت الصباح – إذن فلا مكان لقول الطاهر في سورة الأعراف من أن (أصبحوا) بمعنى صاروا بل هي بمعنى أصبحوا أيضاً فهم قد دخلوا وقت الصباح والعذاب حل عليهم في هذا الوقت وصيرهم إلى هذا الحال[١] .

وقد أحسن البقاعي في تلمس الأسرار البيانية في كلمة (أصبحوا) حيث يقول « فيها زيادة في التخويف والتأسيف بما وقع لهم من التحسر لو أدركه أحد منهم ، لأن الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحاً قادراً على ما يريد من الحركات للاستمتاع بما يشتهي من التصرفات ، فأصبح هؤلاء – بعد هذه الصفة على ما قص الله – خفوتاً أجمعين كنفس واحدة رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً كأنهم لم يكونوا أصلاً »[٢] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٨ / ٢٢٧) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٣ / ٥٥١ .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ ﴾ في سورة الأعراف وقال في سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ [الآية : ٦٧] .

وفي سورة الحجر ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ [الآية : ٨٣] وفي سورة فصلت ﴿ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ ﴾ [الآية ١٧] وقوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية : ٤٤] وقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٣١] .

فمرة قال تعالى الرجفة ومرة الصيحة وقد أخبرت الآيات الأخرى أن عذاب قوم صالح قد كان بالصاعقة فماذا يقصد إذن بالرجفة والصيحة ؟

الرجفة هي الصيحة والرجفة الفعلة ، من قول القائل : رجف بفلان كذا يرجف وذلك إذا حركه وزعزعه[١] كما قال الأخطل :

أما تريني حناني الشيب من كبر كالنسر أرجف والإنسان مهدود[٢]

والرجفة كما يقول الفراء والزجاج الزلزلة الشديدة[٣] .

---

(١) تفسير الطبري (٨ / ٢٧٣) .

(٢) ديوان الأخطل ص (١٤٦) .

(٣) معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، ط (٣) ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، (١ / ٣٨٤) ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج أبي إسحاق إبراهيم السَّري ، تحقيق د/ عبد الجليل عبده شلبي ، ط (١) ، بيروت - لبنان ، عالم الكتب ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (٢ / ٣٥١) .

والصيحة ارتفاع الصوت[1] . يقول الطاهر بن عاشور « الرجفة اضطراب الأرض وارتجاجها فتكون حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق ، وتكون من أسباب أرضية كالزلازل ، فعلمنا أن الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم صعقين ، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية »[2] .

والذي يظهر - والله أعلم - أن الصاعقة التي ذكرها الله تعالى في سورة فصلت والذاريات صاعقة طاغية متجاوزة للحدود وهي من شدة آثارها قد أحدثت معها صوتاً عظيماً فلذلك سميت بالصيحة في سورة هود والحجر والذاريات وهذا الصوت العظيم من قوته وشدته أحدث للأرض رجة وزلزلة عظيمة جعلها ترتجف بمن فيها ، ولذلك سميت بالرجفة في سورة الأعراف فمن هنا يعلم مدى الدقة في أداء المعنى البياني عبر تلك المفردات القرآنية التي تصف شيئاً واحداً فتلك المعاني كلها تعبير عن آثار ومظاهر تلك الصاعقة التي أصابت قوم صالح ، ولا أرى بعد ذلك مناسبة لقول من ذهب إلى أن الأرض زلزلت قوم صالح محاولاً الجمع بين [3] الرجفة والصاعقة وهما شيء واحد ، ويرى ابن جماعة أن ابتداء عذابهم كانت زلزلة عظيمة ثم صيحة عظيمة قطعت أكبادهم فماتوا جميعاً وقيل . لأن الزلزلة لا تخلو عن صيحة[4] .

---

(١) ينظر : المفردات للراغب ، كتاب (الصاد) ، مادة (صاح) ، ص ٢٨٩ .

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٦) .

(٣) ممن ذهب إلى ذلك الألوسي . ينظر روح المعاني (٤/ ٤٠٣) .

(٤) كشف المعاني في المتشابه من المعاني ص ١٨٢ .

وفي هذا بعد ولعل ما سبق من تخريج يكون الأقرب .

وقال تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية : ٧٨] فوحد الدار هنا وقال تعالى في سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية : ٦٧] فجمع الدار وفي تأويل هذا وجوه ، منها : أن توحيد الدار يذكر في كل مكان ذكر في ابتدائه (١) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ « وإلى مدين أخاهم شعيباً » ولم يذكر إخراج النبي ومن آمن معه من بينهم ، فجعلهم بني أب واحد ، وجعلهم كذلك أهل دار واحدة ، ورجا أيضاً أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة وكل موضع أخبر عن تفريقه بينهم ، وإخراج النبي ومن آمن منهم معه ، أخبر عنهم الإخبار الدال على تفرق شملهم وتشتت أمرهم ، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة ، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾(٢) [سورة هود ، الآية : ٩٤] .

---

(١) لم تطرد هذه القاعدة في القرآن الكريم فقد ورد جمع الدار مع ابتداء قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ سورة هود الآية (٦٧) .

(٢) ينظر : درة التنزيل ص ١١٥ .

ومن الأوجه أن جمع الديار يناسبه عموم الصيحة لأن الصوت يبلغ أماكن كثيرة وينتشر بسرعة وأما الرجفة فلكونها تختص بالمكان الذي حصلت فيه فإنه قد ناسبها وتناسب معها إفراد الدار لقد اتصل كل واحد بما هو أليق[1]

وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد هذا التوجيه حيث عبر بالرجفة في سورة الأعراف التي أفردت (الدار) وعبر بالصيحة مع الجمع في سورة هود .

هذا ولم تقف الأسرار عند هذه اللمسات ، بل تتسع أيضاً لتشمل وجهاً آخر بديعاً وذلك في النظر إلى نوع الخطاب وهو مختلف في السورتين إذ كان خطاب النبيين في سورة الأعراف خاصاً ، موجهاً إلى الملأ المستكبرين من قومهما ، أغفل فيه أتباعهما من المستضعفين والرعاع ممن لا رأي لهم ، فقال في قصة صالح :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٨] .

فلما كان الملأ الذين استكبروا هم الذين استبدوا بالرأي دون عامة قومهم ، وغلبوا الضعفاء على أمرهم ، فلم يقيموا لهم وزناً ، وحادوا الله بعقر ناقته ، كان العذاب موجهاً إليهم أصالة ، وإن لم ينج منه غيرهم من الذين ظلموا أنفسهم

---

(١) ينظر ملاك التأويل (١ / ٥٣٤) . البرهان في متشابه القرآن ص ١٩١ .

بالخنوع والاستسلام لرأي طغاتهم ، فجاء توحيد الدار متناسباً مع هذا الخطاب الذي وجه فيه الحوار إلى الملأ من المستكبرين وكان العذاب موجهاً إليهم خاصة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ وهو نفس السياق في قصة شعيب من هذه السورة . والقرآن قد قابل قلة المخاطبين من الملأ بالإفراد إيماءً إلى أنهم هم الذين غلبوا ضعفاءهم على أمرهم واستبدوا بالرأي دونهم ، فكانوا أحق بالعذاب وأهله أما في سورة هود فقد كان الخطاب عاماً ، والحوار بين النبيين وأقوامهما ، وليس بينهما وبين الملأ من قومهما ، فاقتضى ذلك مجيء الديار بصيغة الجمع لتناسب صيغة العموم في الخطاب ، فهذا صالح عليه السلام يوجه خطابه إلى قومه عامة دون أن يخص الملأ منهم : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [الآية : ٦١] وجاء الجواب على لسان قومه عامة : ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] .

فلما كان هذا هو رأي القوم الذي تواطأ عليه عامتهم جاء الإخبار بهلاكهم بصيغة العموم وهي الجمع[(١)] ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ .

ومن هنا نعلم مدى اتساع وثراء البيان القرآني في استعمال الصيغ وتنوعها من إفراد إلى جمع على حسب مقتضيات السياق وكل الذي مر لا تدافع بينه فكل

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، د/ محمد الأمين الخضري ص ٢١٨ – ٢١٩ .

وجه يكمل ما في غيره ولعل توحيد الدار مع الرجفة لبيان شمولها وعمومها لأنها تختص بمكان معين في العرف ، فالإفراد هنا يبين سهولة بلوغ الرجفة لكل أراضيهم وأنه أمر هين فوحد الدار ولم يجمعها لبيان الشمول وأن تلك الديار أصبحت كالدار الواحدة في عرف هذه الرجفة لتمكنها منهم ومن ديارهم .

ومن المتشابه من الآيات قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٦٤] وفي الشعراء ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الآية : ١٥٦] .

يقول الكرماني هنا لما بولغ في الوعظ في سورة الأعراف : كانت المبالغة في الوعيد فقال ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفي هود لما اتصل بقوله ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ وصفه بالقرب فقال ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وزاد في (الشعراء) ذكر اليوم لأن قبله ﴿ لَّهَا شِرۡبٌ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴾ . والتقدير (لها شرب يوم معلوم ، ولكم شرب يوم معلوم) . فختم الآية بذكر اليوم فقال ﴿ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾[١] .

---

(١) البرهان في متشابه القرآن للكرماني ص ١٩٠ - ١٩١ .

المبحث الثاني

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات

١ - يقول الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (الآيات) أسند فعل العقر هنا إليهم جميعاً وهو لبعضهم كما جاء في سورة القمر ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [الآية : ٢٩] .

إسناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبيء بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم « فعقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق ، وكذلك روي أن قداراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان ، فلما أجمعوا تعاطى فعقر[(١)] . واستعمل النظم العقر دون النحر وإن رأى بعض المفسرين أنه كناية عن النحر »[(٢)] .

يقول الراغب : عقرت البعير نحرته وعقرت ظهر البعير فانعقر[(٣)] . والحقيقة أن العقر يختلف عن النحر يقول ابن فارس العين والقاف والراء : أصلان متباعد ما بينهما ، وكل واحد مطرد في معناه ، جامع لمعاني فروعه .

---

(١) المحرر الوجيز (٢ / ٤٢٣) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٩ / ٢٢٥) . تفسير أبي السعود (٢ / ٢٦٧).

(٣) المفردات للراغب ، كتاب العين .

فالأول : الجرح أو ما يشبه الجرح من الهزم في الشيء . والثاني دال على ثبات ودوام فالأول قول الخليل : العقر كالجرح ، يقال : عقرت الفرس ، أي كسعت قوائمه بالسيف ، وفرس عقير ومعقور وخيل عقرى »[1] .

ومن هنا يعلم أن معنى العقر الجرح يدل على ذلك من الشعر قول امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل[2]

فهو يعني الجرح باحتكاك الغبيط في ظهره من ميله إلى جهة .

فيكون المعنى أنه قبل النحر كان هنالك عقر بجرح الناقة إما بسهم أو شيء أو قطع لقوائمها حتى يتمكن من نحرها بعد ذلك ، وما رواه الطبري من آثار تشير إلى ذلك حيث يقول أن قداراً قاتل الناقة قد كمن لها في أصل صخرة على طريقها وكمن لها آخر اسمه مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وأما قدار فشد عليها بعد ذلك بالسيف فكشف عرقوبها فخرت[3] .

وكلمة العقر تحمل دلالات بيانية عميقة فلذلك كانت أنسب هنا من كلمة النحر فالعقر فيه بيان للوحشية في القتل وعدم الرفق والترصد في خفية .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (عقر) (٤ / ٩٠) .

(٢) ديوان امرئ القيس ، (ط) دار صادر ، بيروت ، ص ٣٤ .

(٣) ينظر تفسير الطبري (٨ / ٢٦٨) .

أما الناحر فإنه ينحر بهدوء واطمئنان لتمكنه من الشيء ، والعقر يوحي أيضاً بأن المعقور يتسم بالقوة والضخامة ، فقدار – كما مر في الرواية التي ذكرها الطبري – لم ينل منها وجهاً لوجه بل كان بعد أن رميت بسهم . فقد تهيج عليه الناقة فلا يتمكن منها لو لم يكن هنالك تمهيد للمواجهة .

وفي اللغة يقول ابن فارس« أما قولهم : ما رأيت عقيرة كفلان ، فإنه يراد الرجل الشريف ، فالأصل في ذلك أن يقال للرجل القتيل الكبير الخطير(١).

ولاشك أن كلمة العقر تشير من بعيد إلى هذه الدلالات ، فالناقة عظيمة لأنها من عند الله فهي تضاف إلى اسم الجلالة (ناقة الله) لكونها آية من آيات الله الدالة على صدق رسالة نبيه .

وقد أحسن البقاعي رحمه الله تعالى في تلمس الفرق بين النحر والعقر .

حيث يقول : عبر بالعقر دون النحر لشموله كل سبب لقتلها والعقر يستعمل في الفساد وأما النحر فيستعمل غالباً في الانتفاع بالمنحور لحماً وجلداً وغيرهما ، فلعل التعبير به دون النحر إشارة إلى أنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها عتواً على الله وعناداً وفعلاً للسوء مخالفة لنهي صالح عليه السلام(٢)

ولم يرد في قصة صالح عليه السلام في القرآن الكريم في شأن إهلاك الناقة غير كلمة العقر كما يتضح في الآيات الكريمة الآتية : فقد ورد في سورة هود قوله

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة (عقر) (٤ / ٩٣) .

(٢) ينظر نظم الدرر (٣ / ٥٩) .

تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [الآية : ٦٥] .

وقوله تعالى في سورة الشعراء﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ [الآية: ١٥٧].

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٢٩] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [سورة الشمس ، الآية : ١٤] .

وهكذا قد انتظم النظم الحكيم على هذه الكلمة ولم ترد كلمة (النحر) لما في هذه الكلمة من دلالات بيانية تتوافق مع السياق كما مر بيان ذلك والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ والعتو كما مر بيانه هو تجاوز الحد في كل شيء وهنا بيان لتجاوز الحد في الكبر والإعراض وعدي هذا الفعل (بعن) التي تعني المجاوزة والابتعاد فهم قد تجاوزوا شيئاً ظاهراً ما كان ينبغي لهم ذلك . بعد أن ضرب الله لهم آية بينة .

« وتعدية الفعل (بعن) لتضمينه معنى الإعراض ، وأمر ربه هو ما أمرهم به على لسان صالح عليه السلام من قوله ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ فالتعبير بالنهي عن الشيء مقصود منه الأمر بفعل ضده »[١] . ولكن الأمر يتجاوز هذا إلى معان أكبر من أجلها جاءت الناقة لتكون آية دالة عليها وهي عبادة الله وحده لا شريك

---

(١) التحرير والتنوير (٨ / ٢٢٦) .

له وتصديق نبيه المرسل ، لذلك جاء العطف بالواو دون غيره من حروف العطف فقال تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ والآية هنا تعدد جرائم قوم صالح ، وكان استخدام حروف العطف في تعداد الجرائم والمقاربة بين المتعاطفين هو الأنسب في هذا المقام فكأن عقر الناقة جريمة مستقلة ، والعتو عن أمر الله تعالى جريمة أخرى مستقلة ، والدليل على ذلك أنه عطف بحرف الواو وإن كان العتو سببه (قتل الناقة) ولكن النظم الحكيم أراد بيان أن قتل الناقة لم يكن إلا بسبب العتو عن أمر ربهم ، أي أن السبب الأكبر في هذا الفعل هو محبة مخالفة أمر الله والعتو عليه وعلى رسوله ، وفي ذلك دلالة على أن العتو على الله أكبر من قتل الناقة فكان العطف بالواو إذ لا يعقل إفناء أمة بأكملها من أجل قتل ناقة بل كان السبب في ذلك مجاوزة حدهم مع ربهم مع وضوح الآيات والبراهين .. والله أعلم .

وما زال العطف يتوالى في بيان ازدياد القوم في العتو والمجاوزة فكأنها الجريمة الثالثة .

حيث يقول تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وفي هذا وصول إلى الغاية المسدودة مع نذر ربهم ، فلم يكتفوا بقتل الناقة والعتو على أمر الله بل زادوا الاستعجال بنزول العذاب ، فقالوا ائتنا بما تعدنا وفي صيغة الأمر معاني التحدي والاستهزاء وعدم التصديق بها وعدهم بل استخفوا بكل ما قال لهم وقالوا (ائتنا) دون (جئنا) لأن الفعل أتى يدل على الإسراع بالشيء .

وكأنهم يقولون لو كان هذا سيحصل فليكن من الآن .

« وأرادوا ﴿ بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ العذاب الذي توعدهم به مجملاً ، وجيء بالموصول للدلالة على أنهم لا يخشون شيئاً مما يريده من الوعيد المجمل، فالمراد بها تتوعدنا به وصيغت صلة الموصول من مادة الوعد لأنه أخف من مادة الوعيد »[1] . ثم ختموا عبارتهم مع صالح عليه السلام بقولهم ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

باستخدام حرف (إن) الدال على الشك في حصول الشرط . أي إن كنت من الرسل عن الله ، فالمراد بالمرسلين من صدق عليهم هذا اللقب وهؤلاء لجهلهم بحقيقة تصرف الله تعالى وحكمته ، يحسبون أن تصرفات الله كتصرفات الخلق .

فإذا أرسل رسولاً ولم يصدقه المرسل إليهم غضب الله واندفع إلى إنزال العقاب إليهم ، ولا يعلمون أن الله يمهل الظالمين ثم يأخذهم متى شاء . وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ[2] جَٰثِمِينَ ﴾ وهنا نجد جملة (فأخذتهم الرجفة) قد جاءت معترضة بين جملة (فعقروا الناقة) وبين جملة (فتولى عنهم) أريد باعتراضها التعجيل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم بعقب عتوهم وهذا يدل على أنه لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويل[3] .

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٦) .

(٢) سبق الحديث عن هذه الكلمات في المتشابه من الآيات .

(٣) ينظر المصدر السابق (٨/ ٢٢٦) .

وقال تعالى ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ يعني : سقوطاً صرعى لا يتحركون لأنهم لا أرواح فيهم قد هلكوا ، والعرب تقول للبارك على الركبة (جاثم)[١] .

وفيه قول جرير :

عرفت المنتأى وعرفت منها   مطايا القدر كالحدإ الجثوم[٢]

يقال : جثم الطائر أي تلبد بالأرض ، ويجثُمُ جثوماً ، وكذلك الإنسان ، والمجثمة المصبورة إلا أنها في الطير خاصة والأرانب وأشباه ذلك تجثم ثم ترمى حتى تقتل ، وقد نهي عن ذلك[٣] . فالجثوم يعني اللصوق بالأرض على الركب والوجوه كما يجثم الطائر وأصل الجثوم للأرنب وشبهها[٤] .

وهذه الكلمة توحي لنا وتصور فظاعة الهيئة التي آلوا إليها بعد أن جاءتهم الصاعقة فقد وقعوا على وجوههم ولصقت ركبهم بالأرض مع وجوههم حيث أصبحوا جثثاً هامدة ميتة على أبشع منظر لميت ، وهذه الكلمة تصف حقارة ميتتهم فهي ميتة الذل والهوان .

وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ ﴾ ولم تكن هنا كلمة (الانصراف) لأن كلمة

---

(١) تفسير الطبري (٨ / ٢٧٣) .

(٢) ديوان جرير ، (ط) دار صادر ، بدون تاريخ ، بيروت ، ص ٤١١ .

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ، ط (١) بيروت ، دار الفكر ١٤١٨ هـ -١٩٩٨ م (٢ / ١٣٩٥ -١٣٩٦) .

(٤) ينظر القاموس المحيط واللسان ، مادة (جثم) .

التولي تقتضي اليأس منهم وأنهم مهلكون هذا إذا كان المعنى قبل أن ينزل بهم العذاب ، وأما إذا كان بعد هلاكهم فهم قد هلكوا وقضوا ، والتولي عن شيء كالجماد لا فائدة منه مع إفادة الحسرة والندم على ما أصابهم ، قال تعالى عن نبيه ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ ظاهر العطف بالفاء هنا يدل على أن التولي كان بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم[1] . ويكون الخطاب للقوم هنا مثل مخاطبة النبي محمد ﷺ لأهل قليب بدر حيث نادى قائلاً : « يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال عمر : يا رسول الله ، تخاطب قوماً قد جيفوا ! فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم »[2] .

ومن هنا يلحظ أن مجيء النداء وذكر كلمة (قومي) للموتى مفقود في هذه الكلمة لأنها كما يقول الرازي من الاستقلال بالقيام وذلك في حق الميت مفقود[3] .

وإذا كان القوم قد أدركوا كلمة صالح عليه السلام بعد توليه عنهم وأن الله قد أسمعهم ما قال أدركنا سر مجيء النداء وذكر القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم

(١) البحر المحيط ٤ / ٤٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب المغازي (حديث رقم ٢٩٧٦) ، وكذا مسلم (٧٨) (٢٨٧٥) من حديث أبي طلحة .

(٣) ينظر تفسير الرازي ٥ / ٣٠٩ .

والله أعلم ، وقال ﴿ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ ولم يقل (رسالات) لأنه لم يقع في قصة صالح غير تعريفهم بأمر الناقة وأمرهم برعيها[1] .

وقال ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ وهذه العبارة فيها قصر للفعل مع تعديته باللام للدلالة على أنه خاص بهم .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ عبر بالفعل المضارع هنا لحكاية الحال الماضية . ويدل استعمال الفعل المضارع على أنهم يستمرون على هذا الفعل وهذه الطبيعة ، وأن هذا هو ديدنهم في كل زمان وحال .

واستعمل اسم الفاعل (الناصحين) للدلالة على دأبه في نصحهم واستمراره على ذلك لا ينفك عنه أبداً ، فهو لم ييأس من دعوتهم حتى آخر لحظاتهم فحسن هنا اسم الفاعل دون غيره .

وقال تعالى عن قوم صالح في سورة هود : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [الآية : ٦٨] .

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٣٨ .

وفي قوله ﴿ وَيَـٰقَوۡمِ ﴾ في النداء لهم هنا لفت لإقبال أذهانهم لوعي كلامه وأضافهم إليه لترقيق قلوبهم واستنزال طائر نفورهم فهو لا يريد لهم إلا الخير والهدى .

وقال ﴿هَـٰذِهِۦ ﴾ مشيراً إلى الناقة بعد تكوينها تحقيقاً لها وتعظيماً لشأنها وشأنه في عظيم خلقها وسرعة تكوينها لأجلها .

ولما أشار إليها سماها فقال ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ شرفها بالإضافة إلى الاسم الأعظم ودل على تخصيصها بهم بقوله ﴿لَكُمۡ ﴾ حال كونها ﴿ ءَايَةً ﴾ أي لمن شاهدها ولمن سمع بها وصح عنده أمرها .

وقال ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ أي اتركوها ولو على أدنى وجوه الترك .

وقال ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ أي مما أنبت الله الذي له كل شيء ، وهي ناقته كما أن الأرض كلها مطلقاً أرضه والنبات رزقه ، ولذلك أظهر لئلا يختص أكلها بأرض دون أخرى ، ولما أمرهم بتركها لذلك ، أكد الأمر بنهيهم عن أذاها فقال ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ ﴾ فضلاً عما بعد المس[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا[2] فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ [الآية : ٦٤ – ٦٥] واستعمل النظم

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣ / ٥٧) .

(٢) قد مر الحديث عن هذه الكلمات فيما سبق في المتشابه من الآيات .

كلمة (تمتعوا) ولم يقل تنعموا – لأن المتاع ما ينتفع به إلى أجل محدود ثم يأتي عليه الفناء وأما النعيم فإنه لا يكون إلا لشيء فيه لذة وسعادة أبدية كنعيم الجنة وهؤلاء متاعهم أصبح معدوداً بثلاثة أيام فما أقله من وقت وما أعظم حسرتهم بعد ذلك !

وقال تمتعوا ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ ولم يقل دياركم لأن في الإفراد هنا تحقيراً من شأنها وشأنهم ولبيان استوائهم جميعاً في الظلم والاستكبار فهم أهل دار واحدة قد جمعتهم على الإثم والعدوان .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ « إشارة إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها وما فيه من معنى البعد للتفخيم »(١) .

وقال تعالى : ﴿ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ والمكذوب : الذي يخبر به الكاذب يقال : كذب الخبر إذا اختلقه(٢) ، وصيغة المفعول هنا تدل على الفاعل ، فالمكذوب الذي يخبر به الكاذب فهذا الوعد وعد مثبوت ليس هناك اختلاق لهذا الوعد أو مختلق له على هيئة الكذب والتصنع ، وتدل هذه الصيغة على استمرار ثبوت الكذب فيه لو كان مختلقاً لأنه لو كان كذباً ما حصل هذا الوعد فيبقى موسوماً بالكذب طيلة الدهر .

---

(١) روح المعاني (٦ / ٢٩٨) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ١١٣) .

وقال تعالى عن نجاة نبيه ومن معه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ .

جاء الفعل المضعف هنا (نجّينا) دون أنجينا لأنه هنا كما مر بيان ذلك مراراً مع قوم نوح عليه السلام فيه بيان لعظمة تلك النجاة فقد نجى الله نبيه ومن معه في أرض ثمود بعدما نزل العذاب وأحاط بقوم صالح وأهلكهم ، بدليل ذكر خزي العذاب وإضافته إلى ذلك اليوم والوقت فنجاة صالح ومن معه احتاجت إلى قدرة قادر عظيم وعزة عزيز مجير ، ولذلك امتن الله عليهم بهذه النجاة فقال ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ لأن هذا لا يكون إلا من القادر المتقدر .

فناسب إيراد الفعل (المضعَّف) هنا دون الفعل (أنجينا) لهذه الدلالات دلالة إحاطة العذاب ونجاة المنجى من هذا العذاب المحيط .

ونزول الرحمة على من أنجاهم الله بالخلاص من أهل الكفر والفساد وتعدد الفضائل والنعم تتوافق معها صيغة الفعل المضعّف . والله أعلم .

وختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ .

والخطاب هنا للرسول ﷺ وقوله ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي القادر على كل شيء والغالب عليه في كل وقت ويندرج في ذلك الإنجاء والإهلاك في ذلك اليوم[1] وخَتمْ الآية بصفتي القوة والعزة مناسب لمعاني الإهلاك والانتقام من

---

(١) روح المعاني ٦ / ٢٨٩ .

المعرضين وفي ذلك تعريض بكفار مكة وتهديد لهم .

وقال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ وهنا نجد أن الله تعالى قد شبه ثموداً بعد هلاكها بحالة عدم غنائها في ديارها وبلادها ، وذلك من شدة الهلاك الذي أصابهم وكأن هنا مخففة .

واستعملت (كأن) هنا دون غيرها من أدوات التشبيه لأن فيها بياناً لقوة الشبه بحيث أن من يجهل وجودهم السابق يشك في أصل وجودهم بعد هلاكهم .

وقال ﴿ يَغْنَوْاْ ﴾ بالفعل المضارع ليدل على استحضار الحياة التي كانت تموج بالحركة والعطاء والنمو والازدهار في ظل تلك النعم والخيرات التي كانوا فيها ولذلك قال ﴿ يَغْنَوْاْ ﴾ دون كلمة (يقيموا) لأن المقيم قد يقيم على فقر وقلة وشقاء أما هؤلاء فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، كما أخبر عنهم القرآن الكريم وكلمة (يغنوا) من الغناء وأصله الاكتفاء .

وقال ﴿ فِيهَا ﴾ ولم يقل (منها) ليدل على تمكنهم من كل الخيرات في دارهم وانغماسهم فيها ولهوهم .

وفي قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ . استعمل النظم (ألا) ومعناها التنبيه[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ ثمود ﴾ قرأ حفص ، وحمزة ، ويعقوب بغير تنوين على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، على إرادة القبيلة ، ويقفون على الدال بلا

---

(١) مرَّ تفصيل القول فيها فيما سبق .

ألف وقرأ شعبة والباقون (ثمود) بالتنوين ، مصروفاً على إرادة الحي والوقف على (ثمود) بالألف[1] .

وتوجيه الصرف على إرادة الحي والمنع على إرادة القبيلة لا يعني شيئاً بالنسبة للتوجيه البياني للقراءتين وأجد توجيه البقاعي رحمه الله تعالى للقراءتين هنا أنسب حيث يقول قراءة الصرف دالة على الاستخفاف بهم لطيشهم في المعصية وترك صرفهم فيه إيذان بدوام لبثهم في الطرد والبعد[2] .

وعن عذاب وهلاك قوم صالح عليه السلام يقول الله تعالى عنهم في سورة القمر : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ .

إرسال الناقة هنا إشارة إلى قصة معجزة صالح حيث أخرج الله لهم ناقة من صخرة وكانت تلك المعجزة مقدمة الأسباب التي عُجل لهم العذاب بسببها فذكر هذه القصة في جملة البيان توطئة وتمهيداً .

والإرسال مستعار[3] لجعلها آية لصالح ، وقد عُرف خَلْق خوارق العادات لتأييد الرسل باسم الإرسال في القرآن كما قال تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ .

---

(١) انظر : النشر في القراءات العشر ٣ / ١١٧ . الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٥٣٣ . المعنى في توجيه القراءات العشر ٢ / ٢٥٢ .

(٢) نظم الدرر ٣ / ٥٥١ .

(٣) في جعل الاستعارة في الإرسال هنا تكلف وهو من كلام الطاهر بن عاشور .

فشبهت الناقة بشاهد أرسله الله لتأييد رسوله . وهذا مؤذن بأن في هذه الناقة معجزة وقد سماها الله آية[1] .

وجاءت الجملة مؤكدة وكانت جملة اسمية لزيادة التوكيد والتقرير ، فالقوم كانوا يرمون صالحاً بالكذب في الآيات السابقة على هذه الآية في قولهم : ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [الآية : ٢٥] وقوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [الآية : ٢٦] .

جاءت الجملة بعد هذا مؤكدة ودالة على معنى الاستقبال فالقوم لما أصبحوا في ريب وتردد وشك من أمره طلبوا منه آية تبين صدقه فحسن مجيء التأكيد في الجملة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ ﴾ ثم إنه جاء تعريف الناقة بـ(ال) العهدية للإشارة إلى شروطهم التي اشترطوها في تلك الناقة حينما طلبوا تحديدها وتحديد أوصافها ومكان خروجها من صخرة محددة عينوها بأنفسهم .

فجاء التأكيد هنا على أبلغ وجه ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ ﴾ فإن والجملة الاسمية جاءت لمعاني التقرير والتوكيد لهذا الأمر وأن قوله تعالى قبل (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) يشير إلى مجيء الناقة تصديقاً لصالح وفتنة لقومه وأنهم هم الذين سيكذبون ويجحدون الحق والآيات البينات .

وقوله ﴿ مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ ﴾ « فيه تحقيق الأمر وتقديره ، كأنه وقع وكان بخلاف

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٧ / ١٩٨) .

ما لو قيل (إنا نرسل الناقة) »[1] .

وفي صيغة اسم الفاعل ﴿ مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ ﴾ تقريب لزمن الاستقبال من زمن الحال (وفتنة لهم) حال مقدرة ، أي تفتنهم فتنة هي مكابرتهم في دلالتها على صدق رسولهم وتقدير معنى الكلام : إنا مرسلوا الناقة آية لك وفتنة لهم .

وقال تعالى : ﴿ ارتقب ﴾ ولم يقل (ارقبهم) لأنه أبلغ دلالة من (رقب) لزيادة المبنى فيه والارتقاب : الانتظار ، وعدي إلى ضميرهم على تقدير مضاف يقتضيه الكلام ؛ لأنه لا يرتقب ذواتهم وإنما يرتقب أحوالاً تحصل لهم . وهذه طريقة إسناد أو تعليق المشتقات التي معانيها لا تسند إلى الذوات ، فتكون على تقدير مضاف اختصاراً في الكلام واعتماداً على ظهور المعنى ، وذلك مثل إضافة التحريم والتحليل إلى الذوات في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ [المائدة : ٣] ، والمعنى : « فارتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة »[2] .

وفيه معنى من ينتظرهم انتظار من يحرسهم وهو عالم عليم فإنهم واصلون بأعمالهم إلى الداهية .

وقال تعالى : ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ دون (اصبر) لأنه أقوى منه دلالة .

أي اصبر صبراً لا يعتريه ملل ولا ضجر ، أي اصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم ، وحذف متعلق (اصطبر) ليعم كل حال تستدعي الضجر .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٨ / ٣٠٩) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ١٩٩ – ٢٠٠) .

والتقدير : واصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من انتظار[1] النصر

وكلمة الاصطبار تشير إلى أنه سيواجه مع هؤلاء القوم العنت والأذى ، فهم قوم قد بلغ بهم الكبر والبطر مبلغاً عظيماً .

وقال تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ ولم يقل (أخبرهم) للدلالة على أن هذا النبأ أمر عظيم وخطير وقال ﴿ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ فعرف (الماء) للعهد ، أي ماء بئرهم ماء القرية الذي يستقون منه ، وفي هذا إشارة إلى أنه أفضل ماء يشربون منه وتشرب منه أنعامهم ، ولو كان هو الوحيد لكانت فتنتهم أكبر .

« وأخبر عن الماء بأنه (قسمة) والمراد مقسوم فهو من الإخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة »[2] ولما ذكرت الناقة عُلم أنها لا تستغني عن الشرب فغلب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة ، وإذْ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء ، وقد جاء في آية سورة الشعراء : ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الآية : ١٥٥] .

وهذا مبدأ الفتنة فقد روي أن الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كله فشحوا بذلك وأضمروا حلدها عن الماء فأبلغهم صالح أن الله ينهاهم عن أن يمسوها بسوء .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٠) .

(٢) المصدر نفسه (٢٧ / ٢٠٠) .

و(المحتضَر) بفتح الضاد اسم مفعول من الحضور وهو ضد الغيبة والمعنى محتضر عنده فحذف المتعلق لظهوره ، أي لا يحضر القوم في يوم شرب الناقة ، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم[١] .

ويلحظ أن (محتضر) اسم المفعول هنا يدل على أن هذا الأمر ثابت لا يتغير فليس لمدة معينة كشهر أو شهرين ولو كان المراد ذلك لكان التعبير بغير اسم المفعول بأن يقول مثلاً (يحتضر) بصيغة الفعل ، لأنه قد يكون هنالك تغيير للأمر فيما بعد ، ولكنه أمر ثابت مستمر ، وفي هذا فتنة لهم لأنهم لن يصبروا على هذا الحال .

وقال ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ ﴾ التعبير بالصاحب فيه إشارة إلى رضاهم بما سيقدُم عليه ، وكان نداؤهم فيه حث له وتشجيع ويدل ذلك على أنه كان أجرأهم على هذه الفعلة الشنيعة غير مبالٍ بما حذرهم وتوعدهم به صالح عليه السلام .

وقال تعالى ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ والتعاطي في اللغة التناول : تناول ما لا يحق ولا يجوز تناوله يقال : تعاطى فلان ظلمك وتعاطى أمراً قبيحاً ، والمعنى في الآية فتعاطى الشقي عقر الناقة فبلغ ما أراد ، وقيل : تعاطيه جرأته ، وقيل قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها[٢] .

---

(١) المصدر السابق (٢٧ / ٢٠١) .

(٢) ينظر اللسان مادة (عطا) (١٥ / ٧٠) .

والحقيقة أن هذه الكلمة وصيغتها تفاعل .

تصور لنا تخوف القوم من قتل الناقة لما أنذرهم صالح عليه السلام من أن يمسها أحد بسوء فيأتيهم عذاب الله ، فهذا الفعل يوحي بتردد غير القاتل فكل واحد من أصحابه الذين قرروا قتلها يحجم عن مباشرة الفعل ويشير إلى غيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه قدار فتناول فعقر[1] .

وهذا الفعل يصور لنا مشي قدار على رؤوس أصابع رجليه ورفع يديه بالسلاح حتى يلحق المقتل في الناقة ليضربها وهذا الفعل يعني المباشرة والاجتراء .

ثم يبين الله تعالى أن هؤلاء القوم لم يحتاجوا في العقاب إلا إلى صيحة واحدة وهذا يدل على عظمتها فهي خارقة للعادة إذ أهلكت القبيلة كلها وكانوا بمعنى صاروا ، وتجيء (كان) بمعنى (صار) حيث يراد بها كون متجدد لم يكن من قبل .

وقال تعالى : ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ .

والهشيم كسر الشيء الرخو كالنبات قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾ ويقال هشم عظمه ومنه هشمت الخبز[2] .

---

(١) ينظر بتصرف : التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٢) .

(٢) المفردات للراغب (كتاب الهاء) ، مادة (هشم) ، ص ٥٤٣ .

وقال المحتظر : والحظر : جمع الشيء في حظيرة والمحظور الممنوع والمُحْتَظِرُ الذي يعمل الحظِيرَة[1] .

فهذه الكلمة تصور ما آلوا إليه فقد أصبحوا مثل ما يتخذ في الحظائر فيتكسر لطول الزمان وتطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم فلو سفته الريح لطار معها .

(١) المفردات (كتاب الحاء) ص ١٢٣ .

الفصل الرابع

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم لوط وقوم شعيب عليهما السلام

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات في تصوير هلاك قوم لوط .

المبحث الثاني : أسرار تنوع المفردات واصطفائهافي غير المتشابه من الآيات في تصوير هلاك قوم لوط .

المبحث الثالث : أسرار تنوع المفردات في تصوير هلاك قوم شعيب .

المبحث الأول

أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات

أول ما يلحظ من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وفي سورة النمل قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ وفي سورة العنكبوت يقول الله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ وفي سورة النمل ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وقد اتفقت السورتان في مطلع الآي .

وفي هذا التنوع يقول (الخطيب الإسكافي) : المسرف يجهل بإسرافه والجاهل مسرف في أفعاله ، إذ الإسراف مجاوزة الحد الواجب إلى الفساد ، فيجوز أن يكون لوط عليه السلام لما كانت له مع قومه مقامات قال في بعضها هذا اللفظ ، وقال في المقام الآخر اللفظ الثاني ولم يناف أحدهما صاحبه . ثم اختصاص (مسرفين) بسورة الأعراف فلأن الآيات التي قبلها فواصلها أسماء فكان الاسم أحق بالوضع في هذا المكان لتتساوى الفواصل ، وفي النمل كانت الفواصل التي قبلها أفعالاً فلما تناسبت هذه الأفعال في هذه الفواصل التي قبل هذه الفاصلة كان بناؤها على ما قبلها على لفظ الفعل أولى بها ، فجاء (تجهلون) في هذا الموضع و(مسرفون) في الأول لهذا القصد والله أعلم[1] .

وهذا التوجيه لا أجده يصل إلى الغاية من فهم أسرار التنوع ما لم يكن هنالك دراسة للسياق في كلا السورتين وهذا ما أجده عند ابن الزبير الثقفي حيث يقول « قصد في سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بانهماكهم في الجرائم وقبيح المرتكبات، فنص على أفحشها وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٠٨ – ١١٩ . وينظر البرهان في متشابه القرآن الكريم للكرماني ص ١٩٣ .

ولما قيل في سورة النمل ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ كان أهم شيء أن تنفي عنهم فائدة الإبصار إذ لم تغن عنهم شيئاً فأعقب بقوله :﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي أن مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال ، ولم يذكر هنا إسرافهم إذ قد حصل فيما ذكر في الأعراف[1] .

ويبقى كلام الخطيب عين الصواب في قوله بأن لكل كلمة موقفاً ومقاماً حيث كانت للنبي مع قومه مقامات قال في بعضها هذا اللفظ وقال في المقام الآخر اللفظ الثاني[2] .

وهناك وجه آخر يمكن أن يضاف هنا وهو أن عدم التصريح باسمه في قوله تعالى ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ في سورة الأعراف وهي أسبق نزولاً من سورة هود والشعراء ينبئ عن أول مواقف لوط مع قومه وقد كان غريباً بينهم فلم يصرحوا باسمه في أول مرة والله أعلم .

يقول ابن الزبير رحمه الله « ولما عدد من قبائح مرتكباتهم في العنكبوت ما عدد بقوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [الآية : ٢٩] » .

فكان تعداد مرتكباتهم أشد توبيخاً في تقريعهم وأنكأ لتمييز أفئدتهم ، كان

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٤٨ .

(٢) سيأتي مزيد تفصيل في هذا الشأن في الباب الثالث .

مظنة تهيج واشتعال لسيء أخلاقهم وقبيح جوابهم ، فجاوبوا جواب من استحكم حنقه وطبع على قلبه فقالوا ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ تحكيماً وتحقيقاً لتكذيبهم وشاهداً بتصميمهم على المعاندة والكفر .

لأن قولهم في الموضعين قبل : ﴿ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ ﴾ على شناعة مرتكبهم فيه ليس كقوله : ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ لأن قولهم ﴿ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ ﴾ يفهم بفحواه ما يستلزم إخراجهم من مجازاتهم على ذلك ، وكأن قد قالوا : أخرجوهم فإن كان عذاب فليأت به ، فلما اشتد حنقهم هنا طلبوا العذاب وعدلوا عن ذلك السبب استعجالاً للمسبب ، فجاء كل من هذا على ما يجب والله أعلم »[1] .

وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الآية: ٨٣] وفي سورة النمل ﴿ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الآية: ٥٧] وفي سورة الحجر ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الآية : ٦٠] .

يقول الخطيب الإسكافي : « إن هذه القصة في سورة النمل نازلة قبل القصة في سورة الأعراف ، بدليل الإضمار والإظهار وإذا بنينا على هذا فإن قوله ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ أي كتبنا عليها أن تكون من الباقين في القرية الهالكين مع أهلها ، فلما ذكر في الآية المنزلة أولاً أحال في الثانية على الأولى في البيان .

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٥٠ .

فقال : ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي : في تقدير الله الذي قدره لها وأخبر فيما قبل عن حكمه عليها[1] .

وكلام الإسكافي هنا يتعارض مع ما ذكره العلماء في أن نزول سورة الأعراف قد كانت قبل سورة النمل[2] ، ويؤيد قولهم هذا تدرج المعاني فقوم لوط في المقام الأول في سورة الأعراف لم يصرحوا باسمه وصرحوا في المواقف التالية لمَّا خلعوا حياءهم وانتهوا من كل كناية وازدادوا شناعة وفظاعة في بغيهم ، فنصُّوا على اسمه صراحة لبيان إرادتهم السرعة في الخلاص منه بالإخراج والإبعاد حيث لا يوجد من يخالفهم أو يريد إبعادهم عمّا هم فيه غيره ، والله أعلم .

وأما قول ابن الزبير إن اختصاص (كانت) بآية الأعراف يناسب إيجازاً قوله ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ وقوله في النمل ﴿قَدَّرْنَـٰهَا﴾ يناسب ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ وقوله في الحجر ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا﴾ ليجري مع ما وكد قبل بإن ويناسبه [3] ، فإنه تأمل يلاحظ التناسق بين أجزاء النظم دون نظر إلى الأسرار البيانية الواردة فيه . حيث إن التعبير (بكانت) في سورة الأعراف له دلالات يبين عنها في هذا السياق من السورة حيث تشير إلى أن هذه المرأة كانت هي السبب الأعظم في نزول القضاء عليها بالإهلاك ، فقد اختارت طريق الضلال ولذلك أُسند الفعل إليها ، وأما

---

(١) درة التنزيل ص١١٩ – ١٢٠ . وينظر البرهان في متشابه القرآن الكريم للكرماني ١٨٤ .

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ١٩٣ .

(٣) ملاك التأويل ١ / ٥٥١ .

كلمة (قدَّرناها) فإنها تعني أنه قد حق عليها من الله تعالى القضاء بعد أن اختارت طريق الضلال ، ولَّما حق عليها الهلاك لم يكن لها تصرف أو اختيار في أمر النجاة أو الهلاك ، ولا يستطيع لوط عليه السلام الشفاعة لها أو النظر في أمرها ، فقد حق عليها قضاء الله تعالى من قبل ومن بعد ، وهذا يؤكد لنا مرة أخرى أن المعاني تنمو متدرجة من البداية إلى النهاية فالموقف الأول يبين في سورة الأعراف اختيار امرأة لوط لطريق قومها طريق الضلال[١] وفي المواقف الأخرى يبين حتمية القضاء فيها ونزول القدر عليها والله أعلم .

وأما وجه تعقيب قوله في الأعراف : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ بقوله ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وفي النمل بقوله : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

فذلك أنه لما تقدم في الأعراف قوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ حصل منه أن ارتكابهم ما لم يسبق إليه غيرهم قد جمع إلى قبيح الفحش الاجترام من حيث لم يفعل تلك الفعلة الشنعاء من تقدمهم فأجمع إلى الفحش الاجترام .

فأعقب بقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ولما تقدم في النمل قوله ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ حصل منه تعنيف وإنذار

---

(١) هذا لا يعني أنها كانت ترتكب فاحشة أو تعمد إلى سوء فنساء الأنبياء مطهرات من هذا مبرءات وإنما هي اختارت طريق الإعراض والصد لكفرها برسالة لوط .

لم يقع مثله في الأعراف إذ ليس موقع قوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في الإنذار والتعنيف كموقع تعريفهم بعلمهم بها وشنعة معاينة بعضهم بعضاً من ارتكابها . فناسب إنذارهم بهذا ما أعقب به من قوله : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ ولو أعقبت آية الأعراف بهذا أو آية النمل بما أعقبت به آية الأعراف لم يكن متناسباً فجاء كل على ما يجب والله أعلم(١) .

ويقول الكرماني في قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٨٠] بالاستفهام ، وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإنكار ، وقوله بعدها ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾ [الآية : ٨١] فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التوبيخ والتقريع والإنكار في الثاني أبلغ ومثله في النمل ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ [الآية : ٥٤] وبعده : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾ [الآية : ٥٥] .

وخالف في العنكبوت فقال ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ [الآية : ٢٨] ، ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [الآية : ٢٩] . فجمع بين (إن) و(أئن) وذلك لموافقة آخر القصة : فإن في الآخر ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ [الآية : ٣٣] ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ ﴾ [الآية : ٣٤] وأجد في هذا الكلام السابق اشتباهاً في كلامه عن قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ [الآية : ٨٠] وردت هنا بالاستفهام وكذلك قال إنه قد ورد بعدها قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٥٢ .

﴿ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ ﴾ بالاستفهام ولم يرد ذلك في سورة الأعراف إلا أن يكون الكرماني رحمه الله قد أراد قراءة غير نافع وحفص وأبي جعفر فإن غيرهم قرأ بالاستفهام (أإنكم)[1] .

والذي يظهر واضحاً جلياً في ذكر الاستفهام في سورة النمل ما ورد قبلها من قوله تعالى ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ فإن فعلهم لهذا العمل المشين تحت رؤيتهم وأبصارهم دون حياء مانع يدل على غاية ما وصلوا إليه من الرذيلة فحسن بعد هذا ذكر الاستفهام مع (إن) في قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ لتقريعهم والإنكار عليهم وتقريرهم بذلك وفيه زيادة تشنيع لزيادتهم في البغي والفحش - والله أعلم - .

وأما في العنكبوت فإنه لما بالغ في تقريعهم كان المناسب ورود الاستفهام مع إن ،ولذلك كان ردهم أبلغ في التكذيب والاستهزاء لما قالوا ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ .

وأما قوله تعالى من سورة هود ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [الآية : ٨١] وقال في سورة الحجر : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الآية : ٦٠] .

---

(١) البرهان في مشابه القرآن ص (١٩٢ - ١٩٣) .

فقد كان الاستثناء من قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ ﴾ قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ ولم يستثن ذلك في سورة الحجر وقوله : ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ لا نجده في سورة هود وعدم الاستثناء في الحجر للاكتفاء بما قبله : وهو قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [الآيات : ٥٨ - ٦٠] .

فلما ورد هنا استثناء المرأة وذكر حالها وقع بذلك الاكتفاء فلم يذكر في الآية بعد ، إذ ذلك كله كلام متصل بعضه ببعض ، ولم يتقدم لامرأة لوط عليه السلام في سورة هود ذكر فاحتيج إلى استثنائها(١) .

وأما زيادة ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ في سورة الحجر ؛ فلأنه لما قال قبلها ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ إخباراً عن الرسل أنهم خاطبوا إبراهيم عليه السلام به ، ثم أخبر عن مخاطبتهم لوطاً في هذه السورة بما يضاهي قولهم لإبراهيم أردفوا قولهم له ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ بقولهم ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان تحقيقاً لخبرهم أنهم منجوهم أجمعين فزيد ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ لتجاوب مخاطبتهم لإبراهيم عليه السلام بسببه(٢) .

ومن المتشابه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٨٢] .

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢ / ٦٦٦ . البرهان في متشابه القرآن للكرماني ص ٢٢٦ .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٦٣ . وينظر البرهان للكرماني ٢٢٦ .

وفي سورة الحجر : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الآية : ٧٤] ففي الآية من سورة هود : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ والضمير للقرية والمراد أهلها وفي الثانية : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ والضمير لقوم لوط فللسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الضمير مع اتحاد المقصود ؟ والجواب عن ذلك أن كلاً من الموضعين مراعى فيه مناسبة ما تقدمه . ولما تقدم آية الحجر قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الآية : ٥٨] فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم فروعي هذا المتقدم فقيل : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ ، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [آية : ٣٢] فقيل : (عليهم) لما تقدم قوله ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ . وأما آية هود فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فاكتفي بضمير القرية فقيل : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [آية : ٨٢] وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين إذ هم المقصودون بالعذاب فورد كل على ما يناسب ، والله أعلم(١) .

ولعل اهتمام سورة هود بإبراز صور التدمير الرهيبة للأمم ناسب سياقها إبراز صورة الدمار الشامل للقرية وهول المنظر والقرية تمطر بغضب الله فكل سورة تركز على الجانب المهم الذي يتلاءم مع السياق وقد استدعاه .

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٦ – ٦٦٧ .

المبحث الثاني

أسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات

يقول الله تعالى في سورة الأعراف عن قوم لوط ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

هنا يلحظ أن مقدمة قصة لوط قد اختلفت عن مطالع القصص السابقة عليها إذ ابتدأت القصة بقوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ دون قوله (وأرسلنا لوطاً إلى قومه) وفي ذلك يقول البقاعي « عبر في قصة نوح عليه السلام بـ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ثم نسق من بعده عليه فقيل ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف : ٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

وعدل عن هذا الأسلوب في قصة لوط فلم يقل : وإلى أهل سدوم أخاهم لوطاً أو وأرسلنا لوطاً إلى قومه ، لأن من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسلية النبي ﷺ في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب ، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة

لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين ، وأما قصة لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش فعدل عن ذلك النسق تبشيعاً له ، ليكون في التسلية أشد وفي استدعاء الحمد والشكر أتم وحينئذ يترجح أن يكون العامل (اذكر) ، لا (أرسلنا)[1] .

هذا وأكثر المفسرين على تقدير العامل بـ(أرسلنا)[2] .

ولعل كلام البقاعي في تقدير العامل (اذكر) أولى ؛ لأن لوطاً عليه السلام جاء ليصحح ما اختلف من طبيعة قومه وما انتكس من فطرهم بدلاً من أن ينصرف كله إلى الدعوة إلى الله وتوحيده فكان العامل المقدر (اذكر) أولى من (أرسلنا) لأن الإرسال فيه تبليغ لرسالة التوحيد وهؤلاء قوم ليسوا بمتهيئين لها ما داموا على أمرهم هذا .

ولم يوصف لوط بالأخوة لقومه لأن لوطاً لم يكن من أهل قرية (سدوم) ومثله نوح عليه السلام ، وهذا من بديع لغة التنزيل .

« وتغيير الأسلوب في ابتداء قصة لوط وقومه إذ ابتدئت بذكر (لوطاً) كما ابتدئت قصة نوح به لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به »[3] . وإذ ظرف متعلق بالفعل المقدر سواء كان أرسلنا أو

---

(١) نظم الدر (٣/ ٦٢) .

(٢) تفسير الطبري ٨ / ٢٧٤ . الكشاف ٢ / ١٢٠ . التحرير والتنوير ٨ / ٢٢٩ . وجوز الزمخشري وابن عطية أن يكون العامل (اذكر) ينظر المحرر الوجيز ٢ / ٤٢٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٨ / ٢٢٩ .

(اذكر) أي أرسلناه وقت قال لقومه ، وجعل وقت القول ظرفاً للإرسال لإفادة مبادرته بدعوة قومه إلى ما أرسله الله به وفي قوله تعالى ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ استفهام إنكاري توبيخي[1] يهز الأعماق ويلفت الانتباه ، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل ، أي أتعملون الفاحشة ، وكنى بالإتيان عن العمل المخصوص .

وقال (الفاحشة) وقد لطفت هذه الكلمة في التعبير عن الفعل الدنيء الذميم الذي خرج عن الفطرة وكان فيه التجاوز والإسراف والتعدي ، يقول الراغب : الفحش والفحشاء ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[2] .

والكلمة هنا جاءت معرفة ويرى في ذلك أبو حيان أنه لما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ومركوزاً في العقول فحشه أتي معرفاً بالألف واللام ، أو تكون أل فيه للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش[3]

وفي قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ جاءت فيه الجملة مستأنفة ، أنكر عليهم أولاً بقوله ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ ثم وبخهم عليها فقال : أنتم أول من عملها ، أو على أنه جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا لم لا نأتيها ؟ فقال : ما سبقكم بها أحد فلا تفعلوا ما لم تسبقوا إليه [4] . وهم بفعلتهم هذه

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ١٢١ . البحر المحيط ٤ / ٤٢٧ . التحرير والتنوير ٨ / ٢٣٠ .

(٢) المفردات (كتاب الفاء) ص ٣٧٤ .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٤٢٦ .

(٤) الكشاف ٢ / ١٢١ .

افتتحوا باباً للشر لم يكن معروفاً من قبل ، وسنوه لأهل الشر في كل زمان ومكان كما أن أهل الخير يسنون الفعل الحسن ويتسابقون إلى الخيرات وفضائل الأعمال .

والسبق حقيقته وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره ويستعمل مجازاً في التقدم في الزمان أي الأولية والابتداء ، وهو المراد هنا والمقصود أنهم سبقوا الناس بهذه الفاحشة . إذ لا يقصد بمثل هذا التركيب أنهم ابتدأوا مع غيرهم في وقت واحد .

وقال : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ دخلت (من) على أحد لإفادة استغراق النفي ، ثم أعرق في النفي بقوله ﴿ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومن الثانية للتبعيض .

وقال ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يقل الناس للمبالغة و(العالمين) ، جمع عالم بفتح اللام ، وسر وروده جمعاً هنا للدلالة على أن فاحشة قوم لوط لم يفعلها قبلهم فاعل في جميع العوالم الإنس والجن وجميع الحيوانات والدواب والحشرات فهم أوحديون فيها مبتدعون إياها لذلك أطاح الله بهم شر إطاحة[(١)] .

ثم إن النظم هنا أبهم (الفاحشة) ليحصل التشوف إلى معرفتها ، فعينها فيما بعد في قوله ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ ليكون أدل على تناهي الزجر عنها ، ثم

(١) ينظر التحرير والتنوير ٨ / ٢٣١ - ٢٢٩ . التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني ، ط (١) ، القاهرة مكتبة وهبة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

إنه قال هنا (الرجال) ، في سورة الأعراف وقال في سورة الشعراء ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الآية:١٦٥] . وقال في سورة النمل ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [الآية:٥٥] وقال في سورة العنكبوت كذلك ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [الآية : ٢٩] .

والسر في ذلك أن هؤلاء الذين تأتونهم رجال مثلكم كاملو الرجولة والفحولة وهذا فيه زيادة تشنيع عليهم في تجاوز الحد والطغيان ، ثم إن النظم آثر استخدام كلمة (الذكران) دون (الذكور) للدلالة على كامل الذكورية فكيف يحول هؤلاء الرجال من صفات القوة والمتانة إلى صفة الليونة والرقة والانكسار لرجولتهم ؟

ثم إن النظم الحكيم في الآية التي نحن بصددها من سورة الأعراف لما أبقى للتشوف مجالاً – عين بقوله (شهوة) أي مشتهين أو لأجل الشهوة لا حامل لكم على ذلك إلا الشهوة « كالبهائم التي لا داعي لها من جهة العقل ، وصرح بقوله (من دون النساء) فلما لم يدع لبساً وكان هذا ربما أوهم إقامة عذر لهم في عدم وجدان النساء أو عدم كفايتهن لهم أضرب عنه بقوله ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ »(١) .

فكان هذا الإضراب انتقالاً من الإنكار إلى الذم والتشنيع عليهم في مرتبكهم حيث لم يكن حاملاً لهم على ذلك إلا الإسراف الذي تجاوزوا به الحدود فدخلوا أغلظ باب للرذيلة والهوان .

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٦٢ .

« وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ ورود إنَّ لتأكيد الإنكار السابق وتشديد التوبيخ وفي الإتيان بها وباللام مزيد تقبيح وتقريع ، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيداً قوياً وفي إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوها مبالغة في التوبيخ كأنه قال لتأتون أمثالكم[(١)] .

وفي التعريف بأل للدلالة على اكتمال الرجولة واكتمال مقومات الفحولة في جنس الرجال كما مرَّ بيان ذلك .

وقال تعالى عنهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ والإسراف مجاوزة الحد في الباطل والجرم ، وجاء وصفهم هنا باسم الفاعل للدلالة على ثبوت هذه الصفة فيهم وتمكنها منهم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٨٢] .

والجواب ، الكلام الذي يقابل به كلام آخر : تقريراً ، أو رداً ، أو جزاء والمعنى في هذه الجملة أنهم أفحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شأنها وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط – عليه السلام – وأهله من القرية لأن لوطاً عليه السلام كان غريباً بينهم وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم شأن من يشعرون بفساد حالهم الممنوعين عن الإقلاع عن سيئاتهم المصممين على مداومة

---

(١) روح المعاني ٤ / ٤٠٨ .

ذنوبهم ، فإن صدورهم تضيق عن تحمل الموعظة[1] .

وهم هنا ما جاءوا بما يكون جواباً عن كلامه والقصد من ذلك نفي الجواب على أبلغ وجه .

وهذا الرد يدل على أنه قد بلغ بهم الضيق من لوط ومن معه مبلغاً ، فلم يعد بينهم وبينه كلام أو أخذ ورد ، فهم مصممون على غيهم فاختصروا الجواب أخيراً . بإعلان الحرب على لوط وكأنه هو المذموم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ وفي هذه الجملة المؤكدة .

قالوا (أناس) وهذه الكلمة تعني الاحتقار والاستهزاء فهم في نظرهم ضعفاء قلة والجملة جاءت لبيان علة الإخراج « وذلك شأن (إن) إذا جاءت في مقام لاشك فيه ولا إنكار ، بل كانت لمجرد الاهتمام فإنها تفيد مفاد فاء التفريع وتدل على الربط والتعليل »[2] .

ولكن توكيد الجملة هنا فيه دلالة على استغراب قوم لوط من بقائه على الطهر مخالفاً ما ساد وما عم وفي ذلك تقرير ، وتوكيد فيه سخرية وتهكم .

وصيغة الفعل المضارع (يتطهرون) تنبئ عن شهادة قوم لوط له ولأهله بالطهر يداومون عليه يستمرون يزدادون به تمسكاً ، وهذا أدعى للنفور منهم ومعاداتهم أو إبعادهم من القرية ، وكلمة قوم لوط هذه نجدها في أهل الفساد في

---

(١) التحرير والتنوير ٩ / ٢٣٤ .

(٢) ينظر المصدر نفسه ٩ / ٢٣٥ .

كل عصر ومكان حينما يحاربون الفضيلة أو الدين وأهله .

يقولون مثل هذه الأقوال بمثل هذه الأساليب سخرية واستهزاء وكراهية « وقد يظهر في هذا التركيب أنهم قصدوا بالتفعل نسبتهم إلى محبة هذا الفعل القبيح وأن تركهم له إنما هو تصنع وتكليف لنفوسهم بردها عما هي مائلة إليه ، وإقبال على الطهر من غير وجه وإظهار له رياءً بما أشار إليه إظهار تاء التفعل ، وفيه مع ذلك حرف من السخرية »(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ ولم يقل (فنجّيناه) بالتضعيف هنا لأن (أنجينا) أدل على معنى السرعة في الإنجاء وهو المناسب للسياق ، هنا فالقوم قد ضاقت صدورهم بلوط عليه السلام ومن معه ، ولم يعد هنالك مزيد صبر عليهم فقد جاءوا بآخر أجوبتهم في قولهم ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ لقد ازداودا حنقاً منه وضيقاً سيدفع إلى تنفيذ ذلك الأمر .

فاستدعى المقام هنا الإسراع في إنجاء لوط عليه السلام ومن معه من القوم الظالمين ، وجاءت جملة (فأنجيناه) عقب جملة ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ وكانت (بالفاء) وفي هذا إيذان بأنهم لما صمموا على موقفهم وازدجروا نبيهم لم يكن بين موقفهم هذا ونزول العذاب إلا زمن قليل .

« وأنجينا مقدم من تأخير والتقدير : فأمطرنا عليهم مطراً وأنجيناه وأهله

(١) نظم الدرر ٣ / ٦٤ .

فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية فيعلموا أن تلك سنة الله في عباده »[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تسر الكفر .

وهذا الاستثناء فيه إثارة للانتباه وتشويق لمعرفة مصيرها الذي لم يعرف بعد والبدء في بيان مصيرها بالفعل الماضي (كانت) وفيه دلالة على أنها قد اختارت طريق الهلاك من قبل فاستحقت بذلك الفناء .

« والإتيان بلفظ (الغابرين) وتغليب التذكير فيه لبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة ، والجملة استئناف بياني وقع جواباً عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الإنجاء كأنه قيل : فماذا كان ؟ حالها فقيل كانت من الغابرين »[2] .

فتغليب التذكير في هذه الكلمة لبيان أنه قد أصابها ما أصاب الرجال سواء لم تنقص عنهم ، وجاءت على صيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت وفي التعريف (بأل) إشعار بأن الغابرين معهودون ومعروفون بهذا الوصف المطلق .

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ٢٣٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ٢٧٠ .

وأما هذه الكلمة فمعناها في اللغة كما يقول الراغب : من الغابر وهو الماكث بعد مضى ما هو معه كقوله : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ يعني فيمن طال أعمارهم وقيل فيمن بقى ولم يسر مع لوط ، وقيل فيمن بقى بعدُ في العذاب ومنه الغبرة البقية في الضرع من اللبن وجمعه أغبار وغُبر الحيض وغبر الليل والغبار ما يبقى من التراب المثار وقيل يقال للماضي غابر وللباقي غابر .

فإن يك ذلك صحيحاً فإنما قيل للماضي غابر تصوراً بمضي الغبار عن الأرض ، وقيل للباقي غابر تصوراً بتخلف الغبار عن الذي يعدو فيخلفه ومن الغبار اشتق الغبرة[1] .

ويقول الطبري : ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين[2] .

والحقيقة أن هذه الكلمة دلالاتها متسعة فهي تشمل معنى بقاء هذه المرأة زمناً طويلاً حتى هرمت فهي كبيرة في سنها بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ ويشمل المعنى بقاءها مع الهالكين الذين هلكوا .

وهذه الكلمة في إشارتها إلى معنى البقاء ، قد توحي لنا أن جسدها وأجساد هؤلاء الغابرين قد بقيت تحت الأرض كما هي لم تأكلها الأرض قد يكون ذلك والله أعلم ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٤] .

---

(١) المفردات للراغب (كتاب الغيث) ص ٣٥٧ .

(٢) تفسير الطبري ٨ / ٢٧٧ .

« أي أمطرنا على قوم لوط الذين كذبوا لوطاً ولم يؤمنوا به مطراً من حجارة من سجيل أهلكناهم به »[1] .

والقرآن الكريم لم يستعمل كلمة (المطر) إلا في مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله . وفي مقام الأذى والابتلاء إذا ورد في سياق الحديث عن المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ﴾ [النساء: ١٠٢] .

ويرى أبو عبيدة التفرقة بين مطر وأمطر فمطر للرحمة وأمطر للعذاب[2]

ويقول الزمخشري : « فإن قلت : أيُّ فرق بين مطر وأمطر ؟ قلت : يقال مطرتهم السماء وواد ممطور ومعنى مطرتهم : أصابتهم بالمطر ، كقوله غاثتهم ووبلتهم وجادتهم .

ويقال : أمطرت عليهم كذا ، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر[3] .

فالزمخشري يرى أن هذه الصيغة الرباعية (أمطرت) ليست خاصة بالشر فقد تكون للخير ، وأن المراد هنا أن السماء لما أرسلت عليهم الحجارة كانت الحجارة في كثرتها كإرسال المطر فهي كثيرة ولكني أعود فأقول إن[4] القرآن الكريم استخدم كلمة المطر في العذاب والنقمة للأمم المكذبة ، وأن صيغة الفعل

(١) المصدر السابق ٨ / ٢٧٧ .

(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني ، ص ٩٧ .

(٣) الكشاف ٢ / ١٢٢ .

(٤) العرب تخلط بين هذه الكلمات ولا تفرق والقرآن الكريم يفرق بينها . فدلالة المطر تختلف عن دلالة الغيث .

الرباعي (أمطر) لم تأت إلا في باب العقوبة والشر في هلاك الأمم كما يتضح من خلال هذه الآيات التالية :

١ - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ [الأعراف : ٨٤] .

٢ - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود : ٨٢]

٣ - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : ٧٤]

٤ - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] [النمل : ٥٨]

٥ - ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفرقان : ٤٠]

وهكذا والتفريق بين مطر وأمطر في القرآن لبيان أن أمطر نوعٌ آخر ليس من جنس المطر .

وهكذا نجد أن النظم القرآني لا يؤيد ما ذهب إليه الزمخشري في أن أمطر لا تختص بالشر ولا إلى ما ذهب إليه أبو عبيدة في التفريق بين كلمة مطر وأمطر حيث يلحظ من الإحصاء الوارد في القرآن الكريم أن كلمة (مطر) ، و(أمطر) لا ترد إلا في باب العقوبات والشر والأذى ، وأما ما ورد في قوله تعالى عن قوم هود .

﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ فمنهم من يرى أنها جاءت أيضاً في سياق العذاب ولكن الأدق أن يقال إن القرآن الكريم هنا ينقل لنا تعبير القوم عندما تفاءلوا

بالرحمة والخير فقالوا (ممطرنا) وأما في لغة البيان القرآني لا نجد هذه الكلمة ترد إلا في مقامات الشر والعقوبة والأذى وهي كلمة تحمل من خلال حروفها القوة والقسوة والصعوبة .

وبهذا نجد القرآن الكريم يفرق بين كلمة (المطر) والأمطار والغيث وهي لفتات بيانية تعد من بدائع وخصائص هذا النظم العظيم .

وفي قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً كان حجارة .

وفي ذكر المطر لفتة بيانية تدل على مجيء العذاب من السماء من فوقهم ، يقول البقاعي ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ﴾ أوضحه بقصر الفعل وتعديته بحرف الاستعلاء وأكد كونه من السماء لا من سطح أو جبل أو نحوه بقوله (مطراً) (١) .

و﴿ عَلَيْهِم ﴾ تدل على العلو والقهر والتمكن فالحجارة ترسل عليهم من أعلى كالمطر الشديد لتعمهم وتعم قراهم بالهلاك دون أن تترك عالياً أو منخفضاً من الأرض ، وتنكير (مطراً) للتعظيم والتعجيب ، أي : مطراً عجيباً من شأنه أن يهلك القرى ، وتفرع عن هذه القصة العجيبة الأمر بالنظر في عاقبتهم بقوله (فانظر) فالأمر للإرشاد والاعتبار والخطاب ، ويجوز أن يكون لغير معين بل لكل من يتأتى منه الاعتبار كما هو إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة .

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٦٤ .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ تسلية له على ما يلاقيه من قومه[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ وصفهم باسم الفاعل (المجرمين) ليشعر بعراقتهم في الإجرام وأصالتهم فيه وأنهم معروفون بهذا الوصف مشهورون به .

وفي هذا مزيد ذم لهم وبيان لجنايتهم التي من أجلها أرسل عليهم العذاب .

يقول البقاعي – رحمه الله – « وأظهر موضع الإضمار تعليقاً للحكم بوصف القطع لما حقه الوصل بوصل ما حقه القطع من فاحش المعصية دليلاً على أن الرجم جزاء من فعل هذا الفعل لأن الحكم يدور مع العلة »[2] .

وفي سورة هود عليه السلام نجد تفاصيل أكثر مما سبق في سورة الأعراف مما يزيد من التنوع البياني في المفردات الواردة في قصة هلاك قوم لوط بما يتوافق مع أجواء السور وموضوعاتها الواردة[3] .

يقول الله تعالى عن هلاك قوم لوط : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ٢٣٨ .

(٢) نظم الدرر ٣ / ٦٤ .

(٣) سياتي مزيد في ذلك في الأبواب القادمة (إن شاء الله) .

مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا ﴾ دون (ولما أتت) لأن المجيء يرد في القرآن كثيراً في الأمور المهمة والعظيمة ومنها مجيء العذاب والنكال ولما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى)[1] ولذلك لم يأت في مهلك قوم لوط غير الفعل (جاء) كما ورد في سورة هود هنا وورد في سورة العنكبوت قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٣] .

وقال تعالى ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ أي ولمَّا جاءت ملائكتنا لوطاً ساءه مجيئهم وهو (فعل) من السوء[2] وأصله سُوئ بهم من السوء إلا أن الواو أسكنت ونقلت كسرتها إلى السين ومن خفف الهمزة قال : سيء بهم[3] .

(١) قد مر تحرير القول في ذلك في قصة نوح عليه السلام .

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٩٧) .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ / ٦٥ .

وورود الفعل بالمبني للمفعول فيه إيجاز واختصار وخفة تتلاءَم مع هذا المقام الذي ضاق في كل أحواله بلوط ، فقد ضاق به المكان والزمان إذ جاءه الملائكة فخاف عليهم خبث قومه لظنه أنهم من الإنس .

ولم يقل (سيء منهم) وإنما قال ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ ليدل على أنه لم يستاء من ضيوفه وإنما ساءه الخوف على ضيوفه من أذى قومه فهو عاجز عن توفير الحماية لهم ، وفي هذه الكلمة من الدلالات المعنوية الغنية ما لا يقوم به غيرها لأنها تتضمن أيضاً سوء الظن بقومه ؛ لأنه أعلم بهم وبدناءة نفوسهم ، وقال زيادة على ذلك ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ يقال ضاق زيد بأمره ذرعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً[1] .

والذرع من الذراع تقول ذرعت بمعنى مددت الذراع .

ومنه ذرع البعير في سيره أي مدَّ ذراعه وفرس ذريع[2] .

ثم استخدم معنى عدم الاستطاعة في مد الذراع بحال من لم يجد حيلة في شأن يريد الخلاص منه أو يريد التصرف فيه[3] .

﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ أشار إلى يوم باسم الإشارة للدلالة على عظم هذا اليوم وشدة كربه ، وزاد بوصفه باسم الفاعل (عصيب) وهو الشديد يقول ابن

---

(١) المصدر نفسه ٣ / ٦٦ .

(٢) المفردات للراغب (كتاب الذال) ص ١٧٨ .

(٣) سيأتي مزيد بيان لذلك في باب الصورة .

عطية « العصيب هو الذي يعصب الناس بالشر كما يعصب الخابط السلمة إذا أراد خبطها ونفض ورقها ، ومنه قول الحجاج في خطبته : ولأعصبكم عصب السلمة فهو من العصابة ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب »[1] .

ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً ، ثم يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه[2] .

فلوط عليه السلام حينما قال ﴿ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ﴾ حدّث بذلك نفسه وناجاها لما اشتد عليه الكرب .

وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ .

أي جاء لوطاً قومه يستحثون إليه يرعدون مع سرعة المشي مما بهم من طلب الفاحشة ، يقال أهرع الرجل من برد أو غضب أو حمى إذا أُرعد وهو مهرع إذا كان معجلاً حريصاً[3] .

إذن هذا الفعل نجده يتسع لمدلولات مشهد قوم لوط وهم يأتون إليه فقد صور لنا إسراع القوم وهم يحثون بعضهم في المشي حرصاً منهم وخوفاً من فوات

---

(١) المحرر الوجيز ٣ / ١٩٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ١٢٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٢ / ٩٩ . وينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ / ٦٧ .

ما يسعون إليه ، وأما اضطرابهم فهو من طمعهم وخوفهم أن لا ينالوا ما يبتغون فكانوا كهيئة من يسرع من ضرب المطر مع شدة البرد إلى مكان يتقى به وورود هذا الفعل هنا أنسب لأنه يصوِّر القوم وهم مدفوعون مستسلمون لشهواتهم فهي تقهرهم وتسوقهم ، فحسنت هذه الكلمة هنا دون غيرها من نظائرها في اللغة التي لا يمكن أن تحل محلها من مثل (يسرعون أو يمشون أو يذهبون) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ .

جاءت هذه الجملة معترضة للتشنيع بقوم لوط وبيان حالهم من قبل فهم من قبل في غيهم الفاحش وهاهم اليوم يتسابقون على مواصلة جريمتهم .

وكان رده عليهم حينما وصلوا إليه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ﴾ .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ بأداة النداء للفت انتباههم وقوله (قومي) فيه استعطاف لهم وترقيق لنفوسهم علهم ينثنون عما جاءوا إليه .

واستخدم اسم الإشارة (هؤلاء) للعرض عليهم .

يقول الطبري رحمه الله في تفسير معنى قوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ أي نساء أمته يدعوهم للزواج بهن[1] .

وجملة ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ﴾ تعليل للعرض ومعنى ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ ﴾ أي هن

(١) تفسير الطبري ١٢ / ١٠١ .

حلال لكم يحلن بينكم وبين الفاحشة فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة قصد به قوة الطهارة[1].

وقال ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ ﴾.

قال ﴿ تُخۡزُونِ ﴾ والخزي معناه الذل والعار والهوان، وهذه الكلمة بهذا المعنى أوقع لأن العمل الذي يبتغيه قومه فيه الذل والعار والهوان.

وقال ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾[2] استنفار بأسلوب الاستفهام لمعاني الرجولة والشهامة علها أن تفيق في أحد منهم، وقال رشيد ولم يقل راشد لأن الصفة المشبهة يلحظ فيها تمكن الصفة من الموصوف ودوامها فيه، وبعد أن استعطفهم ردوا عليه رافضين يريدون ما يبغون ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ[3] مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾.

يقول الطبري: قال قوم لوط للوط: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ ﴾ يا لوط ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ ﴾ لأنهن لسن لنا أزواجاً[4].

وقال تعالى عن نبيه ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [الآية:٨٠].

---

(١) التحرير والتنوير ٢ / ١٢٧.

(٢) سيأتي مزيد بيان لما في الآية من أساليب بيانه في غير هذا الباب.

(٣) سيأتي بيان للأساليب البيانية في الآية في الأبواب القادمة وأوثر هنا النظر في المعاني التي تحتاج إلى دراسة.

(٤) تفسير الطبري ١٢ / ١٠٣.

قال ﴿ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ والركن معتمد البناء بعد الأساس ووصف الركن بالشدة وهو يتضمنها وهذا تأكيد يدل على أن قومه كانوا في غاية القوة والجلادة وأنه كان يود معالجتهم لو قدر(١) .

وقال تعالى عن رد ملائكته : ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ ﴾[سورة هود ، الآية : ٨١] .

في قوله تعالى : ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر (فاسر) بهمزة وصل تسقط في الدرج وحينئذ يصير النطق بسين ساكنة وهو فعل أمر من (سرى) الثلاثي ، وقرأ الباقون بهمزة قطع مفتوحة ، وهو فعل أمر من (أسرى) الثلاثي المزيد بهمزة(٢) .

وهاتان القراءتان يرى فيهما مكي بن أبي طالب أنهما لغتان مشهورتان (٣) نزل بهما القرآن ، وهذا التوجيه لا يوجد فيه ما يغني من الناحية البيانية ولاشك أن اختلاف القراءتين بهمزة القطع والوصل له مدلولات بيانية تزيد من وضوح المعنى وجلائه .

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٥٥٩ .

(٢) ينظر النشر في القراءات العشر ٣ / ١١٨ . المغني في توجيه القراءات العشر ٢ / ٢٥٤ .

(٣) الكشف عن وجود القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ١ / ٥٣٥ . وانظر تفسير الطبري ١٢ / ١٠٧ .

يقول الراغب : « السري سير الليل ، يقال سرى وأسرى وقيل أن أسرى ليست من لفظة سرى يسري وإنما هي من السراة وهي أرض واسعة وأصله من الواو فأسرى نحو أجبل واتهم وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ أي ذهب به في سراة من الأرض وسراة كل شيء ، أعلاه ومنه سراة النهار أي ارتفاعه »[1] .

واستجلاء من المعنى الذي ذكره الراغب نجد فرقاً بين القراءتين فقراءة الهمز أسرى من السراة وهي الأرض الواسعة وسراة كل شيء أعلاه .

واسرى بهمزة الوصل على مدلولها من معنى السري وهو سير الليل

فتكاملت القراءتان في الدلالة على السري والإسراء أي يسري لوط بمن معه من أهله ومن آمن إلى مكان عال أو أرض واسعة .

وقال تعالى : ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ والقطع من الليل الجزء ، وقيل بظلمة منه وقال ابن عباس بطائفة من الليل ، وقال الضحاك ببقية من آخره ، وقيل : إنه نصف الليل .

وقيل : السحر ، لقوله : ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾[2] .

هذا والمدلول اللغوي لمعنى السُرى : سير الليل كله أو عامته ويقال في المثل : ذهبوا إسراء قنفذة ، وذلك أن القنفذ يسري ليله كله لا ينام[3] .

---

(١) المفردات (كتاب السين) ص ٢٣١ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٥ / ٣٢٥ .

(٣) لسان العرب ١٤ / ٣٨١ .

وابن عطية يحاول الجمع بين سرى أول الليل وآخره حيث يقول : « ويحتمل أن لوطاً أسرى بأهله من أول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ووقعت نجاته بسحر فتجتمع هذه الآية[١] مع قوله ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ »[٢] .

ولكن هذا القول يلاحظ عليه أنه لا يتفق مع معنى الالتفات [٣] الذي يقتضي القرب من أرض العذاب وإلا فلا معنى للنهي عن الإلتفات .

ولعل الذي يظهر - والله أعلم - أن لوطاً عليه السلام أمر بالتحرك في أول الليل إلى مكان عال أو واسع قريب من القرية حتى جاء أمر الله تعالى ووقع العذاب بالقرية فأمر بأن يكمل سيره مع السحر وأن لا يلتفت أحد منهم حتى لا يصابوا بالعذاب .

فهو في سرى وسير ليله كله لأنه في انتظار وتوجس وسهر ولما سرى بأهله آخر الليل مع السحر فقد واصل بهذا السري ما كان في أول الليل من تحرك إلى مكان قريب من القرية بعد مضي جزء من الليل والله أعلم .

---

(١) يقصد الآية التي نحن بصددها ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ حيث يرى أن معنى بقطع من الليل أوله .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ١٩٦ .

(٣) لأنه لو ضمه إلى كلام ابن عطية لصار المعنى أن لوطاً ومن معه قد ابتعدوا عن القرية وكيف يتلاءم هذا مع معنى نزول العذاب في القرية في السحر وأمر لوط ومن معه بعدم الالتفات للعذاب وهم بعيدون عن المشهد بالكلية .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ والسجيل في الآية كما يقول الطبري : من الطين وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع ، وذلك قوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾[١] .

ويقال السجيل من أسجلته أي أرسلته فكأنها مرسلة عليهم ، وقال بعضهم من سجيل من أسجلت إذا أعطيت أو مما سجل أي مما كتب لهم

يقول الزجاج وهذا القول إذا فسر فهو أثبتها لأن في كتاب الله تعالى دليلاً عليه ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [سورة المطففين ٧ – ٩] فسجيل في معنى سجين فالمعنى أنها حجارة مما كتب الله جل ثناؤه أن يعذبهم بها وهذا أحسن ما مر فيها عندي[٢] .

والحقيقة أن الكلمة هنا تدل على معنى واحد كما فسرها الطبري وهو الطين وهي أيضاً تتسع للمعاني الثانوية الأخرى لدلالة السياق أيضاً عليها فهي حجارة مرسلة ومسومة . ولكن هنا قد نتساءل كيف يكون الطين حجارة .

يقول الفراء : السجيل يقال إنه من طين طبخ حتى صار بمنزلة (الأرحاء)[٣]

---

(١) سيأتي مزيد تفصيل لخصائص التراكيب والصور فيما سيأتي من أبواب .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ / ٧١ – ٧٢ .

(٣) معاني القرآن ٢ / ٢٤ – ٢٥ .

فهو طين طبخ كما يطبخ الآجر فصار كالحجارة[1] .

يقول الألوسي : وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فإن بعض الناس يسمي البرد حجارة[2] .

وهذا ليس بوجه ، ولعل الوجه في ذلك هو بيان أنها ليست حجارة صخرية وإنما من نوع الآجر الذي يكون طيناً ويطبخ فيكون أشد تأثيراً من الحجارة الملساء وفيه إشارة إلى أنه كما تحول بإحراقه إلى حجارة فسيهلكهم ويمزق أجسادهم وقد عبر القرآن الكريم عن الآجر بقوله ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ لأن الآجر ليس فيه من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، ولكن عبر عن معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها[3] .

ولعل المراد من كون هذه الحجارة من الطين أنها قد حملت معها إشعاعاً وسموماً لا يخرج منها إلا عند سقوطها على الهدف المراد الوصول إليه – والله أعلم – .

وقال تعالى : ﴿ مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ ومنضود هنا من نعت (سجيل) لا

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٢٦ .

(٢) روح المعاني ٦ / ٣٠٩ .

(٣) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم د. الشحات محمد أبو ستيت ، ط(١) ، القاهرة ، مطبعة الأمانة (١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م) ص ٣١٤ .

من نعت الحجارة فالقوم أمطروا بحجارة من طين ، صفة ذلك الطين أنه نضد بعضه إلى بعض فيصير حجارة ، ولم يمطروا الطين فيكون موصوفاً بأنه تتابع على القوم بمجيئه[1] ، وقيل : إن المنضود ما يتلو بعضه بعضاً عليهم فذلك نضده .

وقيل : معناه بعضه فوق بعض ، أي تتابع وبه شبه : السحاب المتراكم فقيل له النضد ، وأنضاد القوم جماعاتهم[2] ، فالمراد من كلمة النضد هنا أنها حجارة قد وضع بعضها فوق بعض وهي كثيرة قد أرسلت على قوم لوط كالمطر من كثرتها والله أعلم .

وقال ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ والمسومة المعلمة ، أعلمها الله ، والمسومة من نعت الحجارة ولذلك نصبت ونعت بها[3] ، وقيل : إنها كانت مخططة بحمرة وسواد في في بياض فذلك تسويمها أي علامتها[4] .

والمتأمل في علاقة الكلمات بعضها ببعض يجد أن كلمة السجيل وما توحي به من معنى[5] الكتابة وكلمة (مسومة) وما تعنيه تدلان على أن تلك الحجارة قد كتب عليها اسم كل واحد من قوم لوط ، فكل حجر منها قد خصص لشخص معلوم فلعل المراد من تسويمها هو هذا المعنى ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري ١٢ / ١١٤ .

(٢) ينظر : معاني القرآن للفراء ٢ / ٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٢ / ١١٤ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢ / ٢٥ .

(٥) ذكر الراغب أن السجل قيل حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً . المفردات (كتاب السين) ص ٢٢٥ .

المبحث الثالث

أسرار تنوع المفردات في تصوير هلاك قوم شعيب

ورد ذكر هلاك قوم شعيب مفصلاً في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء يقول الله تعالى عن هلاكهم في سورة الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ قد تقدم الكلام عليها في نظيرها من قصة ثمود بما يغني عن الإعادة هنا .

يقول ابن عطية في قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ﴾ معناه يقيموا ويسكنوا ويقول بأنه قد استقرى أشعار العرب فوجد أن غني معناه أقام إقامة مقترنة بتنعم عيش ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناء[1] .

والطاهر بن عاشور يرجح هنا أن يكون قد أصابهم زلزال مع الصواعق بحيث احترقت أجسادهم وخسف لهم في الأرض وانقلبت ديارهم في باطن الأرض ولم يبق شيء ، أو بقى شيء قليل فهذا وجه الشبه ، وليس وجه التشبيه حالة موتهم لأن ذلك حاصل في كل ميت ولا يختص بأمثال مدين[2] .

---

(١) المحرر الوجيز ٢ / ٤٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٩ / ١٤ .

سيأتي مزيد تفصيل لذلك في باب الصورة إن شاء الله .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ مكررة وفي ذلك بيان للسبب الذي أحل على هؤلاء القوم العذاب وهو التكذيب ، وفيه تعريض بمشركي مكة علهم أن يتقوا عاقبة أمثالهم .

وكرر وصفهم بالتكذيب بالاسم الموصول لبيان شناعة وسوء هذا التكذيب لشعيب النبي المرسل بالحق والصدق ، فتكذيب الحق الواضح الساطع فيه شناعة وتجاوز .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ قصر الخسارة عليهم عن طريق ضمير الفصل ، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف أي كانوا هم الخاسرين لا غيرهم .

وفي هذا رد على كلام الملأ من قبل للضعفاء ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الآية : ٩٠] .

وفيه تحذير لأمثالهم من الوقوع في الضلال المؤدي إلى الخسارة في الدنيا والآخرة وفي قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الآية : ٩٣] .

وفي قوله : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ تقدم الحديث عن نظير هذه الآية في قصة ثمود وتقدم وجه التعبير بـ(رسالات) بصيغة الجمع في نظيرها من قصة قوم نوح عليه السلام .

وهنا كان الختام للقصة بهذه الآية الكريمة التي ينادي فيها النبي الكريم قومه شفقة عليهم وحسرة لعدم إذعانهم لدعوة الحق ، وكما مر في آية قوم صالح كان قوله هذا بعد هلاكهم من مثل قول النبي ﷺ لصرعى قريش بعد موتهم في وقعة بدر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ « خاطب نفسه على طريقة التجريد ، إذْ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم باستفهام إنكاري ، حيث أنه لما أبلغهم ونصح لهم وأعرضوا عنه ، فقد استحقوا غضب من يغضب لله »[1] .

وقال تعالى عن هلاك قوم شعيب في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [الآية : ٩٤ - ٩٥] .

تقدم الكلام في قوله تعالى : ﴿ جَآءَ أَمْرُنَا .. ﴾ إلى آخر الآية ، في نظيرها من قصة ثمود مما يغني عن إعادته هنا ، ويبقى في هذه الآية ورود الفعل المضعف (نجَّينا) دون الفعل (أنجينا) وقد ورد هذا كثيراً فيما سبق من ذكر لهلاك الأقوام السابقة ونجاة الرسول ومن معه من المؤمنين ، والقرآن الكريم يستخدم

---

(١) التحرير والتنوير ٩ / ١٥ .

كل فعل في الموقع الذي يلائمه ويستدعيه السياق ، والفعل المضعف معانيه متعددة منها : أنه يأتي لبيان نجاة من نُجي وقد أحاط العذاب بهم كنجاة السفينة من الطوفان ، ويأتي في مقام الامتنان بالنجاة وهي في هذا الموضع في مقام الامتنان وأنها كانت نجاة عظيمة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ فكأنها نجاة بعد نجاة فهي نجاة من العذاب الذي أحاط بقوم شعيب ، ونجاة من شر هؤلاء القوم بهلاكهم واستئصالهم بدليل ذكر الهلاك بعدها في قوله ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ .

فحسن هنا الفعل (المضعف) دون الفعل (أنجينا) لهذه المعاني والدلالات - والله أعلم - .

وقال تعالى عن هلاك قوم شعيب في سورة الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ١٩٠] .

ففي قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ يعني بالظلة : سحابة ظللتهم ، فلما تتامُّوا تحتها التهبت عليهم ناراً وأحرقتهم[1] .

وهنا يرد تساؤل لطيف وهو أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا عذاب قوم هود وأنه كان بالريح المدمرة ، وأن عذاب قوم صالح كان بالصاعقة ، وأما

(١) تفسير الطبري ١٩ / ١٢٦ .

قوم شعيب فقد ذكر تعالى أنه كان بالرجفة وهي الزلزلة وبالصيحة وبعذاب يوم الظلة ، وما ورد في قوم ثمود وعذابهم بالصيحة والرجفة يتشابه مع قوم شعيب وقد قال تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وفي هذا بيان لتشابه العذاب بين القومين فالذي أبعد قوم شعيب هو ذلك العذاب الذي أهلك قوم ثمود .

فيكون عذابهم – والله أعلم تعالى – بالصاعقة التي أرجفت الأرض وزلزلتها بصوتها وأحرقتهم ، فهي صواعق خرجت من السحابة التي فرُّوا إليها وظنوها رحمة لهم ، ولعل هذا هو الوجه الصحيح ، ولم أجد عند الطبري – رحمه الله تعالى – ما يبين هذا الأمر [1] إلا ما يتلمس من بيان القرآن الكريم وما يتوصل إليه من السياق ودلالة المشابهة التي وردت في قوله تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وما أوحت به .

وبقي تساؤل آخر وهو ما الذي جعلهم يندفعون إلى هذه السحابة المظلة .

ذكر الطبري من الآثار أن الله فتح عليهم باباً من أبواب جهنم فأهلكهم الحر فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة ، فوجدوا برد الريح وطيبها ، فتنادوا الظلة عليكم بها فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم انطبقت عليهم فأهلكتهم [2] .

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٩ / ٨ .

(٢) المصدر نفسه ٩ / ٨ .

والآثار لا يعول عليها ما لم ترد بسند صحيح عن النبي ﷺ .

والمراد هنا أن القوم قد أصابهم الحر الشديد فلما رأوا السحابة فروا إليها ففروا إلى هلاكهم ، فقد خرج لهم من السحابة تلك الصاعقة التي أرجفت بهم الأرض وأهلكتهم - والله أعلم - .

ويبقى من الدقائق والأسرار الخفية في قصة هلاك قوم شعيب عليه السلام ما يرد من تساؤل حول ورود التأنيث في ذكر العذاب دون التذكير الذي ورد في قصة هلاك قوم صالح ؟

فقد قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ .

وفي سورة هود ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وفي سورة العنكبوت ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

وقد ورد في قصة صالح بالتذكير في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٦٧] .

يقول الخطيب الإسكافي في ذلك « إن اختلاف الأمر في اتصال علامة التأنيث وسقوطها مع أن الفاعل واحد وهو (الصيحة) ، والحاجز واحد وهو (الذين ظلموا) » .

وهذا إذا جاء في كلام العرب سهل الكلام فيه لأنه يقال حمل على المعنى والصيحة بمعنى الصياح[1] .

---

(١) درة التنزيل ص ١٩١ .

ويرى في هذه المواضع في الآيات السابقة أن الرجفة بدأت بالقوم فانزعجوا لها عن الكن إلى البراح ، فلما أصحروا نال منهم حر الشمس وظهرت لهم ظلة تبادروا إليها وهي سحابة سكنوا إلى روح تحت ظلها ، فجاءتهم الصيحة فهمدوا لها ، فلما اجتمعت ثلاث أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات ، فلذلك جاء في قصة شعيب ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾[(١)] .

وهذا الملحظ الذي لحظه الخطيب رحمه الله ملحظ في اللفظ دون المعنى . ولاشك أن التأنيث هنا له سر آخر فالتأنيث يختلف عن التذكير .

والتذكير أقوى في المعنى من التأنيث كما مر بيان هذا الأمر مراراً في ورود التأنيث والتذكير في كتاب الله تعالى فهل يكون عذاب قوم صالح أشد من عذاب قوم شعيب لأن قوم صالح كانوا أعتى وأشد وكان استكبارهم وعتوهم أعظم . قد يكون ذلك .

وإن كان نوع العذاب واحداً كما مر بيان ذلك حيث كان بالصاعقة التي أهلكت ودمرت كلا القومين .

يقول البقاعي في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ . أخذتهم الصيحة وكأنها دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك[(٢)] .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦١ .

(٢) نظم الدرر ٣ / ٥٧٢ .

الفصل الخامس

مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : مقارنة بين أسرار التنوع الحاصل بين كلمتي (نجَّينا) و(أنجينا) في قصص هلاك الأمم :

المبحث الثاني : مقارنات بين أسرار تنوع المفردات في هلاك الأمم .

المبحث الأول

مقارنة بين أسرار التنوع الحاصل بين كلمتي (نجَّينا) و(أنجينا) في قصص هلاك الأمم

إن المتتبع لاستعمال النظم الحكيم للفعل المضعف (نجَّى) وللفعل (أنجى) يلحظ التنوع في استخدام الفعلين عند التعرض للقصة الواحدة فمرة يرد الفعل (نجّى) المضعف ومرة يرد الفعل (أنجى) في قصة نوح عليه السلام وفي قصة هود عليه السلام مع قومه وكذلك في قصص صالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، وفي ورود هذين الفعلين في جميع القصص لم يكن لمجرد التنويع اللفظي، وإنما كان لمعاني ومقاصد تتفق مع إشارات دقيقة في ذكر النجاة ، فلم يكونا بدلالة واحدة وإن اتفقا في معنى الخلاص والنجاة .

وهذا ما يلاحظ من خلال التأمل في ورود كل واحد منهما في السياق الذي جاء معه ، فقد ورد الفعل (أنجينا) في كل القصص الواردة على معنى السرعة في الإنجاء والتخليص من القوم الظالمين ، وغالباً ما يأتي في المواطن التي يحتدم فيها النقاش ، وتطول فيها المحاورة بين الأنبياء وأقوامهم ، أو يستعجل الأقوام نزول العذاب عليهم بطلبه من الأنبياء تحدياً واستهزاء بهم ، أو يعاجلون بإيذاء الأنبياء وتهديدهم ، فيدعو النبي ربه على قومه ويسأل الله النصر والخلاص منهم، فيأتي هذا الفعل بدلالته على معنى السرعة في الإنجاء والتخليص في أحسن موقع لتطلب المقام له في غاية من البلاغة والبيان ، وهذا الفعل ورد في قصة نوح عليه السلام في ثلاثة مواضع في سور مختلفة .

فقد ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الآية : ٦٤] .

وفي سورة الشعراء ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الآية: ١١٩] .

وفي سورة الصافات ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الآية : ١٥] .

وقد مر تفصيل السياق ودراسته في سورة الأعراف والشعراء والصافات بما يغني عن التكرار هنا .

وأما في قصة هود عليه السلام فقد ورد هذا الفعل مرة واحدة بهذا المعنى في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ٧٢] .

وهنا اقتضى المقام الفعل (أنجينا) بعد أن طالت المحاجة والحوار بين هود وقومه وبعد أن استعجلوا العذاب بقولهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فنزل العذاب ونجى الله نبيه ومن معه فحسن في هذا المقام الفعل الدال على معنى السرعة في الإنجاء والتخليص .

وورد هذا الفعل في قصة هلاك قوم صالح عليه السلام مرة واحدة في سورة النمل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

حيث طال الحوار بين صالح عليه السلام وقومه في هذه السورة وكان الموقف شديداً، وهذا ما نجده من خلال تتبع السياق منذ ابتداء المحاورة .

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] .

فقد بين الله تعالى في هذه الآيات أنهم كانوا فريقين يختصمون ، وأن الكفرة استعجلوا السيئة قبل الحسنة ، وأنهم قالوا لصالح عليه السلام ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ وأنهم عزموا على قتله وقتل أهله وتقاسموا على ذلك وخططوا واستعدوا لهذا الفعل المشين ، وهنا حسن ولطف إيراد الفعل (أنجينا) الذي استدعى الإسراع في نجاة النبي الكريم ومن معه ، وتم إهلاك الظالمين .

وورد الفعل (أنجينا) كذلك في قصة هلاك قوم لوط في موضعين .

فقد ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[2] [الأعراف : ٨٣] .

---

(١) من الآية (٦٥ إلى الآية ٧١) وقد مر تفصيل ذلك عند التعرض لدراسة قوم هود في الفصل الثاني .

(٢) قد ورد فيما سبق تفصيل لهذا الموضع وبيان لدلالة أنجينا على معنى (الإسراع في النجاة) من خلال السياق وينطبق هذا أيضاً على المثال الموجود في سورة النمل فقد كان جوابهم للوط عليه السلام في

=

وفي سورة النمل ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [النمل : ٥٧] .

ومن الإحصائيات السابقة نجد أن هذا الفعل قد ورد في قصص هلاك الأقوام الخمسة المكذبين في سبعة مواضع .

وأما الفعل (المضعف) (نجَّينا) فإنه لم يبق على دلالة واحدة في وروده في كل السياقات المختلفة في هلاك الأقوام ، فقد ورد متلائماً مع معنى إحاطة العذاب وأهواله بالمُنجَّى ، بمعنى أن ذلك الذي نجي من العذاب قد عاصر أهوال العذاب وأن الله قد نجاه من العذاب بعد أن أحاطه دون أن يمس بسوء أو أذى كما هو حال السفينة وأهلها مع الطوفان لما عالجت وخالطت أهواله ومخاطره .

فقد كان الطوفان كرباً عظيماً لم ينج منه أحد من قوم نوح .

وهذا ما نجده في قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الأنبياء] .

ومن الإحصاء يتبين أنه لم يرد ذكر الكرب العظيم بعد الفعل (أنجى) .

=

قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ فاستدعى المقام ذكر الفعل (أنجى) الدال على السرعة في الإنجاء لضيق قومه به وتصميمهم على إيذائه وإخراجه .

وأنه لم يرد إلا بعد الفعل المضعف كما ورد في سورة الصافات أيضاً .

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾(1) .

وأكثر المواضع وروداً للفعل المضعف في قصص هلاك المكذبين في مقام الامتنان من الله تعالى على عباده بهذه النجاة ، فكأنها كانت نجاة بعد نجاة ، وهذا ما يتلاءم مع معاني التضعيف في الفعل ، فهي نجاة من العذاب ونجاة من القوم الظالمين ، وفضل من الله تعالى في بقائهم في الأرض ليعمروها بالدين والخير .

والدليل على إرادة معنى الامتنان ورود قوله تعالى : ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ بعد الفعل المضعف كثيراً ، وإضافة هذه الرحمة إلى ضمير الجلالة لتفخيمها ، وأنها كانت نجاة عظيمة برحمة الله تعالى ، والأمثلة على ذلك قوله تعالى في قصة هود : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [الآية : ٥٨] .

وفي قصة هلاك قوم صالح عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الآية : ٦٦] .

---

(١) ورد ذلك في القرآن كثيراً انظر إلى مثل ذلك في قصة موسى في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [١١٥ - ١١٦ سورة الصافات] .

وفي قصة قوم شعيب قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الآية : ٩٤] .

هذا ومما لوحظ من المقارنات بين صور الهلاك للأقوام المكذبين أن الفعل المضعف (نجّى)[١] قد ورد في قصة لوط عليه السلام أكثر من ورود الفعل (أنجى) .

والذي يظهر والله أعلم أن هذه الدلالات البيانية تتعلق بقصة لوط عليه السلام مع قومه ، فلوط لم يكن من أهل قرية (سدوم) الذين أرسل إليهم ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء القوم كانوا على الرذيلة والفساد جميعاً فلم يبق إلا لوط وآل بيته على الخير والطهر ، ولم يكن للوط عليه السلام رهط يتمنع به أو تكون له هيبة عند أهل هذه القرية بهم فقد قال لوط ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ فجاء الفعل (المضعف) هنا أدل على معاني النجاة من بين قوم أشداء قد اشتد وبالهم على لوط عليه السلام ، وهموا بإخراجه وإيذائه فكانت منّة الله وفضله على نبيه والله أعلم .

وعند الإحصاء العام لورود الفعلين في قصص هلاك المكذبين تبين أن الفعل (نجَّى) قد كان أكثر وروداً من الفعل (أنجى) فقد ورد الفعل (أنجى) في

---

(١) فقد ورد هذا الفعل وما يتصرف فيه من (ستة مواضع) في حين ورود الفعل (أنجى) في موضعين فقط .

سبعة مواضع[1] وأما الفعل (نجى) فقد ورد في أربعة عشر موضعاً .

ولعل ذلك يشير إلى بيان عظمة هذه النجاة والاهتمام بأمرها وبيان عظيم امتنان الله على عباده أن نجاهم من العذاب وأهواله إذ سلم الله الأنبياء ومن آمن معهم بعد أن استأصل أقوامهم وقطع دابرهم من الأرض ، وهذا أعظم فضل وأعظم رحمة - والله تعالى أعلم - .

ومما لوحظ من خلال المقارنات بين الآيات الواردة في هلاك الأقوام المكذبين .

إن الآيات لم تلتزم الاسم الموصول (الذي) مع الفعل المهموز (أنجينا) ولا الاسم الموصول (من) مع الفعل (نجّينا) كما قرر ذلك ابن الزبير الثقفي ، وبهذا يلحظ على هذا التقرير البعد والآيات خير من يرد على ذلك ، فقد ورد في سورة الشعراء قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ .

فقد اقترن الاسم الموصول (من) بالفعل (أنجى) على خلاف قاعدة ابن الزبير والذي يظهر والله أعلم أن السياق هو الذي يحدد ورود هذا الاسم الموصول (الذي) أو (مَنْ) فالآيات التي ورد فيها الاسم الموصول (الذي) كان المقصود منها الاهتمام بذكر المؤمنين والتعريف بهم عن طريق الاسم الموصول (الذين) في مقابل من أهلكوا وفي ذلك تشريف لهم وإظهار لفضل الله عليهم .

---

(١) كما مر بيان ذلك .

كما في قوله تعالى عن قوم نوح : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وأما مجيء هذا الاسم في قصة (نوح عليه السلام) فقد كان للاهتمام بذكر المؤمنين خاصة دون التطرق لغيرهم من مثل ذكر غير العاقلين ممن نُجى مع نوح من دواب الأرض ، فقد اختصت الذين في قصة نوح بالعاقل .

ولما أريد التطرق إلى ذكر عموم من كان في السفينة استخدم النظم الاسم الموصول (مَنْ) وإن كان استعماله للعقلاء إلا أنه اجتمع العاقل مع غير العاقل في عموم الحمل في السفينة ، فذكر الموصول (مَنْ) لذكر عموم من كان في السفينة من البشر والحيوانات المحمولة بدليل ذكر الفلك مرتين بعد الاسم الموصول (من) ووصفه بالمشحون (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون(١)).

فذكر الفلك المشحون واستخدم (أنجى) مع (مَنْ) التي شملت العاقل وغير العاقل ولأنهم هم الذين امتلأ الفلك بهم .

فوردت (من) على أحسن موقع ، وبهذا نجد أن استخدام الاسم الموصول بحسب المعنى والسياق الذي يتطلب ذكر أحدهما دون الآخر في دقة متناهية ليس كما أشار إليه علماء المتشابه من أمور لفظية لم تطرد في القرآن الكريم(٢)

---

(١) في مقابل مرة واحدة ذكر بعد اسم الموصول (الذين) في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ سورة الأعراف .

(٢) ينظر : ملاك التأويل ١ / ٥٣١ .

وقد ورد بعد الاسم الموصول (الذين) ذكر الفلك مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٦٤] .

ولعل في ذلك إشارة إلى مكان نوح في السفينة ومن معه وأنه كان مغايراً لمكان الحيوانات ، فالحيوانات قد كانت في أسفل السفينة .

ونوح ومن معه في أعلى السفينة وفي ذكر الاسم الموصول (الذين) هنا اعتناء وتشريف واهتمام بذكر من آمن مع نوح عليه السلام .

المبحث الثاني

مقارنات بين أسرار المفردات في هلاك الأمم

أ - ما ورد من صيغ الجمع والإفراد أو التذكير والتأنيث للكلمات من المقارنات البديعة ما يلاحظ في استعمال النظم الحكيم للجمع والإفراد للكلمات من أجل المعاني والدلالات .

فقد جاء إفراد كلمة (الدار) وجمعها في قصتي صالح وشعيب عليهما السلام وقد انتظم الإفراد فيهما مع ذكر الرجفة ، حيث وردت مفردة في قصة قوم صالح .

في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] .

وفي قصة قوم شعيب : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] .

والسر في ذلك كما ذكر علماء المتشابه أن القرآن الكريم وحّد الدار مع الرجفة لخصوص الرجفة[١] .

وجمعها مع الصيحة لعموم الصوت وسرعة انتشاره في أماكن كثيرة وقد ورد

---

(١) مرّ تفصيل أوجه أخرى لا تتعارض مع هذا الوجه تبين دقة معاني الإفراد والجمع في هذه الآيات الكريمة .

التزام جمع الدار مع الصيحة في قصة هلاك قوم صالح وشعيب في قوله تعالى عن قوم صالح : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٦٧] .

وفي قوم شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٩٤] .

فلم يكن الجمع والإفراد في القصة الواحدة إلا لأوجه بيانية ودلالات عميقة ، ويأتي الإفراد لبيان القوة وشدة الاندفاع مثل الإفراد في كلمة (الموج) في قصة نوح عليه السلام وقومه في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ ولم يقل أمواج للدلالة على التماسك وشدة الاندفاع .

وكذلك جاءت الريح في دلالتها على العذاب مفردة ولم تأت مجموعة قط في شأن العذاب والإهلاك وهذا ما يتضح في قوله تعالى عن قوم هود : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ١٦] .

وهكذا بقية الأمثلة فالإفراد من معانيه القوة والشدة[١] .

والنظم الحكيم يستعمل جمعاً دون جمع ويلاحظ هذا في قصة هلاك قوم هود فقد استعمل الجمع (النخل) بدلاً من (النخيل) وذلك لأن النخل اسم جنس

---

(١) قد مرَّ تفصيل أوسع لذلك عند التطرق لذكر (الريح ، وسر إفرادها في العذاب) .

جمعي وهو أشمل وأعم يقع على الكثير والقليل وقد عبر بهذه الكلمة في سياق عذاب قوم (هود) للدلالة على التقليل والتكثير .

مثاله على القليل قوله تعالى في سورة القمر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ حيث إن السياق يتحدث عن المهلكين في الأيام الأولى من العذاب وعدد المهلكين لم يكن كعددهم في الأيام الأخيرة من العذاب ولذلك كان تذكير النخل هنا يدل على القلة .

والآيات في سورة القمر تتحدث عن يوم واحد ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [الآية : ١٩] . ولما تحدثت سورة الحاقة عن الأيام كلها كان الصرعى والهلكى أكثر فلم يبق من قوم عاد باقية فكان التأنيث للنخل للدلالة على معنى التكثير أنسب في قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ فوقع الجمع هنا على الكثير والنخل يصح أن يقع جمعه على القليل والكثير بعكس (النخيل)(١) وفي قصة لوط استخدم النظم القرآني في جمع كلمة (ذكر) (ذكران) .

دون كلمة (الذكور) وذلك لأنها قد جاءت في سياق إنكار شذوذ قوم لوط وعدوانهم على الذكور فكانت هذه الكلمة بورودها على هذه الصيغة متلائمة في الدلالة على اكتمال الذكورية في هؤلاء الرجال وقد زيد في دلالتها على ذلك بأنها جاءت معرفة (بأل) للمبالغة في هذا المعنى والتأكيد عليه والتشنيع في ذم فعل

---

(١) قد مر تفصيل ذلك فيما سبق .

قوم لوط وأنه لم يكن إلا من العدوان والتجاوز للحدود ومعاكسة الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها .

فكانت هذه الكلمة في موقعها هنا أبلغ وأنسب من كلمة الذكور التي جاءت في النظم القرآني في سياق التقسيم الجنسي للناس إلى ذكور وإناث وهذا ما يتضح في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى : ٤٩] .

٢ - التذكير والتأنيث :

من ذلك ما ورد في تذكير الفعل أو تأنيثه مع ذكر الصيحة في عذاب قوم صالح وشعيب فقد قال تعالى في قصة صالح : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٦٧] فذكَّر الفعل هنا .

وقال في قصة قوم شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٩١] . وأنث هنا ولم يكن ذلك إلا من أجل المعنى .

ولعل التذكير يدل على قوة الصيحة والعذاب والتأنيث في قصة شعيب يدل على أن درجة عذابهم وقوته كان دون عذاب قوم صالح لأن قوم صالح كانوا أجبر وأطغى[1] .

---

(١) قد مر بيان كلام أهل العلم هنا وما ورد في ذلك .

وهؤلاء القوم قوم شعيب لم يحتاجوا من العذاب المهلك إلا ما يتناسب مع حالهم فهم أضعف من قوم صالح فلذلك أنث ولم يذكر ومن الطريف أنه لم يرد تذكير في عذاب قوم شعيب .

فقد قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ .

وفي سورة هود : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ .

وفي سورة العنكبوت : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

ولعل ذلك يشير إلى هذا المعنى .

ومما ورد من لطائف التذكير ما ورد في تذكير كلمة (العاقبة) حيث جاء تذكيرها في آيات الإهلاك لأنها بمعنى العذاب ، ولذلك ذُكّرت ، ومن ذلك قوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٤] .

وفي هلاك قوم لوط : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

(ب) الكلمات الأكثر وروداً في قصص الأقوام الهالكين :

إن النظم الحكيم قد أورد كلمات معينة في إيراد قصص هلاك المكذبين حتى تميزت هذه الكلمات في القرآن الكريم من مثل إيراد كلمات اختصت بذكر الهلاك

والتدمير والاستئصال أو بيان حال المعاندين وإعراضهم وعند إحصاء تلك الكلمات في ورودها في قصص الهالكين تبين اطرادها في جميع القصص واصطفائها عن غيرها ، وقد أضفى عليها البيان القرآني من اللمسات والمعاني ما نقلها من حيزها اللغوي المحدود إلى حيز تشع فيه بظلال أوسع وقدرة بيانية على نقل الصورة وأدائها بدقة كما تطلب المقام والسياق .

من تلك الكلمات الأفعال الماضية التي وردت في الإهلاك وبيان الإعراض من مثل (أخذ ، وأخذت ، وما تصرف منها) والفعل (جاء ، وجعل ، وأهلك ، وكذب) والآيات القادمة تبين مدى شيوع هذه الكلمات وسبب اصطفائها :

١ – ما ورد في قصص هلاك قوم نوح عليه السلام :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [٦٤ سورة الأعراف] .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [٧٣ سورة يونس] .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [٤٠ سورة هود] .

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [٢٧ سورة المؤمنون] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [٩ سورة القمر] .

٢ – ما ورد في قصة قوم هود :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٧٢ سورة الأعراف] .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [٥٨ سورة هود] .

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٤١ سورة المؤمنون] .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [١٣٩ سورة الشعراء] .

﴿ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [١٨ سورة القمر] .

﴿ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴾ [٦ سورة الحاقة] .

٣ – ما ورد في قصة قوم صالح :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [٦٦ سورة هود] .

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [٦٧ سورة هود] .

﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [٨٠ سورة الحجر] .

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ [٨٣ سورة الحجر] .

﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [٤٤ سورة الذاريات] .

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾ [١٥٨ سورة الشعراء] .

٤ – ما ورد في قصة قوم لوط :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [٨٢ سورة هود] .

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [٧٣ – ٧٤ سورة الحجر] .

٥ – ما ورد في هلاك قوم شعيب :

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [٩١ سورة الأعراف] .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ [٩٤ سورة هود] .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١٨٩ سورة الشعراء] .

ومن خلال هذه الإحصاءات للكلمات الأكثر شيوعاً في قصص الأمم المهلكة يتضح ورود كلمة (التكذيب) في جميع القصص الواردة ما عدا قصة لوط .

وهذا يدل على معاجلة هذه الأمم وسرعة مبادرتها إلى الإعراض والتكذيب دون أدنى نظر فيما جاء به المرسلون ، فهم قد أعموا أبصارهم وأفئدتهم عن الحق وطريق الهدى فاستحقوا العذاب المنزل عليهم .

ولذا لم يكن من الكلمات ما يقارن هذه الكلمة في أدائها لهذا المعنى ، ثم جاءت كلمة الأخذ في كل القصص الواردة وقد تحولت هذه الكلمة من استعمالها في اللغة بمعنى التناول للشيء إلى معاني ودلالات أوسع في البيان القرآني حيث إن الأخذ هنا غايته القوة التي ينتهي عندها المأخوذ وهي أدل على معاني الاستئصال والاجتثاث والتمكن من المأخوذ في قوة لا تقاس لعظمها .

« وكلمة أخذتهم نجد صوتها يوحي بالسرعة والقوة إذ تتابعت في أولها الفتحات ثم جاء الضم في الهاء والميم ليبين التحاق الظالمين بالصيحة العظيمة والصورة مثيرة للخيال لكونها رابطة بين المعالم الصوتية والمعالم الجسمانية فكأن الصوت العنيف حملهم منتزعاً إياهم وكأنهم قطع صغيرة »(١) .

ومن الكلمات المستعملة كثيراً في أمر نزول العذاب وإتيانه استخدام الفعل الماضي (جاء) وهو كما مر بيانه يأتي في مواضع العذاب والشدة وهو كذلك في كل قصص الأقوام الهالكين(٢) .

ولأن الفعل (جاء) يبين مجيء الأمر الخارق الذي ليس له مثيل في مقاييس البشر ، فهي قدرة المقتدر وعذابه الذي لا يرد ، فكل عوامل الطبيعة تتفاعل مع ورود هذا العذاب لأن كل شيء ملك القاهر القادر وتحت طوعه ونفاذ أمره ولذلك جاء الفعل الماضي (جاء) مقترناً في كل أحواله (بالأمر) في قوله تعالى :

---

(١) دراسات فنية في القرآن الكريم ، د/ أحمد ياسوف ، ص ١٨٠ .

(٢) مر تفصيل موسع لذلك عند التطرق لورود هذا الفعل في دراسة كل قوم .

﴿ جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ بالإضافة إلى ضمير الجلالة لتهويله بأنه فوق ما يعرف الناس ويدركون ، ومجيء الأمر بمعنى حصوله ونزوله .

ومن الكلمات التي تكرر ورودها في العذاب كلمة (الجعل) وهي بمعنى التصيير والتحويل ، ولم ترد هذه الكلمة إلا مسندة إلى الله تعالى ، وبهذا تكون الكلمة قد اكتسبت دلالة أخرى حيث إن التصيير والتحويل الذي تعنيه ليس تحويلاً معهوداً يدركه البشر أو يقيسونه ؛ لأنه من قبل القدرة الإلهية يبين العظمة والجبروت .

حيث تحولت الأشياء من حقيقتها إلى صور وهيآت أخرى تبين آثار العذاب المهلك المدمر لكل شيء المغير لكل معلم عن حقيقته وأصله .

الباب الثاني

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك الأقوام المكذبة

ويشمل ستة فصول :

الفصل الأول : أسرارتنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم نوح .

الفصل الثاني : أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم هود .

الفصل الثالث أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم صالح .

الفصل الرابع أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم لوط .

الفصل الخامس أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم شعيب .

الفصل السادس :مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها .

الفصل الأول

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم نوح

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الصورة الممتدة (المفصلة) .

المبحث الثاني : الصورة الموجزة .

المبحث الثالث : الصورة فيما أشار إلى قصة الإهلاك .

المبحث الأول

الصورة الممتدة في سورة هود[1]

تفردت سورة هود من بين السور في تفصيل حادثة الطوفان وذكرت ما دار بين نوح وولده من حوار ، وصورت نهاية الطوفان بما لا نجده في غيرها من السور وسورة هود من السور التي نزلت في مرحلة شديدة من مراحل الدعوة إلى الله تعالى ، ورسول الله ﷺ يواجه العتاة من كفرة قريش وصناديدها المعرضين ، فجاءَ البسط في تصوير هلاك قوم نوح إنذاراً للمعرضين ، وتثبيتاً للمؤمنين ، وتهويناً من شأن الكافرين ، وتسلية للرسول الكريم ، وفي عرض ما وجه به نبي الله نوح عليه السلام من إعراض واستهزاء مدة دعوته الطويلة بين قومه ، ثم لم يكن منهم بعد تلك الدعوة والصبر والجهاد إلا إيمان القليل كما قال تعالى :﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كل ذلك تأكيد لمعاني التسلية والتثبيت للنبي ﷺ ، بدليل قوله تعالى في هذه السورة الكريمة ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ١٢٠] .

وأول المشاهد التي نقف عندها تلك المقدمة التي جاءت تمهيداً لقصة النهاية المهلكة لقوم نوح ، حيث جاء التمهيد بتأييس نوح عليه السلام في إيمان من كذب من قومه ، وتسليته فيما كانوا يفعلون من إعراض وسخرية وصدّ عن

---

(١) البسط والتفصيل هنا اقتضاه المقام وتطلبه فلا يعد من قبيل الإطناب بل هو من الإيجاز لأنه جاءَ على صحة المقدار .

سبيل الله فقد حان أوانهم وحلّت ساعة الغضب عليهم ، وما عليه إلا أن ينصرف عنهم وعن دعوتهم بعد هذا الإعلام إلى ما أُمر به من صنع الفلك ليستعد لأمر الله ، وما صنع الفلك إلا مقدمة النهاية لقومه .

يقول الله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الآية : ٣٦] .

جاءت هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى عن قوم نوح ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [سورة هود :٣٢ - ٣٣] .

إنه تحدٍّ صارخ وتجبر يحمل في طياته السخرية والاستهزاء ، فجاءت الجملة التي نحن بصددها معطوفة عليها ، مبتدئة بفعل مبني للمفعول تعبر عن الصرامة والغضب الإلهي الذي انعقدت إشاراته منذ أول كلمة ، ثم استمرت الجملة بعد هذه الكلمة في حدة متنامية ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وللمتأمل أن ينظر إلى أسلوب التوكيد للخبر ، ومجيء ضمير الشأن الذي يشير إلى أن ما بعده من خبر سيكون شديداً وخطيراً حيث جاء الإعلام إلى نوح بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن عن طريق النفي بـ(لن) المفيدة تأكيد النفي في المستقبل ، والاستثناء بعد التوكيد للخبر (بأنّ) لتقرير ذلك الخبر وتثبيته في نفس نوح عليه السلام ، حتى لا يبقى في نفسه مجال للتفكير في أمرهم

أو العودة إلى دعوتهم وقد جاء هذا الوحي متزامناً مع يأس نوح عليه السلام منهم ودعائه عليهم(١) .

ومعنى (من قد آمن) أي من استمر على الإيمان ؛ لأن للدوام حكم الثبوت يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ أي إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه ، وقد للتوقع ، وقد أصابت محزها(٢) .

ويرى الشهاب أن ذلك يقتضي أن من القوم من آمن بعد ذلك ، وهذا ينافي تقنيطه من إيمانهم(٣) ، والاستثناء في الآية متصل مفيد للقصر دال على إثبات الإيمان مستقبلاً ودوامه لمن اتصف به قبل ، ونفيه عن غيرهم ، فلا أمل فيهم ، ولا فائدة في دعوتهم ، وجاز أن يكون منقطعاً، لا يؤمن أحد من قومك بعد ذلك كقوله ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وهذا الثاني قريب(٤) .

والقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف ، والآية الكريمة في حملها لهذا الخبر المؤكد تقطع الأمل في نفس نوح عليه السلام في شأن إيمان قومه وهو الحريص الطامع الساعي إلى هدايتهم بكل ما يستطيع ، وهذا الخبر الممهد

---

(١) كما يتضح ذلك في سورة القمر ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [الآية : ١٠] .

(٢) الكشاف (٢ / ٣٧٧) .

(٣) حاشية الشهاب (٥ / ١٦٢) .

(٤) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، د. صباح عبيد دراز ، ط(١) ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ٢٨ .

للانتقام منهم لما كان شديداً عليه جاء العطف بعد هذه الجملة بالفاء التي جاءت للتعقيب بتسليته عليه السلام ، والمبادرة إلى ذلك كما يتضح في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فهو نهي لنوح أن يتطرق إلى نفسه الحزن والكدر على ما كانوا يفعلون ، فقد جاء الفرج والنصر ، وأن العزة للدين وإن قل متبعوه ، وأن عليه ألا يحزن على مصيرهم ، فقد كانوا يفعلون المفاعل طوال مدة دعوته مما لا يستحقون معه أن يحزن لحالهم أو يتفكر فيما سيحل بهم ، وحتى لا يتبادر إلى نفسه البؤس جيء بالفاء العاطفة الدالة على المبادرة متصلة بلا الناهية التي امتد الصوت بها لامتداد المعنى ، وكان ذلك في غاية من التلاؤم مع معاني التسلية للنبي الكريم في نهيه عن الابتئاس ، وتهيئة نفسه للاستعداد لأمر الله ، وقال تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ جاءت (ما) الاسم الموصول المبهم هنا مصورة في إيجاز بليغ كل ما كان يفعله قوم نوح من استهزاء وإعراض وسخرية ، ثم جاءت الفاصلة بالفعل المضارع (يفعلون) تصور استمرار القوم وتجدد أفعالهم في الإعراض والاستهزاء في كل يوم من أيامهم ، إلى أن وصل الأمر إلى غايته ، وحذف المفعول هنا ليشمل كل أفعالهم التي جابهوا بها الدعوة وصدُّوا بها عن السبيل ، وقال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ وهنا ما زالت الجمل المعطوفة بالواو والفاء تتتابع تحدد مهمة نوح عليه السلام في هذه الفترة العصيبة، فقد أُمر هنا بصنع الفلك (واصنع الفلك) وهذه الجملة معطوفة على جملة (فلا تبتئس) لأنها داخلة في الموحى به ، فبعد أن تهيأت نفسه بعد نهيه عن الابتئاس وتسليته استيقن لأمر ربه فجاء الأمر بصنع السفينة ، وفي هذا غاية من الكرم

والرحمة من المولى العظيم على نبيه [1] ، وحسن الوصل بالواو هنا لأن بلاغة العطف تبين التدرج في مخاطبة نوح عليه السلام ، وإلقاء الأوامر عليه بعد تهيئة نفسه وتسليته وقال تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي تحت حفظنا ورعايتنا ، وجاء جمع الأعين هنا مناسباً لمعاني التثبيت لنوح عليه السلام وهو يقوم بهذا العمل بين قوم ازداد إيذاؤهم وبلاؤهم عليه ، وهم حريصون على إفساد كل ما يفعل ، فكان الموقف بحاجة إلى مزيد من التثبيت لقلبه والنفث في روعه بأن الله تعالى يحيطه ببالغ رعايته ، ثم عطف على ذلك قوله ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أي نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع الفلك ، وقدم الحفظ على الوحي لأن الأمن مطلوب في تحقيق الطمأنينة وضمان سلامة العمل من التخريب ، أو أن يحول بينه وبين عمله أحد ، والوحي إليه بالصنع يبين لنا حاجته عليه السلام إلى معرفة الكيفية التي يتم من خلالها صنع الفلك ، ولما كان في حاجة الأمن والعلم كان العطف بالواو الذي قدم فيه الحفظ على العلم والوحي لأنه لا فائدة من العلم بدون أمن وحفظ . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ عطفت هذه الجملة على جملة ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ وقد تتابعت الجمل المعطوفة (فلا تبتئس ، واصنع الفلك ، ولا تخاطبني)[2] .

وسرُّ بلاغة الوصل – كما مرَّ بيان ذلك – تدرج في مخاطبة نوح عليه السلام

---

(١) حسن الوصل بين الجمل هنا لما بينها من اتفاق في الإنشائية والمسند إليه واحد .

(٢) حسن العطف لما بين هذه الجمل من اتفاق في الإنشائية لفظاً ومعنى والمسند إليه واحد .

وتهييء لنفسه ، فبعد أن أُلقي الخبر الشديد عليه في شأن قومه جاء التعقيب على هذا الخبر بالعطف بالفاء لتسليته ، ثم الأمر بصنع الفلك بعد النهي والتسلية ، وكان العطف بالواو التي اقتضت[1] الترتيب والتدرج في غاية من البيان .

وجاءت الجملة من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، فلما أمر عليه السلام بصنع الفلك قد يتردد في نفسه الانشغال بمصير هؤلاء القوم أو الشفاعة لهم ، فجاء النهي هنا ليصرفه عن كل ما يشغله أو يداخل نفسه تجاههم ، وأن عليه أن يهتم بصنع الفلك غير ناظر إلى أي شيء يتعلق بأمرهم ، ثم جاءت الجملة التالية لها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ جملة مفصولة للاستئناف البياني المبني على سؤال مقدر أثارته الجملة السابقة فكأنه قيل : (لمَ النهي عن المخاطبة ؟) فكان الجواب ﴿ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ والجملة هنا مرتبطة بما قبلها لبيان علة النهي عن المخاطبة كما أنها بيان لسبب الأمر بصنع الفلك .

والارتباط بين الجملتين كارتباط الجواب بالسؤال ، ولهذا يترك العطف ، لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، وواضح أن الجملة الثانية ليست عين الأولى، وإنما أبانت عن معنى أثارته الأولى [2] . وهذا الفصل له اعتبارات بيانية لطيفة حيث يغني السامع عن السؤال ، ويتركه في لحظة زمنية تأملية ما بين تقدير

---

(١) اقتضت بسياقها الترتيب ويقال هذا في كل موضع سيأتي .

(٢) فكان الفصل هنا لما يسمى عند أهل البلاغة (بشبه كمال الاتصال) .

السؤال في نفسه وورود الإجابة في الجملة التالية فالجملة الأولى أثارت كثيراً من الخواطر في النفس ، والجملة الثانية أجابت عنها ، وفي طي هذه الخواطر وترك الإفصاح عنها ضرب من الإيجاز بديع ، يقول الإمام عبد القاهر رحمه الله في دخول (إن) على الجملة في هذا الموضع وما يشبهه « وهل شيء أبين في الفائدة وأدلُّ على أن ليس سواءً دخولها وأن لا تدخل ، أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بها قبلها وتأتلف معه وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أُفرغا إفراغاً واحداً ، وكأن أحدهما قد سُبِك في الآخر ؟ حتى إذا جئت إلى (إنَّ) فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول وتجافى معناه عن معناه ، ورأيته لا يتصل ولا يكون منه بسبيل حتى تجيء بالفاء ، ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة ، وإنما تقع (إن) موضع الفاء إذا كانت جملتها توضح ما قبلها وتبين وجه الفائدة فيه[1] وفي تأكيد الخبر (بإن) تنزيل غير السائل منزلة السائل إذْ قدم إليه في الآيات السابقة ما يلوح ويشير إلى نوع الحكم ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ فقد أشار إلى أنهم لن يؤمنوا ثم أمره بصنع الفلك ، ثم قال : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ وهذا كله من شأنه أن يجعل نوحاً عليه السلام يتساءل هل سيغرق الله قومه ؟ فقيل له إنهم مغرقون بالتأكيد ، للرد على هذا التردد الافتراضي حتى لا

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، (ط) مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص ٣١٦ .

ينشغل بهم فقد قضي أمرهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ وضع للمظهر في موضع المضمر للتسجيل عليهم وأنهم قد استحقوا العقوبة من أجل ظلمهم ، وفي قوله (ظلموا) دون (يظلمون) إشارة إلى أنهم قد مارسوا من الظلم في الماضي ما يكفي لإنزال العقوبة عليهم ، والتعبير بالجملة الاسمية (إنهم مغرقون) للدلالة على الثبوت والوقوع ، ولم يقل (إنهم سيغرقون) أو (سأغرقهم) بالصيغة الفعلية للإشارة إلى أن الأمر واقع وثابت لا محالة ، فلا مجال للشك فيه أو المناقشة .

إن الإيقاع في نهاية الآية ﴿ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ يصوِّر النهاية الحتمية المرتقبة حيث أحدثت إنّ المضعفة تأكيداً للعبارة يتوغل في النفس عبر قوة التأكيد للمعنى ، يزاد على ذلك توافق إنَّ المضعفة في إيقاعها مع إيقاع الفاصلة النون التي امتد الإيقاع بها مع حرف المد الواو لتحكي لنا نهاية الأمر وهو الغرق « فالواو مخرجه من أعلى الشفتين دون انطباقها »[(١)] .

وعند هذا الحد انطوى هذا المشهد ليظهر من ورائه مشهد آخر[(٢)] ، نبصر فيه نوحاً عليه السلام وهو منشغل بصنع الفلك والملأ من قومه يمرون عليه ساخرين .

﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ ﴾ .

---

(١) مذكرة في التجويد ، محمد نبهان ، ص ٩٨ .

(٢) مشهد السخرية والاستهزاء وانصراف نوح إلى صنع الفلك .

والنظم هنا في هذا المشهد يستخدم الفعل المضارع دون الماضي ؛ لإحياء المشهد واستحضاره ، فنحن هنا أمام مشهد حي وحركة متتابعة في دأب نوح عليه السلام وهو يصنع السفينة لا ينفك عن ذلك ، وحركة نوح في صنعه للفلك تقابل حركة الملأ من القوم وهم يتتابعون ليشاهدوا ما يفعل ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ كلما هنا تفيد التكرار فالملأ يكررون المرور عليه ، وهذا المشهد يعد من متممات استحضار الصورة منذ أن بدأ نوح عليه السلام في صنع الفلك ، إلى وقت انتهائه من الصنع والقوم دائمون على المرور به والسخرية والاستهزاء وحرف الاستعلاء يصور نظرة التعالي والازدراء والاستهانة . وفي الجملة الفعلية (ويصنع الفلك) التفات إلى الغيبة بعد أن جرى الكلام على طريق الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ وهذا الالتفات يبيِّن لنا مدى حرص نوح عليه السلام ومبادرته إلى الامتثال بعد خطابه وأمره بالصنع ، فهو قد ابتدأ في الامتثال مباشرة بهمة وعزم وإيمان وثقة والالتفات هنا ينقلنا من تلقي الأوامر عن طريق الخطاب إلى صورة الامتثال لهذه الأوامر والانصراف إليها عن طريق الغيبة في الفعل (ويصنع) الذي أحيا لنا المشهد وجعلنا أمام صورة كأن أحداثها للتو تشاهد .

واستحضار الصورة الماضية عبر الفعل المضارع (يصنع) فيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الحالية في قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ فنوح دائب في صنع السفينة وأفواج القوم من الملأ وهم

علية القوم دائبون في المرور عليه والسخرية منه ، وقال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هذه الجملة « حكاية لما يجيب به سخريتهم أجريت على طريقة فعل القول إذا وقع في سياق المحاورة ، لأن جملة (سخروا) تتضمن أقوالاً تنبئ عن سخريتهم أو تبين عن كلام في نفوسهم »[1] .

وهي جملة مفصولة عما سبقها للاستئناف البياني على تقدير سؤال ، بمعنى أنه لما سخر قومه منه كلما مرَّوا عليه فماذا كان حال نوح عليه السلام أو بماذا رد عليهم ؟؟ فكان الجواب ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ وقد جاء هذا الجواب مصدراً بحرف الشك « تجهيلاً للقوم على سخريتهم ، وإظهاراً بأنه كان ينبغي منهم الإيمان وأن يكون العناد والسخرية من الأمور التي يستبعد وقوعها منهم »[2] وقال (منّا) للإشارة إلى أن السخرية كانت من القوم على نوح ومن معه من المؤمنين وفي ذلك دلالة على مؤازرة المؤمنين له وثقتهم بما يقوم به ، ولما كان صنع السفينة في مكان بعيد عن البحار والأنهار كانت سخريتهم من هذا العمل أشد ، ولمّا كانت سخرية نوح عليه السلام ليست من قبيل سخرية القوم التي تقوم على الاستجهال والاستخفاف جعلت سخريته هنا « مشبهاً لنقصانها في هذا الباب

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٦٨ .

(٢) أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط « إن وإذا ولو » ومواقعه في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، محمود موسى حمدان ، إشراف د/ محمد أبو موسى١٤٠٩ هـ ، جامعة الأزهر ص ٢٩٣ .

وجعلت سخرية القوم مشبهاً به لتمامها ، فالكلام جرى على سبيل المشاكلة ، ووجه الشبه إبداء عدم الرضا واستنكار الإتيان بالفعل والتعجب من شأنه في كل والغرض من التشبيه الإنذار والوعيد للمستهزئين من قومه »[1] والمشاكلة هنا لفظية والمفسرون قد بينوا أن السخرية لا تليق بمقام النبوة ، ولذلك قالوا إنها جاءت على سبيل المشاكلة[2] .

إن سخرية نوح عليه السلام ستكون سخرية العذاب الذي عقد وسيحل بهؤلاء القوم عندما يأذن الله بنزوله ، ويالها من سخرية ثقيلة ليست كسخرية الاستحماق والاستهزاء والضحك إنها سخرية الزمن القادم الذي تتفتح فيه أبواب السماء بماء منهمر وتنفجر الأرض عيوناً ويلتقي الماء على أمر قد قدر ، وأنى لعقول هؤلاء المكذبين أن تصدق أو تتصوّر شيئاً من هذا ؛ ولأن هذه الأمور لا تكون إلا من قبيل المعجزات وهؤلاء القوم لا يؤمنون بالمعجزات[3] «ويجوز أن تجعل كاف التشبيه مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ فيفيد التفاوت بين السخريتين ؛ لأن السخرية المعللة أحق من الأخرى ، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام ، لعمل يجهلون غايته ، ونوح عليه السلام وأتباعه سخروا من الكفار لعملهم بأنهم جاهلون في غرور[4] .

---

(١) التشبيه البياني في نظم القرآن ، ص ٧٥ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ٦ / ٣٤٦ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠ .

(٣) ليس هذا على إطلاقه .

(٤) التحرير والتنوير (١٢ / ٦٩) .

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ هذه الجملة تفريع على جملة ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ وهو قول لنوح عليه السلام يؤكد هذا المعنى ، والفاء هنا وما فيها من معنى التعقيب وما تشير إليه الجملة من التهديد والإنذار يصعِّد هذه المعاني ويزيد من تهويلها ، « والوصل بالفاء أقوى في مقام التهديد لما فيه من شائبة التأكيد »[١] .

ولمّا كانت السين في سوف تحمل التوكيد فإن دخول الفاء عليها يزيد الجملة تأكيداً ودلالة على قرب العذاب الذي يجازون فيه على ظلمهم ، فالفاء هنا في هذا المقام أحق وأولى[٢] .

وفي الآية تصوير بليغ لكيفية مجيء العذاب وهوله ، حيث جعل العذاب هو المتصرف الذي يأتي ويخزي ، والعذاب والخزي فاعلهما الحقيقي هو الله ، ورجح الإسناد المجازي لما في ذلك من تفظيع لكيفية وروده وشدة هوله .

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم الفاء ، ثم ، د/ محمد الأمين الخضري ، ط (١) ، القاهرة ، مكتبة وهبة (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) ، ص ١٢٠ .

(٢) ويرى الزمخشري أن الوصل بالفاء في سوف وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر ويرى أن أقوى الوصلين وأبلغهما الوصل بالاستئناف ، ويرى الرازي أن حذف الفاء أكمل في باب الفظاعة والتهويل . ينظر الكشاف للزمخشري (٢ / ٤٠٨) ، التفسير الكبير للرازي (٦ / ٣٩٢) ، والحقيقة أن المقام هو الذي يقرر الحذف أو الذكر والمقام في الآية التي نحن بصددها في التهديد والتهويل ، وقد ذكرت الفاء فيها لما يلمح في ذكرها من التأكيد وتقرير المعنى لزيادة الترهيب ولموافقة السياق الذي وردت فيه .

وفي قوله ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ استعارة مكنية شبه فيها العذاب المقضي عليهم من الله بالدين المؤجل الواجب الحلول ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحلول(١) .

وهنا نلمس تصويراً للأحوال النفسية التي تنتاب الغريم المثقل وقد تعسرت عليه الطرق لا يملك قضاء ديونه فهو في اضطراب دائم في كل أوقاته وأحواله فالتشبيه فيه تهويل لوقوع العذاب وتفظيع وقال ويحل عليه بحرف الاستعلاء لتصوير تمكن العذاب وقهره وتسلطه عليهم لا ينفك عنهم ، وأهل التأويل يقولون إن العذاب الذي يأتيهم هو عذاب الدنيا وأن العذاب الذي يحل ويقيم عليهم يشير إلى عذاب الآخرة الدائم (٢) لذلك نجد التعبير عن العذاب الدنيوي بالجملة الفعلية لدلالتها على الحدث والزمن الذي ينتهي بانتهاء العذاب وانقضائه ، وعبَّر باسم الفاعل (مقيم) للدلالة على الديمومة والاستمرار الذي يلائم معنى العذاب الدائم في الآخرة ، وفي تنكير كلمة العذاب وإسناد الفعل يأتي ويحل إلى العذاب تهويل وتفظيع وتجسيم يزيد من حسية الصورة ودلالتها وجملة ويحل عليه معطوفة على يأتيه وهما خبريتان لفظاً ومعنى ، والمسند إليه واحد وبين الجملتين في المعنى تضاد ، فالإتيان عُبِّر به عن عذاب الدنيا وفيه انقضاء وفناء والحلول لما فيه من معنى الإقامة والاستمرار جعل تعبيراً عن

---

(١) ينظر حاشية الشهاب (٥ / ١٦٣) .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢ / ٤٧ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ١٧٠ .

عذاب الآخرة المستمر والدائم ، والوصل هنا للتوسط بين الكمالين ، ويطوى هذا المشهد الذي اعتبر كالمقدمة للأحداث العظيمة التي ستأتي ، وهنا أيضاً نجد أحداثاً جانبية قد طويت لم تعرج عليها القصة القرآنية المصوِّرة ، ولكونها ليست بالمهمة آثر النظم القرآني تركها اعتماداً على فهم المتلقي للسياق والقرائن ، ولتتجه اللقطات التصويرية إلى الأحداث العظيمة التي تهدف إليها الصورة ، فنحن لا نجد هنا حديثاً عن انتهاء نوح عليه السلام وفراغه من صنع الفلك وما كان بين فراغه من الصنع وانتظاره لأمر الله تعالى ، ولنا أن نتصوَّر في تلك الفترة أفواج الظالمين من قومه ما تزال تعج أصواتهم بالسخرية من نوح ومن معه من المؤمنين حتى جاء أمر الله وهذا ما يفهم من خلال تلمس السياق في الآيات السابقة .

ويأتي المشهد التالي بعد هذا المشهد ويجمل بنا أن نسميه مشهد التعبئة كما سماه سيد قطب رحمه الله [1] والمشهد يبدأ بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآيات : ٤٠ – ٤١] ، وحتى هنا تشير إلى تلك الأحداث المطوية فحتى غاية (ليصنع الفلك) أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا [2] .

وعبَّر بإذا لإفادة تحقق المجيء والقطع بوقوعه ، والشرط هنا قد وقع ولكنه

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ١٨٧٧) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٢ / ٦٩) .

جاء على الحكاية لما مضى ، لتصوير المشهد واستحضاره ، والتنور كما مرَّ بيانه سابقاً هو تنور الخبز الذي يوقد فيه ، وقد رجح ذلك الطبري رحمه الله[1] والتنور أمارة جعلها الله لنوح عليه السلام عند فورانه بالماء أن يركب السفينة هو ومن آمن معه وفوران التنور علامة على أن غيره من الأرض كان أشد منه فوراناً ، وكلمة (فار) تصوِّر لنا شدة الماء واندفاعه من الأرض حتى فجَّرها وشققها فأصبحت عيوناً تفور من كل مكان .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ نجد أن الأوامر هنا محددة ، فعلى نوح عليه السلام ألا يزيد فوق الاثنين من الزوجين من كل صنف من أصناف الحيوانات ، حتى لا تضيق السفينة وتزدحم ، والمراد هو بقاء نسل تلك الحيوانات ، وفي ذلك إشارة إلى عموم الطوفان للأرض كلها ، وجاء التأكيد بعدم الزيادة في قوله اثنين بعد زوجين لأن كلمة الزوج قد يلتبس معناها على العامة فيطلقونها على المثنى مع أن المراد بها الصنف المفرد مما يوهم بأن الزوجين أربعة فأكد باثنين لزيادة البيان ورفع ما يرد على الأذهان من هذا الإبهام[2] .

وجاء تقديم إدخال الأزواج على الأهل لأن إدخال الأزواج يحتاج إلى

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٢ / ٤٩) .

(٢) مرَّ تفصيل هذه المسألة عند التطرق لتوجيه قراءة الجمهور وقراءة حفص عن عاصم في (كلٍّ) بالنون في الباب الأول .

مزاولة الأعمال منه عليه السلام وإلى معاونة الأهل أما هم فيدخلون باختيارهم[1] .

وفي تأخير الأهل ضرب من التفصيل بذكر الاستثناء وغيره ولو قدم لأخل بتجاوب النظم ، ولنا أن نتلمس جمال ورود كلمة (وأهلك) حيث لم يقل من قبل واحمل أهلك بل جاءت قبل الاستثناء ممن سبق عليه القول ، فليس كل أهله لأن الضالين لا توجه لهم الدعوة وإنما هي دعوة للمؤمنين من أهله ، وفي إفراد الأهل مزيد عناية بهم وإلقاء لظلال الرحمة والبشرى على قلب النبي الكريم ، والبيان القرآني في الآية الكريمة قد حدد من الجنس البشري من كان مؤمناً صالحاً، سواءً كانا زوجين أم لا ومن الحيوانات من كل صنف زوجين اثنين فقط ، إنها تعليمات صارمة ومحددة أُلقيت إلى نوح عليه السلام ليمتثل بها في هذا الوقت الضيق والحرج ، ويأتي الاستثناء من الأهل حاداً وصارماً ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ وأوثر التعبير فيه (بعلى) لكون السابق ضاراً ، كما جيء باللام في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [سورة الأنبياء الآية : ١٠١] ، لكون السابق نافعاً ، وقد اجتمعت اللام وعلى في قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[2] [سورة البقرة : ٢٨٦] .

ثم نجد البيان القرآني هنا لما صوَّر لنا هذه الأوامر الملقاة على نوح عليه

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٣٢) .

(٢) الكشاف للزمخشري (٣/ ١٨٠) .

السلام في صورة الخطاب المتوافقة مع الطلب ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ جاء الالتفات بعد ذلك إلى أسلوب الغيبة في قوله ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ليكون لفتاً وتنبيهاً يحمل معه دلالة مؤثرة يشعر بها الحس وتتألم لها النفس« وفيها التفاتة إلى أن هؤلاء هم المؤمنون الذين استرذلوا واحتقروا قد أصبحوا اليوم بإيمانهم في معية الله وكنفه»(١).

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ جاءت جملة ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ وحسن العطف بالواو لأنه لمّا كان دخول من لا يعقل إلى السفينة عن طريق الحمل قبل دخول من آمن معه كان العطف بالواو هنا يدل على هذا الترتيب ، والآية تشير إلى المشهد الذي يعج بحركة المياه المتدفقة من الأرض والنازلة من السماء والسفينة على وشك أن تحركها المياه وفي هذه اللحظات يأمر نبي الله نوح من آمن معه بالركوب فالطوفان يجتاح كل شيء ويدمر ، والهول يحيط بالكون من كل مكان ، ولما كان الموقف فيه رهبة وفزع كأنه قد تردد في النفوس كيف ستسير هذه السفينة في خضم هذه المياه المتدفقة والسماء المنهمرة ، وأين ستتجه ؟ وإلى أين ستنتهي ؟ فجاء قول نوح عليه السلام (اركبوا فيها) في جملة مستقلة تحث المؤمنين على الركوب في السفينة ، وهذه الجملة المستقلة يجب أن نقف عندها نتأمل قليلاً لأنها

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ط (١) ، القاهرة ، مكتبة وهبة (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) ، ص ٦١ .

توحي لنا من بعيد ذلك التردد والتخوف والتساؤل السابق ، فلما جاءت الجملة الثانية وهي جملة مستقلة مكونة من مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أزالت الخوف من أنفسهم والتردد ، فركبوا باسم الله تعالى وازدادوا يقيناً ، وربطت هذه الكلمة على قلوبهم ، وهم هنا لم يشكوا في النجاة وفي قدرة الله ، ولكن هول الطوفان واضطراب الأحوال جعلهم في خوف وتساؤل احتاج إلى زيادة اطمئنان بأن الله تعالى هو المسير لتلك السفينة وهو المرسي لها ، فهي بحفظه تسير ، وبحفظه سترسو ، وما على المؤمنين إلا أن يطمئنوا ويفرحوا بنصر الله وقال اركبوا (فيها) لأن هذا الموطن يستدعي حرف الظرفية (في) ويلح عليه ، فالأمواج هادرة تحيط بهم من كل مكان والأمطار منهمرة من فوقهم ، « ومن ثم كان الأدل على هذه المنة أن يعبر بما يدل على تمكنهم واستقرارهم فيما سخر الله تعالى لهم حيث يستقرون في الفلك آمنين ، وكأنها قد تحولت إلى مساكن على أرض يابسة تحميهم من أمواج تتقاذفها وأمواج تحيط بها »[(١)] .

وفي تعدية الفعل اركبوا بحرف الجر (في) لرعاية جانب المحلية والمكانية في الفلك ولأن في إطلاق الركوب على الفلك مجازاً وإنما المراد الجلوس والاستقرار ونجد هنا أن أبا السعود رحمه الله قد بين السرَّ في ذلك حيث يقول : إن معنى الركوب العلو على شيء له حركة إما إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استعمل في ذات الحركة الإرادية روعي الأصل ، فيقال مثلاً

(١) المصدر السابق (٦٠ – ٦١) .

(ركبت الفرس) ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [سورة النحل ، الآية٨] وأن استعمل في ذات الحركة القسرية لوح بمحلية المفعول بحرف (في) فيقال مثلاً (ركبت في السفينة) وعليه الآية الكريمة[1]

ومن هنا نعلم مدى الإحكام البياني في استخدام القرآن الكريم للحروف فالركوب حقيقة في الدابة ومجاز في غيرها وحرف الجر في جاء لبيان الفرق فيما بين الركوبين .

وفي قوله تعالى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ جاء تقديم الخبر (بسم الله) على المبتدأ لإفادة الاختصاص أي جريها ورسوها باسم الله لا بهبوب الرياح وإلقاء المرساة .

فالسائق والموجه هو الله وحده بأمره تجري وبأمره ترسو ، وفي كلمة (مجريها) وتصوير لحركة السفينة وهي تشق عباب الطوفان في يسر وسهولة وما يحدث لها من ميل جهة اليمين أو اليسار بفعل حركة الموج وشدة اضطرابه تصوِّره الإمالة في الحرف ، ولم يرد في مرساها إمالة لأنها تصوِّر لنا حال السفينة وما يناسبه من الثبات والاستقرار الذي لا يتلاءم مع صفة الإمالة .

ونجد أن البيان القرآني هنا لا يلتفت إلى تصوير ووصف كيفية الركوب أو كيفية تلاقي الحيوانات المختلفة وأين وضعت ؟ هل كانت في أسفل السفينة أم في الأعلى منها ؟ ويترك ذلك لعدم أهمية ذكره ليتجه الذهن إلى الأحداث المريبة

---

(١) تفسير أبي السعود (٣ / ٣٣) .

ولأن في ذكر هذه الأمور قطعاً للتتابع المتلاحق لهذه الأحداث المحدقة والتي ركز عليها البيان القرآني في إيجاز وتلاحق بديع ليصل إلى الغاية ، والهدف من إيراد هذه الصور والمشاهد التي تنمي صور الترهيب من العذاب لتهويله في نفوس الكافرين ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لأنها تعليل للأمر بالركوب ، ودلالة على أن نجاتهم كانت برحمة الله وفضله ولمّا كان الماء مهيئاً للإغراق وكان السير على ظهره من الخوارق ومظنة الغرق الذي يفزع ويخيف جاء التأكيد في الجملة ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث سيركم في هذه الأحوال التي لا تستقيم في أرض الواقع إلا برحمته وهذا التوكيد بإنَّ واللام واسمية الجملة ينزع ما قد يصل إلى نفوسهم من الخوف والفزع في هذه الأحوال لأن الله قد تكفل بهم « وفي ذلك إيماء إلى أن الله وعده بنجاتهم وذلك بأن هيأ لهم هذه السفينة ليبقى نسلهم وذلك من غفرانه ورحمته ، وإنّ هنا تفيد توكيد التذييل وفيها تحقيق بأن الله رحمهم بأن نجاهم من الغرق وفي قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ جملة اعتراضية دعا إلى اعتراضها هنا ذكر مجراها إتماماً للفائدة ووصفاً لعظم اليوم وعجيب صنع الله في تيسير نجاتهم »[١] .

ومن هنا ومنذ أن بدأ الركوب وبدأت السفينة في تحركها والأمواج في عتوها تطغى على الأرض نصل إلى قمة الأحداث التي تتواكب وتتابع في كل جملة مشهد وقصة . هاهي السفينة تحركها الأمواج في سرعة هائلة والظالمون من قوم

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٧٤) .

نوح يقعون في دوامات هذه الأمواج يحاولون مصارعة الموج خوفاً من الغرق ولكن الموت يحاصرهم من كل مكان فالطوفان قد أحاط بالأرض كلها فأين المهرب والمنجى ؟ وذكر أحوال الظالمين وما جرى لهم مع الطوفان من الأحداث المطوية في القصة والتي تفهم من خلال السياق ؛ لأن جري السفينة في موج كالجبال يدل على غرق كل من لم يركب السفينة ؛ لأن الأرض كلها أصبحت كالبحر الواحد ولمَّا كانت الأمواج عاتية وهائلة وكان السير على ظهرها معجزاً أسند النظم الجري إلى السفينة ليبيّن تمكنها من السير في مواجهة الأمواج بقدرة الله تعالى وقال تجري (بهم) حتى لا يتوهم أن السفينة مع عتو هذه الأمواج لم تكن محتفظة بحمولتها التي امتلأت بها من البشر والحيوانات وقال تعالى : ﴿ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ جاء الإفراد في كلمة الموج لبيان قوة هذا الموج المندفع في اتجاه واحد وقد كانت كل موجة منه بمثابة الجبل في عظمها وضخامتها بعكس الأمواج التي تتناثر في اتجاهات مختلفة لا تدفعها ريح واحدة في اتجاه واحد .

والمشبه في الآية موج الطوفان والمشبه به : الجبال ، ووجه الشبه العظم والضخامة والارتفاع ، والغرض من التشبيه تصوير المشهد وبيان الحال ، والسياق الذي ورد فيه التشبيه هنا يقتضي هذه الصورة دون غيرها « والتشبيه في الصورة المشاهدة مراعى فيه ما بين المشبه والمشبه به من تقارب في القدر والمساحة، وعندئذٍ تكون الكاف بمعنى (شكل) وليست بمعنى (شبه) لأن الشكل يراعى فيه المقدار والأبعاد ، والشبه لا يراعى فيه ذلك وقال (كالجبال) لأن كل موجة أصبحت كالجبل في تراكمها وارتفاعها فشكلها في المقدار والعظم

كشكل الجبال فالكاف دلت على معنى (شكل) الذي فيه معنى (شبه) بزيادة النظر إلى الجرم والمقدار ، فالموجة منظور إلى هيئتها ومقدارها معاً»[1].

لقد رمت الصورة في هذا المشهد إلى تصوير الموج عالياً ضخماً عاتياً حتى أتى الغرق على كل شيء ، وقد أَمِنَتْ السفينة المطمئنة بأمر ربها ، فالآية تبين معاني العبرة والامتنان في بديع لطف الله في نجاة المؤمنين من الغرق وشديد نقمته في إهلاك الطغاة ، والجبل يرمز إلى الضخامة والارتفاع والتماسك والقوة والصورة حسية لا مبالغة فيها ؛ لأنها تصوِّر لنا الحقائق المذهلة لواقعة الطوفان كما هي ، فكل موجة أصبحت كالجبل في ارتفاعها وضخامتها وتماسكها ولنا أن نتصور الدلالات الأخرى التي يرمز إليها الجبل من الثقل والجرم وما ستحققه الموجة من شدة الضغط والعنف ، إننا أمام مشهد يمور بالحركة والقوة والأهوال فهي أمواج كالجبال والتشبيه المبني على الحسية في المشبه والمشبه به ينقل للمخيلة الصورة لتلتقط أبعاد الهول المرئي كما كان على حقيقته وعند هذا المشهد الذي نقلته لنا الآية نقلاً حيّاً من خلال حركة السفينة وجريها بسرعة ومن خلال حركة الأمواج المتلاطمة التي أصبحت كالجبال في ارتفاعها وضخامتها وهول ضغطها وعنفها يأتي موقف تتجلَّى فيه معاني الأبوة الحية التي انبعثت قوية في نفس نوح عليه السلام كقوة هذه الأمواج في شدة اضطرابها واندفاعها لَمَّا أبصر ولده وهو

---

(١) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ، د/ محمود حمدان ، ط(١) ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢) ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

في معزل عن الكفرة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذه الجملة معطوفة على أعلق الجمل بها اتصالاً وهي ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا ﴾ لأن نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الراكبين كلهم كانوا مستقرين في جوف السفينة[1] .

إذن هذه الواو ليست لترتيب الأحداث ، فالنداء كان قبل أن يعم الماء الجبال وكان قبل جريان السفينة ، وجاءت هذه الجملة هنا حتى لا تقطع الاتصال المراد ما بين قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ وذكر خطورة المجرى في قوله ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ حيث تناسب إيراده في هذه الجملة بعد ذكر المجرى لبيان فضل الله وقدرته في تسيير السفينة رغم ما كان يحيط بها من أخطار وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة للسفينة وهي تجري وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ جملة معترضة جيء بها لبيان مكان ابن نوح عندما ناداه وهو في مكان منعزل منفرد لم يكن بصحبة أحد من الكافرين مما جعل نوحاً عليه السلام يستبشر فيه خيراً ويناديه نداء الأب المتلهف على نجاته ، ولنا أن نتأمل هذا الموقف فالأب في داخل السفينة في مأمن والابن في بعد عن السفينة تحيط به الأخطار وقد هامت في قلب الوالد حنان الأبوة في هذا الموقف العصيب وهو يعلم علم اليقين أن لا شيء ينجي من عذاب الله ، فقد استوى عجز الطبيعة

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٧٥) .

والبشر فجاء نداؤه صارخاً في حرقة ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وهذه الجملة جاءت مفصولة ؛ لأنها بيان لجملة ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ والفصل لكمال الاتصال ، ووصلت جملة (ولا تكن مع الكافرين) بالجملة التي قبلها ؛ وسرُّ الوصل بالواو بين الجملتين ؛ لما فيه من (إعلام بأن ابن نوح في إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفار ؛ إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلا أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان)(١) ولما تشعر به الواو من المغايرة بين معية المؤمنين ومعية الكافرين ، وكان مقتضى الظاهر الفصل ؛ لأن الجملة الثانية في منزلة التوكيد للجملة الأولى ، ولكن لمّا كان العطف تلمس فيه هذه المعاني اقتضى السياق العطف بالواو ليكون لفتاً وتنبيهاً فيه تحذير من الهلاك ، وإرشاد إلى سبيل النجاة إن ورود النداء في صدر الجملة يحمل كل معاني الحرص والشغف على الابن ، وما في تصغير (ابن) من معاني التحنن والاستعطاف بعد النداء الذي حمل إشارات من التنبيه عظيمة كعظم ذلك الموقف ، وما يلحظ من تجاور للأمر والنهي ، كل ذلك يصوّر لنا حرص النبي الكريم وتأكيده لابنه علّة أن ينفذ ما طلب منه ، والنداء لون من الخطاب ولا يكون إلا في أمر هام وحين يعظم هذا الأمر ، يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي كالأمر والنهي ، وغالباً ما يتقدم النداء لضمان اهتمام المخاطب واصطفائه والتفاته وتتبعه لما يلقى عليه « وفي ذلك دليل على أهمية ما ورد بالنظر إلى نفسية نوح التي عاشها وهو يرى ابنه يخرج

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٧٦) .

عنه إلى الهلاك يفسر لنا تجاور الأمر والنهي وما يقدمانه من مقارنة بين أمرين بينهما غاية التنافر ، معية الأب الحنون على ابنه المشفق عليه الحريص على نجاته ، ومعية الكافرين الموردة للهلاك[1] .

وأساليب التنبيه تحتشد في هذه الآية الكريمة ، حيث اجتمع فيها النداء والأمر والنهي ثم الالتفات من الغيبة إلى الخطاب إذْ جاء الكلام على طريق الغيبة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ ثم انتقل إلى الخطاب في قوله : ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ وفي ذلك إحداث للإيقاظ ولفت وتنبيه ، فالموقف موقف أهوال وأخطار لا تنتظر مزيداً من الوقت ، وما هي إلا لحظات وينتهي كل شيء ، فجاء هذا الالتفات إلى الخطاب ليحدث إيقاظاً ولفتاً من نوح عليه السلام لابنه لعله يدرك ما هو فيه من خطر ، وجاء حذف المفعول في الجملة يبين عن ضيق المقام ودنو الخطر الزاحف الهائج بعد لحظات يسيرة والتقدير « اركب[2] معنا السفينة » ونوح عليه السلام كان همه منصرفاً إلى المعية وهي أهم من ذكر السفينة حيث ألح عليها ولكن بعد هذا كله ما كان جواب ابنه إلا أن ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ وهذه الجملة فصلت للاستئناف

---

(١) الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية ، رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، إعداد الباحث محمد إبراهيم شادي ، إشراف د/ محمد عبد الرحمن الكردي (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) ص ١٨٢ .

(٢) والإدغام في الحرفين فيه اختصار في النطق وتسهيل ينبئ ، ويومئ بضيق المقام .

البياني على تقدير سؤال أثارته الجملة السابقة ، فكأنه قيل فماذا كان رد الابن بعد هذا النداء والألم الذي كان يعتصر قلب الوالد خوفاً على مصير ابنه ؟ فكان الجواب ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ . إنه ردٌّ فيه عدم اكتراث ومبالاة تصوره لنا كلمة (سآوي) وما فيها من حرف السين الذي يمد الزمن وما في الألف كل ذلك يصور التراخي الذي انطبع في نفس ابن نوح ، إنه غير مستيقن بالخطر المحدق غير آبه بما يحصل ، يدل على ذلك تسميته للطوفان بالماء لظنه بأنه سيل من السيول سيحتمي منه بالجبال ، فجاء رد نوح عليه السلام بأبلغ عبارة وأوجزها ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ وهذه الجملة جاءت مفصولة للاستئناف البياني وهذا الرد البليغ كان بأسلوب القصر الذي رد نوح عليه السلام فيه اعتقاد ابنه ، ونبهه بأن القضية ليست قضية طبيعة يحتمى بها من السيول ، وإنما هو أمر الله الذي تعجز أمامه الطبيعة بمن فيها والبشر بائسون لا منجى ولا مهرب لأحد منهم إلا من كتب الله له النجاة والرحمة ، والقصر في الآية الكريمة من قبيل قصر الصفة على الموصوف للرد على ابنه وقلب ما تخيله في نفسه من أمر النجاة .

« وعبّر باسم الفاعل مبالغة في نفي كون الجبل عاصماً ، وأضافه لليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تحصل فيها الوقائع وتحدث فيها الملمات ، وعبَّر عن الماء بـ(أمر الله) تضخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره »(١) .

---

(١) روح المعاني (٦ / ٢٥٨) .

وللعلماء في هذا الاستثناء أقوال فمنهم من جعله استثناءً متصلاً على هذه التقديرات الآتية : ١ - المراد بمن رحم : الله تعالى ، أي الراحم .

٢ - على حذف مضاف أي مكان من رحم .

٣ - عاصم بمعنى معصوم ، أو ذي عصمة صيغة نسب[١] .

ومنهم من جعل الاستثناء منقطعاً لأنه أبقى (عاصم) على أصل معناه ، ويكون المراد بمن رحم المعصوم[٢] .

وأما أهل البلاغة فقد جعلوا (عاصم) بمعنى المعصوم .

فالمعنى عندهم لا معصوم اليوم من أمر الله ، فاسم الفاعل تم إسناده إلى المفعول ، فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية ومثله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

فإن راضية مسندة إلى ضمير العيشة فقد جعلت العيشة فاعلاً وإنما هي مفعول في المعنى لأنها مرضى بها[٣] .

ولعل جعل (عاصم) على معناه غير مؤول بالمعصوم هو الأسلم الذي يتوافق مع نظم القرآن ، فالكلام على أصله مستقيم ، ويرى الطبري - رحمه الله -

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة (ط) دار الحديث ، القاهرة ، عام (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م) (١ / ٣١١) .

(٢) معاني القرآن للفراء (٢ / ١٥) ، البحر المحيط (٥ / ٢٩٦) ، الكشاف (٢ / ٣٨١) ، بدائع الفوائد (٢ / ٧٠) .

(٣) ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي (١ / ١٤١) .

أن كلام الله تعالى يوجه إلى الأفصح من كلام من نزل بلسانه ما وجد إلى ذلك سبيل ولم يضطرنا شيء إلى أن نجعل (عاصماً) في معنى (معصوم) ، وابن القيم كذلك يرى فساد هذا التأويل لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به فلا يشاركه فيه الآخر ، وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق ، بل هو فاعل على بابه كما يقال ماء جار فدافق كجارٍ[1] .

والمتأمل في ورود (عاصم) على اسم الفاعل يجد البلاغة والبيان ، لأن العاصم ينفي كل عاصم سوى الله ، ويدل على نفي كل معصوم سوى من رحمه الله ولأن ذكر العاصم يستدعي المعصوم المفهوم من السياق ولو جعل عاصم بمعنى معصوم لما اتسع لهذا المعنى وكان المعنى (لا معصوم اليوم إلا من رحمه الله) وعلى هذا لا نجد المعنى هنا ينص على نفي كل عاصم سوى الله تعالى ، وكذلك العيشة إذا جعلت راضية فإنه يفهم من ذلك الدلالة على الاهتمام بمن في تلك العيشة ، فكأنها هي التي تهتم بمن يعيش فيها ، وليس العائش هو الذي يهتم بعيشته ولذلك كان اسم الفاعل هنا يدل على الحياة والنعيم الذي لا يوجد إلا في جنات الخلد عند مليك مقتدر ، ولن نجد في اسم المفعول هذه المعاني ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ وحال هنا تعني الحجز والمنع والقطع ، إن هذه الكلمة تصور لنا عنف الموج الذي اتجه في سرعة وقوة نحو الابن ليطيح به في دواماته المضطربة الصاخبة ، لقد قطع هذا الموج ما

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٢ / ٥٦) ، وينظر بدائع الفوائد لابن القيم (٢ / ٧٠) .

كان بين الوالد وولده من حوارٍ ، وحسم ما بين النداء الحار من الوالد المتحسر ، والإباء المتمنع الحاد من الابن المغرور ، لم يأبه الموج بعواطف الأبوة ، لقد جاء لينفذ أمر الحكيم العليم ، فهو هنا في التصوير القرآني في صورة العاقل الواعي ، وهذا مما يزيد في حسية الصورة وفي تشخيصها حتى يعيشها المتأمل ويشعر بهول المشهد .

وفي هذه السرعة الهائلة يطوى مشهد النداء الصاخب من نوح ، ويغمر الموج ابنه ليكون في عداد الهالكين الماضين ، وليكن شيئاً متوارياً في الزمن الماضي البعيد فالصورة القرآنية هنا لا تحبذ إلا أن تجعله مغموراً فيمن مضى مع من قضى من الكفرة ، بدلالة (كان) على المبالغة في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ ودلالة الفاء على سرعة الإغراق وفي (كان) دلالة على سبق غرق ابن نوح مع المغرقين قبل استواء السفينة ونجاة من فيها ، وجعلُ الصورة هنا ابن نوح متوارياً في الزمن الماضي فيه تعبير عن ارتياح الكون ومن فيه من الظالمين ، فالطوفان قد جاء ليطهر الأرض من رجز كل كافر ظالم ، ولم يعد في المشهد هنا غير صوت الأمواج الهادرة المضطربة ، وصورة تلك السفينة الجارية فوق ظهر هذه الأمواج العاتية تسير بأمان الله ورحمته ، والفواصل في المشاهد السابقة إلى هذا المشهد تستمر على فاصلة النون الأثيرة في القرآن ، وعلى الميم في فاصلتين ، وهو ما يتفق مع المشاهد المتتابعة والمتلاحقة في نسق بديع يتلائم مع المعاني القوية والأحداث المريبة فتصور لنا فواجع الغرق ونهاية الأمر وقد جاءت الفواصل وقبلها حرف المد الواو ، والياء ، حيث وهبت الفواصل « قيمة سمعية كبرى تكسب إيقاعها

وضوحاً لاسيما عندما تجانسها حركة ما قبلها فتتمخض ، لانطلاق الصوت مسافة أطول »[1] . وكل ذلك يتوافق موافقة بديعة مع المعاني المثيرة في المشاهد الملتهبة ولننظر إلى الفواصل حيث جاءت على هذه الوتيرة (يفعلون ، مغرقون ، تسخرون ، مقيم ، رحيم ، الكافرين ، المغرقين) والميم والنون حرفان متقاربان مما يجعل الإيقاع بهما فيه تلاؤم وتناسق بديع[2] .

وعند هذا المشهد يسدل الستار على أعلى ما وصل إليه الطوفان من هيجان وما لحق الأرض من حركة واضطراب ، لتعود بعد ذلك إلى هدوئها واطمئنانها بعد أن قضى الله أمره في الظالمين الجاحدين ويعود النغم والإيقاع إلى الهدوء الذي يتلاءم مع السكون والاستقرار الذي عاد إلى الكون لندخل على مشهد سكون الغضب في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآية : ٤٤] .

وهنا نصل إلى نهاية الطوفان عند سكون الغضب واختفاء الماء وهدوء الأرض وعودة كل شيء إلى طبيعته ، إن هذه الجمل القرآنية المتتابعة في نسق معجز تصوِّر لنا معاني الإرادة الإلهية المتصرفة في الكون كله ، فما هي إلا لحظات

---

(١) الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ، د/ عيد محمد شبايك ، ط(١) ، القاهرة ، دار حراء ، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) ، ص ١٠٢ .

(٢) والنون والميم من الأصوات المجهورة كما عدّها سيبويه ، الكتاب ٤ / ٤٣٤ ، والمجهور معناه قوة التصويت فالإيقاع كان عالياً صاخباً يتوافق مع المعاني والمشاهد العنيفة الهائجة .

يسيرة وترجع الأمور إلى هدوئها واستقرارها ، وابتدأ المشهد بكلمة (قيل) مبنية للمفعول لتصور لنا سهولة انقياد الكون لخالقه ، وأنه لم يحتج إلى مزيد شأن ، فقدرة الله لا معنى لكبير أو صغير أو عظيم في حسابها إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولما كان المقام مقام عظمة واقتدار[1] وجلال وهيبة جاءت صيغة المبني للمفعول لتدل على هذه المعاني ، وأن هذا القول والأمر لا يمكن أن يصدر إلا من الله العلي القدير ، ومن هنا جاء الأمر الإلهي إلى الأرض والسماء حاسماً وسريعاً عبر أداة النداء مقترنة بالفعل الطلبي (ابلعي ، واقلعي)

واستعمال ياء النداء دون غيرها من أدوات النداء للدلالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة واختصاص الله تعالى بالكبرياء والعلو ، وجاء تنكير الأرض لتصغير أمرها ، فالمشهد هنا تتنامى فيه معاني العظمة والكبرياء ، ولم يقل يا أيتها الأرض لأن ذلك لا يتوافق مع المشهد المتنامي في السرعة والحسم فلا حاجة إلى الإطناب في اللفظ ، فالمقام يستدعي الإسراع في تلبية الأمر ، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضي لإطالة الكلام ، ولأن في هذا كما يقول السكاكي تكلفاً في التنبيه غير مناسب للمقام[2] . أي أن هذا الخطاب للأرض فيه مزيد

---

(١) جميع أئمة البيان قالوا إن حذف الفاعل هنا فيه إفادة لمعاني الجلال والعظمة والكبرياء من أمثال الزمخشري ، وتبعه كثير من المفسرين ، وقد يقال إن ذكر لفظ الجلالة يكون أكثر بياناً وإفادة لتلك المعاني ولكني أجد أن الموقف هنا فيه بيان لسهولة هذه الأمور وحقارتها في قدرة الله ، ولذلك لم يذكر لفظ الجلالة لامداد التهاون بها وكلام الأئمة فيه صواب كبير . ينظر الكشاف (٣ / ٣٨٣) ، المحرر الوجيز (٣ / ١٧٥) ، تفسير أبي السعود (٣ / ٣٦) .

(٢) ينظر : المفتاح للسكاكي ، ط(٢) ، بيروت ، دار الكتب العلمية (١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م) ،ص ٤١٩ .

اهتمام بشأنها والمقام مقام عظمة وكبرياء واقتدار يستدعي التهوين من شأنها .

ولنا أن ننظر إلى تنامي هذه المعاني منذ أن ابتدأ المشهد بأول كلمة قد بنيت للمفعول (قيل) ثم أداة النداء (يا) ثم التنكير (للأرض) ولم يقل يا (أرضي) إيثاراً لتحقيرها ، ولأن في الإضافة اكتساباً للتشريف ممن أُضيفت إليه ، وفي نداء الأرض والسماء تشبيه للأرض والسماء بالعقلاء الذين ينادون ، ثم حذف المشبه به وجعل النداء قرينته وفي جعل النداء للأرض والسماء من قبيل الاستعارة توجه كثير من أهل التأويل والبلاغة[1] ، ولا أرى حائلاً يمنع من كون النداء للأرض والسماء على الحقيقة فالأرض والسماء تعي أمر ربهما[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ ﴾ مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن الماء سبب المطر ، أو المحلية ؛ لأن السماء محل الأمطار بما يجتمع فيها من سحب وحقيقته يا مطر السماء .

ولما كان الموقف في الأرض شديداً وعظيماً حيث طغى الماء فيها وتجاوز الحد ، والسماء ما تزال مستمرة في صبِّ مائها والأرض قد أخرجت ما فيها من المياه والتقى الماء على أمر قد قدر جاءَ النداء والأمر للأرض أولاً قبل نداء السماء[3] وأمرها لأن الحدث قد تم على الأرض والعذاب والغضب قد انعقد

---

(١) الطراز للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، مراجعة وضبط محمد عبد السلام شاهين ، ط (١) ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) ، ص ٥٠٨ .

(٢) قد مرَّ التفصيل في هذه المسألة فيما سبق .

(٣) ذكر العلوي في الطراز أوجهاً في أسرار تقديم الأرض على السماء منها كون الأرض لما كانت مقراً =

عليها والمراد بعد ذلك حفظ من كان في وسط هذا العذاب يتقلب في رحمة من الله وحرز ولا يتم ذلك إلا بذهاب الماء الذي طغى على الأرض فغيَّب جبالها وغير سكونها وهدوءها فقال تعالى ﴿ ٱبْلَعِى ﴾ دون امتصي أو انشفي ؛ لما فيها من بطء لا يحتمله الموقف ولأن الامتصاص والنشف يأتي على تدرج إذن فكلمة (البلع) تعني جذب المياه في سرعة عاجلة « ولم يقل ابتلعي لما في كلمة البلع من الخفة والسهولة على اللسان ، ولأن كلمة الابتلاع فيها نوع اعتمال في الفعل وتصرَّف فيه يؤذن بالمشقة ، بخلاف (ابلعي) فإنه دال على السهولة ، فيكون فيه دلالة على باهر القدرة حيث أمرت بالبلع لهذا الأمر الهائل من الماء بحيث لا يمكن تصوّره على أسهل حالة »[1] .

وجاء التصوير عبر هذه الكلمة متسع الدلالات ، فقد شبهت الأرض في جذبها للماء في سرعة بكائن يزدرد الطعام بلا مضغ لشدة جوعه ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو البلع على سبيل الاستعارة المكنية ، وسرها البلاغي يأتي في تصوير الأرض وقد أصبحت شرهة تجذب المياه في باطنها جذباً متلهفة كتلهف الجائع للطعام وكأنها أصبحت كلها أفواهاً فاغرة تتلقى المياه من

=

للسفينة التي تكون بها النجاة لمن ركبها وكون الأرض مقراً لمائها وماء السماء وحيث يكون اجتماعها كانت أحق بالتقديم لأن الغرض هلاكهم في الأرض لأجل ما حصل من العصيان والمخالفة وكون البداية بالغرق كانت من جهة الأرض (الطراز للعلوي ، ص ٥٠٨) .

(١) الطراز للعلوي ص (٥١١) .

كل مكان وفي قوله تعالى : ﴿ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ استعارة حيث شبه الماء بالغذاء وأثبت لازم المشبه به وهو البلع للمشبه ، فالأرض تتقوى بالماء في الإنبات للزرع والأشجار والثمار تقوي الآكل بالطعام ، وكلمة البلع هنا تصوِّر عظمة الاقتدار في إذهاب الماء في مقابل ما صوره لنا قول الله تعالى : ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ١١ – ١٢] ومن الدقائق التي لاحظها أهل البيان على كلام السكاكي في استعارة البلع لغور الماء قولهم إن النشف أولى من جعله البلع مستعاراً لغور الماء في الأرض لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ولأن النشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء(١) وهذه الملاحظة دقيقة إذا لاحظنا أنه لا يُقصد النشف المعتاد الذي يكون على تدرج وبطء ، وإنما هو نشف من نوع آخر على وجه السرعة الهائلة وبهذا يكون هذا الكلام في محله ، والله أعلم ، وفي إضافة الماء إلى الأرض مجاز ، شبه فيه اتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك فهي متصرفة فيه بالابتلاع والانتفاع .

وقال ماءك بالإفراد دون الجمع لأن المقام مقام عظمة واقتدار فالمياه التي نزلت من السماء وفارت من الأرض لم تكن في حسبان القدرة شيئاً فما هي إلا ماء سيختفي ، والجمع فيه تكثير لا يليق ذكره بمقام الكبرياء والعظمة ؛ ولما في الإفراد من معاني التهوين والتقليل من شأن الماء الطاغي على الأرض ، وفي

---

(١) ينظر المفتاح للسكاكي ص (٤١٨) ، وينظر : حاشية الشهاب (٥ / ١٧٠) .

الإفراد والإضافة إلى الأرض بيان بأن الأرض لم تكلف شيئاً فوق طاقتها فهي ستستوعب ماءً هو ماؤها ، وقد توافق هذا الإفراد مع تنكير الأرض في امتداد هذه المعاني وتتابعها في إبراز العظمة والاقتدار .

« وذَكَر مفعول (ابلعي) هنا حتى لا يدخل في البلع ما ليس مراداً من بلع الجبال والبحار وأنواع الأشجار والسفينة ومن فيها ، نظراً إلى عموم الأمر الذي لا يخالف ولا يُرد عن مجراه »[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ جاءت هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها وكان العطف بالواو لترتيب الأوامر ، حيث تقدم أمر الأرض على السماء وهو الأهم هنا ، واقترن مع بلاغة العطف محسن الطباق . في المقابلة بين الأرض والسماء وبلاغة الطباق تصور قدرة الله في أعظم معانيها وسلطانه المهيب في انقياد الكون كله له فجمعت بين الضدين وحكمت بأنه تعالى هو المتصرف في الأرض والسماء ، وباجتماع الأرض والسماء ودلالة العطف على الجمع والتشريك تكتمل الصورة ويسمو المعنى ، ويعظم السلطان وجاء الجناس بين اقلعي وابلعي في تناسق وإيقاع بديع حيث تلحظ المناسبة اللفظية التامة بين الكلمتين في اتفاقهما في الوزن والتقفية ، والمتأمل في نداء الأرض والسماء من قبل الحق تعالى هنا يدرك صورة الفداحة التي وصل إليها الكون من غضب الرب جل وعلا ، فالسماء استرسلت في صبٍّ جام غضبها على الأرض بما ذكره الله

---

(١) الطراز للعلوي ، ص ٥١١ وينظر المفتاح ص ٤١٩ .

تعالى لنا في سورة القمر ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ [الآية : ١١] فهي مستمرة في الإمطار بلا توقف ، والأرض ما تزال تخرج ماءها ، وعظم الخطب حتى وصل إلى غايته ، وقضى الله أمره في القوم الظالمين ، فجاء النداء هنا فيه تنبيه ولفت إلى الأرض والسماء وكأنهما لما استمرا في تنفيذ أمر ربهما لا يكادان يقفان حتى نوديا ، فالتزما بالأمر الذي جاء بعد النداء ، واستعير لكف نزول المطر كلمة الإقلاع للسماء وفي هذه الكلمة دلالات بيانية كثيرة ، فالإقلاع هو ترك الفاعل للفعل بعد أن استمر عليه واعتاد ، وفي ذلك تشبيه للسماء بالفاعل الذي ترك ما كان يفعل للشبه بينهما في عدم ما كان ، فهذا الفعل يصور السماء إذْ امتثلت لأمر ربها فأقلعت عما كانت عليه وكأنه ما نزل منها شيء قط لسرعة الاستجابة وسرعة انكفاف القطر بالكلية وكلمة (الإقلاع) تصور وتشير إلى عظمة هذا الكف والترك ؛ لأنه كف ومنع لماء تفتحت له أبواب السماء لاندفاعه وانصبابه بشدة ، فالإقلاع يصوِّر شدة الأمر وما كان من الامتثال السريع بما لا نجده في غيرها من الكلمات وحروف الكلمة وإيقاع لفظها يصوِّر لنا ما سيكون عند الامتثال من انجلاء السماء وانقشاع(١) غيومها والله أعلم .

ولم يظهر هنا ذكر المسبب عند ذكر سببه فيقول (يا أرض ابلعي فبلعت ، ويا سماء أقلعي فأقلعت) حتى لا يتوهم متوهم إمكان المخالفة أو عدم الامتثال

---

(١) وقد لا يكون ثمة غيوم فهذا الماء نزل من السماء بأمر الله وليس كالأمطار التي تحدث عن طريق السحب التي تبخرت من الأرض والله أعلم .

فلذلك قال ابلعي وأقلعي لأن الأمر الإلهي لا يرد ، والكون كله خاضع لسلطان ربه ، وليس له إلا كلمة (كن فيكون) فاستغني عن ذكر ذلك لهذا المراد وللإيجاز (وغيض الماء) جاءت هذه الجملة معطوفة وقد أغنت عن ذكر المسبب السابق في جملتي يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت ؛ لأنها جاءت تبين النتيجة بعد أمر الأرض والسماء حيث كانت في ذهاب الماء وغوره في باطن الأرض .

« واختير بناء (غيض) مبنياً للمفعول على (غيَّض) بتشديد الياء مبنياً للفاعل لأمرين ، أما أولاً : فمن أجل الإيجاز ، لطرح الفاعل والاختصار فيه ، وأما ثانياً فمن أجل الاستحقار عن تعريض ذكر الله تعالى على أحقر المقدورات بالإضافة إلى جلاله ، والمقام مقام الكبرياء والعظمة وإنما اختير لفظ (الماء) ولم يقل الطوفان ، ولا المطر إيثاراً للاختصار [1] ، ولما فيه من الإشارة باللام التي للعهد كأنه قال : وغيض الماء الذي أمرنا الأرض والسماء بإيقاعه ، بياناً لحاله وإيضاحاً لأمره وأنه الذي وقع الإهلاك به لقوم نوح ، فيعظم الامتنان على من بقي في السفينة بإزالته »[2] .

والبناء للمفعول في (غيض) فيه تصوير لإحساس من شاهد ورأى الماء يغيض ، والأمر يتم في سرعة هائلة وكأن هذا الحدث يحصل من تلقاء نفسه .

---

(١) ولامداد التهاون به والتقليل من شأنه .

(٢) الطراز للعلوي (ص ٥١١) .

وتوالت بعد هذه الجملة الجمل تبيّن وتصوِّر لنا مظاهر الاستجابة السريعة لأمر الله (وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي) الأفعال كلها ماضية تقرر وتؤكد وقوع هذه الأحداث وثبوتها ، وحسن العطف بالواو هنا لدلالتها على الترتيب للأحداث على الوجه الذي تقتضيه البلاغة فمنذ أن بدأ المشهد بقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ كان العطف بالواو لأنه سبحانه بدأ بالأهم إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة وخروجهم منها بسلام بعد أن هيأ لهم أسباب السلامة والنجاة من الغرق ، ولا يتم ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض ، فأمرها بالابتلاع ولما كان الابتلاع وحده لا يكفي لكون السماء في إنزالها للماء تخلف ما تبتلعه الأرض فلا يحصل الانحسار للماء جاء الأمر منه سبحانه للسماء بالإقلاع بعد الأمر للأرض بالابتلاع ، وفي الأمر بالإقلاع للسماء مراعاة لحال أهل السفينة عند خروجهم حتى لا يؤذيهم المطر إن كان قوياً أو يبللهم إن كان ضعيفاً ويسيراً ، ثم جاءت جملة (وغيض الماء) بعد أمر الأرض والسماء تبين ذهاب ما على الأرض ، وانقطاع مادة السماء وهذا يقتضي أن تكون ثالث الجملتين المتقدمتين ثم قال تعالى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ أي هلك من قدَّر الله هلاكه ونجا من قُدرت نجاته ، وهذا كنه الآية ، وحقيقة المعجزة ، ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها ، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة مجيء هذه الجملة رابعة الجمل وكذلك (استوت على الجودي) أي استقرت على الجبل استقراراً لا حركة معه ، لتبقى آثارها آية لمن

يأتي بعد أهلها وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما ذكرنا ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق الهلاك فقيل بعداً للظالمين ، فجاء وصفهم بالظلم ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب احتراساً من هذا الاحتمال وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم ، وبهذا نرى في الآية حسن النسق وصحة الترتيب في الجمل المعطوف بعضها على بعض ، وأُتي بلام الجر ولم يقل فبعداً من القوم لما فيها من الاختصاص المشعرة به اللام دون من ، وأَطلق صفة الظلم ولم يقل الظالمين لأنفسهم تنبيهاً على شمول ظلمهم من جميع الوجوه ، وفيه تنبيه على فظاعة شأنهم وسوء اختيارهم لأنفسهم فيما كان منهم من تكذيب الرسل ، وفيه شرح لصدر الرسول بالانتصار له على كل من كذبه والتأسي بالصبر ووعيد لمن كذبه بالنصفة والانتقام[1] .

ويجب على المتأمل أن يقف عند كل جملة من هذه الجمل قليلاً ليتأمل روعة الإيقاع وما في الجمل من قصر يوحي بسرعة أحداث المشهد وسرعة انقضاء عهد الظالمين ، وقد تناسب مع ذلك كله بناء الأفعال للمفعول منذ أول كلمة في الآية وكان لتتابع ذلك تناسق وتلاؤم صوتي بديع يتفق مع المعاني التي جاءت من أجلها (قيل ، وغيض ، وقضي ، وقيل) وقد نظر الإمام عبد القاهر الجرجاني

---

(١) ينظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق حفني محمد شرف ، (ط) نهضة مصر ، ص (١٦٤ – ١٦٥) ، وينظر الطراز للعلوي ، ص ٥١٢ .

رحمه الله في مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في البداية وهذا يشعر بأن للكلام بداية ونهاية وأن الأمر قد انحصر بين (قيل) في بداية الآية و(قيل) في نهايتها وهذا يجعلنا ندرك ونشعر بأن ما بعد الأولى مقدمة أدت إلى النتيجة السريعة والحاسمة التي أوصلتنا لها (قيل) الثانية في الخاتمة ، وأن كل شيء قد تم بإذن الله وقدرته[1] .

والحديث في ختام المشهد عن قوم ظلموا أنفسهم فاستحقوا لذلك أن يُهلكوا ولذلك جيء بالتعريف بالألف واللام للعهد في كلمة (القوم)حتى لا يُتوهم أن الحديث هنا عن آخرين ، بل هم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم في أول الكلام ، فالآية هنا قد صورت ما حدث بعد الطوفان في أدق تصوير وأخصر عبارة ، لفتت القلوب والعقول إلى عظمة الخالق واقتداره في انقياد الكون كله له وطاعته وبثت النذر والرعب في قلوب المعرضين والمشركين ، وكانت تسلية للرسول ﷺ وتثبيتاً للمؤمنين ، وهذا الأسلوب التصويري نقل لنا الحدث والخبر كاملاً وحمل لنا الإحساس المصاحب له وهذا ما ترمي إليه الصورة القرآنية حيث تهدف إلى التأثير الوجداني الذي يمنح النفس تكاملاً شعورياً فياضاً ، إن استحضار فاعل القول في كل المطوي ذكره بالبناء للمفعول يصوِّر لنا عظيم هول البعد المقضي به على القوم الظالمين ، وفي هذا من الإرعاب لكل ظالم ما فيه ، فالذي أمر بالطوفان بدءاً ومنتهى هو القاضي بالبعد للقوم الظالمين فكأنه

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ٤٥ .

بعد من جنس ذلك الطوفان إبادة مهلكة وهذا وجه من وجوه رد العجز على الصدر .

وقد ذكر ابن أبي الإصبع وجوهاً كثيرة من البديع في هذه الآية الكريمة وقد أحسن في تلمس أسرار الكلمات بما لم يسبق إليه ، فيرى أن قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ من باب الإشارة فقد عبّر بهاتين اللفظتين[1] عن معانٍ كثيرة فغيض الماء يشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ يرى أنه من الإرداف وهو التعبير عن المعنى بلفظ قريب من لفظ المعنى الموضوع له : أي هلك من قضي هلاكه ، ونجا من قدِّرت نجاته ، وإنما عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف لأمرين : أحدهما اختصار أمر اللفظ ، والثاني كون الهلاك والنجاة كان بأمر مطاع ، إذ الأمر يستدعي آمراً ، وقضاؤه يدل على قدرة الآمر ، وطاعة المأمور ، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص ، وهو في كتابه التحرير يجعل قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ من قبل التمثيل وقد قال في تعريف التمثيل « أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه وإنما يأتي بلفظ

(١) وهذا المصطلح يعادله مصطلح الإيجاز وهو ما يسمى بإيجاز القصر : « وهو تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف » وهناك إيجاز بالحذف وهو فن عظيم من فنون القول ومسلك دقيق ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة « وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن » دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

أبعد من لفظ الإرداف »[١] .

وهذا الكلام فيه تناقض مع ما قرره من كون اللفظتين في باب الإرداف الذي يختلف عن التمثيل [٢] وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ يجعله من الإرداف [٣] فالاستواء تعبير عن استقرار السفينة بهذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة معه ولا اضطراب بلفظ قريب من لفظ المعنى ، ويرى في الآية التعليل لأن غيض الماء علة الاستواء ، وصحة التقسيم إذ استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض وغيض الماء الحاصل على ظهرها[٤] .

وبقي أن نبين ما حملته كلمة الاستواء من معاني الطمأنينة للقلوب والهدوء والسكينة والأمن التام الذي سيشعر به كل من كان في السفينة بعد تلك الرحلة العظيمة على ظهر الأمواج المتلاطمة ، الهائجة هاهم الآن يستقرون وتستقرالسفينة فلا تتحرك ولا تهتز وهم سيتمكنون من الخروج في يسر وسهولة

---

(١) تحرير التحبير ، لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق حفني محمد شرف ، ط (لجنة إحياء التراث الإسلامي) ، القاهرة ، عام ١٣٨٣ هـ ، ص ٢١٤ .

(٢) التمثيل هنا ليس هو الذي في التشبيه بل هو الكناية التمثيلية وليس المقام هنا مقام دراسة لتلك المصطلحات فلذلك أوثر الإيجاز .

(٣) وقد جعله في بديع القرآن من التمثيل . ينظر بديع القرآن ص (٨٥) .

(٤) تحرير التحبير ص ٦١١ .

وما حملته لنا في آخر المشهد كلمة (قيل وبعداً) [1] من لعنة ودعاء على الظالمين وكأن أرجاء الكون كله يردد هذه اللعنة والدعاء في ذلك الوقت وفي كل زمان « فالمقام هنا مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم ، وأحس في كلمة بعداً ، دلالة على الراحة النفسية التي شعر بها من في الكون ، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين ، ولعل لاستخدام المصدر الذي يؤكد أن الفعل قد تم ، أثراً في ذلك »[2] .

وبعد أن تم الأمر وقُضى اختتم المشهد بالدعاء واللعنة على الظالمين .

وبذلك يطوى المشهد هنا لندخل على مشهد مناجاة نوح لربه بشأن ابنه في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ .

---

(١) وقد أُوثر (بعداً) لأن في المصدر نوع تأكيد لا يقوم به الفعل ولأن الفعل مقيد بالزمان ، وأما المصدر فعار عن هذا التقييد ومن ثم كان أبلغ من ذكر الفعل .

(٢) من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوي ص ٥٦ .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ .

والواو في هذه الآية الكريمة يرى بعض المفسرين أنها لا تفيد الترتيب حيث يرون أنها مرتبطة بالمشهد الذي نادى فيه نوح ابنه قبل جريان السفينة وقبل غرق الابن[١] .

ويرى صاحب تفسير المنار أن تأخير هذه الآية إلى هذا الموقع اقتضته البلاغة العليا ، حيث سبقت بالآية الثالثة والأربعين التي تصور لقارئها وسامعها نكبة الطوفان بأعظم الصور هولاً ورعباً تطيش لها الألباب وجاءت بعدها الآية الرابعة والأربعون تصوِّر لنا كشف ذلك الكرب العظيم بكلمتين وجيزتين من كلمات التكوين الإلهي قضي بهما الأمر بنجاة المؤمنين الصالحين وهلاك المشركين الظالمين ، ولو فصل بينها بهذه الآيات الثلاث اللواتي وضعن بعدهما لضاع تسعة أعشار بلاغتهما وتأثيرهما في العبرة والموعظة المقصودة من القصة كلها ، ويرى أن ما دار بين نوح وابنه مسألة فرعية من قصة نوح وليست من صلب القصة حيث تدخل في العقائد وأصول الدين[٢] .

والذي يظهر لكل متأمل أن ما دار بين نوح وابنه من حوار وما كان بين نوح

---

(١) ينظر : البحر المحيط ٥ / ٢٩٨ ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، طبعة دار الفكر (١٢ / ٨٣) .

(٢) ينظر : تفسير المنار (١٢ / ٨٣) .

وربه كان من صلب القصة وما حصل من غرق لابنه كان من أعظم أهداف المشهد في بث الرعب والنذر ، وأنه لا محاباة لأحد عند الله ولا كرامة له ما دام قد ارتضى غير دينه يستوي في ذلك أبناء الأنبياء وغيرهم ، والعلاقة والنسب لا مجال لها ما لم تكن مرتبطة بالدين ، والآية الكريمة قد جاءت في موقعها المناسب ولم يكن هنالك تقديم ولا تأخير فالواو هنا للترتيب وهذا ما يظهر من كلام الطبري رحمه الله[1] .

فالآية جاءت في مكانها على أحسن موقع ، وبيان ذلك أن نوحاً عليه السلام لما اشتد الأمر وهاجت الأمواج وتحركت السفينة وحال الموج بينه وبين ابنه وأخذت الأمواج تميل بالسفينة يمنة ويسرة وساد الهول والرهبة ، كلُّ ذلك اقتضى في الطبيعة أن يُشغلَ نفس النبي الكريم بما هو فيه من الحال والموقف المهيب وأن يقطع ما كان في نفسه وفكره من شأن ابنه ولم ترجع إلى نفسه عاصفة العاطفة إلا بعد أن استوت السفينة وهدأت النفوس فتذكر ابنه فتحفز في نفسه نداء ربه وهو نداء دعاء .

يقول الطاهر بن عاشور هنا « موقع الآية يقتضي أن نداء نوح عليه السلام هذا كان بعد استواء السفينة على الجودي نداءً دعاه إليه داعي الشفقة فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا ، لأن الله أعلمه أنه لا نجاة إلا للذين يركبون السفينة ، ولأن نوحاً عليه السلام لما دعا ابنه إلى ركوب السفينة

---

(١) ينظر : تفسير الطبري (١٢ / ٦٠) .

فأبى وجرت السفينة قد علم أنه لا وسيلة إلى نجاته فكيف يسألها من الله فتعين أنه سأل له المغفرة ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٦] »[١] .

ولعل هذا التوجيه هو الذي يتوافق مع ترتيب الجمل ويبتعد عن التكلف في التأويل وهو الأمر الطبيعي في تسلسل الأحداث فكانت الواو بسياقها دالة على الترتيب ، فالغرق قد تمَّ وسؤال نوح كان دعاءً لابنه بالمغفرة بأن لا يعامل معاملة الكفار ، والله أعلم .

وفي قوله تعالى من الآية الكريمة ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ جاءت الجملة هنا بالوصل وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف بفاء التفريع وهي بيان للنداء في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ ويرى الزمخشري أن العلة في مجيء الفاء كانت تنبئ عن معنى إرادة النداء لا النداء نفسه ، ولو كان النداء مقصوداً لجاءت على مثل[٢] قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٣ - ٤] أي أراد نداء ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء إشارة إلى التردد في الإقدام على الدعاء والنداء لطلب المغفرة لولده ، ولو قيل بأن الفاء[٣] هنا جاءت من أجل عطف المفصل على المجمل مثل

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٨٣ ، ٨٤) .

(٢) ينظر : الكشاف (٢ / ٣٨٣) .

(٣) فاء التفسير أو التفصيل .

ما في قولك (توضأ فغسل) كما بين ذلك البقاعي رحمه الله لكان أولى مما ذهب إليه الزمخشري من تأويل النداء بإرادة النداء لأن عطف المفصل على المجمل في موقف الاستعطاف أبلغ في بسط الشكوى واستنجاز الله وعده بإنجاء أهله والثناء عليه ، ولأن تعقيب الخبر المجمل بخبر مفصل فيه تدرج وارتقاء وإبراز لفضل الزيادة في المعطوف[1] .

وفي الآية بعد ذلك التفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب وأسلوب الغيبة كان في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ وفي هذا إشارة وتلويح من أول الأمر إلى عدم إجابة الله لنوح مهما أفرط في دعائه وبالغ في عرض شكواه ، ثم جاء الكلام على الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ وفي الالتفات إلى أسلوب الخطاب إشارة إلى شدة ما في نفسه حيث يتوجه إلى الله بالدعاء بكل ما في نفسه من تطلع إلى الإجابة واستشراف لها ، وجاء حذف الياء مع (رب) للمبالغة في تصوير قرب المنادى فهو من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط ، وهذا كله يدل على ما كان يملأ نفس نوح عليه السلام من أمل كبير في إجابة هذه الدعوة ، ولكنه مع ذلك لم يجرؤ على الدعاء لابنه العاصي صراحة بل كنى فقال ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ وهو تمهيد للاعتذار لأنه لما أيقن بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ وما كان من ابنه من إعراض وصد وعدم استجابة جعل ذلك كله في نفسه لما أقدم على هذا الدعاء

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣ / ٥٣٥) .

والطلب تردداً ، ولكن لما غلبته الشفقة والعاطفة على ابنه أقدم وهو لا يدري هل كان هذا الإقدام في محله أم لا ؟فلذلك كنى في الدعاء ولم يصرح ، ومهد للاعتذار إن لم يقبل منه الدعاء ولما أكد في قوله ﴿ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ لم يكن التأكيد للخبر لمجرد الاهتمام والتماس عذر الشفقة فقط ، وإنما كان يريد بهذا التأكيد أن يدخله على نفسه ليطرد التردد في الإقدام وهو يستغيث لابنه وأتبع التأكيد الأول بتأكيد ثان في قوله ﴿ وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أي أنا على علمي بوعدك في أهلي بالنجاة إلا من سبق عليه القول ، ولكني هنا أطلب الشفاعة وأطمع فيها لابني فهو من أهلي ، وفي هذا أخذ لأقصى دواعي الرحمة وهذه الجمل تحمل لنا معاني الأدب في خلق الأنبياء عليهم السلام مع ربهم ، فنوح عليه السلام عرَّض في هذه الجمل بالمطلوب ولم يذكره تأدباً مع الله واكتفاءً بعلمه تعالى بالحال .

فمجيء النداء وإعقابه بالتوكيد في الجملتين الواردتين يصوِّر لنا عاطفة نوح عليه السلام وشغفه على ابنه وتلهفه في إجابة الدعاء .

وقال تعالى :﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٦] جاءت هذه الجملة مفصولة للاستئناف البياني ، ولم يقل (قيل يا نوح) لأن في الخبر التفاتاً إلى نوح بالمخاطبة في أمر عظيم ، فناسب ذلك (قال) دون (قيل) وجاء النداء للأهمية وكان الخطاب هنا بالاسم المعين (يا نوح) « ولم يقع في القرآن خطاب مباشر بيا محمد بل يا أيها الرسول تعظيماً له وتشريفاً

وتخصيصاً بذلك عما سواه ويسمى خطاب الكرامة[1] .

والنداء لون من الخطاب ولا يكون إلا في أمر هام وحين يعظم هذا الأمر ويكون شديداً يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي ، وهنا في هذه الآية الكريمة الأمر خطير وعظيم حيث جاء التوكيد تالياً للنداء يبين عن أهمية الخبر وعظمه على نوح عليه السلام ، ففي قوله تعالى ﴿ يَـٰنُوحُ ﴾ نداء فيه لفت وتنبيه إلى عظم ما سيأتي من الخبر بعد حيث جاء الرد من قبل الله تعالى بأن ابنه ليس من أهله إذ القرابة المعتبرة هي قرابة الدين لا قرابة النسب إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح جاء التأكيد بإن للخبر في الجملة الأولى لتثبيته وتقريره في النفس لما يحمل من الغرابة والصرامة ، وجاءت جملة (إنه عمل غير صالح) مفصولة عما سبقها للاستئناف البياني حيث جاءت تعليلاً لمضمون الجملة السابقة .

وهكذا كان تأكيد الخبر من أجل تحقيقه وتثبيته في النفس لغرابته « وللإيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسبك في دينك ومعتقدك من الأباعد وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه »[2] .

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، د/ صباح دراز ط(١) ، مصر ، مطبعة الأمانة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) ص ٢٨٠ .

(٢) الكشاف للزمخشري (٢ / ٣٨٤) .

وللمتأمل أن ينظر في عود الضمير مرتين على ابن نوح وقد اقترن بإن المؤكدة « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » حيث يتجه الضمير إليه ليؤكد التقرير الذي سيصدر في حقه من خبر نفي الأهلية عنه لانتفاء الدين وتفرع عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ النهي عن السؤال فيما ليس لنوح عليه السلام به علم ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ وهنا نجد أن كلمة الجهل جاءت كناية عن الذنب، وفي ذلك لطف بالنبي الكريم في عدم مواجهته بذنبه صراحة فكان العتاب لطيفاً « وجعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن الكريم كما في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة : ٦٧] »[(١)] .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ موعظة في ترك التثبت قبل الإقدام . ولذلك نجد أن نوحاً عليه السلام قد بادر في طلب المغفرة والاستعاذة بالله من أن يسأله في شيء ليس له به علم ويقين قاطع[(٢)] وهذه الجملة جاءت مفصولة للاستئناف البياني ولم تعطف لأن الآيات ما زالت تصور لنا الحوار الدائر بين نوح عليه السلام وربه جل وعلا وهنا تتشوف النفس لمعرفة رد نوح عليه السلام بعد هذا العتاب اللطيف من ربه كيف كان ؟ فجاء الجواب

---

(١) تفسير الرازي (٦ / ٣٥٨) .

(٢) فيكون ذلك من قبل الجهل لأنه لم يكن قد تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين فكان حاله كحال نبينا محمد ﷺ حيث قال لأبي طالب « لأستغفرن لك » .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٧] .

وفي هذا الرد مبادرة ومسارعة إلى طلب المغفرة واللجوء إلى رحمة الله وعفوه وحذف حرف النداء للدلالة على قرب المنادى ، والأمل الكبير في إجابة الدعاء وأكد عليه السلام في قوله ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ ﴾ للدلالة على عظيم الرغبة والتذلل والتوجه إلى الله في طلب المغفرة ، والمتأمل في هذا الرد وما اكتنفه من كثرة للضمائر وحروف الجر يدرك صورة الوجل والخوف والرهبة من نوح عليه السلام وهو يلوذ بربه طالباً منه العفو والمغفرة ، وهنا يطوى هذا المشهد وهذا الحوار بطلب نوح عليه السلام المغفرة من ربه ويأتي بعد ذلك المشهد الختامي الذي يبين الله فيه منته على عبده وعلى المؤمنين وقد فهم من ذلك قبول الله تعالى لطلب نبيه في مبادرته بطلب المغفرة حيث يقول تعالى :﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة هود ، الآية ٤٨] .

وهنا جاءت الجملة مفصولة عما سبقها للاستئناف البياني فكانت مبتدئة بقيل ، وفي النداء لنوح والأمر بالهبوط متبوعاً بالسلام فيه تضمين لخبر إجابة دعوته والرضا عنه ولذلك أُفرد ذكره خاصة للدلالة على قبول طلبه وبيان منزلته وشرف مقامه عند ربه ، ثم اتبع ذكر من كان معه من المؤمنين معطوفاً عليه لبيان شرف معيته ، وهذه الجملة المبتدئة بقيل فيها « تسكين لنفسه وكان مقتضى

الظاهر أن يقول قال يا نوح اهبط ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل للنائب ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصة المتقدمة من قوله ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ فحصل بذلك البناء قضاء حق الإشارة إلى جزء القصة ، كما حصل بالفصل قضاء حق الإشارة إلى ذلك القول جزء المحاورة »[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ الأمر بالهبوط تصوير للنزول من مكان مرتفع وهو الجبل الذي استقرت عليه السفينة وفي قوله (بسلام) الباء هنا للمصاحبة أي اهبط مصحوباً بسلام منا ، وفي ذلك تصوير للسلام وقد أصبح شيئاً ملموساً محسوساً تراه العيون وتلمسه الأيدي ، فهو ملاصق لنوح عليه السلام وملابس له ، فلم يعد السلام هنا مجرد سلام يحمل معاني الأمن والطمأنينة وإنما هو سلام حي مجسد تراه العيون وتلمسه الأيدي ، وهذه الصورة البارزة للسلام توحي بمعاني الرضا والكرم من المولى العظيم على نبيه بعد لمسة التنبيه والإرشاد المشوب بالعتاب اللطيف ، فهو عليه السلام لم يهبط إلى الأرض وحيداً بل هبط وفي صحبته السلام يحل معه أينما حل وسار ، وفي قوله تعالى ﴿ مِّنَّا ﴾ أي أنه ناشئ من عنده تعالى ، وفي ذلك بيان لمزيد العناية والاهتمام وهو أشد مبالغة من الذي لا تذكر معه (من) وتنكير السلام والعطف عليه بالبركات جمعاً يبين عظمة هذا السلام والبركات والفضل ، وقدم السلام على البركات لأنه لا فضل للخيرات دون أن يكون هنالك أمن واطمئنان وقال (عليك) فأفرده

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٨٨) .

تشريفاً له وعطف عليه قوله ﴿ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ فشملتهم الكرامة والشرف فهم في معيته حيث آمنوا بالله ورسوله ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ فيه تهديد وتعريض بمشركي مكة فهم من ذرية نوح عليه السلام ، ولم يقل وأمم ممن معك سنمتعهم لأن الحديث عنهم وعن الذين سيتكاثرون من ذرياتهم وفيهم المؤمن والكافر ، والخبر هنا محذوف تقديره ومنهم أمم سنمتعهم لدلالة ما سبق عليه حيث إن هذه الأمم التي سيمتعها الله ثم يمسها منه عذاب أليم ليسوا من جملة الذين تتنزل عليهم بركات الله سبحانه ، والمقصود بهم الأمم المتناسلة والمتشعبة منهم والحذف هنا يشعر بمدى الانقطاع بين الأمم الأولى والمتشعبة منها .

وقد جاءت هذه الآيات على إيقاع متتابع له رنين ودمدمة وزمجرة توحي بها كثرة الميمات المتتابعة التي لم نشعر مع تتابعها وتواليها بثقل على اللسان ولا بنبو في السمع وهذه من خواص نظم الكتاب العزيز فالميم حرف ثقيل مضغوط يشد عضلات الفم كلها حتى يؤدى ، فكيف به إذا تكرر وهو هنا قد تكرر ست عشرة مرة كما يتضح في الآية ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهنا جاء الإدغام بين الميمين لتماثلهما واتفاقهما في المخارج والصفات وينبغي للقارئ عند اجتماع ثلاث ميمات مشددات متواليات أن يعطي كل حرف حقه من التشديد حسبما فيه ولا يكون ذلك إلا من كلمتين أو أكثر كقوله ﴿ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾(١) .

---

(١) ينظر التمهيد لابن الجزري ص ٢٢٠ .

وهذا الإدغام الجاري بين الميمات فيه تسهيل لعملية النطق وهو ظاهرة من مظاهر الانسجام الصوتي والتلاؤم يترتب عليه دوماً « اقتصاد في الجهد العضلي ووصول بالنطق إلى مرماه من أقصر الطرق »(١) .

فنحن في حالة الإدغام نحتاج إلى وضع واحد للسان وهو ما يخفف على الناطق ويسهل عليه ، والإدغام هنا كان من متممات التلاؤم والانسجام الذي سهل النطق بهذا الحرف متتابعاً مع ما في التركيب النظمي والتوزيع البديع للكلمات وبنائها على هذا النسق من أثر في إحداث هذا التلاؤم العجيب ولنا أن نتصوَّر هذه الميمات قبل الإدغام حيث كانت هكذا (أمم مِنْ مَنْ معك) .

ولكن الإدغام قلب تنوين (أمم) ميماً ونون مِنْ الأولى ميماً وكذلك الثانية وقلب النون ميماً والإدغام الحاصل بين الميمات كان له الأثر في الانسجام والاقتصاد والسهولة في النطق والتنقل من ميم تتبعها ميم ، يقول العلامة الطيبي « ولما في كلا مخرجي الميم والنون ، وهما طرف اللسان والشفة وما في صفتيهما من الذلاقة والغنة وتوسطهما بين الضعف والقوة ما يجبرُ مما حصل من ثقل التكرار »(٢) .

---

(١) الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، عام (١٩٩٢ م) ، ص ٢٥١ .

(٢) التبيان في علوم المعاني والبديع والبيان ، للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي ، تحقيق د/ هادي عطية الهلالي ، ط (١) ، عالم الكتب ، ١٤٠٧ هـ ، ص ٥١١ .

ومن الناحية البيانية كان لاجتماع هذه الميمات إيحاء بمعاني المشهد القوية فالموقف عظيم والإنذار فيه للظالمين شديد وما كان يكتنف المشاهد قبله من غضب عمَّ الكون وسخط حلَّ على القوم الظالمين كل ذلك يتوافق مع ختام المشاهد بهذا المشهد الذي تتابعت فيه الميمات لتوحي لنا بالزمجرة والقوة التي كانت تحيط بهذه المواقف ، والله أعلم .

لقد جاءت الصورة في تفصيلها هنا متلائمة مع هدف السورة في إبراز عنصر التسلية للرسول ﷺ ، ولذلك نرى القصة تعرض كاملة ونرى صورة الإهلاك فيها تبعث النذر والهول العظيم وتبين عظمة المقتدر سبحانه في هيمنته على الكون كله ، والمشاهد الخمسة التي مرَّت نرى فيها التسلسل البديع الذي يفضي إلى الوحدة الموضوعية وإلى التلاحم البديع الذي يشد جميع أجزاء القصة ويضعها في اتجاه واحد ، إن التصوير هنا يهتم بسرد جوهر الحدث ليتواصل مع الأحداث الأخرى في نقلات سريعة مؤثرة لا نجد بينها فجوات إن الأحداث في المشاهد الخمسة تتلاحق وتتلاحم وتتآزر منذ أن بدأ نوح عليه السلام في دعوته وقد أنذر قومه وحذرهم وكرر التحذير لهم ولكنهم لا يزالون في غيهم ذاهبون حتى جاء الإعلام من ربه في التأييس من شأنهم فكان اعتزاله لهم وانصرافه إلى صنع الفلك وهذه كانت مقدمة تسبق الأحداث العاصفة وتمهد لها ، وهذه المقدمة نلحظ فيها الاهتمام بتهييء نوح عليه السلام لهذه الأحداث ليستعد لها بصنع الفلك وقد كثرت في هذه المقدمة الجمل الطلبية والمؤكدة وقد تتابع التأكيد وكل ذلك يصوِّر لنا لطف المولى جلّ وعلا بنبيه واهتمامه به وتصور لنا ما كان يحتاجه عليه السلام

في هذه الفترة من طمأنة واهتمام ولنا أن نتأمل هذا التتابع والحشد من المؤكدات ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ أكد الخبر هنا بإن وأسلوب القصر بما ينبئ عن وجوب صرف نفسه عن هؤلاء القوم ودعوتهم ، ثم جاء بعد ذلك التأكيد في شأن إهلاكهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ بإن والجملة الاسمية إن هذه التأكيدات المتتابعة والأساليب الخبرية المؤكدة اقتضتها هذه المقدمة وكلها تعلن للمتلقي ما كان يحصل قبل مجيء الأحداث المرعبة ، وإن الهول والرعب ليجده المتأمل ينحدر من هنا في مرحلة الاستعداد قبل حلول التدمير ، إنها مرحلة ينتشي فيها الباطل في لحظاته الأخيرة ، وينتظر أهل الحق وعد ربهم ، وكلّها لمسات تبعث في نفوس المتأملين ما سيأتي من أحداث تصدق نبي الله وتدفع به هو ومن آمن إلى لطف الله ورحمته .

ثم نجد هذه المقدمة تقذف بنا سريعاً إلى المشهد الآخر الذي نبصر فيه نوحاً عليه السلام منهكماً في صنع الفلك وقد أُبرز هذا المشهد في صورة حية مستحضرة عبر الفعل المضارع (ويصنع الفلك) وأبرز المشهد حال قومه وهم يسخرون من أفعاله ، وهذا المشهد الذي التقط لنا هذه الصورة إنما كان يرمز إلى إبراز صورة البغي من القوم والعتو قبل أن يحل عليهم غضب الله لتؤكد لنا الصورة بقاء القوم على غيهم وكبريائهم إلى آخر لحظاتهم إن هذا المشهد يسلمنا سريعاً إلى مشهد التعبئة ومشهد الغضب ، ولكن قبل أن يعم الطوفان وتغرق الأرض توقفنا الصورة على أشد وأعظم موقف يحصل في القصة كلها ألا وهو حوار نوح عليه السلام مع ابنه الذي ظنه في انعزاله عن الكفرة قد أراد العودة

إليه إن هذا المشهد قد اتخذ من الحوار مادته ، فالحوار هنا هو المحرك للأحداث والمصوِّر للشخصيتين البارزتين وقد أظهر لنا حنان الأبوة وعظمة الشفقة وأظهر في المقابل قسوة القلب الكافر وعنجهية الكفر في نفس الولد ، حيث لم يعبأ بتلك النداءات ولم يعبأ بتلك الشفقة ولا بذلك الإحساس المتدفق من قلب الأبوة الحاني ، لقد كانت آيات الحوار حلقة تربط بين الحدث ومؤثراته بذلك الخيط النفسي الذي ضم شتات الخواطر وجعل منها وحدة معنوية وشعورية ، لقد أبرز لنا الحوار هنا الحالات النفسية في صورة حسية حيث أبرز حالة نوح عليه السلام النفسية وشدة ما وصل إليه من كرب عظيم وهو يرى ولده تحدق به الأخطار ثم لا يأبه ذلك الولد ولا يطيع حتى أتاه الموج الخاطف ، ثم تتحرك السفينة وقد عرضت حركتها عبر الصورة المستحضرة وصوِّر الموج عالياً وهنا وصلت الحركة إلى ذروتها فالأرض تموج كلها وتعج بالغضب الإلهي والحركة تعم كل شيء السفينة تتحرك وتجري برعاية الله ، ولاشك أن إبرازها في هذه الصورة هو هدف للصورة في إظهار ما وصل إليه الحال من رهبة ، وهي أيضاً تنقل ذلك الإحساس الذي كان يشعر به من كان على متن تلك السفينة حتى أمنهم ربهم من كل خطر محدق ، إن الموج في الصورة إطار عظيم للهول النفسي الذي أغرق الابن وفرق بين الوالد وولده .

وأوصل الحركة في الأرض إلى ذروتها حتى تم أمر الله في إهلاك الظالمين ، وهنا يسلمنا المشهد إلى مشهد سكون الغضب وعودة الهدوء والقرار إلى الأرض ولكنه يبرز لنا العظمة والاقتدار في التصرف في الكون كله والهيمنة عليه إن

الصورة في هذا المشهد تبرز لنا عظمة الخالق حيث أمر الكون فأطاعه ، فهاهي السماء تطيع والأرض تنقاد لخالقها ، فتظهر قدرة الباري في كونه ، وهذا يرتبط باهتمام السورة بإبراز موضوع العقيدة والدعوة إلى الله الواحد القهار .

ثم إن المشهد هنا قد أبرز لنا هذا التعاقب الزمني السريع بلا مهلة ولا انقطاع عبر الجمل الموصولة المتتابعة وعبر الأفعال التي صيغت للمفعول لبيان عظمة الاقتدار فالله تعالى هو الذي يقول للشيء كن فيكون .

« إن هذا الترابط المتتابع قد أدى إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة مركزة ، ولاشك أن تدرج تطور الأحداث يمثل مظهراً عظيماً لترابط بنائية الحدث من الداخل ، ولاشك أن السياق الذي وردت فيه هذه الآيات الكريمة سياق سردي في جوهر السورة ككل ، وهي السورة التي أخلصت لحركة الأنبياء في دعوتهم إلى التوحيد حيث عرضت مواقف الرسل وهم يقومون بالدعوة وما ووجهوا به من إعراض وتكذيب وسخرية واستهزاء وتحد وغرور وصبر من الأنبياء وثقة بربهم وفي نصر الله لهم »(١) .

---

(١) من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، محمد قطب عبد العال ، ص ٣٤٤ .

المبحث الثاني

الصورة الموجزة في سورتي المؤمنون - والقمر

أ) الصورة الموجزة في سورة (المؤمنون)

أوجزت صورة الإهلاك لقوم نوح عليه السلام في هذه السورة الكريمة بما يتوافق مع موضوعها وأغراضها ، حيث ذكرَت السورة تسفيه قوم نوح لنبيهم واستخفافهم بشخصه بصورة أكثر صراحة وصرامة مما ورد في غيرها من السور وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الآيات : ٢٤ - ٢٥] . فهم هنا قد اتهموه بالجنون ، وأكدوا ذلك عن طريق أسلوب القصر ، دفعاً للإنكار ؛ لأن المقام يقتضيه إذ وصفوا أعقل الناس بالجنون ، وقصروه على هذه الصفة قصراً إضافياً فيه قلب ، أي هو مجنون وليس برسول من الله فأعقب هذه الجمل مباشرة دعاء نوح عليه السلام وطلبه للنصر من ربه ، فجاء الرد حاسماً وسريعاً ، وكانت العبارات هنا أخصر ، والوصل بين الجمل متتابعاً ، ولم نجد كثرة للفصل بين الجمل كما كان في سورة هود التي توسعت في التفصيل ، فورد فيها الحوار ، وتعددت المشاهد ، وإذا لوحظ أن سورة هود نزلت قبل سورة المؤمنون كان مناسباً أن تكون الأولى أكثر تفصيلاً عن الثانية ، وبما أن العبارات قد تقاربت وتشابهت في كلا السورتين فإن التركيز سيكون على أوجه التعبير المختلفة في الصورة هنا وهناك .

يقول الله تعالى عن نوح وقومه في سورة المؤمنون ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [الآيات : ٢٦ – ٢٩] .

وهنا نجد دعاء نوح عليه السلام ربه جاءَ عقب الحديث عن إعراض قومه واستهزائهم به ، وهذا الطلب لا نجده في سورة هود حيث يقول تعالى عن نبيه هنا ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فجاءت هذه الجملة مفصولة للاستئناف البياني وكأن سائلاً سأل فماذا قال عليه السلام بعد أن استهزيء به ؟ فجاء الجواب ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ودعاؤه عليه السلام بطلب النصر يقتضي التعجيل في النقمة بهم ، وإنزال العذاب عليهم ، واستئصالهم ، فجاء التعقيب في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ والتعقيب بالفاء هنا يدل على المبادرة وهو تعقيب بتقدير جمل محذوفة للإيجاز في حكاية القصة أي (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك فصنع) وهذا الإيجاز يتفق مع معاني السرعة والحسم في أمرهم ، والأمر بصنع الفلك قد تضمن الاستجابة والشروع في العمل ، وهذا ما نجده مفصلاً في سورة هود بما يتفق مع التوسع والتفصيل فيها فقد ورد قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ .

وهنا نجد الجمل التي طويت في سورة (المؤمنون) ومنها استجابة نوح لأمر ربه وشروعه في صنع الفلك ، والعلية من قومه يمرون عليه يسخرون من عمله وقد طويت هذه المشاهد بما يتفق مع الإيجاز ، والسياق الذي وردت فيه القصة في سورة (المؤمنون) وفي قوله تعالى ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ « الباء سببية وما (مصدرية) أي بسبب تكذيبهم إياي ، فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه ملغى واهتم بحظ الرسالة عن الله ؛ لأن الاعتداء على الرسول استخفاف بمن أرسله وقد تكون الباء آلية وما موصولة والمعنى : انصرني بالذي كذبوني به وهو العذاب الذي حذرتهم منه »(١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ وقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ قد تقدم الحديث عنها في سورة هود وفي قوله تعالى هنا : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ .

جاء اللفظ هنا موجزاً بما يتفق مع الإيجاز للقصة ، فالآية جاءت بعد دعاء نوح عليه السلام وطلبه للنصر بعد تكذيبهم واستهزائهم ، والمقام هنا مقام نصرة لنوح عليه السلام واستجابة له ، فكان التعقيب بالفاء الدالة على المبادرة في الوحي إلى نوح بصنع الفلك بعد طلبه النصر مباشرة ، فناسب التعبير الموجز معاني السرعة والحسم في الأمر ، وأما في سورة هود التي فصلت في صورة

---

(١) التحرير والتنوير (١٨ / ٤٥) .

الإهلاك فإنه يلحظ فيها التطويل في الكلام بما يتوافق مع التفصيل الوارد للمشاهد فيأتي قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ موازياً لما في سورة المؤمنون إلا أنه يختلف بما فيه من ملاءمة التفصيل ، فجاءت حتى التي للغاية تشير إلى تلك الأحداث المفصلة منذ أن بدأ نوح بصنع السفينة ، حتى انتهى منها وجاء زمن العذاب والقوم في غيهم وسخريتهم ، فناسب مجيء حتى موضوعها المبني على الاستيفاء والطول ، وهذه المشاهد التي ذكرت وتضمنتها (حتى) التي للغاية نجدها قد طويت في سورة المؤمنون وناسب مجيء إذا ما ورد فيها من إيجاز ، وقال تعالى : ﴿ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا ﴾ في سورة المؤمنون ، وفي سورة هود﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا ﴾ والأمر في سورة (المؤمنون) جاء مقترناً بالفاء الرابطة بما يتوافق مع الإيجاز ، والسلك بمعنى الإدخال ، وأما في سورة هود فقد كان فعل الأمر (احمل) مسبوقاً بكلمة (قلنا) وهذا التطويل يتفق مع حال البسط والتفصيل وموافقة المقام .

والمتأمل يجد أن كلمة الحمل في سورة هود تصور مرحلة من مراحل الإدخال حيث تكون الدواب قريبة من السفينة ، وما عليه إلا أن يحملها إلى السفينة هو ومن آمن معه فقد يكون هنا حكاية لما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وأن عليه أن يحمل هذه الدواب إلى السفينة بسرعة لضيق الوقت فقد مهدت الآيات من قبل كيف يستعد لأمر الله ، ولما اكتمل كل شيء وجاء العذاب جاءت كلمة (احمل) هنا تصور لنا هذه المرحلة الحرجة والسريعة ، وأما كلمة

(اسلك) فإنها جاءت تصور المرحلة التي كان الخطاب فيها لنوح قبل حدوث الطوفان وما يجب عليه أن يفعله عند حدوثه[1] ، وأصل دلالة الفعل في اللغة تشير إلى معنى النفاذ في الطريق ، والسلوك بمعنى سلوك الطريق ، وبهذا المعنى نفهم ما يتوجب على نوح عليه السلام فعله قبل حدوث الطوفان ، وهو سوق هذه الحيوانات وتوجيهها إلى مكان السفينة حتى تسلك الطريق وتدخل السفينة، وفي هذا ما يشير إلى دقة ما في النظم القرآني الكريم من دلالات ، وقد بيّن الطاهر بن عاشور أن الكلمتين تصوران مرحلتين مختلفتين ، فالأمر بالحمل كان عند حدوث الطوفان ، والأمر بالسلك كان قبل حدوث الطوفان[2] .

وينتهي المشهد في سورة المؤمنون عند قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالصورة هنا لا نرى فيها حديثاً عن العذاب ولا عن النهاية التي آل إليها الظالمون إلا بما يفهم من الأمر بالحمد على النجاة من القوم الظالمين ، فإن ذلك يقتضي أن الله قد أهلك الظالمين وحقق النجاة والنصر لرسوله وللمؤمنين فكانت الكرامة والامتنان والفضل .

وهذا ما يوافق الإيجاز وغرض الصورة هنا حيث تهدف إلى إبراز حدث الإنجاء والنصرة لنوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، وتحقيق العزة لهم بعد

---

(١) هذا التخريج والاستنباط يتماشى مع كلام الطاهر بن عاشور وإلا فإنه قد مرَّ بيان أن الأولى في ذلك أن الحمل يمثل مرحلة سابقة على مرحلة السلك وهي مرحلة ثانية بما بُيِّن سابقاً والله أعلم تعالى بمراده .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٨ / ٤٦) .

أن طلب النصر من ربه فالمقام مقام تكريم وامتنان يتوافق مع كل ما ذكر في آي السورة من « نعم متناسبة وآلاء متوالية ، ولهذا لم يذكر العذاب إلا بالإيماء الوجيز عقب الأمر بالعبادة وفي قوله ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدم من التذكير بإحسانه سبحانه وإنعامه من أول السورة إلى هنا »[1] .

والصورة هنا تهدف إلى تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه حيث تقرر أن العزة لله ولرسله ولهذا الدين وإن قل متبعوه ، وأن العاقبة الحسنة والمآل الحسن لابد أن يكون لأولياء الله ، وفي ذلك تعريض بالمشركين من كفار مكة ، وتحذير لهم بأن حالهم سيكون كحال من سبقهم من الأمم المكذبة ، والتعبير بإذا في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يفيد تحقق الاستواء والقطع به يؤكد ذلك مجيء الفعل الماضي بعد إذا حيث يقرر ويؤكد ثبوت ذلك ، وأنه أمر محقق ؛ لأنه بأمره تعالى وقدرته ، وقد جاء إفراده عليه السلام في الآية بالضمير المنفصل (أنت) وبالأمر في (قل) مع اشتراك الكل في الاستواء لما في ذلك من إظهارٍ لفضله وعلو منزلته عند ربه ولكونه أعلم بربه وأعرف من غيره ، فيكون الحمد منه أتم وأكمل ، مع ما في ذلك من الإيماء إلى كبرياء الله تعالى وأنه عز وجل لا يخاطب كل أحد من عباده ، وتوافق إيراد حرف الجر (على) في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ مع ما تضمنته الآيات من الإكرام

(١) ملاك التأويل لابن الزبير ١ / ٥١٣ .

والحفاوة والامتنان فقد تمكنوا برحمة الله من الفلك « والاستواء هنا يعني الاعتلاء والأخذ بزمام المعتلى عليه ، وكأن الفلك قد دانت بأمر الله لهم وتذللت لركوبهم فصارت طوع بنانهم »(١) .

فحرف الجر (على) في مقام المنة والتشريف أدل من ذكر حرف الجر (في) الذي ذكر في مشهد يصور مخاطر الأمواج وهولها في سورة (هود)وفي تكرر فعل الأمر (قل) في الآية الكريمة بيان لتعدد الدعاء والنعم ، فالأول تضمن دفع المضرة في قوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا ﴾ والثاني تضمن جلب المنفعة والفائدة في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ ولذا كان العطف بالواو في غاية الحسن والبيان وأن قدم دفع المضرة على الإنزال في المنزل المبارك ، فالواو دالة في سياقها على الترتيب وفي قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وضع للمظهر موضع المضمر لذمهم بالظلم الذي استحقوا من أجله الإهلاك ، وفي التعريف بأل دلالة على أنهم قوم نوح وليس غيرهم ، وأنهم معهودون بالظلم معروفون به ، وفي ذكر النجاة دون ذكر الإهلاك في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . « إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدواً من حيث كونها مصيبة له بل لما تضمنه من السلامة من ضرره وتطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله »(٢) .

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص (٧٣) .

(٢) حاشية الشهاب ٦ / ٥٧٣ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ لم يُذكر هنا الأمر بالهبوط من السفينة ، حيث جاء الأمر بالهبوط من السفينة في سورة هود بعد أن استقرت على الجودي وأهلك الله الظالمين .

وهنا كان الحديث كله عن التكريم والحفاوة بنوح ومن معه ، وذكر الفضل الذي آلوا إليه ، ولذا جاء الأمر من الله تعالى لنبيه بأن يحمده على ما سهل له من سبيل النجاة ، وأن عليه أن يسأله نزولاً في منزل مبارك عقب تلك الرحلة العظيمة ، فالمقام هنا مقام امتنان حيث لم يقف فضل الله تعالى على أمر النجاة والخلاص من القوم الظالمين ، ورسو السفينة ، ونزولهم منها ، بل جعل الله لهم الأرض منزلاً مباركاً وتكفل لهم صلاح أمرهم فيها وقرئ « منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر أي إنزالاً مباركاً وقرئ : مَنزِلاً بفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان أي موضع النزول »(١) .

وهنا نجد أن القراءتين قد دلتا على الإنزال من السفينة الذي أشارت إليه سورة هود في قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ وأنه كان نزولاً فيه يسر وسهولة وأمن ، ودلت على المكان الذي سيحل فيه ويتخذه مسكناً ، وأن هذا النزل والموضع يستتبع خيراً كثيراً، وفي قوله تعالى : ﴿ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ جناس اشتقاق تطلبه المعنى واستدعاه المقام .

---

(١) تفسير أبي السعود (٤ / ٤٥) .

« وطلب الخير من المنازل ممن هو خير منزل يقتضي أنه ينزله وإن لم يطلب حتى كأنه محقق قبل الطلب ، وأما التوسل فلأن الثناء على المحسن يكون مستدعياً لإحسانه ، وقد قالوا إن الثناء على الكريم يغني عن سؤاله »[1] .

وأما البناء الصوتي للصورة فقد جاءت الآيات على فاصلة النون ، وحرف النون له نبرة قوية في السمع يتلاءم مع المعاني القوية والأحداث العظيمة والفواصل جاءت متتابعة كالتالي (كذبون ، مغرقون ، الظالمين ، المنزلين) والفاصلة في كلمة (كذبون) تصور لنا التكذيب والإعراض الذي تمادوا فيه واستمروا عليه عبر امتداد الإيقاع بالمد العارض للسكون وكذلك يلحظ امتداد الإيقاع في الفاصلة التالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ وما أحدثته النون من رنين جهير يحكي الفاجعة المؤلمة والمصير المرتقب المتحتم عبر اسمية الجملة المؤكدة ، ورنين الصوت الممتد في الفاصلة عبر المد العارض للسكون ، وهكذا يتوافق الإيقاع مع المعاني ويتلازم ، وبعد هذا العرض حول الصورة وبنائها في سورتي هود والمؤمنون وما اتضح من فروقات في بناء الصورتين من إيجاز وتفصيل يعود إلى الهدف الذي رمت إليه كل صورة في كلا السورتين .

فسورة هود رمت إلى بث النذر والرعب فتوسعت في إبراز مشاهد الإهلاك وبسط صوره وأحداثه ، وأما في سورة (المؤمنون) فقد أوجزت لأنها تهتم بجانب النصرة والتكريم لنوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، فأبرزت

---

(١) حاشية الشهاب (٦ / ٥٧٤) .

جانب النجاة والانتصار والفضل ومن هنا لا نجد في الصورة ظهوراً لأحداث الإهلاك إلا بما أشارت إليه في أولها من الإخبار بأن قومه سيغرقون ، وبما تضمنه الحديث عن النجاة فإنه يقتضي أن قومه قد أهلكهم الله .

إنَّ الصورة هنا قد جاءت في جمل موصولة خالية من الاستعارة والتشبيه الذي كان يلاحظ في الصورة في سورة هود التي صوَّرت لنا العذاب وهوله ، وقد برز في المشهد هنا تتابع الأساليب الطلبية التي استدعاها المقام للأمر بالشكر والامتنان للخالق وما كان من أمر نوح عليه السلام في بداية المشهد بصنع الفلك واتخاذه وسيلة النجاة بعد طلبه للنصر من ربه .

وكان الاهتمام بأمر النجاة والإجابة لنوح عليه السلام هو الأبرز ولذلك خلت الصورة من الأساليب التي احتشدت وكثرت في سورة هود عندما صورت لنا هول العذاب وفجعة الأمر .

ب) الصورة الموجزة في سورة القمر ووجه دلالتها :

يقول تعالى عن هلاك قوم نوح ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [الآيات : ٩ – ١٥] .

وهنا يلحظ أن المشهد قد تفرد بشيء لم يوجد في سورتي هود و(المؤمنون) حيث جاء فيه تصوير لكيفية حدوث الطوفان وأنه قد كان بالماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض . وقد مضى في سورة هود تصوير ما أحدثه الطوفان من إهلاك الظالمين ، وما كان من نهاية لأمره ، دون بيان لكيفية حدوثه إلا بما أشارت إليه من التقاء الماء ، وهنا نجد التكامل البديع بين السور الثلاث (هود ، والمؤمنون ، والقمر) في إيضاح صورة الإهلاك لقوم نوح عليه السلام بما يتلاءم مع كل سورة ، والأغراض والأهداف التي ترمي إليها وسورة القمر تركز على قضية الإعراض والتكذيب فتبدأ به من أول المشهد في كلمة واحدة وهي كلمة (كذبت) وهنا يلحظ أن هذه الكلمة اختصرت ذكر ما دار بين نوح وقومه من حوار ومجادلات انتهت إلى التكذيب والإعراض .

وهذه الكلمة تصدم المتلقي منذ أول المشهد لتدل على أن القوم بادروا بالتكذيب منذ أول مرة ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ في إعراض وتكذيب قومه والمشهد هنا يركز على صورة العذاب الذي حلَّ بقوم نوح وكيف كان تحقيقاً لهدف الصورة في بث الرعب وإشاعته وقذفه في قلوب الطغاة من كفار مكة ، ولذا فقد ركزت على تصوير النهاية الأليمة في فقرات قصيرة وإيقاع سريع متتابع يتضح من خلال الوصل بين الجمل بالواو والفاء على وجه يخدم الإيجاز والسرعة والتلاحق ، فلم يكن هنا مكان لحرف العطف (ثم) الذي يأتي للتراخي والمهلة فالعرض هنا موجز وسريع . وقد توافقت رؤوس الآيات على حرف الراء في إيقاع يترك في النفس التأثير العميق ، وهو حرف جاء ليلائم المعاني والمشاهد التي

جاءت في فقرات قصيرة ، كل فقرة تصور مشهداً ، وكأن هذه الفقرات قذائف يتلو بعضها بعضاً ، وحرف الراء من الحروف المكررة « سمي بذلك لأنه يتكرر على اللسان وكون هذا الحرف عند النطق به كأن طرف اللسان يرتعد به وأظهر ما يكون إذا اشتدت »(١) .

ولنا أن نتأمل في هذا الحرف وفي مخرجه وفي ارتعاد اللسان به بما يوحي ويصور لنا الهول والرعب الذي أحاط بالكون كله عبر إيقاعه المتتابع في رؤوس الآيات ، إن هذا الإيقاع المتتابع والعرض السريع يترك في النفس أعمق الأثر ، فالفاء والواو العاطفتان قد والتا بين الأحداث ، وجعلتها تتعاقب على وجه يخدم سرعة القص ، ويربط بين الأسباب ومسبباتها ، وهذه الآيات جاءت إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة فابتدأت المشهد بقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ حيث يعود الضمير إليهم ، وفي ذلك تعريض بهم وأنهم مثل من سبقهم في الإعراض والتكذيب ، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ في كونه ليس بأول من كُذب من قِبَل قومه ، والصورة هنا تحول مشركي مكة من مستمعين لحالهم إلى صورة يستمعون فيها إلى حال من كان قبلهم من المكذبين ، وإلى ما لحقهم من عذاب عبر الضمير العائد عليهم في قوله (قبلهم) وجعل قوم نوح ، فاعلاً للفعل (كذب) فيه لفت للحديث عن كفار مكة المكذبين إلى المكذبين من قوم نوح وأُسند التكذيب إلى الكل في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ مع أنه قد آمن بنوح عدد قليل من

---

(١) التمهيد لابن الجزري / ص ١٠١ .

قومه كما بينت سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ لأن الغرض في السورة هنا يركز على عنصر التسلية للرسول ﷺ فكان إسناد التكذيب إلى الكل يُفعِّل من هذا العنصر ويزيد منه ، بالإضافة إلى أن هذا يشير إلى كأنه لم يكن قد آمن بنوح أحد إذا قورن بما قام به من دعوة وجهد وصبر استمر عليه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وفي تكرار فعل التكذيب في الآية الكريمة والعطف بالفاء أسرار بيانية عميقة .

يقول في ذلك الزمخشري « معناه أنهم كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً : كذبوا نوحاً ، لأنه من جملة الرسل »[١] وأما الطاهر بن عاشور فيرى أنه تأكيد للتكذيب الأول وهذا يدل على قوة هذا التكذيب وأما الشهاب الخفاجي فإنه يتلمس السر ويوضحه من جانب آخر حيث يرى أن الأول يدل على أنهم قصدوا التكذيب وابتدءوه وأما الثاني فيدل على أنهم أتموا هذا التكذيب وبلغوا غايته[٢] .

وكلام الخفاجي أوضح وأبين في بيان أسرار إعادة الفعل وعطفه بالفاء « فالتكذيب الأول دون ما عطف عليه ، حيث ازدادوا عناداً وإصراراً على الكفر حتى وصل معه الأمر إلى اتهام النبي الكريم بالجنون فالعطف بالفاء فيه ترق من

---

(١) الكشاف (٤ / ٤٢٢ - ٢٢٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٠) ، وينظر حاشية الشهاب (٩ / ٢٩) .

تكذيب إلى تكذيب أتم وأبلغ ، ألا ترى كيف حذف المفعول في الأول تركيزاً على فعل التكذيب ، وذكر في المعطوف بلفظ العبودية المشرفة للموصوف بها ، وأضيف إلى المعبود فأضفى على المعطوف درجة من التعظيم ، جعلت التكذيب فيه أشد وأبلغ فدخلت الفاء دالة على التفاوت بين المتعاطفين »(١) .

وقد يكون في التكرار والعطف بالفاء تفصيل بعد الإجمال الحاصل في الفعل الأول ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فالتكذيب هنا ذكر بصفة مبهمة ، ثم جاء توضيحه بعد ذلك في قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ وفي التفصيل والتوضيح بعد الإبهام جذب للاهتمام ، فالنفس حينما يلقى إليها الخبر مبهماً تتشوف وتتطلع إلى المعرفة والإيضاح ، حيث جاء يبين أن التكذيب قد وقع على نوح عبد الله ورسوله ، وفي إضافته إلى نون العظمة (عبدنا) تشريف له ورفعة وفيه زيادة تشنيع لمكذبيه ودلالة على جحدهم للنبوة وعدم تقبلها من نوح لأنه من البشر ، وفي ذلك تكذيب لجميع الرسل كما أشار إليه قوله تعالى من قبل ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ١٠٥] ، وفي تعقيب الخبر المجمل بخبر مفصل تدرج وارتقاء وإبراز للزيادة في المعطوف ، والجمل موصولة هنا بالواو والفاء ، والأفعال كلها ماضية (كذبت ، فكذبوا ، وقالوا) (٢) تصور أحداثاً ماضية تقررها وتؤكدها ، وكان العطف بالفاء يفيد الترقي من تكذيب يتبعه تكذيب

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) وقد اتفقت في الخبرية لفظاً ومعنى والمسند إليه واحد والوصل بينها للتوسط بين الكمالين .

وصلوا فيه إلى الغاية ، وجاء العطف بالواو لبيان زيادة ما توصلوا إليه بعد تكذيبهم حيث اتهموا النبي بالجنون وازدجروه ، أي أنه لا سبيل إلى قبول شيء منه ، والفعل (ازدجر) جاء على صيغة الافتعال للمبالغة « ونكتة بنائه للمفعول هنا للتوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير (قوم نوح) فعدل عن أن يقال : وازدجروه إلى قوله (وازدجر) محاشاة للدال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم »(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ هذه الجملة تفريع على جملة (كذبت قبلهم قوم نوح) والفاء تدل على إسراع نوح ومبادرته إلى الدعاء يستنجد ربه بعد أن ازدجره القوم وبلغوا الغاية في إعراضهم وتهديدهم له ، فلم يعد هناك مزيد صبر عليهم ، وأكد طلبه في دعاء ربه (بأنَّ) لإظهار الحاجة والتذلل والمبالغة في إظهار الشكاية ، وقال (مغلوب) على اسم المفعول لبيان شدة ما هو فيه بعد أن مضى ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يجاهد فيهم حق الجهاد فجاءت هذه الكلمة تصوِّر لنا إحساس النبي الكريم وتجسده حيث شبه نفسه في دعوته لقومه مراراً وتكراراً بحال الذي كان يصارع ويقاتل حتى غلبه مقاتله بجامع المحاولة المتكررة التي آلت إلى العجز واليأس منهم ، فالاستعارة في اسم المفعول (مغلوب) تصور مدى ما وصل إليه عليه السلام من كرب ويأس تجاه قومه ، وفي قوله (فانتصر) طلب للتعجيل بالإجابة ولذلك جاءت الفاء

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨١) .

الدالة على التعقيب تبين ذلك ، وقد حذف المتعلق للإيجاز وموافقة رؤوس الآي والاهتمام بالمعنى المراد ، ويرى الطاهر بن عاشور أن المتعلق المحذوف تقديره (فانتصر لي) أي انصرني[1] .

ولكن هذا التقدير يجعل النصر من أجل نفسه ، والذي يظهر من بدائع الحذف أن النبي الكريم يريد النصر من أجل دينه وليس من أجل نفسه ، ولهذا كان الحذف دالاً على هذا المعنى ، والله أعلم ، وتأتي جملة (ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر) مفرعة على جملة (فدعا ربه) وهي معطوفة على جملة محذوفة تقديرها .

(فاستجبنا لنوح دعاءه ففتحنا) وبلاغة العطف بالفاء بين هذه الجمل تدل على توالي الأحداث وسرعتها وسرعة الإجابة ، فلم يكن بين دعاء نوح عليه السلام واستجابة ربه زمن طويل .

وقد أضيفت هذه الأفعال إلى ضمير الجلالة ؛ لبيان هول هذه الأحداث وقوتها وفي اتصال الضمير بهذه الأفعال في تتابع وامتداد الصوت بها يجعل الإيقاع في تناسق بديع يشير إلى نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى عبر نغمة النون التي امتد الصوت بها مع الألف (ففتحنا ، وفجَّرنا) وكذلك يتلاقى الجمع في أبواب مع فتحنا مضافة إلى ضمير الجلالة وصيغة (فعّل) التي للمبالغة في فجّرنا لتتنامى مع مقام الانتقام والعظمة والدلالة على التكثير ، وجاء اسم الفاعل في (منهمر) يصوِّر السيلان والانصباب العظيم في كثرة متتابعة مستمرة ولم يكن

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٢) .

لكلمة (المطر) هنا مكان ؛ لأن هذا الماء قد خرج عن العادة المعهودة ، والصورة في قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ فيها احتمالان اثنان إما أن تكون على الاستعارة التمثيلية حيث شبه فيها تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء ، وإما أن تكون الصورة على الحقيقة حيث نزل هذا الماء من السماء وتفتحت له أبواب السماء فلم يكن هذا الماء عن طريق السحاب ولا على طريقة المطر المعهود ، فقد نقل ابن كثير ما قاله ابن جريج عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ حيث يقول إنه كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده ، ولا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان على أمر قد قُدِر[1] .

والنظر إلى الصورة على حقيقتها يبين عظمة وهول هذا المشهد حيث انفتحت أبواب السماء بهذا الماء المندفع وكان من السماء ولم يكن من الماء الذي تبخر من الأرض فتكوَّن سحاباً نزل من خلاله المطر والله أعلم .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ جاءت الجملة معطوفة على جملة (ففتحنا) وفعل التفجير قد أُضيف إلى ضمير الجلالة لبيان عظمة هذا التفجير وشدة أثره وأوقع التفجير على الأرض والتفجير للعيون في المعنى ليحصل بذلك معنى الشمول ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها وأن

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣ / ٢٩٦ . والمعلوم أيضاً أن السحب في الدنيا تكون تحت السماء وفي ارتفاع يتناسب مع إنزال المطر على الأرض .

الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل وفجَّرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن منها [1]

فالمشهد هنا يصوّر لنا الأرض وقد أصبحت كلها عيوناً متفجرة ينبعث منها الماء مندفعاً بشدة كما تصوره كلمة (فجّرنا) فالفاء بهمسها تعبر عن أول حدث الشق ، والجيم الجهيرة تعبر عن صورة التفجير ، وحرف الراء يصوِّر تتابع التفجير من خلال تكرره على اللسان عند النطق به . وهذه الصورة تقابلها صورة الماء المنهمر من السماء ، وهذا التقابل يزيد الصورة هولاً ، فالأرض والسماء تمثل هذا الكون الضخم الذي أحاط بالبشر من فوقهم ومن تحتهم ، فأين يكون المهرب والمنجى ؟ إن الصورة هنا تبعث في النفوس عظمة الرب جلّ وعلا ، فالكون كله ملكه خاضع لأمره ، فما أهون حال من تكبر وعاند !

وقال تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ وهذه الجملة معطوفة على جملة (وفجَّرنا الأرض) أي فنتج عن ذلك أن التقى ماء الأرض بماء السماء ، وفي كلمة (التقى) استعارة لاجتماع ماء السماء مع ماء الأرض ، حيث شبه الماء النازل من السماء والماء الخارج من الأرض بطائفتين جاءت كل واحدة من مكان فالتقتا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان[2] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٢ .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٣) .

فالصورة تجعل المشهد حياً ماثلاً للقلب والخيال يحرك مشاعر الخوف والرهبة . وفي قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ كناية عن الإهلاك الذي استحقه الظالمون والأمر الحال والشأن ، وقد جاء منكراً للتهويل وجاءت بعده قد للتأكيد فهو أمر نافذ لا محيد عنه ، وهذا الأمر أصبح شيئاً محسوساً كما أن الماء في التقائه كأنه كالجيش يلاقي بعضه بعضاً ، وكأنه يحتاج إلى من يقوده ويديره ، وهو الأمر الذي يجعله مطابقاً لما قدَّر له ، فالصورة هنا كلها محسوسة ملموسة للدلالة على أن تيسير الأمور كلها وفق تقدير لا يزيد ولا يحيد . ووصف الأمر بأنه قد قدر أي أتقن وأحكم بمقدار ، فلم يهلك غير ما أمر الله بإهلاكه ، وعلى هنا « يجوز أن تكون للاستعلاء المجازي ، أي ملابساً لأمر قد قدر ومتمكناً منه ومعنى التمكن شدة المطابقة لما قُدِّر وأنه لم يحد عنه قيد شعرة »[(١)] .

والخبر في قوله تعالى : ﴿ فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ اكتفي به عن إفادة طغيان الطوفان على قوم نوح وبما أفاده تفريع الجملة في قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كما تقدم وانتقالاً إلى وصف إنجاء نوح عليه السلام من هذا الكرب العظيم حيث يقول تعالى : ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ وهي جملة معطوفة على جملة (التقى الماء) وقد تضمنت هذه الجملة إنجاء نوح عليه السلام وإهلاك الظالمين من قومه ، وهي معطوفة على التفريع عطف[(٢)] احتراس ، والمعنى

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٣) .

(٢) حتى لا يظن أن الماء قد شمل نوحاً ومن معه .

فأغرقناهم ونجّيناه، وعدى فعل (حملناه) إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره فهو المقصود الأول من هذا الحمل[1].

وقال تعالى : ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ذُكرت الصفة وأُقيمت مقام الموصوف فهي عوض عن أن يقال : وحملناه على الفلك ، لأن في هذه الصفة بياناً يدل على أن السفينة بذاتها وتكوينها وصناعتها لا تصلح لنجاة شيء إزاء هذا الهول ، وأنها لم تكن السبب الفاعل للنجاة ، وأن على المرء أن يتخذ من الأسباب ما يستطيع ويعتمد بعد ذلك على خالقه ومولاه ، إن النجاة هنا كانت بفضل الله ورحمته ومنته فهي التي جعلت من هذه السفينة الواهية قدرة خارقة للنجاة من الغرق .

« فلم يقل حملناه في جارية أو في سفينة وإنما قال ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ فهي محمولة بيد الله وما هي إلا ألواح ومسامير ، فإذا كان الحامل ضعيفاً واهياً ، والماء عظيماً مدمراً فالنجاة هي فضل الله ورحمته ، بدليل ما ورد في قوله تعالى عقب ذلك ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ إدلالاً بكمال القدرة وبالغ الحفظ والكلاءة »[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾[3] جاء الفعل المضارع يصوِّر حركة السفينة

---

(١) ينظر المصدر نفسه (٢٧ / ١٨٤) .
يلحظ في هذا القول أنه مما يضعّف معاني الامتنان هنا والمراد والله أعلم في قصر الضمير عليه أنه كان للتشريف وبيان المنزلة والحفاوة به وإن كان الفضل والمنة عامة عليه وعلى المؤمنين .

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص ٦٣ – ٦٤ .

(٣) مرَّ الحديث حولها والباء فيها للمصاحبة وقد اقتضى المقام الجمع في موقف تفتحت فيه أبواب السماء وتفجرت الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر فكان الجمع دالاً على مزيد من العناية والحفظ والكلاءة .

وهي مسرعة ، وإسناد الجري إلى السفينة فيه بيان لتمكين الله لها من المرِّ السريع فوق تلك الأمواج الهائجة ، والمشهد هنا يُختتم بالاهتمام بنوح عليه السلام حيث أُفرد بالذكر تشريفاً له وتكريماً منذ أن ابتدأ بطلبه النصر من ربه ، فجاءت الإجابة وجاء التكريم وهذا ما يلمس أيضاً في ختام المشهد في قوله تعالى : ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ فقد بنى الفعل للمفعول ، والمراد كُفر بنوح عليه السلام وهو نعمة من الله جاءتهم فكفروا بها ، وهذا ما يتلاءم مع إفراده بالذكر في قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَهُ ﴾ حيث كان كل ذلك إجابة له وتكريماً له في المقام الأول ، ثم من تبعه فهم في معيته ، وجيء (بكان) بين من والفعل (كفر) لتصور لنا طول زمن الكفر به الذي امتد منذ أن بدأ يدعو إلى الله حتى جاء أمر الله تعالى وهم في غيهم، وفي الآية تعريض بالمشركين من كفار مكة حيث سيكون مصيرهم مصير من سبقهم وأن العاقبة الحسنة ستكون للنبي ﷺ ومن آمن به .

وما زلنا نتابع ختام المشهد بهذه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [الآية : ١٥ سورة القمر] والآية تعلو فيها نبرة التأكيد حيث جاءت بلام القسم وقد ، وذلك لتحقيق المضمون لدى المخاطبين ، وتقريره في أذهانهم ، حيث إنه من الأمور المهمة التي يجب أن يتفكروا فيها ويعلموها عن يقين ، وهو أمر السفينة التي أنجى الله فيها نوحاً عليه السلام ومن معه قد تُركت أي بقيت ، والترك فيه استعارة تبعية تصريحية للبقاء فالصورة تبين بقاء السفينة لم ينل منها تعاقب الأزمان والأجيال حتى شهدها صدر هذه الأمة

المحمدية وبذلك بقيت قصة الطوفان خالدة بين الأمم لتخلد العظة والاعتبار بما حلّ بالقوم الظالمين ، وفي تنكير (آية) بيان لعظمة هذه الآية التي بقيت نذيراً وعظة وفي قوله تعالى : ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ الفاء تفريع على فعل الترك .

« والاستفهام استفهام تقرير وحث على تحصيل الادكار وهو الاتعاظ والاعتبار بما ذكر في تدمير قوم نوح ، وإيثار أداة الاستفهام (هل) على أدوات الاستفهام الأخرى ، لما فيها من الإشعار بتحقق المستفهم عنه وهو الادكار والاعتبار ، وتوسط حرف الجر (من) بين أداة الاستفهام والمستفهم عنه لزيادة الحث والترغيب في الاتعاظ ، ولتفخيم التركيب وإيقاعه في السمع ، وفيه دلالة على عموم الجنس »(1) .

ويتكرر الاستفهام في ختام المشهد ليترك في النفس أبلغ الأثر ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وهو استفهام مفرع بالفاء على قصة الإهلاك وصوره ليبعث في النفس اليقظة ويهز الوجدان ، وهو استفهام فيه تعجيب من شدة هول العذاب وشناعته ، فالكون كله كان يعاصر حدث الإهلاك لقوم نوح ، إن المشهد يمتلىء بالرهبة منذ ابتدائه إلى ختامه بهذين الاستفهامين وقد أضيف العذاب والنذر إلى ضمير الجلالة لبيان فظاعته ، والجملة في الآية من« التذييل وهو تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم الرسولﷺ وإعراضهم»(2) .

---

(1) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ٤ / ١٩٢ ، ١٩٣ .

(2) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٨٧) .

وجاء جمع النذر لمناسبة تعدد النذر من الرسول لقومه وتكررها وقدم العذاب وأفرد لأنه عذاب واحد حل بقوم نوح وهو أعظم لأنهم ذاقوه وأحسوه .

وهكذا جاءت الصورة في سورة القمر تحمل لنا هذه الأحداث العنيفة في ألفاظ قوية جزلة وإيقاع شديد متتابع في فقرات قصيرة ، لتقذف الرعب في قلوب المعرضين من طغاة قريش ، وتحقق الثبات والطمأنينة للنبي ﷺ ومن آمن به ولاشك أن نزول السورة في أواسط العهد المكي وقد اشتدت فيه مقاومة المعرضين من كفار مكة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين كان في غاية المناسبة وقوم نوح عليه السلام من أول الأمم المكذبة التي كانت نهايتهم بالطوفان ، وفي ذلك إنذار حاسم لمشركي مكة بما حصل لأول المكذبين من الأمم ، وقد تشابهت أفعالهم مع أفعال المعرضين من قريش ، ولذلك ركزت الصورة على النهاية المهلكة وقد استخدمت الصورة في رسم هذه الأحداث الأفعال الماضية لأنها تصور وقائع قد مضت في ذلك الزمن الغابر ، وقد أسندت إلى ضمير الجلالة لبيان عظمتها وهولها ولنا أن نتأمل فيها متتابعة وقد جاءت تثبت وتؤكد وقوع هذه الأحداث في ذلك الزمن (كذبت ، كذبوا ، قالوا ، فدعا ، ففتحنا ، فجرنا ، فالتقى ، حملناه ، تركناها) .

ولكن المشهد لا يخلو من التعبير بالفعل المضارع ليحيى لنا تلك الصورة الماضية ويستحضرها عندما نصل إلى ذكر السفينة في قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ فقد رسم لنا هذا الفعل حركة السفينة وسط الطوفان وقد أحيطت بالعناية الإلهية

وهي تغامر أهوال الأمواج المضطربة وهكذا حققت الصورة هنا الغرض الديني في إنذار المكذبين وتثبيت المؤمنين وتبشيرهم بأن العاقبة الحسنة ستكون لهم .

لقد رَمَتِ الصورة في سورة القمر إلى بث الرعب والهلع في قلوب المشركين من كفار مكة ولذلك اتجهت مباشرة إلى ذكر صورة الإهلاك لتركز عليها وأبرزت لنا القوة المهيمنة على الكون كله ، حيث أرسلت السماء بأمر ربها ماءها وتفجرت الأرض طوعاً لربها وأخرجت ما فيها ، وهنا عظم الهول حيث التقى الماء الطاغي والغضب الماحق على الأرض ليهلك الطاغين ، لقد احتشدت في المشهد صور الرهبة ثم نراه يختتم بالاستفهام المرعب وقد حمل لنا إشارات هائلة تبعث النذر والهول وتنبئ عن قمة الغضب الإلهي وكل ذلك جاء في جمل موصولة وإيقاع سريع يتلاءم مع هذه المعاني ، والمشهد جاء منحدراً بهوله يتوافق مع أغراض هذه السورة وما بنيت عليه من أولها إلى آخرها فكانت الصورة هنا أشد وأفظع مما عرض في سورة (المؤمنون) وهي في شدتها وفظاعتها تقارن ما صُوِّر في سورة هود ولكن في إيجاز وإيقاع سريع يصدم النفوس المعرضة ويرسل طرقات متتابعة في ذلك الحس الغافل والله أعلم .

المبحث الثالث

الصورة فيما أشار إلى قصة الإهلاك

ورد ذكر مهلك قوم نوح في إشارات سريعة في كل من سورة (الأعراف ، ويونس ، والشعراء ، والعنكبوت ، والصافات) .

يقول تعالى عن مهلك قوم نوح في سورة الأعراف ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٦٤] .

الصورة هنا جاءت مشيرة في إيجاز سريع إلى قصة هلاك قوم نوح التي وردت في سورة هود مفصلةفي أربعين سطراً لتكون في سطرين وهي هنا قد تضمنت بداية الرسالة ونهايتها بالعقاب والجزاء الذي جاء نتيجة الإعراض والتكذيب ، والصورة تبرز النتيجة وتبثها سريعة خاطفة تدل على سرعة العقاب بعد التكذيب الذي وصل إلى غايته .

وسياق الصورة هنا جعل المشهد يميل إلى الإشارة والإيجاز ؛ لأنه كان يركز على موقف القوم من الرسالة ورفضهم لدعوة نوح عليه السلام وما كان عليه من صبر وإلحاح في عرض رسالته ، إن هذا الإيجاز السريع في عرض صورة الإهلاك يرسل من الإيحاءات والإشارات الكثير من المعاني التي اختفت ألفاظها وظهر مدلولها النفسي في جذب النفوس وإثارة الوجدان ، فالمفاجأة بظهور نتيجة الإعراض والتكذيب في سرعة خاطفة بعد الجدال الطويل والمحاجة التي دارت

بين نوح وقومه في هذا السياق يبث في نفس النبي ﷺ والمؤمنين الطمأنينة والثبات والصبر ، وفي المقابل يهز نفوس المعرضين في أن مصيرهم وإن طال إعراضهم سيكون حاسماً وسريعاً مثل مصير من سبقهم من الأمم الماضية ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ .

نجد فاء العطف تأتي بعد ذكر ما دار بين نوح وقومه تصور لنا ما بين فعل التكذيب والإنجاء وتبين مبادرة القوم إلى التكذيب وأنه قد وقع من جميع فئات القوم ما عدا الفئة القليلة التي آمنت بنوح عليه السلام وجاء خبرها في سورة هود وأما الفاء الثانية فإنها جاءت تمد زمن التكذيب وتجعله يصل إلى وقت مجيء العذاب وإنجاء نوح ومن معه موحية بأنهم قد اعتادوا التكذيب واستغرقوا فيه واستمروا عليه حتى فاجأهم العذاب فكانوا من المهلكين الخاسرين ، والصورة هنا تهتم بخبر الإنجاء ، ولذلك عطف بالفاء التي جاءت للتعقيب ؛ لأن التكذيب حصل بعده الوحي إلى نوح عليه السلام بصنع السفينة والاستعداد لأمر الله يقول الطاهر بن عاشور :

« وللاهتمام بأمر النجاة قدم الإخبار بالانجاء على الإخبار بالإغراق ، مع أن مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين ، فقدم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلاً لمسرة السامعين من المؤمنين بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين ، وذلك التقديم يفيد التعريض بالنذارة ، وإلا فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء إذ لا يظهر تحقق إنجاء نوح ومن معه إلا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به ، وليتأتى هذا التقديم عطف فعل الإنجاء بالواو

المفيدة لمطلق الجمع ، دون الفاء »[1] .

وهذا الكلام سيأتي ما يرده عند التعرض لما ورد في السور الكريمة الأخرى وما دلت عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ وهذه الجملة معطوفة على جملة أنجيناه ، والأفعال ماضية جاءت تؤكد وتقرر هذه الأحداث وجاء التعبير بالاسم الموصول لما فيه من معنى التحقير لشأنهم والتعريف بعملهم الشائن وجزائه المهين ، وهذا كافٍ في الموعظة وأخذ العبرة ، ولما تؤذن به الصلة من بيان العلة في إغراقهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ جاءت هذه الجملة مفصولة عما سبقها ، وظاهر الفصل أنها قد جاءت للاستئناف البياني، فهي جواب عن سؤال أثارته الجملة التي قبلها تقديره فما سبب إغراقهم وإهلاكهم ؟ فجاءت الجملة جواباً مصدراً بالتوكيد (بإن) للاهتمام بالخبر وتقريره وحلت محل الفاء في الربط بين الجملتين .

وجاء وصف القوم بالصفة المشبهة (عمين) للدلالة على ثبوتها ولزومها لهم لا تنفك عنهم ولموافقة السياق الذي وردت فيه ، فقد كان القوم لما هم عليه من العمى يقولون لنوح عليه السلام ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهم لما كانوا في ظلام الباطل حجبوا عن أنفسهم رؤية الحق ، فرأوا الحق والنور ضلالاً مبيناً فناسب إيراد هذه الكلمة لهذا السياق ، وهكذا نجد الصورة هنا في إيجازها تبث نذر الهلاك والوعيد في نفوس المكذبين من المشركين والتعريض بأنه ينتظرهم من

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٩ / ١٩٧) .

العذاب مثلما وقع بأسلافهم من الأمم الكافرة ، وقد عرض ذلك في جمل قصيرة موصولة توحي بمعاني القوة والحسم السريع في إنهاء أمر الظالمين وإنجاء المؤمنين ، وهذا ما يلحظ في بقية السور الكريمة التي تعرضت للإشارة دون التفصيل ، وذلك لأنها جاءت في سياق المحاورة التي دارت بين نوح وقومه وما كان منهم من رفض وإعراض فجاء المشهد موجزاً بعد ذلك في سرعة عاقبة الإعراض والتكذيب كما ورد في سورة[1] الأعراف وفي سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآيات ١١٧ - ١٢٠][2] .

ويأتي إبراز النتائج السريعة أيضاً بعد دعاء نوح على قومه وطلبه للنصر كما مرّ في سورة الشعراء وكذلك في سورة الصافات كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الآيات :٧٥ - ٧٨] .

---

(١) وهما سورتان قد ركزتا على موضوع العقيدة فجاء عرض دعوة نوح لقومه فيهما طويلاً واختصر في عرض العاقبة موجزة للإشارة إلى سرعة الأخذ والإهلاك بعد طول الدعوة والصبر والمجادلة وسيأتي مزيد بسط لذلك في باب علاقات المشهد .

(٢) وهنا يجب أن نلاحظ أن من معاني الفعل(أنجى) السرعة في الإنجاء كما مر تقرير ذلك في الباب الأول وهو ما يتفق مع إيقاع الآيات وتتابعه في فقرات سريعة ومع وصل الجمل بعد المحاجة الطويلة التي دارت بين نوح وقومه .

ويأتي إبراز النتائج في إيجاز سريع بعد بيان المدة التي قضاها نوح عليه السلام وهو يدعو قومه ، وهي مدة طويلة جاء ذكر العاقبة بعدها مباشرة ، ليوحي ذلك بأن عاقبة الإعراض وإن طالت فإنها ستكون سريعة عاجلة وحاسمة ، وفي ذلك تعريض بكفار مكة المعرضين كما يلحظ ذلك في سورة العنكبوت حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الآيات : ١٤ - ١٥] .

ومما يلاحظ وروده في السور الكريمة التي أشارت إلى مهلك قوم نوح عليه السلام أن ذكر النجاة يأتي متقدماً ويعطف عليه خبر الإغراق بالواو وهذا ما لوحظ في سورتي الأعراف ويونس ، حيث يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٧٣] .

والطاهر بن عاشور يرى هنا أن الإغراق أسبق من الإنجاء ، وقدم خبر الإنجاء للتعجيل بذكر المسرة للسامعين من المؤمنين ، وليتأتى هذا التقديم عطف فعل الإنجاء بالواو المفيدة لمطلق الجمع ، دون الفاء[١] .

ولكن هذا القول يصطدم بما ورد في سورة الشعراء في قوله تعالى﴿: فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٩ / ١٩٧) .

مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الآية :١١٩ -١٢٠] .

ويرى أن ثم في هذا الموضع للتراخي الرتبي في الإخبار لأن إغراق أمة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة في إنجاء طائفة من الناس[1] .

وعلى هذا النحو مال الدكتور محمد الأمين الخضري حيث يبين أن المفهوم من الآيات أن الإغراق أسبق من إنجاء نوح عليه السلام ومن آمن به ، لأن تمام النجاة تكون باستواء السفينة على الجودي ، بعد ابتلاع الأرض ماءها وإقلاع السماء كما صورته سورة هود فإن لم تكن النجاة متأخرة عن الإغراق ، فلا أقل من أن تكون مقارنة له ، وهو موضع الواو ، ويرى أن في ذكر حرف التراخي (ثم) في سورة الشعراء لبيان التفاوت الرتبي الذي يوضح أن إغراق قوم بأكملهم أعظم من إنجاء نوح ومن معه . وهذا ما يحقق الغرض الذي سيقت من أجله القصة ، وهو بث نذر الهلاك والوعيد ، ثم إن إهلاك أمة بأكملها دون أن ينجو منها أحد غير من وعد الله بنجاته ، أدل على سوط القدرة وأقوى أثراً في العقل والعادة من إنجاء فئة قليلة من الناس[2] .

والذي يظهر عند التأمل في الجمع بين ورود الواو في سورتي الأعراف ويونس وورود ثم في سورة الشعراء ، أن ذلك يبين أن نوحاً عليه السلام ومن

---

(١) المصدر نفسه (١٩ / ١٦٣) .

(٢) ينظر : من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (١٢١ - ١٢٢) .

آمن معه لما ركبوا في السفينة وبمجرد ركوبهم لها فقد تمت لهم [1] النجاة من الغرق، ولمّا عمَّ الطوفان وتحركت السفينة غرق من بقي من القوم الظالمين ، فحرف المهلة (ثم) جاء على معناه فالنجاة المقصودة في الآيات هي ركوب نوح ومن آمن به السفينة وأن الغرق لا يمكن أن يحدث إلا بعد ركوبهم وبعد أن تحرك الأمواج السفينة ويعم الطوفان[2] ، وعلى هذا فلا يكون هنالك تقديم ولا تأخير، تأخير، فالواو للترتيب في سورة الأعراف ويونس وثم دلت على التراخي والترتيب في سورة الشعراء مع دلالتها على عظمة هذا الإغراق .

وكان استواء السفينة على الجودي من متممات النجاة والسلامة ، وهو تحصيل حاصل ، حتى تتمكن السفينة من الاستقرار ويخرج منها نوح ومن آمن معه بسلام وقد وجدوا المكان الذي يصلح لنزولهم بعد أن أذهب الله ماء الأرض وأقلع عنهم ماء السماء ، إن إيجاز صورة المهلك لقوم نوح عليه السلام في هذه السور الكريمة قد سار على نهج واحد ، وذلك لاتفاق هذه السور في الاهتمام بموضوع العقيدة وإبرازه ، فكان الحوار يطول بين النبي وقومه ، ولم يكن الهدف

---

(١) لا يقصد بتفسير النجاة بالركوب صرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه فيكون من قبيل المجاز المرسل ، حيث عُبِّر عن السبب بالمسبب بل المراد إن ركوب السفينة حال بين نوح ومن معه من الغرق بأمر الله تعالى وهذا يجعل النجاة أسبق من غرق قومهم ، والله أعلم .

(٢) يدل على ذلك أن غرق ابن نوح كان بعد أن ركب نوح عليه السلام ومن آمن معه السفينة ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فالغرق ما تم إلا بعد أن تم ركوب السفينة ثم بدأ هيجان الأمواج التي حركتها وأغرقت بعد ذلك الظالمين فكانت النجاة أسبق من الغرق والله أعلم .

فيها تفصيل مشاهد الإهلاك بل كان الهدف ينصرف إلى إبراز سرعة الإهلاك والأخذ في إيجاز سريع ينبيء عن سرعة انقضاء عهد الظالمين بعد طوله ، إن هذه السور قد اتفقت في الإيجاز والإجمال للعاقبة لترسل إيحاءً عظيماً وقلقاً كبيراً في نفوس المعرضين ، وقد عبَّرت عن معانٍ كثيرة يظهر مدلولها النفسي في جذب الانتباه وإثارة الوجدان حيث يأتي الفرج والحل المفرح والنهاية السعيدة في سرعة بعد طول المحاجة وطول المكابدة لكل نبي مع قومه ، وهذا ما لوحظ في سياق إيجاز العاقبة حيث تكون قمة الحدث في جدال النبي مع قومه وتهديدهم له ورده عليهم رداً عظيماً يبكتهم به ، وبذلك نحن نعيش معركة حوارية بين الحق والباطل تجعل المتلقي يترقب النتيجة بعد ذلك في شغف ، فتأتي النهاية تجيب سريعاً بانتصار النبي الصابر الداعي ، ونجاته هو ومن آمن معه لتبعث الصورة أعظم الأثر في النفوس فتثبت المتلقي وتلقي في نفسه العزيمة والصبر .

الفصل الثاني

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم هود

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : الصورة الموجزة في سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء) .

المبحث الثاني : الصورة المفصلة في سورة (الذاريات ، والقمر ، والحاقة) .

المبحث الأول

الصورة الموجزة في سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء)

أ - ما ورد في سورة الأعراف :

يقول تعالى عن نبيه هود وهو يرد على قومه بعد إنكارهم لدعوته وطلبهم بأن يأتيهم بالعذاب تحدياً منهم وتكذيباً .

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ٧١ - ٧٢] .

يلحظ في الآيات الكريمة هنا أنها قد أوجزت في إيراد العاقبة والجزاء للقوم الظالمين بعد أن ذكرت ما دار بين هود وقومه من محاجة وجدال [١] طويل ختم بإصرار القوم على تكذيبهم وتحديهم لهود عليه السلام في أن يأتيهم بشيء مما وعدهم به إمعاناً منهم في الإعراض والاستهزاء فجاء ذكر العاقبة في إيجاز سريع[٢] طويت معه تفاصيل حادثة الإهلاك وبذلك يجد المتأمل نفسه ينفذ

---

(١) من الآية (٦٥ - ٧١) .

(٢) لقد مرَّ بيان وجه الإيجاز فيما مضى عند التعرض لقصة هلاك قوم نوح ولأن سياقها هو سياق قصة قوم هود وقد أُوجز في مهلك قوم هود كما أُوجز هناك لذلك ما قيل هناك يقال هنا وسيأتي مزيد بسط للقول في السياق في الباب الثالث ولذلك أوثر الإيجاز للاعتماد على ما سبق وما سيأتي .

سريعاً إلى ذكر النتيجة الحاسمة بعد المحاجة والجدال حيث عجّل السياق بذكر نجاة النبي ومن معه وإهلاك الظالمين وهو موطن العبرة في المشهد ومركز الاهتمام وفيه تسلية للنبي ﷺ ومن آمن به والجو هنا هو جو الأخذ الحاسم السريع بعد الإمهال الطويل وكذلك نجد الفعل (أنجينا) يفيد معنى الإسراع في تنجية النبي ومن معه كما مرَّ بيان ذلك مراراً [1] وغالباً ما يأتي في سياق المحاورة التي تطول بين النبي وقومه ويستعجل القوم فيها بطلب إنزال العذاب عليهم تكذيباً منهم واستهزاءً وتمادياً في الإعراض فيأتي ذكر العاقبة في إيجاز وإيقاع سريع يتوافق مع معاني الحسم والسرعة في فقرات قصيرة وجمل موصولة بالفاء والواو تدل على تعاقب الأحداث وتتابعها في سرعة وكل ذلك ينبئ عن الغضب المحتدم والخطب الجليل وهو أوقع في النفس وأرهب للحس . لقد بدأ ردُّ هود عليه السلام على قومه بعد المحاجة التي دارت وانتهت بطلب القوم للعذاب في تحدٍ وسخرية وتهاون فقال لهم « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » جاء هذا القول يحمل تهديداً مريباً ورداً رادعاً لقولهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وقد صدّر رده بالتوكيد بقد وجاء الفعل الماضي (وقع) يؤكد تحقق الوقوع وحصوله لا محالة وفيه استعارة في زمن الفعل حيث شبه الوقوع في المستقبل بالوقوع في الماضي في تحقق الوقوع في كل منهما وإذا كان معنى (وقع) في الآية يشير إلى معنى الوجوب أي وجوب العذاب

(١) مرَّ تفصيل ذلك في الباب الأول في موضوع المتشابه من الآيات .

عليهم[١] وهو الأظهر ، فإنه لا استعارة في الفعل ، وفي تقديم الجار والمجرور (عليكم) على فاعل الفعل فيه إفادة لاختصاصهم بهذا العذاب والغضب ولتعجيل المساءة بما يهوِّل أنفسهم ويقرع أسماعهم « والفاء في قوله (فانتظروا) لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق ؛ لأن وقوع الغضب والرجس عليهم ، ومكابرتهم واحتجاجهم لما لا حجة له ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب »[٢] .

والأمر في انتظروا للتهديد والوعيد ، وفيه استعارة تهكمية لأن الأصل في الانتظار والترقب أن يكون لشيءٍ مرغوب محبوب تسعد النفس في انتظاره وتتشوق لحصوله ، ولكنه هنا استعمل للمكروه ، وزاد من حدة التهديد في الفعل حذف مفعوله لتذهب النفس في تخيله كل مذهب يوقع الرعب في قلوبهم وليكون ترقبهم وتحسبهم له وخوفهم منه عذاباً حتى يقع بهم العذاب ، وفي توكيد الخبر في قوله : ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ إشارة إلى تحقق وقوع المتوعد وفي ذلك « استئناف بياني ؛ لأن تهديده إياهم يثير سؤالاً في نفوسهم أن يقولوا : إذا كنا ننتظر العذاب فماذا يكون حالك ؟ فبيَّن أنه ينتظر معهم ، وهذا مقام أدب مع الله تعالى ، كقوله تعالى تلقيناً لرسوله محمد ﷺ (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) فهود يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه ، ويجوز أن ينزل بهم

(١) ينظر : تفسير ابن كثير (٦ / ٣٣١) .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ٢١٣) .

العذاب ويراه هود ولكنه لا يصيبه »[1] .

فكان انتظارهم انتظار عذاب وانتظار هود عليه السلام انتظار ترقب وخوف من أمر الله فجاء بعد ذلك ذكر العاقبة سريعة موجزة في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٧٢] .

جاءَت الفاء هنا للتعقيب ، أي فعجل الله عقوبتهم ونجَّى نبيَّه والذين آمنوا معه ، وقد جاء الفعل (أنجى) دالاً على معنى الإسراع في الإنجاء كما مرَّ تقرير ذلك ، وفي طي أحداث الإهلاك إسراع في التوصل إلى ذكر نتيجة الأمر وهو أن الله تعالى قد أهلك الظالمين وأنجى رسوله ومن آمن به ليكون في ذلك تعجيلٌ يبث خبر النجاة للتثبيت والتسلية ، ويبث خبر الإهلاك للتحذير والإنذار ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ جاء ذكر المؤمنين عن طريق التعريف بالموصولية للإشعار بمكانتهم ومدحهم من خلال الصلة التي تفيد معيتهم لهود عليه السلام وهذا أبلغ في التعريف بهم ، وقال تعالى : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ « الباء » للسببية ، وتنكير رحمة للتعظيم ووصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها ، (ومن) للابتداء ، ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة أي فأنجيناه ورحمناه فكانت الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل العطف والرفق حيثما حلَّوا إلى انقضاء آجالهم

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٣) .

وموقع (منا) على هذا الوجه - موقع رشيق جداً يؤذن بأن الرحمة غير منفكة عنهم »[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ هذه الجملة جاءت معطوفة على جملة أنجيناه والجملتان خبريتان لفظاً ومعنى ، والوصل بينهما للتوسط بين الكمالين ، وقطع الدابر : كناية عن استئصالهم وفنائهم جميعاً ، وقطع نسلهم من الأرض ، ومجيء هذه الجملة هنا كان لتأكيد معنى الإبادة والإفناء ، حتى لا يبقى في النفس مجال لتصور أن يكون قد بقي منهم أحدٌ بعد أن جاءهم العذاب ، وفي تعريفهم بالاسم الموصول ذم لهم بما في حيز الصلة وهو التكذيب واسم الموصول وصلته فيه إيماء إلى وجه بناء الخبر، وجاء عطف قوله تعالى﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ على الفعل (كذبوا) وهو من الصلة لبيان أن التكذيب وعدم الإيمان كلاهما موجب لقطع الدابر ، وهكذا نجد أن الجمل في ذكر العاقبة جاءت متلاحقة موصولة في جمل قصيرة توحي بمعاني السرعة والحسم في إنهاء أمر الظالمين ، وإنجاء المؤمنين ، وما لوحظ في سورة الأعراف نجد مثيله يظهر في سورة هود[2] حيث ذكرت السورة ما دار بين هود وقومه من محاجة وجدال طويل من الآية (٥٠ -٥٧)

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٤) .

(٢) اتفقت السورتان في اهتمامها بموضوع العقيدة والتوحيد فلذلك ركزتا على عرض ما دار بين هود وقومه وجاءت العاقبة موجزة تحمل من الدلالات الكثيرة والمعاني المقلقة للمعرضين المكذبين وقد مرَّ توجيه الإيجاز في العاقبة كما مرَّ في صورة هلاك قوم نوح لأن سياق القصص واحد .

جاء بعدها ذكر العاقبة موجزة في قوله تعالى﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [الآية : ٥٨] .

وكذلك وردت العاقبة موجزة سريعة في سورة الشعراء[1] بعد ذكر المحاجة الطويلة بين هود وقومه من الآية (١٢٣ - ١٣٨) حيث يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ١٣٩] وهنا جاءت كلمة (فكذبوه) تختصر ما سبقها من عرض لمظاهر الإعراض ، وحذف المتعلق هنا يفسح التصور للتكذيب الخاص بالإنذار والتكذيب للرسالة والدعوة إلى الله وحده ، ثم كان ذلك توطئة لما آل إليه أمرهم ، ولا يعني ورود العطف بالفاء الثانية أن الإهلاك حل عليهم بمجرد التكذيب على الفور بل يلحظ أن الفاء الأولى في الفعل (كذبوه) تدل على مبادرة القوم بالتكذيب ، وانتهاء أمرهم عليه وجاءت الفاء الثانية تمط زمن التكذيب وتوصله بوقت مجيء العذاب لتوحي لنا بأن القوم استغرقوا في تكذيبهم واعتادوا عليه حتى بادرهم العذاب في سرعة عاجلة وهم في غيهم ماضون ، والفاء هنا تشعر بقمة الغضب الإلهي حيث داهم العذاب القوم ، وهكذا نجد أن هاتين الكلمتين قد جاءتا لتختصرا أمر القوم وتطويا عهدهم في سرعة بعد أن كانوا في نعيم مقيم يعتدون بقوتهم ويفخرون بها متجبرين في الأرض ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ تحذير

---

(١) اتفقت سورة الشعراء في موضوعها واهتمامها بالعقيدة مع سورة الأعراف وهود وما قيل فيهما يقال في سورة الشعراء .

وتنبيه ولفت وتعريض بكفار مكة ، واسم الإشارة يعود إلى عاقبة المكذبين ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ التفات إلى الرسول محمد ﷺ لتسليته بأن قلة المؤمنين ليست مقصورة على قومه ، فقد كذبت الأمم رسلها ولم يؤمن من كل أمة إلا القليل .

وجاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ في ختام المشهد يحمل نبرة التأكيد للتسلية والإنذار ، وهو الهدف الذي يركز عليه المشهد في إيجازه السريع فصفة العزيز تحمل معاني الإنذار والتحذير ، وصفة الرحيم في ختام الفاصلة تؤكد معاني التسلية والتثبيت للرسول ﷺ وللمؤمنين ، وتبين لطف الله تعالى بعباده أجمعين ، وهكذا نجد المشهد الموجز يتبين فيه الغرض واضحاً وهو أن الله ينصر أنبياءه ورسله في نهاية الصراع والتحدي ويهلك المكذبين والعصاة الكافرين[1] .

---

(١) ما قيل في وجه دلالة الصورة في إيجازها في مهلك قوم نوح يقال هنا لأن السياق واحد والإيجاز في العاقبة نمط واحد ولذلك يكتفى بما سبق لأن السور الكريمة قد اتفقت في التركيز على موضوع العقيدة وعرض ما دار بين الرسل وأقوامهم لتسلية الرسول ﷺ وسيأتي مزيد بسط لذلك في الباب الثالث .

المبحث الثاني

الصورة المفصلة في سورة (الذاريات ، والقمر ، والحاقة)

أ) ما ورد في سورة القمر [1]

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [الآيات : ١٨ - ٢١] .

إن التفصيلات التي وردت في السور الطوال عن جدال هود لقومه وحواره معهم في دعوته لهم إلى الله لا وجود لها هنا ، حيث تتجه السورة إلى التركيز على صور العذاب وصفاته ، وهذا ما يلائم تلك الفترة الزمنية من عهد الدعوة المحمدية . فالقوم قد عميت أبصارهم عن الحق والهدى ، ولم يعد يجدي معهم أسلوب الإقناع والمجادلة ، فانتقلت السور المكية إلى أسلوب الترهيب والتهويل الذي يبعث في نفوس المعرضين الخوف والوجل ، وقد بدأ المشهد هنا بكلمة (التكذيب) دون تفصيل وفي ذلك إيجاز بديع يشير إلى ما ورد من صور الإعراض التي فصلت في السور السابقة ، والمراد هنا هو الإسراع إلى ذكر عاقبة التكذيب والتفصيل في شأنها وهو الهدف الذي تركز عليه الصورة وتسعى إلى

---

(١) أوثر الابتداء بسورة القمر على خلاف ترتيبها في المصحف وذلك من أجل دراسة صورة العذاب النازل بالقوم منذ ابتدائه عليهم حتى أهلكهم وأفناهم وقد أيدَ ذلك نزول سورة القمر قبل سورة الذاريات والحاقة .

إبرازه من أجل الردع والزجر ، والمشهد هنا يبدأ بالاستفهام في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ للتعجيب من شأن العذاب وهوله ، وفي ذلك إلقاء لظلال الرهبة في النفوس بما يحدثه من ترقب وتساؤل عن كيفية العذاب ، فكان مجيئه في مقدمة المشهد قبل ورود خبر العذاب وصوره تمهيداً يبعث الإثارة والتنبه ويجعل النفوس تذهب في تصوره كل مذهب ، حتى إذا فسر وبُيِّن كان الرعب والهول ، وجاء إفراد العذاب وجمع النذر في الآية لأن العذاب الذي وقع على القوم وأهلكهم كان عذاباً واحداً ، وأما النذر فقد تعددت وتتابعت حيث كان هود عليه السلام ينذر قومه ويدعوهم إلى الله في كل يوم من أيامهم ، وجاءَهم النذير الحسي من الله بكف القطر عنهم فلم ينتهوا حتى جاءهم العذاب ، وحلَّت بهم النقمة ويرى الرازي - رحمه الله - في تعليل إفراد (العذاب) وجمع النذر أن ذلك يشير « إلى غلبة الرحمة الغضب ، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال : الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت ، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة »(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ جاءت هذه الجملة بياناً لما أُجمل وأُبهم في الجملة السابقة في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ولمّا كانت بياناً لم تعطف(٢) .

---

(١) التفسير الكبير (٢٩ / ٣٠٥) .

(٢) وكذلك لاختلاف الجملتين فالأولى إنشائية والثانية خبرية في اللفظ والمعنى .

وقد ابتدأت الجملة بالتأكيد للاهتمام ولبيان عظمة الأمر ، وجاء إسناد الإرسال إلى ضمير العظمة ليدل على فظاعته وشدته بما يتلاقى مع تنكير الريح الدال على القوة ، فالريح هنا هائجة غير معهودة ولا مثيل لها من قبل إنها ريح التدمير والإهلاك ، وجاء تقديم الجار والمجرور (عليهم) على المفعول للتعجيل بما يسوء ، وللدلالة على اختصاصهم بهذا العذاب دون غيرهم ، فهو شامل متسلط عليهم تسلط القهر والغلبة لا ينفكون منه ، وهذا ما يفيده حرف الاستعلاء وفي وصف الريح بالصرصر تصوير لعصفها الشديد على القوم ، والكلمة في تركيبها ولفظها إيحاء بحركة الريح في تتابعها وفي صوتها بما أحدثته الكلمة في مخارج حروفها وتكرارها من دلالة على ذلك ، فحرف الصاد من صفاته الصفير الذي ينبعث « من بين طرف اللسان ومن بين الثنايا العليا والسفلى »[1] وكذلك حرف الراء من صفاته التكرير حيث يتكرر على اللسان عند النطق به ، كأن طرف اللسان يرتعد به[2] .

وهو حرف جهير يلائم قوة الصوت النافذ من الريح العاصفة ووصف الريح بالصرصر يدل على قوتها وشدتها فكلما كانت الريح قوية كلما ظهر صوتها وعلا ، فهو صوت يقطع نياط القلوب ، ويصمُّ الآذان ولذلك جاءت الكلمة منكرة تدل على ذلك ، وفي قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ جاء وصف اليوم

---

(١) التمهيد في علم التجويد ص ١٠٠ .

(٢) ينظر المصدر نفسه (ص ١٠٦) .

بالنحس للدلالة على عظم ما فيه من العذاب ، وكأن اليوم والزمن قد انقلب عليهم ، والآية هنا تصور ابتداء العذاب على قوم عاد ، فتذكر لنا اليوم الأول وتركز عليه والنحس بمعنى الشؤم ، واليوم يقال له « سعد بالنسبة لمن ينعم فيه ويقال له : نحس بالنسبة إلى من يعذب فيه »[1] وقد ذكر الألوسي رحمه الله المقصود باليوم حيث يرى أن المراد باليوم هنا مطلق الزمان[2] لقوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] وتجدر الإشارة إلى أن سورة القمر لم تذكر أن القوم قد أهلكوا جميعاً ، كما بيَّنت سورة الحاقة ، والذاريات مما يعني أنها تتحدث عن بداية العذاب ، وعن اليوم الأول من أيام العذاب ، ولا يمنع هذا المعنى وصف اليوم بأنه مستمر ، فهو يوم متتابع العذاب لم ينقطع فيه العذاب لحظة واحدة حتى انقضى ، وجاءت بقية الأيام يتواصل فيها العذاب على القوم حتى أهلكهم وقطع دابرهم وقال تعالى : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ جاء الفعل المضارع (تنزع) يستحضر الصورة الماضية ويجعلها حاضرة حية ماثلة والنزع هنا يصوِّر فعل الريح القاهر بالقوم وهم يقاومون يتشبثون بالأرض ويحتمون بالحفر والصخور ولكن قوة الريح وطغيانها أخرجهم من أكنانهم وبيوتهم واقتلعهم من حفرهم ، ثم رفعهم بقوة وألقى بهم على الأرض جثثاً هامدة وقد ذكر أهل التفسير ، أن الريح كانت تقتلع الناس ثم

(١) روح المعاني (١٤ / ٨٤) .

(٢) المصدر نفسه (١٤ / ٨٤) .

ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم ، وتبين من أجسامهم [1] وفي قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ وضع للظاهر موضع المضمر ، لإفادة الشمول ، وللإشارة إلى علة الجزاء ، فهم أهل نوس واضطراب وتذبذب .

لقد وردت الريح في الآية الكريمة في سياق تشبيهي يعقد العلاقة بين المعقول المعنوي وبين الحسي المشاهد ، فالمشبه : تساقط قوم عاد بالريح القاتلة على الأرض مطروحين صرعى ، والمشبه به : أعجاز النخل التي قلعت من جذورها ، وأداة التشبيه كأن فالتشبيه مرسل مجمل بحذف وجه الشبه ، والتشبيه (بكأن) يدل على قوة الشبه بين الصورتين ، وهي من أقوى أدوات التشبيه وآكدها في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به ، ولذلك فهي تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به . وحذف وجه الشبه هنا يدعو المرء إلى التفكير في الصفة أو الصفات المشتركة التي جعلت المشبه مماثلاً للمشبه به ، مما يفسح المجال للتخيل والتصور ، فالصورة لها إيحاءات متعددة خصوصاً وأن المشبه به له صفات متعددة تقتضي اكتشاف المشترك منها مع المشبه والتشبيه ينصرف إلى أعجاز النخل لا النخل نفسه ، والعجز عريض مستدير يوحي بعراضة أجسام القوم وضخامتها ، وعجز النخل قبل قلعه شديد التشبث والثبوت في الأرض حتى إذا قلع من مغارسه ترك حفرةً عميقة ، وهذا يصور شدة القوم وقوة تشبثهم بالأرض ، وقد ذكر الطبري من الآثار أن الواحد منهم

---

(١) تفسير الطبري (٢٧ / ١١٥) .

كان يغمز قدمه في الأرض فتدخل في الأرض لقوته[1] .

ولعل القوم كانوا يحفرون في الأرض ثم يجعلون أنفسهم في تلك الحفر يحتمون بها من الريح فتقتلعهم من تلك الحفر فيبينون منها مثل ما بانت النخلة عن النخيل بعد أن تقتلع من أصولها ، ثم إن النخلة إذا قلعت وطرحت منقعرة تصبح مكشوفة بعد أن بانت عن أصلها ، وهذا يشير إلى أن القوم قد اندقت أعناقهم وقطعت مع الأيدي فأصبحوا مجردين كأعجاز النخيل المنطرحة ، وقد خلت الحياة من أجسادهم كما خلت الحياة من النخل المنقلع من أصوله ، ثم هم لما طرحوا على الأرض بقيت أجسادهم متناثرة على الأرض كما طرحت أعجاز النخل في أرض البستان متفرقة ، والصورة توحي بأن النخل لا يقتلع من جذوره إلا إذا كان وجوده مضراً أو لا فائدة من بقائه ، فيتخلص منه وكذلك هؤلاء القوم قد بلغوا غايتهم في الإعراض ، فلا فائدة من بقائهم على الأرض ، فاجتثوا وأُهلكوا فالصورة توحي بالخبث الذي ذهب وتطهرت منه الأرض ، ثم إنها تبعث في النفس حقارة ما آلوا إليه ، والصورة هنا لا تدل على الإفناء الكامل لقوم عاد ، لأن السياق الذي وردت فيه لم يتحدث إلا عن اليوم الأول ولم يذكر هنا أنهم قد أُهلكوا جميعاً ، والتدمير في يوم واحد لا يبلغ ما يحدثه التدمير والإهلاك في سبع ليال وثمانية أيام كما ذكر في سورة الحاقة وقد ذكرت أن القوم قد أُهلكوا جميعاً ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ كذلك يلحظ هنا أن أعجاز النخل المنقعر

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٧ / ١١٦) .

تصور لنا الحدث لحظة وقوعه فتصور لحظة النزع والقلع ، ثم ما أحدثته الريح من رفعها لهم بشدة ، وما حصل لهم من ارتطام أجسادهم واصطدامها بالأرض .

فالصورة هنا تتحدث عن بداية الإهلاك ، وتجعل المتأمل يشاهد المأساة حال وقوعها ، ويرى الأحداث تنبعث فيها الحياة تدوي فاجعتها كقوة الريح عندما عتت على القوم ، إن الريح هنا تنكل بهم بما يتناسب مع عتوهم وتجبرهم ثم يختتم المشهد بعد ذلك بما بدأ به من قبل بقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وهذا الاستفهام المتكرر[1] يبعث التهويل والتهديد ويدعو إلى التفكر والاعتبار ، وفيه تعجيب من حال القوم وما أصابهم ، فما حصل لهم تعجب منه العقول وتهتز له القلوب ، والاستفهام بتكرره يبعث الإنذار والتهديد الذي يتفق مع غرض السورة في زجر المعرضين من مشركي العرب المنكرين للرسالة والبعث ، وهكذا وجدنا الصورة تركز على صورة الإهلاك ، وتوجز في العبارات ، ويتتابع الإيقاع بتتابع الفقرات القصيرة من الجمل ، والإيجاز يتضح منذ أن حذف المفعول في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي (هوداً) وحذف لعدم تعلق الغرض بذكره[2] ولأن المقصود هنا هو إبراز التكذيب الذي وقع منهم في إيجاز يوصل إلى ذكر العاقبة سريعاً في جمل قصيرة متتابعة تشبه الطرقات المتوالية والقذائف

(١) يذكر ابن الزبير رحمه الله في تكرار هذه الجملة مرتين في بداية المشهد وختامه أن ذلك يشير إلى تكرار العذاب مرتين ، مرة بمنع المطر وشدة السنين عليهم فلما لم يرتدعوا جاءهم العذاب . الثاني : وهو الذي استأصلهم بالريح العقيم (ينظر : ملاك التأويل ٢ / ١٥٣)

(٢) للإيجاز واكتفاءً بذكره فيما سبق من مواقف فصلت في السور الأخرى .

المرسلة مع ما أحدثه حرف الفاصلة (الراء) من إيقاع متلائم مع جو الحدث وقد اتفقت رؤوس الآيات على هذا الحرف الجهير ليناسب المعاني القوية والصور الرهيبة فنبرة صوته عالية لها طرقات متتابعة متدفقة وما فيه من صفة التكرير الذي يجعل اللسان عند النطق به في رعدة توحي بالهول والفزع المحيط بهذا المشهد وصوره وصورة الاهتزاز الذي تحدثه الريح ويتكرر باستمرارها وتتابعها ، إنَّ هذا الإيقاع السريع يلائم التصوير لحركة الريح السريعة النافذة التي لا تبقي ولا تذر ، وعند الوقوف على الفاصلة في قوله تعالى: (منقعرْ، ونذرْ) ندرك صورة السكون بعد الحركة ، وصورة الموت بعد الحياة فالوقف بالسكون على آخر الفاصلة يبين ويوحي بهذه المعاني وهكذا يتلازم الإيقاع مع المعاني والصور يسير مقارناً لها يتدفق بتدفقها ويسكن بسكونها ، وهكذا ينتهي المشهد في سورة القمر التي نزلت قبل سورة الحاقة[1] لنتابع بقية أحداث المشهد وتمامه في سورة الحاقة التي تصور لنا النهاية والفناء الكامل الذي قطع دابر القوم واستأصلهم .

ب) ما ورد في سورة الحاقة :

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[الآيات: ٦ - ٧] .

إنَّ الصورة هنا ترتبط بالصورة الأولى لقوم عادٍ في سورة القمر وتلتحم بها

---

(١) ينظر البرهان للزركشي (١ / ١٩٣) .

فالنخل المنقعر تصوير لبداية لحظات الإهلاك والاستئصال ، والنخل الخاوية تصوير لما آل إليه القوم من اليبس والبلى والجفاف ، إنه تصوير لمشهد الفناء التام حيث وردت الصورة في سياق يصوِّر نهاية القوم ومنتهى أمرهم .

والمشبه هنا : همود أجساد القوم وخلوِّها من الحياة والمادة لتجويف الريح لها حتى صارت فارغة .

والمشبه به : خلو النخلة من الحياة وفراغها مما كان فيها حيث نخر فيها البلى وفرغ جوفها منذ أمد بعيد .

فالريح هنا لم تقف عند حدِّ رميهم بالأرض وطرحهم، وعند القلع والارتقاع الارتطام كما تنقله لنا الصورة الأولى في سورة القمر ﴿ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ بل إن الريح هنا انتقلت إلى أجسادهم التي طرحت على الأرض فأَحدثت فيها اليبس والهمود والفراغ والخواء من داخلها ، إن النخل الخاوية تصور المشهد بعد وقوعه وتجعلنا نرى الفناء الذي وقع ، والخواء الذي حلَّ ، إنه السكون المخيم والجثث مترامية متفرقة مطروحة كما طرحت أعجاز النخيل .

إنَّ الصورة تشيع سهولة الفناء الماحق للقوم الظالمين بما في ذلك حقارة مآلهم فأعجاز النخل المنقعر والخاوية مما لا ترغب النفوس في مشاهدته وهي أشياء بالية لا نفع فيها تبين حقارة نهاية المتجبرين ، وكيف تحولوا إلى هذه الصور المشابهة ، والمقارنة بين الصورتين مقارنة بديعة تبين روعة التصوير القرآني في تقريب المشهد الذي لم يعهد ويؤلف بما يعهد ويعرف ليكون قريباً من الذهن

والنفس لتلتقط صورة العذاب وكأنها تراه كما كان . ولقد نظر الرماني إلى الصورتين من هذه الزاوية حيث يقول في آية القمر « هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكهما إياهما وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة »[1] .

فقلع الريح لقوم عاد ونزعها واجتثاثها لهم أمر غير مألوف وغير معتاد عند الناس ، فالتشبيه في الآية من باب تشبيه غير المعتاد بالمألوف والمعتاد وفي هذا تقريب للصورة وتبيين يجعلها ملموسة مشاهدة ، وقال عن آية الحاقة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل »[2] .

فهنا كان التشبيه فيه تقريب لغير المعلوم بالبديهة ، وهو خواء الجسد ، إلى المعلوم بالبديهة ، وهو خواء النخل ، وهكذا نجد التكامل بين الصورتين بما يبين عن الواقع كما كان ، فلو نظرنا إلى هيئة النخيل المنقعر والخاوي لشاهدنا تماماً كيف كان مصرع القوم ، وكيف كانت بداية الإهلاك ، وكيف كانت نهايته ، والإيقاع في المشهد من سورة الحاقة نجده يتابع حركة المشهد وعنفه ، فالفاصلة في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ تحمل النبرة المدوية في الياء والهاء الساكنة بعدها ، فلفظ الفاصلة هنا تجده يحمل دلالات المعنى المصوِّر

(١) النكت في إعجاز القرآن (ص ٨٣) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٨٣) .

يتفاعل مع معنى العتو في الريح ، وقد شبهت الريح بإنسان جاوز الحد في الطغيان ، ثم حذف وأثبت لازمه للمشبه ، فهي ريح قد جاوزت الحد في عصفها وقهرها لم يفلت منها أحد فالريح بارزة هنا وقد أُعطيت التصرف والإرادة والحياة والمد والسكت على الهاء في الفاصلة (عاتيه) له أثره في متابعة حركة الريح وفعلها بالقوم عند اجتثاثها لهم من الأرض ثم رفعها لهم ثم رميهم على الأرض مصروعين ، والسكون يشير إلى نهاية الأمر ، والمد يصور استمرار الريح في حركتها وإهلاكها للقوم ، وهاهي الفاصلة في ختام المشهد (خاوية) مع ما فيها من امتداد الصوت بالألف تلخص نتائج العذاب وهوله ، وقد وردت في صورة تشبيهية تؤكد الموت والفناء ، وتشيع صورته التي آلت إلى الهمود والتآكل بعد تلك الريح المهيمنة العاصفة ، وعند الوقوف على الفاصلة بهاء السكت نجد الإيقاع بالكلمة يصوِّر لنا السكون بعد الحركة ، والموت بعد الحياة ، وسكون حركة العذاب بعد هيجانه ، فالمشاهد ماثلة والإيقاع يتابع المعاني المصوِّرة يزيدها وضوحاً وإشراقاً ، فنرى الصورة تنبعث من خلال الكلمة في حروفها وفي سياقها وفي تتابع الكلمات وتدفق الإيقاع بها حيث يهيج مع هيجان العذاب ويسكن بسكونه وانتهائه .

وهاهو المشهد في سورة الحاقة يختتم بهذا الاستفهام الإنكاري ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ليؤكد فناء القوم وانتهاء أمرهم ، والمخاطب هنا هو الرسول ﷺ وهو لم يرهم وإنما هو استدعاء للحس المتخيل والمتأمل ليستحضر الصورة ويتابع الأحداث وكأنها ماثلة للعين فيحدث بذلك التأثير البليغ ويتلاقى الإيقاع

ويتناسق مع الفاصلة في كلمة (باقية) في انتهائه بالياء المدوية وهاء السكت التي تبث وتشيع معاني الفناء والسكون ، فكان ختاماً يقرع النفس ويؤثر في الوجدان وفي ذلك تعريض بكفار مكة لأخذ العبرة والعظة .

جـ) ما ورد في سورة الذاريات

يقول تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الآيات : ٤١ - ٤٢] .

أُسند الإرسال إلى ضمير الجلالة لتعظيم هذا الإرسال وتضخيمه وهو بمعنى التسليط ، يدل على ذلك تعدية الفعل بحرف الجر (على) فالريح متمكنة منهم تمكن المستعلي على المستعلى عليه ، وجاء الإرسال مقترناً بإذ ليفيد تحقق هذا الإرسال وللفت الانتباه إلى ما سيرد ، وقد جاء منتظماً مع ما سبقت به الآية في قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية : ٣٨] وما جاء بعدها ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الآية : ٤٣] .

وقد قدم الجار والمجرور على المفعول (الريح) لبيان اختصاصهم بهذا العذاب ، فهولهم لا لغيرهم ، وهم مختصون به ، وفي ذلك تحذير وإنذار للمعرضين وقد عُرفت الريح العقيم هنا على خلاف ما جاء في سورة القمر وفصلت والحاقة حيث وردت الريح فيها منكرة .

« لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات أو الشدة التي تعصف الأشجار ؛ لأن الريح العقيم هي التي لا تنشيء سحاباً ولا تلقح شجراً

وهي كثيرة الوقوع ، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد فقال : الريح العقيم أي الجنس المعروف »[1] .

وفي الآية الكريمة استعارة يقول السكاكي رحمه الله في إجرائها « المستعار له : الريح ، والمستعار منه : المرأة[2] ، والجامع : المنع من ظهور النتيجة والأثر »[3] .

ولكن الخطيب القزويني يرى أن الاستعارة في الصفة لا في الاسم حيث يقول « والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع من الحمل ، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء [4] مطر وإلقاح شجر والجامع لهما ما ذكر »[5] .

وكلام الخطيب أقرب ، والمتأمل في ورود هذه الكلمة يلحظ أنها قد ارتبطت في سياق الصورة بقطع النسل واستئصال القوم ، بدليل أن الجملة التي جاءت

---

(١) التفسير الكبير (٢٩ / ٣٠٣) .

(٢) المفتاح للسكاكي (ص ٣٨٩) .

(٣) فيكون المراد تشبيه الريح التي جاءت للإهلاك ولم تأتِ بالخير والمطر بالمرأة العقيم ثم حذف المشبه به وهو (المرأة) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العقم على سبيل الاستعارة المكنية بجامع المنع من ظهور النتيجة والأثر .

(٤) الإيضاح (ص ٢٧٧) .

(٥) وهنا تكون الاستعارة على كلام الخطيب من قبيل الاستعارة التبعية التصريحية حيث شبه الصفة التي تمنع من إنشاء المطر وإلقاح الشجر وهي في الريح بالصفة التي تمنع الحمل في المرأة ثم حذف المشبه وأبقي اللفظ الدال على المشبه به للمشبه .

بعدها جاءت تبين أن الريح لم تبق ولم تذر شيئاً إلا جعلته كالرميم ، مؤكدة استئصال القوم ، ولعل الأقرب أن يقال إن الريح لما أهلكت القوم وقطعت دابرهم شبه هذا الإهلاك للريح في قطعه للنسل حيث أبيد القوم ولم يبق منهم أحد بالعقم المانع للحمل ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ لم تعطف هذه الجملة على ما سبقها ؛ لأنها جاءت توكيداً وبياناً لأثر الريح وقد أتت على كل شيء فدمرته وحللته ، والقصر في الآية من قصر الموصوف على الصفة ، فالريح هنا قد اختصت بالتدمير ، حيث لا تمر على شيء إلا جعلته رميماً قد تفتت فهو تدمير شامل يفيد ذلك قوله تعالى : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ إلا أن هذا العموم يقيد بما ورد في قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الآية: ٢٥] حيث تفيد الآية بقاء مساكنهم عبرة للمعتبرين، والصورة في الآية حية حاضرة ، فالفعل المضارع (تذر) يستحضر الصورة ذات الهول والسرعة الخارقة في الأخذ ، حيث يصوِّر بحركاته المتوالية وحروفه المذلقة الخفيفة الريح في حركتها السريعة ، وفي أخذها الخاطف النافذ ، وهذا الفعل كثيراً ما يأتي في سياق النقمة والغضب ، وجاء التشبيه في آخر الآية يبث صورة المرحلة الأخيرة التي آل إليها حال القوم بعد موتهم ، حيث فتتت الريح ، أجسادهم ونخرت عظامهم والمشبه هو الهيئة والصورة التي آل إليها كل من تسلطت عليه الريح والمشبه به : الشيء البالي المفتت والأداة الكاف وهي هنا بمعنى (شبه) وهذه الصورة تبعث في النفوس هول ما وصل إليه القوم حيث تحللت أجسادهم تحللاً سريعاً بفعل الريح المستمرة في تتابع وشدة وهكذا وجدنا

العرض في هذا المشهد يأتي في آيات قصيرة ، شديدة الإيقاع ، عنيفة الوقع في الحس ، تتسم بالمعاني المشعة ، لتصور الانتقام والغضب وما ينتج عنه من معاني الهول والرهبة التي كانت تحيط بالموقف ، وهكذا نجد الصورة تحقق الزجر والردع لأولئك المكذبين المعرضين إن صورة إهلاك قوم عاد قد جاءت متدرجة على حسب الترتيب النزولي في السور فكانت سورة القمر تصور لحظة الاستئصال وبداية الإهلاك وجاءت سورة الحاقة لتصور ما آل إليه حال الجثث من اليبس والجفاف والخواء حتى وصل حالها في سورة الذاريات إلى مرحلة التفتت والتحلل ، ولقد تسيّد المواقف الثلاثة وبرز فيها فعل الريح بقدرة الله تعالى ، والريح قد أعطت الصورة سرعة الحركة الدالة على سرعة الزوال والفناء ، ولقد زاد من بأسها أنها قد استمرت على وتيرة واحدة في شدتها لم تهدأ ولم تدع أحداً يهدأ ، فهي مستمرة في العصف والشدة وهو مصدر العنف والفظاعة .

إن هذه المشاهد تؤثر على النفوس بهزة عميقة فيها الهول الذي يفزع القلوب بمشاهده المتوالية ، إنَّ أسلوب « الصورة يحاصر الحس ويحتويه ، وجاءت الألفاظ موحية بكل هذا الرعب ، وبدت الصورة أكثر تجسيماً وإبانة ، الريح عاصفة ذات صوت مدوي ولقد تجاوزت في عتوها الحد في الهبوب والبرودة واستمرت هذه الريح متتابعة حتى أحالت القوم جيفاً متآكلة كأنهم أصول نخل خاوية ، إن مصرع عاد مشهد حاضر شاخص يصاحبه هول مروع يسيطر على جنباته ، وكانت السيادة في المشهد للريح العاصفة المزمجرة التي أتت على كل شيء، ومن ثم تأكد معنى التخويف والعذاب والنقمة التي تشي بها كلمة الريح ،

فأعطت للمشهد حيويته وهوله معاً »(١) .

إن مشاهد الإهلاك التي وردت في السور الكريمة قد أعطت لنا صورة متكاملة عن مهلك القوم فكانت صورة حية ماثلة للقلب والعين والخيال ، إن صورة مهلك قوم هود قد جاءت في إيجاز في سورة الأعراف، وهود والشعراء ونجد توضيح هذه الصورة يبرز في سورة القمر والذاريات والحاقة حيث ظهرت من خلال التشبيه والاستعارة والألفاظ الموجزة المشعة بالمعاني وقد أظهرت عنف العذاب وهوله وقد توزعت الصورة على السور القرآنية على حسب ترتيبها النزولي ، وكانت تتلاءم مع ما كان يحصل للنبي ﷺ مع قومه في بداية الدعوة وفي أواسطها ونهايتها ، وقد اشتد إعراض قومه حيث جاءت الصور الخالية من التفصيل في بدايات الدعوة في مثل سورة الأعراف وما سار على نهجها تعرض لنا دعوة الرسل وما ووجهوا به ، ولما اشتد أذى قومه وإعراضهم نرى الصورة تشتد في إنذارها وإبرازها لصور العذاب وهوله لزجر المعرضين والمكذبين كما لوحظ في سورة القمر والذاريات والحاقة ثم إنه لوحظ أن سورة القمر وهي أسبق لم تتحدث إلا عن اليوم الأول من العذاب ثم نرى نمو صورة العذاب وهوله تشتد وتتوضح وتفصل في سورة الحاقة يزداد هولها حيث ذكرت كل أيام العذاب ولياليه ، وكيف تتابعت على قوم عادٍ واستمرت عليهم حتى أفنتهم ، إن نمو الصورة وهولها يزداد حتى نصل إلى الصورة في

(١) من جماليات التصوير في القرآن ، محمد قطب ، ص ٢٠١ .

سورة الذاريات وقد نقلت لنا نهاية ما وصل إليه حال القوم حيث أصبحوا كالرميم وهو الفتات لقد ركزت الصورة على الهول المحدق في تتابع يتمشى مع مراحل النزول في صور وضحت لنا كيف كانت صورة العذاب التي أُوجزت في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

الفصل الثالث

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم صالح

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : ما ورد في سورة الأعراف ، وهود .

المبحث الثاني : صورة الإهلاك في سورة الذاريات والقمر .

المبحث الأول

ما ورد في سورة الأعراف ، وهود

أ - ما ورد في سورة الأعراف :

وردت صورة إهلاك قوم صالح عليه السلام في سورة الأعراف موجزة بعد أن تحدثت الآيات الكريمة عن إرسال نبي الله صالح إلى ثمود يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويقدِّم لهم الناقة آية ومعجزة تدلهم على صدق رسالته ، يحذرهم من إيذائها ، ويذكرهم بنعم الله عليهم ، ولكن الملأ من قومه كذبوه وحاولوا تشكيك المستضعفين ممن آمن بصالح في دينهم ، فلما لم يفلحوا أصرّوا على إعراضهم وأقدموا على قتل الناقة ، وطلبوا من صالح عليه السلام أن يأتيهم بالعذاب تحدياً واستهزاءاً فأهلكهم الله بالرجفة فكانوا من الخاسرين .

يقول تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ
ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ
﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ
رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٩] .

يتبينُ في هذا المشهد صنيع المستكبرين من الملأ في الإعراض عن دعوة الحق وهم هنا يريدون التسلل إلى قلوب المستضعفين ممن آمن ليلقوا في أنفسهم الشك بعد أن رأوا دعوة صالح عليه السلام تنتشر وآيته البينة تزيد من إيمان المؤمنين

وتدعو الناس وتثير في أنفسهم التصديق والإيمان ، وقد بدأت الجملة بقال مفصولة عما سبقها للاستئناف البياني ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وجاء تعريف الملأ بالاسم الموصول لبيان أن من السادة وشرفاء القوم من آمن بصالح لمّا جاءهم بهذه الآية البينة ، فكان في ذلك احتراساً يدفع توهم أن يكون الملأ وكبراء القوم كلهم قد استكبروا على الدعوة ولم يؤمنوا ، واختيار طريق الموصولية في وصفهم « لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم أي أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم ، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى »[١] .

إن الكفر والإعراض قد قام بزعامته المستكبرون وهاهم يواصلون استكبارهم في مخاطبتهم للمستضعفين الذين آمنوا بصالح وارتضوا الدين الذي جاء به حيث يقولون لهم ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ قدموا خطابهم باستفهام إنكاري فيه سخرية وتشكيك واستخفاف ، وجاء تأكيد الخبر في الجملة (بأن) لبيان إنكار الملأ على الذين استضعفوا أن يؤمنوا بصالح وبدعوته حقاً ؛ لأن دعوته لا يرونها إلا كذباً وافتراءً كما يعتقدون ، وفي كلمة (مرسل) إيحاء وتصوير لما يحملون في أنفسهم من شدة البغض والتأفف من إعلان الرسالة وإثباتها لصالح عليه السلام فجاء رد المؤمنين ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

(١) التحرير والتنوير (٩ / ٢٢٢) .

أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ في جملة مفصولة للاستئناف البياني[١] ، لقد جاء جواباً مؤكداً بإن والجملة الاسمية لبيان ثباتهم ودوامهم على الإيمان ، وهذا يؤكد أنهم لا شبهة لديهم في قضية الرسالة لوضوحها ، فلا يجب الحديث حولها فكان رداً يحمل الإيجاز[٢] ويبين الثبات على ما أقدموا عليه ، وجاء الإبهام في الموصول يدل على عموم الإيمان بكل ما جاء به صالح عليه السلام ، فلما رأى المستكبرون ثبات من آمن بصالح ردوا رداً يدل على غضبهم وتمسكهم بما هم عليه من الإعراض والاستكبار وعدم التصديق ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ جاء الرد هنا مقابلاً لرد المؤمنين في جملة مفصولة للاستئناف البياني يحمل التصميم والمضاء على الباطل ، وقد أُكد ذلك بإن وما يلمح في استخدام اسم الفاعل (كافرون) من دلالة على الثبوت والاستمرار في الكفر ، إن تقابل الأقوال وتوحد الألفاظ يزيد المعنى وضوحاً يصوِّر تباعد المقامين واختلاف المسلكين ، ورد المستكبرين على المؤمنين بالمثل يبين شدة التمسك بالباطل والثبات عليه ثباتاً أدى إلى ظهور العداء لدعوة صالح عليه السلام ولما جاء به فقد أقدموا على عقر الناقة حيث يقول تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ .

والفاء هنا « للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ

---

(١) الفصل هنا لشبه كمال الاتصال حيث جاءت الجملة جواباً لجملة الاستفهام .

(٢) ما يعرض من أقوال وحوار إنما جاء بصياغة بلاغة القرآن الكريم .

كَٰفِرُونَ ﴾ أي قالوا ذلك فعقروا »[1] .

فالضمير في قوله (فعقروا) عائد إلى الذين استكبروا، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحداً كما بينت سورة القمر في قوله تعالى : ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [الآية : ٢٩] للدلالة على أن هذا الفعل كان بسبب تحريضهم وأنه ما تم إلا بناءً على طلبهم فإسناده للجميع والعاقر واحد مجاز مرسل علاقته العموم ، والفاء تدل على المبادرة من غير اكتراث أو تحسب للعواقب ؛ لأنهم قد أصرُّوا على التكذيب والكفر وعجزوا عن المحاجة والاستدلال ، فانتقلوا إلى طريق النكاية والعتو ، والبيان القرآني هنا استخدم الواو ليعدد جرائم القوم ويبين تدرجهم وترقيهم في الإعراض وبلاغة العطف بالواو لَّما قاربت بين المتعاطفات أبرزت لنا هذا الترقي فهم قتلوا الناقة وعتو عن أمر ربهم ، والعتو أوصلهم إليه قتل الناقة ولم يكتفوا بل ازدادوا حدة وتحدياً لَّما طلبوا العذاب ، فكان العطف بالواو يبين لنا هذه المقاصد ويوضحها وفي قولهم ﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ الأمر هنا خرج إلى معنى التحدي والاجتراء وعدم المبالاة وفي قولهم ﴿ بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ إمعان منهم في التحدي والتكذيب والسخرية وأنهم لا يخشون شيئاً مما قاله لهم من الوعيد يبرز ذلك في استخدام الموصول المبهم (ما) وفي تسميتهم للوعيد وعداً ثم زادوا على ذلك التشكيك في أصل رسالته بأداة الشك (إن) وهذا يبين ويصور لنا اشتداد

---

(١) التحرير والتنوير (٩ / ٤٢٤) .

القوم في المواجهة والإعراض خصوصاً وأن العذاب لم يأتهم فور وقوع جريمتهم في قتلهم للناقة فازداد يقينهم بأن ما توعدهم به صالح عليه السلام لا صحة له فأعقب هذا التحدي نزول العذاب في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

عطفت هذه الجملة على ما قبلها بالفاء السببية ، لأن ما قبلها سبب لها وهي هنا تدل على سرعة الأخذ والإهلاك ، والأخذ هو تناول الشيء باليد وهو مستعار للإهلاك الذي أحاط بالقوم إحاطة الآخذ ، والصورة هنا تجسد الرجفة وتجعلها ملموسة تلقي ظلال الرعب والهلع ، وكأنها عدو اجتاح ديار القوم ، وكلمة الرجفة في تركيبها ووحي حروفها تصور لنا الحدث العظيم عندما نتأمل في صفات حروفها ، فالراء ونحن نستمع إلى تكرار صوتها عندما يطرق اللسان على اللثة في سرعة يصور أبدع تصوير الرعشة التي تنتاب الأرض يساعده في ذلك صوت الفاء وصوت الجيم وهو صوت صامت مجهور لثوي حنكي انفجاري مركب[(١)].

وقال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها بفاء التعقيب والترتيب وفي ذلك تصوير لسرعة الإهلاك الذي حولَّ القوم في لحظات أجساداً خامدة حلَّ بها الموت والبلى حيث وقعوا على الأرض صرعى على وجوههم قد صعقوا وأصابتهم الرجفة لقد وقعوا جاثمين على الأرض

---

(١) ينظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران ، (ط دار النهضة ، بيروت) ص ١٩٨ .

والجاثم هو المتلبد اللاصق بها على الركب والوجه كما يجثم الطائر وأصل الجثوم للأرنب وشبهها[1] .

وفي ذلك تصوير لفظاعة ما أصابهم ، وبيان لحقارة ما آلوا إليه من خلال تصوير الهيئة التي كانوا عليها ، ويأتي في ختام المشهد قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ .

إنَّ الآية هنا تصور لنا تحسر النبي[2] الكريم على مصرع قومه بعد أن أخلص لهم النصح ، ولعل قوله هذا بعد أن هلكوا يكون مثل قول النبيّ محمد ﷺ[3] وخطابه لقتلى قريش ، فتكون الفاء هنا للتعقيب والترتيب ، وقد ابتدأ الخطاب بالنداء ولام القسم في قد لبيان البراءة من التقصير في دعوتهم وفي قوله ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ قصر فيه الفعل وعداه باللام لبيان أنه نصح خاص بهم وفي

---

(١) ينظر القاموس المحيط (مادة جثم) . قد يقال أنَّ في الآية تشبيهاً ، فالمشبه اسم أصبح الضمير المتصل والعائد على القوم والمشبه به خبر أصبح (جاثمين) وكان في وضع المشبه به خبراً عن المشبه وتنزيل المشبه منزلة المشبه به نفسه إبراز للصورة التي آل إليها القوم والحقيقة أنه لا يوجد ما يمنع من حمل الكلام على تصوير الواقع دون تشبيه وهذا هو الأولى والأدل والله أعلم .

(٢) ذكر الطبري أن نبيَّ الله صالحاً عليه السلام خرج من بين أظهرهم حين أراد الله إحلال عقوبتهم وقال لقومه ما قال . ينظر تفسير الطبري (٨ / ٢٧٤) .

(٣) ذكر هذا القول ابن كثير حيث يقول : « قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ، كما ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ خاطب قتلى بدر » ينظر تفسير القرآن العظيم (٦ / ٣٤٤) .

قوله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ المضارع هنا لحكاية واستحضار الحالة الماضية التي كانوا عليها يستمرون في رفض النصح كلما جاءهم به ، إن المشهد هنا قد جاء في جمل موصولة بالفاء والواو في تتابع وإيجاز يصور لنا السرعة في تعاقب الأحداث والحسم القاهر في أمر هؤلاء القوم بعد أن أعلنوا التحدي والاستكبار وأقدموا على قتل الناقة وطلبوا إنزال العذاب عليهم عاجلاً ، فكانت الفاء تصور لنا تعاقب الأحداث بعد ذلك حيث لا نجد ما يفهم من المهلة بين العقر للناقة والإهلاك للقوم إلا بما أخبرت به الآيات في سورة هود من أنه لم يكن بين عقرهم للناقة وإنزال العذاب عليهم غير ثلاثة أيام أخبرهم بها نبيهم ، فالصورة تبث صورة الفناء والإهلاك وتبين لنا كيفية الهيئة التي وقعوا عليها في الأرض صرعى مما يزيد من هول ما أصابهم ، وليكون ذلك ملائماً لسياق الصورة حيث جاءت في جوِّ التحدي والاستهزاء من قبل المستكبرين ، فبينت الصورة إهانتهم وحقارة ما آلوا إليه بما يتناسب مع العلو والاستكبار والصلف الذي قادهم إلى الحتف .

فالصورة لم تبرز الهلاك دون أن تلحق به صورة الإهانة والحقارة التي وصل إليها القوم المتجبرون ، إنها نهاية مؤلمة جعلت النبي الكريم يتحسر على مآلهم ويبرأ إلى الله تعالى من التقصير في دعوتهم ، وفي هذا إنذار وتهويل لكفار مكة المعرضين وبث لمعاني الثبات والتسلية للمؤمنين وأن العاقبة والمآل الحسن للنبي ومن اتبعه .

ب – ما ورد في سورة هود :

أخبرت الآيات في هذه السورة الكريمة عن إرسال صالح عليه السلام إلى قومه ودعوته لهم إلى التوحيد وتذكيرهم بنعم الله عليهم، فما كان منهم إلا أن ردوا عليه ساخرين به ، فما كان منه إلا أن حذرهم من إيذاء الناقة ، ولكنهم لم يلتزموا بذلك وأقدموا على عقرها فحل عليهم العذاب بعد ثلاثة أيام من جريمتهم حيث أهلكهم الله بالصيحة وأفناهم أجمعين ، يقول تعالى عن نبيه ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [الآيات : ٦٤ – ٦٨] .

جاء المشهد هنا فيه تفصيل يتوافق مع تفصيل مشاهد الإهلاك في السورة للأمم البائدة .

وهو ما يلائم سياق السورة وتفصيلاتها التي يعلو فيها الإنذار والتهويل وهنا يلفت صالح عليه السلام قومه إلى هذه البينة حيث ناداهم وقال يا قوم بالإضافة إلى ضميره لترقيق قلوبهم واستمالتهم ، وقال (هذه ناقة الله) عرفها باسم الإشارة للتعظيم ولكونها حاضرة بين أيديهم شاهدة على الحق المبين

وأضيفت إلى اسم الجلالة للتشريف فهي آية عظيمة خارقة ، وفي تقديم (لكم) على قوله (آية) للدلالة على التخصيص أي هي لكم خاصة مقنعة جعلت من أجلكم ، وهي كافية لهم في بيان الحق وقال (فذروها تأكل في أرض الله) وهذه الجملة « تفريع على كونها آية من آيات الله ، وقيل : على كونها ناقة له سبحانه فإن ذلك يوجب عدم التعرض لها فاتركوها »[1] وقال تعالى ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ قدم الأمر بتركها تأكل في أرض الله على النهي عن مسها بسوء لأن مبدأ افتعال أذيتها ينشأ من طردهم لها من أن تصيب مراعيهم والمعروف أن لكل منهم مكاناً وحمى يحتميه ، فقال ذروها تأكل في أرض الله للدلالة على أن الناقة لا تصيب مراعيهم وإنما تأكل من أرض الله الواسعة ، وفي هذا إبطال لعلة التعرض «لها فليس عليهم رزقها ولا مؤنتها»[2] .

وجاء النهي (ولا تمسوها) بعد الأمر بتركها ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة (فذروها) للتأكيد ، فبلاغة العطف بالواو تبرز ذلك حيث عطف النهي على الأمر للمبالغة في ترك الناقة وعدم التعرض لها بالمس بأدنى شيء ، لما في الواو من إشعار المغايرة بين الأمر والنهي ، وفي ذلك تأكيد ومبالغة في تكرار الطلب بالفعل وقال تعالى : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ الفاء هنا تفيد الترتيب حيث إن عدم انتهائهم عن أذاها يترتب عليه نزول العذاب عليهم ، وفي كلمة الأخذ تصوير

---

(١) روح المعاني (٨ / ١٦٣) .

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٧٧) .

وتجسيم لأثر العذاب لتهويل أمره وبيان إحاطته ، ونكرت كلمة العذاب لبيان فظاعته ، وقال تعالى ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ الفاء هنا للتعقيب وقد دلت على مقدر محذوف قبلها تقديره (فخالفوا أمر صالح) فعقروها، فالفاء فصيحة وفيها دلالة على الاندفاع والتحفز والمبادرة إلى هذه الفعلة الشنيعة ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ هذه الجملة جاءت تحدد مكان التمتع وتحدد زمانه ، وهنا ناسب التفصيل في إيراد المدة وهو أدعى للترهيب والإنذار ، والأمر في (تمتعوا) للتهديد والوعيد وكان في تحديد زمن الانتظار للعذاب مناسبة لقرب العذاب الذي نصَّ عليه من قبل في قوله محذراً لهم ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ وفي قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ في اسم الإشارة ذلك « إشارة إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها ، وما فيه من معنى البعد للتفخيم »[1] وقوله ﴿ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير مكذوب فيه ، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به ، أو على المجاز ، كأنه قيل للوعد ، نفي بك ، فإذا وفى به فقد صدق ولم يكذب[2] فيكون فيه استعارة مكنية تخييلية[3] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ جاءت هذه الجملة معطوفة على ما سبقها

---

(١) روح المعاني (٦ / ٢٨٩) .

(٢) الكشاف (٢ / ٣٩٢) .

(٣) روح المعاني (٦ / ٢٨٩) .

بفاء التعقيب أي فلما انقضت المدة أعقب ذلك مجيء الأمر بالعذاب ونزوله فكانت الفاء هنا أنسب في الدلالة على تعاقب الأحداث وسرعتها ولمّا هنا جاءت لبيان أهمية ما بعدها مع ما أحدثته في النفس من تحفز وتنبه وتشوف لما سيذكر من أمر عظيم وخطير ، والفعل الماضي (جاء) يأتي كما مرّ بيان ذلك مراراً في المواضع الشديدة وفي مقامات الإهلاك والتدمير يكثر وروده في النظم القرآني ومجيء الأمر حصوله وتحققه والمجيء هنا مستعار للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيهاً لحدوث الشيء بوصول القادم من مكان آخر بتنقل الخطوات[1].

والأولى عد المجيء على حقيقته[2] وفي التعبير بالأمر إشارة إلى تحققه ونفاذه وقد أضيف إلى ضمير الجلالة ، فلا راد له ، وفي قوله تعالى : ﴿ نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ جاء التعريف بالموصولية لمن آمن للتشريف وبيان علة الجزاء إغراء بأن نفعل فعلهم لنلقى جزاءهم ، والمشهد هنا يعقد المقارنة بين صورة النجاة والإهلاك ويقابل بينهما ، حيث عطفت صورة الإهلاك على صورة الإنجاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وفي التقابل إبراز للصورتين تبعث الأولى في نفوس المؤمنين الإيناس والثبات وتبعث الثانية في نفوس المعرضين الرهبة والإيلام وتبين ما بين الحالين من بعد له أثره العميق في

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٧ / ٢٢٨) .

(٢) الفعل (جاء) جاء على حقيقته فللريح مجيء يختلف عن مجيء الإنسان وكذلك للأمر مجيء وهكذا المعنى سواء والكيفية متنوعة وما ذكره الطاهر كلام في الكيفية وهذا مدفوع هنا والأعلى عدم القول بالمجاز هنا .

النفس وقد عدل عن المضمر إلى المظهر في قوله (الذين ظلموا) تسجيلاً عليهم بالظلم وفي ذلك ذم لهم وبيان لسبب عذابهم ، وفيه تعريض بمشركي مكة وتحذير لهم وعطف قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ . « على متعلق (نجينا) المحذوف ، أي نجينا صالحاً عليه السلام ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيف به العذاب ، فإن العذاب يكون على كيفيات بعضها أخزى من بعض ، فالمقصود من العطف عطف منة على منة لا عطف إنجاء على إنجاء ، ولذلك عطف المتعلق ولم يعطف الفعل »[1] .

وفي إضافة الخزي إلى اليوم وهو الذل والاستكانة مبالغة تثبت أن اليوم بنفسه أصبح هو الخزي نفسه ، فكأن الزمن هو الآخر قد انقلب عليهم لشدة ما فيه .

وقال تعالى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ في هذه الآية شبه قوم ثمود بعد إهلاكهم بحالة من لم يوجد ولم يقم في مقام قط ، وذلك من شدة الهلاك الذي أصابهم وأفناهم وأفنى كل مظهر للحياة ، حتى إن الذي يمر بديارهم بعد هلاكهم يشك في أصل وجودهم من قبل ، فقد انعدم أثرهم إلا ما أبقاه الله من مساكنهم لتكون آية للمعتبرين وقال تعالى : ﴿ يَغْنَوْاْ ﴾ وهذا الفعل المضارع يستحضر لنا صورة النماء والحياة والحضارة والحركة كل ذلك قد فنى واختفت مظاهر الحياة واندرست ، إن الصورة هنا تنقل لنا الصمت الذي أعقب الصيحة والسكون

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١١٤) .

الذي خيم على الديار ، إنه الموت الجماعي المطبق فالصورة هنا تبعث الإنذار والوعيد لكل مكذب ، وجاء في ختام المشهد الختام بأداة التنبيه التي تحمل إشارات عظيمة تلفت الفكر وتهز الوجدان في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ تكررت هذه الأداة مرتين لبيان عظمة ما اقترفوه ، وكان هو السبب الأكبر في هلاكهم ، إنه الكفر الذي جعلهم أهلاً لهذا الإهلاك ، فالعذاب كان بسبب الكفر وليس لسبب آخر ، والتوكيد هنا في جعل الكفر سبباً كما لو كان مشكوكاً في حصوله واعتباره سبباً لنزول العذاب واستحقاق اللعنة فكان تنزيل غير المشكوك فيه منزلة ما فيه شك لكل متسائل يسأل كيف أن هؤلاء القوم أهلكوا هذا الإهلاك العظيم الجائح ، فبين له السبب وأكد من أجل ذلك .

فألا هنا في الآية فيها تنبيه على ما استحقوا به العذاب وهي لا تقال إلا عند الأمور العظيمة والهائلة .

« وإيصال الفعل دون قصره كما في أضرابه لبيان غلظة كفرهم ثم كرر ذلك تأكيداً له وإعلاماً بتأبيد هلاكهم ألا بعداً لثمود »[1] .

فالصورة كما لوحظ من أول المشهد إلى آخره قد جاءت الأحداث فيها متعاقبة متوالية سريعة كما دلت الفاء على ذلك ، وقد قابلت الصورة بين حالين حال من أنجى وحال من عذب ، والإنجاء قد أسند إلى ضمير الجلالة لبيان

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٥٥١) .

عظمة الامتنان والرحمة ، وعطفت جملة العذاب وصورته على جملة الإنجاء لبيان تقدم النجاة وسرعة الإهلاك ، وقد قاربت الواو بين الجمل المتعاطفة ولدلالتها على التغاير وعقد المقارنة وإجلاء صورة التباعد والاختلاف ما بين الحالين حالة النجاة وحالة الإهلاك في صورة موجزة سريعة تبث الهلع والحذر ، فالفعل الماضي (أخذ) وقد سقطت منه علامة التأنيث يبين لنا عظمة هذه الصيحة وشدتها المحيطة بالظالمين ، فالتذكير فيه دلالة على هذا الملمح ، وقد جاءت الصورة هنا في سياق سورة هود وقد اتصفت بعلو نبرة الترهيب والتفصيل في صور الإهلاك ثم نجد أن النظم يستخدم الموصول وصلته في التعريف بمن نجى ومن أهلك فيكون الأول فيه تشريف وتكريم ورفعة ، وفي الثاني إهانة وعذاب مهلك فالصورة قد رسمت الخطوط الرفيعة في القضية وهي نجاة النبي ومن آمن به وهلاك من أعرض وكذب ، ولاشك أن هذا الأسلوب التصويري الذي يعقد المقارنة والمقابلة بين صورة النجاة والإهلاك له شأن عظيم في تضعيف التسلية والتثبيت ، وفي المقابل يضاعف من التهويل والإنذار لكل من عاند وأعرض .

المبحث الثاني

صورة الإهلاك في سورة الذاريات والقمر

أ) ما ورد في سورة الذاريات :

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ [الآيات : ٤٣ - ٤٥] .

يلحظ أن عرض صورة الإهلاك هنا يستمر في السور القصار للإنذار والتحذير فيكون المعنى واحداً ، ولكنه يعرض هنا بإيجاز يتناسب مع إيجاز السورة وإيقاعها السريع ، والأمر بالتمتع هنا المراد منه تمتعهم بحياتهم الدنيا ولكن إلى حين وأجل ، والمشهد هنا على إيجازه يشير إلى العيشة الهنيئة التي كانوا فيها[1] وجملة (فعتوا) معطوفة على جملة (وقيل لهم تمتعوا) والفاء العاطفة تبين مبادرة القوم إلى العتو الذي كان سبباً في قطعهم عن المتعة والنعمة ، حيث أوصلهم إلى الهلاك سريعاً وقال (ربهم) مضافاً إلى ضميرهم لتوبيخهم فقد استكبروا على من رباهم وخلقهم وأنعم عليهم ، والفاء العاطفة للتعقيب تصور سرعة أخذهم عقب عتوهم حيث لم يكن بين عتوهم ونزول العذاب إلا مقدار

---

(١) ذكر ابن كثير نقلاً عن ابن جرير أن ذلك يعني إلى وقت فناء آجالهم ويرى أن الظاهر انتظارهم للعذاب ثلاثة أيام (تفسير ابن كثير ١٣ / ٢٢١) والأظهر الذي يوافق السياق ما قاله ابن جرير لأنه جاء عقبه قوله (فعتوا) أي أنهم كانوا في متعة ونعيم حتى جاءهم العذاب فأفناهم .

ثلاثة أيام كما بينت سورة هود من قبل « وأخذ الصاعقة إياهم إصابتها لهم إصابة تشبه أخذ العدو عدوه ، وجملة وهم ينظرون حال من ضمير النصب في أخذتهم أي أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها ، لأنهم لما رأوا بوارقها الشديدة علموا أنها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون ، وذلك هول عظيم زيادة في العذاب ، فإن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألماً كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعم مسرة »[1] . وقوله ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ تفريع على (وهم ينظرون) أي فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادره ، فالقيام مجاز للدفاع كما يقال هذا أمر لا يقوم له أحد ، أي لا يدفعه أحد أي فما استطاعوا أيّ دفاع لذلك[2] ، وكأن في ذلك رداً للعجز على الصدر أي أن فعل الإعراض وعقرهم للناقة لم يكن نصراً لهم ، بل كان هلاكاً وخسارة لهم في الدنيا والآخرة .

إن سورة الذاريات تصور لحظة إصابة القوم بالصاعقة وهم ينظرون إليها إنّ في الفعل المضارع والجملة الحالية استحضاراً للصورة يجليها للمخيلة لتلتقط أبعاد الهول المطبق ، وكان لتعاقب الجمل بالفاء ووصلها يصوِّر سرعة الإفناء والإهلاك ، فهي تبعث في النفس صورة الهول متتابعة تركز على لحظة فجعة القوم وهم ينظرون ، فالشخص الذي يرى بعينيه حتفه وأثر العذاب واقع عليه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٤) .

(٢) ينظر المصدر نفسه (٢٧ / ١٤) .

أشد ممن يعذب وقد وقع العذاب من وراء ظهره أو بعيداً عن نظره ، ولذلك تعمى عين الماثل لعقوبة الإعدام تخفيفاً عنه ، إن حالتهم عندما حلَّت عليهم الصاعقة تبعث الرهبة في كل نفس حيث التصقوا بأماكنهم في الأرض لم يقدروا على الحركة والقيام ، إنها صاعقة مفاجئة سريعة الوقع والأثر ، وجاء تنكير (القيام) ليعم النفي أي نوع من القيام وليشمل كل حركة ، دلالة على شدة ضعفهم وسرعة هلاكهم .

ب) ما ورد في سورة القمر :

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ [1] فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [الآيات : ٢٧ - ٣١] .

جاء المشهد هنا مفصلاً إذا قورن بما ورد في سورة الذاريات وهو ما يناسب تقدم سورة القمر في الترتيب النزولي ، وهنا نجد أن الجمل تتعاقب موصولة بالفاء تصور لنا مسارعة القوم ومبادرتهم إلى الفتنة ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ ﴾ وهي جملة معطوفة على مقدر أي (فتمادوا في غيهم فنادوا) وجملة (فتعاطى) معطوفة على جملة نادوا وعطفها بالفاء يدل على مسارعة القاتل واستجابته للنداء دون تمهل ، والتعاطي مجاز عن الاجتراء والاندفاع ، وقوله

(١) مرّت دراسة هذه الآية في أسرار المفردات .

(فعقر) معطوفة بالفاء التي تفيد التعقيب ، فالقاتل مقبل على جريمته غير مكترث بالعواقب ، وأعقبت هذه الجملة بقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[1] وهو استفهام يمهد لصورة مهلك القوم يهز النفوس ويلفتها إلى ما سيأتي من خبر فظيع ومهول ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا ﴾ جاءت هذه الجملة مفصولة عما سبقها لأنها جاءت بياناً لما أُجمل في جملة الاستفهام عن العذاب ، وقد صُدِّرت بإن للتأكيد لما تحمل من خبر عظيم يصور هلاك القوم على هيئة لا تتصورها العقول إلا بما ضربه الله لهم من تشبيه محسوس يقرب الصورة ويوضحها ، وقد أُسند الإرسال إلى ضمير العظمة لتفخيمة وتهويل أمر العذاب وشدته ، وقدم الجار والمجرور (عليهم) على المفعول (صيحة) لبيان اختصاصهم بهذا العذاب و(عليهم) يفيد استعلاء العذاب وتسلطه عليهم لا يستطيعون الفكاك منه ، وجاء تنكير الصيحة لبيان هولها وفظاعتها ، وقال واحدة للتأكيد ولبيان ضعفهم فهم لم يحتاجوا إلا إلى صيحة واحدة كانت كافية في إهلاكهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم وقال تعالى ﴿ فَكَانُواْ ﴾ والفاء هنا تصور سرعة التحول إلى الموت والفناء والبلى إنها لحظات حوَّلت القوم الأحياء إلى صورة فناء جماعي ماحق ، والمشبه هنا هو حال القوم بعد إهلاكهم بالصيحة ، والمشبه به الهشيم المحتظر وهي الأعواد اليابسة والمتساقطة في الحظائر بعد أن داستها البهائم ووطئتها ، والجامع بين المشبه والمشبه به ، هو التكسر والتفتت وسرعة التحلل إن الصورة هنا حسية

---

(١) قد مر تفصيل القول في هذه الآية فيما سبق .

تبعث الوعيد والإنذار للمعرضين وهي لم تنقل صورة الإهلاك مجردة ، بل ركزت على ما أفادته من تحقير واسترذال لما آل إليه الظالمون بما يفهم من هشيم المحتظر ، والمتأمل في المشهد في سورة القمر يتبين له هذا التتابع السريع في الأحداث بما أنبأ به تتابع الجمل موصولة بالفاء وما لاءم من قصر الآيات بما يوافق إيجاز السورة وإيقاعها السريع ، إن صورة التدمير السريع والإهلاك يتفق مع صور الإهلاك التي نقلتها السورة للأمم الغابرة ، والصورة قد رسمت بالأفعال الماضية التي قررت هذه الأحداث وأثبتتها مشهد الإهلاك إلا أن اللفت والاستحضار للصورة الماضية لا يعدم في المشهد حيث يلحظ اللفت إلى الأحداث التي ستكون ، وكأننا أمام صورة حاضرة . كما في قوله تعالى ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾ وإحياء الصور الماضية بهذه الأساليب القرآنية فيه لفت للأحداث ، وجذب للانتباه ، إننا أمام مشهد عنيف جاءت فيه صورة الإهلاك سريعة عاصفة تبعث الفزع وتقطع الأنفاس وتجعل المتلقي المعرض يشاهد نفسه في هذه الأحداث وكأنه يقف موقف قوم صالح حينما داهمتهم الصاعقة واستلبت منهم الحياة . وقد تعاضد في عرض هذا المشهد أسلوب التصوير البياني مع أساليب النظم الأخرى ليكتمل المشهد في نقل صورة حسية ملموسة ركزت على وصف الهلاك لتحقيق الزجر والإنذار ، فالصاعقة هنا قد وُهبت لها الحياة والإرادة والتصرف في القوم وكأنها كانت تعي ما أُرسلت له ، وبهذا نجد أن الصورة قد حملت شحنة عنيفة مفزعة هزّت قلوب المكذبين المعرضين ، وحملت في المقابل طمأنينة عميقة في قلوب المؤمنين .

لقد كانت صورة مهلك قوم صالح عليه السلام سريعة موجزة في السور كلها تصوِّر سرعة هلاك القوم بالصاعقة ، وهذا الإيجاز يوحي بذلك ويلحظ أن صورة الإهلاك قد تماشت مع السور من خلال ترتيبها النزولي ، فنرى الصورة في سورة الأعراف لما جمعت بين الإنذار والتحذير ليست كالصورة في سورة هود التي طُبعت بالتهويل والترهيب ، وعلت حدة الإنذار فيها ، ولذلك نجد صورة العذاب فيها أشد وأرهب حيث نجد ذكر الصيحة وجمع الديار .

وفي سورة الأعراف ذكرت الرجفة ووحدت الدار ونجد في سورة هود التذكير في الفعل مع الصيحة للدلالة على عظمة وهول هذه الصيحة الماحقة فهنا نجد نمو الرهبة في الصورة من خلال تتبع سياقات السور ، وبالنظر في ترتيب نزولها ونرى الصورة تزداد في حدة ترهيبها للظالمين في سورة القمر والذاريات حيث جاءت في سورة القمر تظهر ضعف هؤلاء القوم أمام هذا العذاب ، حيث أخذتهم صيحة واحدة أفنتهم ، ثم تزيد الصورة إبراز وحشة ما آلوا إليه وحقارته حيث أصبحوا كهشيم المحتظر بما لا نجده قد ذكر من قبل ، حيث ذكر في سورة الأعراف جثومهم على الأرض بما يصوِّر لنا أول مشهد يحدث لهم عند إصابتهم حيث وقعوا على الأرض جاثمين ، وفي سورة القمر نجد تصوير ما آلوا إليه بعد الوقوع ، إنهم أصبحوا كهشيم المحتظر ، وركزت الصورة على ذكر المحتظر لتحقير شأنهم وبيان هوانهم ، وهذا ينبئ عن شدة الغضب والسخط الإلهي ولاسيما أن هذه السورة كان ترهيبها وزجرها شديداً للمخاطبين من المعرضين في مكة ثم نصل إلى درجة من الهول عظيمة في سورة الذاريات حيث

تصوِّر لحظة أخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون إليها ، فما أعظمه من هول ينبعث في النفوس وهي تشاهد العذاب النازل المبيد .

هكذا نرى نماء الصورة وتسلسلها وكل المشاهد كانت متلائمة مع سياقات السور الكريمة متابعة لها في دقة بالغة ، وهذه السياقات اقتضت تلك المشاهد وتلك الجوانب دون غيرها[(١)] .

---

(١) سيأتي مزيد بيان لدراسة السياق في الباب الثالث .

الفصل الرابع

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم لوط

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : تصوير هلاك قوم لوط في السور الطوال .

المبحث الثاني : تصوير هلاك قوم لوط في سورة الصافات ، والذاريات ، والقمر .

المبحث الأول

تصوير هلاك قوم لوط في السور الطوال

أ – الصورة الموجزة في سورة الأعراف والشعراء والنمل

يقول تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الآيات : ٨٢ – ٨٤] .

جاءت صورة الإهلاك هنا موجزة دون تفصل في جمل موصولة تنبئ عن الحسم السريع في إهلاك الظالمين ، وإنجاء لوط عليه السلام ومن معه ، وهو ما يلائم السياق الذي وردت فيه ، حيث جاءت بعد الجملة التي قال فيها القوم لبعضهم ﴿ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ وقد جاء هذا القول بعد أن استنكر عليهم لوط عليه السلام إتيانهم للفاحشة وأنهم هم أول من ابتدع هذا الفسق في العالمين ، فلم يكن منهم إلا أن ردوا عليه بالتهديد بإخراجه ومن معه من قريتهم . وقد أبرز هذا القول والجواب في أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء وهو من أدل طرق القصر على إفادة الحصر والتأكيد ، وهو أسلوب يصور ضجرهم به وأنهم لم يعد بوسعهم خيار آخر والقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف يدل على التصميم والتأكيد ولذلك جاءت الجملة التالية في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ ﴾ تعقيباً لجملة ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ ﴾

والفاء والفعل أنجى يدلان على سرعة الإنجاء عقب هذا التآمر ، والفاء جاءت عاطفة على جملة مستأنفة مقدرة أي أرادوا إخراجه أو هموا بذلك فأنجيناه

وجواب القوم فيه تعريض بما يوهم الذم وهو مدح ، ولذلك قال ابن عباس « عابوهم بما يمدح به »[1] وقد أكدوا ذلك بإن واسمية الجملة[2].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ﴾[3] الواو هنا تدل على الترتيب أي أن نزول العذاب كان بعد نجاة لوط ومن معه حيث خرجوا من القرية قبل حلول العذاب ، والآية هنا أوجزت ولم تبين نوعية ما أُرسل عليهم من العذاب وهو ما يناسب الإيجاز المنبئ عن الحسم العاجل في الإنجاء والإهلاك .

وفي قوله تعالى ﴿ عَلَيْهِم ﴾ يدل ذلك على العلو ، فالحجارة وهي العذاب أُرسلت عليهم من السماء كالمطر الشديد لتعمهم وتعم ديارهم دون أن تترك أحداً منهم أينما كانوا ، وقدم الجار والمجرور على المفعول (مطراً) لبيان اختصاصهم بهذا العذاب الذي تسلط عليهم وقهرهم حتى هلكوا هذا

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٤ / ٤٢٨) .

(٢) وهذا يدل على أن القوم لما صار هذا الفعل المشين لهم طبعاً من شدة إيغالهم فيه وفي فجورهم استحال المعروف عندهم منكراً وهذا مسخ للفطرة وانتكاس حلّ بهم فكان جزاؤهم من أعظم الجزاءات التي حلت بالمهلكين وفي هذا ترهيب لهذه الأمة من أن تسير مسيرهم فتلقى جزاءهم فتمسخ فطرهم فينكرون المعروف فيحل عليهم غضب الله وهذا الزمان يشي بعوالم خطيرة تهدد الأمة إذا اندفعت وانغمست في تيار الشهوة والانحراف وهذا ما تلحظ بوادره في هذه الأيام .

(٣) مرَّ تفصيل سابق حول كلمة الإمطار وأنها لا تستخدم إلا في مقام العذاب والإهلاك .

والطاهر بن عاشور يرى أن الانجاء قدّم على الإهلاك حيث يقول « أنجيناه هنا مقدم من تأخير والتقدير : فأمطرنا عليهم مطراً وأنجيناه وأهله ، فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام ، لتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية »(١) .

ولكن ظاهر الآيات يدل على أنه لا تقديم يدل على ذلك ، ويؤكده ما ورد في السور الكريمة الأخرى من أن الله قد أمر نبيه بأن يسرِ (٢) بأهله بقطع من الليل قبل نزول العذاب ، وهذا يوضح أن النجاة كانت أسبق من حلول العذاب ، وهو الترتيب الذي جاءت عليه الآيات الكريمة .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ جاء هنا استثناء المرأة من أهله الناجين ، وأسلوب الاستثناء يبرز خروجها ويؤكده ويوضح خصوصية النجاة للوط ومن آمن من أهله . وفي قوله تعالى : ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين في ديارهم الهالكين ، والتذكير للتغليب ، ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة ، وقد فصلت هذه الجملة لكونها جاءت استئنافاً وقع جواباً

---

(١) التحرير والتنوير (٨ / ٢٣٦) .

(٢) يقول تعالى في سورة هود ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [الآية : ٨١] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الآيات : ١٧٠ - ١٧٢] بحرف المهلة .

لسؤال نشأ عن استثنائها من حكم الإنجاء ، كأنه قيل فماذا كان حالها ؟ فقيل : كانت من الغابرين[1] ، فكان استثناء امرأته من الناجين مثيراً للانتباه ومشوقاً إلى معرفة مصيرها وفي مجيء (الغابرين) على صيغة اسم الفاعل للدلالة على الثبوت وفي تعريفه إشعار بأنهم معروفون بهذا الوصف معهودون به . ثم اختتم المشهد بقوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

فكان تفريعاً عن هذه القصة العجيبة ، والأمر بالنظر في عاقبتهم للإرشاد والاعتبار ، والخطاب يجوز أن يكون لغير معين ، بل لكل من يتأتى منه الاعتبار كما هو إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة[2] .

وفي الأمر بالنظر قد يقال بأن في ذلك استعارة ، حيث استعار النظر بالعين الباصرة وهو حسي للتفكر الذهني للإشارة إلى أن المطلوب هو التفكر العميق الذي يهدي إلى الإيمان ، حتى لكأن المرء يبصر بعينه المشهد على حقيقته كيف كان[3] إن الختام هنا يلتفت إلى المخاطب يحاوره ليبعث في نفسه التأمل في عاقبة

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٢ / ٢٧٠) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير (٨ / ٢٣٨) .

(٣) والقول بالاستعارة في (انظر) مبنيٌّ على أن دلالة الفعل الوضعية دلالة حسية والدلالة المعنوية لاحقة ، فالانتقال إليها مجاز ، ومن أهل العلم من يذهب إلى أن دلالة الفعل غير مقصورة وضعاً على المحسوس . بل هي عامة من قبيل الألفاظ المتواطئة التي تدل على أكثر من معنى وضعاً والسياق يحدد المراد والقول بحصر دلالة الألفاظ في المحسوس ضعيف لذا ليس الأعلى هنا القول بالمجاز مع ملاحظة أنه أمر بالنظر في الكيفية وليس في الفعل نفسه ، بل كيفيته وهذا ينظر إليه بالقلب لا بالعين .

هؤلاء القوم المجرمين فالغرض من الصورة قد أُبرز في هذا التذييل الذي اختتم بالاستفهام للتعجيب من غرابة ما حل بهم من الشناعة ، وفيه تعريض بالمعرضين من كفار مكة ، إن المشهد في ختامه وقد اتجه إلى المخاطب قد جعل الصورة أشد واقعية وهو عنصر يبعث الحيوية عن طريق الحوار الذي يدعو إلى التأمل في العاقبة .

وما ورد في سورة الأعراف نجد ما يماثله في سورة الشعراء حيث جاء المشهد في سياق مشابه ، فلوط عليه السلام هنا يدعو قومه وينهاهم وينكر عليهم أفعالهم المشينة ، ويبين لهم أنهم قد اعتدوا وتجاوزوا الحدود فيما هم فيه من الخزي فلم يكن منهم إلا أن واجهوه بالتهديد بإخراجه وإبعاده من قريتهم إن لم ينته عن تقبيح أفعالهم ، فدعا ربه النجاة لنفسه وأهله من سوء ما يعملون ، فجاءت النتيجة سريعة حاسمة كما وردت في سورة الشعراء حيث يقول تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ١٧٠ - ١٧٣] والاختصار في إيراد العاقبة هنا مناسب لمقام الإجابة ، والانتصار للوط عليه السلام ومن معه بعد أن هدده قومه بالإخراج .

وهذا ما يلحظ أيضاً في سورة النمل حيث يقول تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ٥٦ - ٥٨] .

وهكذا يلحظ أن تصوير الأحداث هنا يأتي في إيجاز وفي عبارات قصيرة متتابعة يغلب عليها الوصل ، ويغلب على الجمل المتتابعة التعاقب بحرف العطف الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب والسببية ، وفيها معنى السرعة عندما يلاحظ ارتباطها بالفعل الماضي (أنجينا) وفي هذه الصور الموجزة إبراز لأمر النجاة والتخليص للوط ومن معه ، وأن الله تعالى يستجيب لأوليائه ويخذل أعداءه ، وكل ذلك يبعث من الإيحاءات العظيمة والمتدفقة في نفس محمد ﷺ وفي نفوس المؤمنين ما يزيدهم ثباتاً ويقيناً وتسلية .

ب) الصورة المفصلة في سورة (هود[1] ، والحجر ، والعنكبوت)

١ - ما ورد في سورة هود :

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ

(١) جاء في سورة هود تفصيل قصة مهلك قوم نوح وقوم لوط لأن السورة أبرز هدف فيها التسلية للرسول ﷺ فضرب له صورة مهلك أول أمة كذبت مفصلة وذكرت قصة مهلك قوم لوط مفصلة حيث أوردت حالة لوط وشدة ما أصابه من كرب مع قومه ثم إن إيراد قصة هؤلاء القوم وقد جمعوا بين الكفر وانتكاس الفطر لهي أعظم تسلية له ﷺ في قومه المعرضين ثم إن رهبة صورة العذاب بالطوفان ورهبة عذاب قوم لوط لاءمت جو السورة الذي تعلو فيه نبرة التهديد والإنذار والتهويل وسيأتي مزيد بسط لذلك .

ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [الآيات : ٧٧ – ٨٣] .

الصورة هنا جاءت في تفصيل وبسط يتوافق مع صور الإهلاك التي وردت مبسوطة في السورة الكريمة ، وكل ذلك يتفق مع أهداف السورة الكريمة في إبراز عنصر الترهيب والتهويل والإنذار للمشركين المعرضين وقد ابتدأ المشهد بـ(لمَّا) الحينية التي جاءت تبعث في النفس الترقب والتشوف إلى ما سيأتي بعدها من أمر عظيم وجليل والجمل هنا تصور حال لوط عليه السلام في هذا الوقت وقد اشتد عليه الكرب لما جاءه الرسل الكرام وقد ظنهم ضيوفاً قد حلوا عليه وهو يعلم سوء قومه وسفاهتهم إذا علموا بوجودهم عنده ، فجاءت الجملة الأولى تبين استياءه من مجيء الضيوف ، وجاءت الثانية معطوفة عليها تبين زيادة ما وصل إليه من الضيق في قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ حتى باح بما في صدره في الجملة الثالثة في قوله ﴿ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ وهنا تبرز لنا بلاغة العطف بالواو تدرج الضيق في نفسه حتى وصل إلى مرحلة البوح والإعلام ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ استعارة تمثيلية لحال من لم يجد حيلة في شأن يريد الخلاص منه أو التصرف فيه بحال من لم يستطع مدَّ ذراعه ، وفي ذلك تصوير يبين عن

شدة حيرته واضطراب نفسه عليه السلام في هذا الوقت العصيب ، إنه تصوير دقيق يتتبع حركة الأحوال النفسية للوط وهو يعاني شدة الأمر منذ أن جاءه الرسل الكرام ثم يزداد السوء والشدة عندما علم قومه بضيوفه ، فجاءوا إليه يسرعون حيث يقول تعالى : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ وهذه الجملة جاءت معطوفة بالواو على الجملة السابقة تبين أنهم جاءوا عقب مجيء الملائكة وبعد أن سمعوا بخبرهم اجتمعوا على المجيء إلى بيته (يهرعون) والواو هنا جاءت لترتيب الأحداث على طبيعتها في تتابع دون تقديم أو تأخير ، وكل ذلك يبرز لنا حرج الموقف في مراحله مفصلاً وهو مراد السورة في إبراز موقف النبي الكريم وما كان يعالجه من كرب(١) .

وقد صورت كلمة (يهرعون) إسراع القوم في لهف متعجلين إلى بيت لوط مندفعين ، تدفعهم شهواتهم ، إن الصورة المستحضرة تنبض بحركة القوم وما ارتسم في نفوسهم من الشر غير مبالين وهذا الفعل يوحي بفقدهم السيطرة على أنفسهم حيث وقعوا أسرى لشهواتهم « وهذا البناء يقتضي أن الهرع هو دفع الماشي حيث مشيه ، إلا أن ذلك تنوسي وبقي أهرع بمعنى سار سيراً كسير المدفوع ، ولذلك قال جمع من أهل اللغة إنه من الأفعال التي التزموا فيها صيغة المفعول لأنها في الأصل مسندة إلى فاعل غير معلوم »(٢) .

---

(١) سيأتي مزيد بسط لذلك في علاقات المشهد بسياقه في السورة الكريمة .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ١٢٦) .

إن الفعل هنا يصور المسارعة إلى الشيء كمسارعة المرتعد من خوف أو غضب مع ما يوحي به من طمع الساعي وحرصه وشغفه غير آبه بالنتائج مع ما فيه من تركيز على تسليط الضوء على الباعث الخفي الذي دفعهم وهو باعث الشهوة التي أفقدتهم عقولهم وإدراكهم لشناعة ما يقدمون عليه ، وكل ذلك كان نتيجة لانغماسهم في الشهوات من قبل كما بينت الجملة الآتية في قوله تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الواو هنا حالية ، والجملة واقعة في محل نصب حال من قوم ، وهذه الجملة جاءت لبيان عراقتهم في هذا الغي من قبل المجيء حتى استسهلوا أن يفعلوا مثله في الحاضر وفي ذلك تشنيع عليهم وبيان بأنهم منغمسون في الباطل في كل أحوالهم وأوقاتهم ، وأنه قد أصبح شغلهم الشاغل ، هذا ما يفهم من دلالة الواو على الحال ودلالة الجملة . وقد طوي ذكر الغرض الذي جاءوا من أجله ، حيث يفهم من السياق ويفهم من دلالة الجملة وهنا عند هذه اللحظات الحرجة يبدأ الحوار بينهم وبين لوط عليه السلام وهو يحاول إثناءهم ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ .

فصلت هذه الجملة للاستئناف البياني والفصل بين الجمل يأتي في أساليب الحوار في القرآن الكريم وهو هنا ناشيء عن جملة (وجاءه قومه) حيث إن المتلقي قد تسرب إلى نفسه معرفة الغرض من مجيئهم ، وهو هنا يتساءل عما تلقاهم به لوط عليه السلام ، لقد بدأ يحاورهم مفتتحاً كلامه بندائهم حتى يلفتهم حيث قال (يا قوم) يبين لهم أنهم قومه وهو واحد منهم لترقيق نفوسهم عليه ، ثم

يعرض عليهم ما هو أطهر وأزكى لهم من البدائل التي أحلها الله لهم حيث يقول ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾[1] .

ولما كان العرض فيه تحضيض قدم كلمة (بناتي) وقد فصلت بين المبتدأ والخبر للتعجيل بذكر ما يريد عرضه بديلاً مناسباً ، وجملة (هن أطهر لكم) .

« تعليل للعرض ومعنى هن أطهر أي هن حلال لكم يحلن بينكم وبين الفاحشة ، فاسم التفضيل مسلوب[2] المفاضلة قصد به قوة الطهارة »[3] ثم فرع على العرض عليهم أمرهم بتقوى الله تعالى والنهي عن اقتراف السوء ، وفي عطف جملة النهي على الأمر تنبيه عظيم وتحذير شديد يحذرهم من غيهم فالقوم سكارى الشهوة بعيدون عن تحكيم عقولهم ، ولما أحس بشدة ما هم فيه من العمى هزهم واستنفرهم بالجملة الاستفهامية بعد جملة الأمر والنهي في قوله (أليس منكم رجل رشيد) وفي هذا الاستفهام كما يقول الطاهر بن عاشور « إنكار وتوبيخ لأن إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة »[4] والذي يظهر أن الاستفهام هنا استفهام تقرير وإثبات وليس للإنكار والنفي ، حيث إن لوطاً عليه السلام

(١) أي بنات أمته يدعوهم إلى الزواج بهن . ينظر تفسير الطبري (١٢ / ١٠١) .

(٢) مسلوب المفاضلة لأنه لا مقارنة بين الطهارة وبين فعل قوم لوط وفي تجريده دلالة على أوحدية الطهارة فيما عرضه عليهم وفيه مبالغة ودلالة على قوتها .

(٣) التحرير والتنوير (١٢ / ١٢٧) .

(٤) المصدر نفسه (١٢ / ١٢٩) .

أراد بهذا الاستفهام الغاضب أن يستنفر منهم من يصدهم عن غيهم ويكون عوناً له على كف شرورهم[1] .

وفيه استنهاض لمعاني الشهامة والرجولة في القوم وقال (منكم) أي في بعضكم لأنهم قد اجتمعوا على الباطل ، وفي هذا إغراء لهم على التعقل والنظر ولكن هيهات لهذا النداء والاستنفار والاستنهاض الذي صورته لنا هذه العبارات المتتابعة من كلام لوط أن تجد صداها فيهم ، إنه ينتظر منهم رداً فماذا كان ردهم ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

جاءت الجملة هنا مفصولة للاستئناف البياني ، (ولقد علمت) تأكيد لكونه يعلم فأكد بتنزيله منزلة من ينكر أنه يعلم لأن حاله في عرضه بناته عليهم كحال من لا يعلم خلقهم ، وكذلك التوكيد في ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر ، أي نحن نعلم أنك قد علمت مالنا رغبة في بناتك وإنك تعلم مرادنا[2] .

وعند هذا التأكيد المتتابع منهم في ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أدخل كل ذلك اليأس والحسرة والكمد في نفس لوط عليه السلام فبدأ يتلمس المعين ويستشرف له وهو عليه السلام لا يدري أن ربه قد أرسل له المعين الذي ضجر بوجوده واستاء حيث قال ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ إنه

---

(١) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام (٢ / ١١٤) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٢ / ١٢٩) .

يتمنى أن تكون له قوة بينهم فلو مستعملة في التمني وجاء جواب لو محذوفاً والتقدير لو أن لي بكم قوة لدفعتكم بها وفي حذف الجواب يتسع التقدير ليشمل كل ما كان يجيش في نفس لوط عليه السلام في تلك اللحظة حيث يتمنى الأنصار وهو غريب بين القوم ليس له نصير منهم ، وفي الحذف اختصار ينبئ عن ضيقه وشدة ما يعالجه ، فقد ضاق به المكان والوقت ثم قال (أو آوي إلى ركن شديد) إنها عبارات تصور لهفه إلى المأوى ، فالقوم مصممون على فعلهم وعددهم كثير ولا طاقة له في ردهم ، وللمتأمل أن ينظر في تقديم الجار والمجرور (لى) على المفعول (قوة) حيث عجل بذكر ما يخصه في الإغاثة والإسناد الذي يدفع به عن نفسه وضيفه ما ألمَّ به وفيه إيحاء مشع بشدة ضيقه وهو يعلم وحدته بين هؤلاء القوم وفي قوله ﴿إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ ينبئ هذا القول بصلابة قومه وشدتهم فهو بحاجة إلى ركن شديد يستعين به في رد غائلتهم ، وفي ذلك تشبيه للمعين الشديد بالركن في القوة ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ولاشك أن الاستعارة هنا أبلغ ، فالركن شيء محسوس والمعين الذي يمثل القوة لا يحس ، وعندما وصل الأمر بلوط عليه السلام مبلغاً عظيماً واجتاله الكرب واشتد عليه الموقف جاء رد رسل الله تعالى ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ جاء رد الملائكة في الوقت الذي توقع فيه لوط عليه السلام أذية قومه فإذا هو يُعلم ويفاجأ بأنه يستند إلى ركن شديد بل أشد من الركن إنه عون ربه ورسله قد جاءوا بالفرج ، وهذا الخبر جاء في جملة مفصولة للاستئناف البياني وقد صُدِّر بالنداء للفته عما انشغل به من كرب ثم

عاجلوه بالتعريف بأنفسهم حتى يبثوا في قلبه الاطمئنان والأمان ، وقد أُكد ذلك بـ(إنَّ) واسمية الجملة ، ثم أعقبوا ذلك بقولهم (لن يصلوا إليك) لتأكيد أمنه وسلامته وقد جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لأنها مبينة لإجمال جملة (إنا رسل ربك) فلذلك فصلت فلم تعطف لأنها بمنزلة عطف البيان(١) .

وقد استخدم حرف النفي (لن) لما فيه من قوة التأكيد للنفي بما لا يدع في النفس مجالاً للخوف والفزع ، وهذا النفي القاطع اقتضاه المقام ، فالقوم مقبلون إلى لوط بكل قوة وشدة وعددهم كثير ، وفي قول الملائكة (ربك) إشعار بعناية ربه به وحفظه له ، فلن يمسه ولا الذين معه شيء من السوء أو الأذى ، وقد طوي في هذه الجملة معرفة ما جرى في تلك اللحظات بين لوط وقومه حيث أخبرت سورة القمر أن الملائكة قد طمست أعين المندفعين إليه والجملة هنا في سورة هود اكتفت ببيان تضمن سلامته وهو الأهم في هذا السياق الذي يصوِّر لنا بدقة ما كان يعالجه من كرب عظيم ، ولما علم عليه السلام سلامته فيما هو فيه من هذه اللحظات الحرجة التي يعاصرها تطلعت نفسه إلى معرفة حاله فيما بعد فجاءت جملة ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ مفرعة بالفاء على ما قبلها « والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهي من جنابه عز وجل إليه عليه السلام »(٢) والفاء فيها معنى المبادرة

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٣٢) .

(٢) تفسير أبي السعود (٣ / ٥٥) .

والمسارعة فعليه أن يبادر بما أُمر به ، وقال بقطع من الليل وهو الجزء من الليل وقال تعالى ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ عطفت هذه الجملة على جملة الأمر للتوسط بين الكمالين ، وبلاغة العطف تبين أهمية الشأن حيث تجاورت جملة الأمر والنهي وفي ذلك تأكيد يستدعي تحقيق الإسراء وعدم الانشغال بشيء غيره وجملة النهي جاءت « معترضة بين المستثنى والمستثنى منه والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كما دلت عليه القرينة »[1] .

فكان في هذا الاعتراض بيان للأهمية ولتحقيق أمر المغادرة والحرص عليها سريعاً فأمر الله سيحل بديار القوم وقد اقتربت نهايتهم ولأن في الالتفات ضرراً عليهم وتعطيلاً لأمر سيرهم ، وقد يكون في الالتفات للقرية المهلكة ترويع لهم يؤثر عليهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ استثناء لامرأة لوط يخرجها من النجاة وفي ذلك تأكيد وإبراز لهذا المعنى وهو أسلوب توافق مع المقام الحاسم الشديد الذي استدعى مزيداً من التوكيد والتركيز ، وفي هذا الاستثناء قرأ ابن كثير وأبو عمر برفع التاء في (امرأتُك) على أنها بدل من (أحد) على معنى (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها ستلتفت) .

وكان أبو عمرو يتأول أن لوطاً كان سار بها في أهله وحجته ما روي عن ابن عباس أنه قال : إنها سمعت الوجبة فالتفتت فأصابها العذاب وقرأ الباقون (امرأَتَك بالنصب) على أنه مستثنى من الأهل الذين أُمر بالإسراء بهم لا من

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٣٢) .

(أحد) والمعنى في هذه القراءة أنه لم يخرج امرأته مع أهله ، وفي القراءة الأخرى أنه خرج بها فالتفتت فأصابتها الحجارة[1] .

وعلى هذا قد يفهم أن بين القراءتين تناقضاً ، ولكن المتأمل يلحظ أن الذي أوقع في ذلك هو عدهم للاستثناء من المتصل ، وجعل الاستثناء في قراءة الرفع من قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ على البدل من (أحد) ولذلك وجدت التأويلات التي يلحظ فيها التكلف والبعد [2] ، والزمخشري يرى أن اختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين ، وقد تعقبه[3] في ذلك أبو حيان حيث يقول « وهذا وهم فاحش إذ بنى القراءتين على اختلاف الروايتين من أنه سُري بها أو أنه لم يسر بها وهذا تكاذب في الأخبار يستحيل أن تكون القراءتان وهما من كلام الله تترتبان على التكاذب[4] ولعل الذي يظهر فيه الصواب هو قول من ذهب إلى أن الاستثناء في الآية على القراءتين منقطع ، لم يقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنهيين عن الالتفات ولكن استؤنف الإخبار عنها بمعنى لكن امرأتك يجري لها كيت وكيت ، والدليل على صحة هذا المعنى أن

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة (ص ٣٤٧ – ٣٤٨) .

(٢) ينظر : الكشاف٢ / ٤٠٠ ، المحرر الوجيز (٣ / ١٩٦) ، تفسير أبي السعود (٣ / ٥٥) ،روح المعاني (٦ / ٣٠٦) ، التحرير والتنوير (١٢ / ١٣٣) .

(٣) وتعقبه ابن الحاجب في شرح كافيته والرضى والعكبري ، ينظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم عبد الخالق عظيمة (١ / ٢٢٣) .

(٤) البحر المحيط (٥ / ٣٢٤) .

مثل هذه الآية جاءت في سورة الحجر وليس فيها استثناء أصلاً ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ فلم تكن العناية إلا بذكر من أنجاهم الله ، فجاء شرح حال امرأته في سورة هود تبعاً لا مقصوداً بالإخراج مما تقدم(١) وعلى هذا يكون الإعراب بالرفع في (امرأتُك) على الابتداء وخبره الجملة بعده ، ويكون الاستثناء على كلا القراءتين بالرفع والنصب من قوله تعالى (فأسر بأهلك) يقول ابن القيم « وهذا التوجيه أولى لأن المعنى عليه ، فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته ، ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الإلتفات وأذن فيه لامرأته ، وهذا ممتنع لوجهين: أحدهما أنه لم يأمره أن يسري بامرأته ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم، والثاني أنه لم يكفهم بعدم الالتفات ويأذن فيه للمرأة»(٢) .

ولأن المرأة لم تعد من أهله ، لأن أهله هم من آمن معه ، وكونها قد بقيت مع قومها في الكفر والضلال فهي خارجة من أهله كما مرَّ في حكم الله تعالى على ابن نوح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [الآية : ٤٦] هذا ويلحظ للإمام الشاطبي في إعراب النحاة للقراءتين كلام حسن حيث يقول : « وقع لي في تصحيح ما أعربه النحاة ، معنى حسن ، وذلك أن يكون في

---

(١) ينظر : إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للإمام الشاطبي تأليف الإمام عبد الرحمن ابن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة تحقيق ، محمود عبد الخالق محمد جادو ، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٣ هـ (٣/ ٢٤٣ - ٢٤٤) .

(٢) بدائع الفوائد (٢ / ٦٨) .

الكلام اختصار نبه عليه اختلاف القراءتين فكأنه قال : فأسر بأهلك إلا امرأتك وكذا روى أبو عبيدة وغيره أنها في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه هكذا ، وليس فيها ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ فهذا دليل على استثنائها من المسري بهم ، ثم كأنه قال : فإن خرجت معكم وتبعتكم من غير أن تكون أنت سريت بها فانه أهلك عن الالتفات غيرها ، فإنها ستلتفت ويصيبها ما أصاب قومها فكانت قراءة النصب دالة على ذلك المعنى المتقدم ، وقراءة الرفع دالة على هذا المعنى المتأخر ومجموعها دال على جملة المعنى المشروح »[(١)] .

وجاءت جملة ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ مفصولة عما سبقها للاستئناف البياني التعليلي لاستثناء امرأة لوط من الناجين وقد أكدت الجملة بإن واسمية الجملة لبيان تقرر الوقوع وتحققه فلا مناص عنه وفي قوله (ما أصابهم) استعمال فعل المضي في معنى الحال ومقتضى الظاهر أن يقال : ما يصيبهم ، فاستعمال فعل المضي لتقريب زمن الماضي من الحال ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] ، أو في معنى الاستقبال تنبيهاً على تحقق وقوعه نحو قوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾[(٢)] .

---

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني (٣ / ٢٤٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ١٣٣) .

في ذلك استعارة في زمن الفعل ، حيث شبهت الإصابة فيما سيأتي من العذاب في المستقبل بالإصابة في الماضي بجامع تحقق الوقوع ، لأن أمر الله لا يتخلف .

وفي ذكر الاسم الموصول المبهم (ما) تهويل لأمر هذا العذاب وتفظيع له

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لكونها جاءت تعليلاً للأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات ، وفي إضافة الوعد إلى ضميرهم تهويل لما يوعدون به وهو العذاب والهلاك الذي يختص بهم ، وجاءت جملة (أليس الصبح بقريب) مفصولة للاستئناف البياني حيث جاءت الجملة جواباً صدر من الملائكة عن سؤال كان يجيش في نفس لوط أو أنه صرح به للملائكة كما بين الطبري أن نبي الله استبطأ نزول العذاب وقال للملائكة بل عجلوا لهم الهلاك فقالوا ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أي عند الصبح نزول العذاب[1] وهذا لا يرد في الحقيقة في نفس لوط عليه السلام وهو يعلم بأن نصر ربه متحقق منذ أن كشف الملائكة عن هويتهم وطمسوا أعين من جاء إلى بابه من قومه ، وإنما هذه الجملة وردت تثبيتاً له وتبشيراً فالتوكيد في الجملة الأولى تثبيت وهنا جاءت الجملة للتبشير بأن هؤلاء القوم سيكون فناؤهم وقطع شأفتهم في وقت الصباح ، وقد يكون الفصل لهذه الجملة « كونها جاءت تأكيداً للتعليل فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب »[2] .

---

(١) تفسير الطبري (١٢ / ١٠٧) .

(٢) تفسير أبي السعود (٣ / ٥٦) .

والاستفهام هنا جاء للتقرير[١] .

وقد أظهر في موضع الإضمار كلمة (الصبح) للتهويل ولتأكيد حلول العذاب فيه« وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذٍ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين»[٢].

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ورد العطف بالفاء هنا وقد ورد في سورة الأعراف بالواو ولعل ذلك لأنه لم يوقت لهم العذاب ولم يتوعدهم بسرعته فلذلك جاءت الواو لأنه غير منتظر ، ولَمَّا وقت لهما العذاب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ جاءت الفاء المؤذنة بالسبب [٣] والفاء هنا قد دلت على التعجيل والتعقيب ولَمّا هنا جاءت رابطة للأحداث لم تترك بينها فجوة بل إن المتأمل يلحظ السرد المتتابع الذي يؤثر على النفس ولا يدعها تنفك عن متابعة الحدث حتى نهايته ولما في (لَمَّا) وما تحمله من بث لعنصر التشويق وبث التشوف والترقب في النفس إلى ما سيأتي بعدها من أمر عظيم وحدث مريب وهي تشير إلى أن ما بعدها من أهم ما ورد في المشهد ، إنها العاقبة واللحظات الأخيرة للقوم الظالمين ، وفي التعبير بالأمر إشارة إلى أنه واجب النفاذ ولا راد له وقال تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي عالي قرى قوم لوط (سافلها) أي قلبناها على

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢ / ١٣٤) .

(٢) تفسير أبي السعود (٣ / ٥٦) .

(٣) ينظر بتصرف (كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة ص ٢١٤) .

تلك الهيئة ، وجعل عاليها مفعولاً أولاً للجعل وسافلها مفعولاً ثانياً له ، وإن تحقق القلب بالعكس أيضاً لتهويل الأمر وتفظيع الخطب ؛ لأن جعل عاليها الذي هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وإن كان مستلزماً له(١) وإسناد الجعل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب ولتفخيم الأمر وتهويل الخطب وفي الاقتصار على ذكر جعل العالي سافلاً لأنه أدخل في الإهانة لقوم قد قلبوا الفطرة وانتكسوا ، إن الجعل وقد أسند إلى ضمير الجلالة يصوِّر لنا ذلك عظمة القدرة في قلب القرية وتحويلها إلى هيئة وصورة مختلفة حيث أصبح العالي فيها سافلاً والسافل عالياً ، إنها القدرة والعظمة التي حولت الأمور في سرعة هائلة تبعث الرعب والرهبة ، إنها خوارق عظيمة تصور عظمة قدرة الجاعل من خلال الهيئة التي آل إليها المجعول وفي إرسال الحجارة بعد القلب زيادة في تعذيبهم وقطعٌ لشأفتهم واستئصالٌ لهم ، وقلب القرية في ظاهر الآية أسبق من إمطارهم بالحجارة وما ذكره الطبري من(٢) آثار تبين ذلك فالواو في الآية تكون لترتيب الأحداث ، وقد ذكر ابن كثير ما نقله السدي : من أنه قال : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ ومن لم يمت حين سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان

---

(١) ينظر تفسير السعود (٣/ ٥٦) .

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٢/ ١٠٧ – ١١٠) .

منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي : في القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدى[1] .

ويقول صاحب المنار « وأمطرنا عليهم أي قبل القلب أو في أثنائه وحكمته أن يصيب الشذاذ المتفرقين من أهلها »[2] .

وعلى هذا القول يكون القلب قُدِّم في الآية للتعجيل بذكر ما يناسب جزاءهم ، فالجزاء من جنس العمل فهم قوم قد قلبوا الفطرة فقلب الله عليهم ديارهم ، ولكون القلب أفظع من رميهم بالحجارة قدم للترهيب وبيان عظمة ما حل بهم وإذا كان القلب والإمطار تما في وقت واحد فالواو هنا حالية ولعل ذلك يكون والله أعلم وفي قوله تعالى ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أسند الإمطار إلى ضمير العظمة لبيان فظاعته و(عليهم) تدل على العلو فالحجارة ترسل عليهم من أعلى كالمطر الشديد الكثيف لتعمهم وتعم ديارهم بالهلاك فلا تترك منهم أحداً ، وقال تعالى : ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ أي من طين متحجر كما مرَّ بيان ذلك[3] وصفته أنه نضد أي تراكم بعضه فوق بعض وهو كثير قد أُرسل على القوم كالمطر

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٥٩ . وعلى كلام السدي هنا نرى ترتيب الأحداث يسير عليه حيث كان القلب أولاً ثم الإمطار يأتي بعد ذلك على من لم يمت منهم في القلب ولمن كان منهم شاذاً في الأرض والله أعلم تعالى .

(٢) تفسير المنار (١٢ / ١٣٧) .

(٣) في الباب الأول (أسرار التنوع في المفردات) .

في كثرته وقال تعالى : ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي معلمة ، ولعل ذلك يشير إلى أن كل حجر منها قد أُعلم وسوم واختص بصاحبه ، وأنه قد كتب على كل واحد منها اسم الشخص الذي سيتجه إليه ، ويمكن أن نفهم هذه الدلالات من علاقة التسويم بكلمة سجيل كما مرَّ بيان ذلك فيما سبق ، ويرى الشريف الرضي أن كلمة التسويم لها صورة بيانية بديعة حيث يقول حقيقة التسويم هي العلامات التي يعلم بها الفرسان والأفراس في الحرب ، والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حرباً لهم وأعواناً عليهم وصفها بوصف رجال الحرب وخيولهم فكأنها مرسلة من عند الله ، أي من عند ملائكته الذين تولوا الرمي بها كإرسال الخيول المسومة على أعدائها ، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة [1]، ونظرة الشريف هنا للصورة تقيد من إيحائيتها وهي مشعة الدلالة متسعة الأفق وقد أحسن سيد قطب رحمه الله لما قال « وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحس ولا يفصح عنه التفسير كما يفصح عنه هذا الظل الذي يلقيه ، ويرى أن التسويم هنا كما تسوم الماشية أي تربى وتطلق بكثرة فكأنما هذه الحجارة مرباة ، ومطلقة لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة »[2] .

وفي التعبير باسم المفعول (مسومة) إشارة إلى سبق تعليمها وثبوت علامتها وقوله (عند ربك) فيه إشعار بهول تأثيرها حيث إن المولى عز وجل قد أعدها

(١) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ، ص ٩١ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٢ / ١٩١٥) .

لهم وخصهم بها ، وفي قوله (ربك) تشريف له وإشعار بالعناية والاهتمام وجاء في ختام المشهد قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي الحجارة الموصوفة ببعيد ، أن يمطر بها مشركو قومك يا محمد إن لم يتوبوا من شركهم [1] وقيل الضمير يعود إلى القرية ، أي ما هذه القرية ببعيدة عن قومك فهم يمرون عليها في أسفارهم إلى الشام ، وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف فذُكِّر أي بشيء بعيد أو بمكان بعيد[2] .

إن المشهد في سورة هود قد اهتم بتصوير ما كان يعانيه لوط عليه السلام عندما جاءه الرسل ، فظهرت صورة المعاناة مفصلة ، وأُبرزت وجسدت لنا حالته النفسية وقد اشتد به القلق والحيرة بعد أن أحس بتقطع السبل وهو غريب بين قوم شرسين ، قد تشربت نفوسهم بالظلم والإسراف ، لقد جاءهم وحيداً لا مؤيد له بينهم فكانت تلك الجملة التي أطلقها ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ نراها تصور حزنه وشدة ألمه وكمده ، إنَّ المتلقي هنا يحس بالشفقة على لوط عليه السلام وهو يتابع أحداث المشهد ، وينتقل إلى نفسه ذلك الإحساس الشديد الذي كان يحيط به ، فعرض ما دار بين لوط وقومه وما حاوله في سبيل إبعادهم عما جاءوا إليه ، كل ذلك قد صُوِّر عن طريق الحوار الذي أحيا لنا المشهد وكأننا نعاصر أحداثه ونعيش بين شخصياته ، وقد جاء ذلك في جمل

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٢ / ١١٥) .

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٣ / ٥٦) .

مفصولة أبرزت لنا الصورة وأوصلت في أنفسنا قمة ما وصل إليه القوم من السخف وقمة ما وصل إليه النبي الكريم من كرب عظيم ، وأسلوب الحوار يسود المشهد ويجعلنا نتابع الأحداث مفصلة حتى نصل إلى قمة الحدث وشدته ، وعند هذه اللحظات ينجلي الموقف بسرعة بالحل المفرح والمبشر ، عندما كشف الرسل عن هويتهم فاطمأنت نفس لوط وعلم أنه محاط بكنف الله ورعايته ، وكل ذلك له آثاره التي تشع في نفوس المتلقين وما تهدف إليه الصورة من إبراز معاناة النبي الكريم ثم ما لقيه من رعاية وحفظ من مولاه عند اشتداد الكرب عليه والأساليب قد تنوعت في عرض الصورة ما بين خبرية وإنشائية ويلحظ الأسلوب الإنشائي في الاستفهام المستخدم في جدال لوط لقومه يستنفر ويحفز في أنفسهم الخير ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ وتكرر الاستفهام مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وفي ذلك تهويل وتأكيد لورود العذاب في وقت الصباح ، وفي ذلك اهتمام دقيق بالحركة النفسية وما كان يصاحبها من تساؤلات وتحفزات تصب في تفعيل هدف الصورة من ترهيب المشركين وإنذارهم والاستفهام هنا قد صعد من نبرة الترهيب والتهويل في إطار الصورة ، ثم إن صورة تدمير القرية قد خلت ألفاظها من عناصر التصوير المجازي إنها صورة حية تنقل الحقيقة كما كانت ، إن في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وصفاً لصورة العذاب كما كانت ، حيث إن الله تعالى قد جعل عالي قريتهم سافلاً وهو الذي جرى على الواقع في عذاب القوم ، إنها صورة التدمير الكامل المروِّع ، وإن كان في الكلام تقديم وتأخير في مثل تقديم القلب على الإمطار ، فإن ذلك يشير

إلى ترتيب الحدث على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير ، والصورة قد نقلت لنا كثرة الحجارة واندفاعها وتتابعها في قوله تعالى :
﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ وقدم الجار والمجرور على المفعول لبيان اختصاص هذه القرية بهذا العذاب وتسلطه وقهره .

ثم نرى الصورة تختتم بالتحذير والإنذار لكفار مكة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ فكان ذلك بمثابة التذييل للصورة يبين هدفها وهو الإنذار والتحذير ، ليكون مفتوحاً مشعاً يملأ النفوس يقظة وعبرة ، وهذا الختام يرتبط بالضمائر التي نراها في المشهد تركز على العودة إلى القرية لأن الترهيب والإنذار يتجه إلى ما حل بها من دمار بعد أن أهلك الله أهلها وأبقى منها آية دالة على أليم سطوته والله أعلم .

٢) ما ورد في سورة الحجر :

إن المشهد في سورة الحجر جاء في إيجاز إذا قورن بما ورد في سورة هود وهو ما يوافق جوّ السورة التي اتسمت بالإيجاز وسرعة الإيقاع يقول تعالى عن قوم لوط ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ٧٣ - ٧٧] .

ورد الفعل الماضي (أخذ) مقترناً بالفاء وقد أفادت سرعة الأخذ وجعلته مترتباً على طغيان القوم وفسقهم ، فالأخذ مسبب عما ذكر قبله من طغيان القوم

وتجاوزهم لحدود الله ، وقد أُسند الأخذ إلى الصيحة وهو إسناد مجازي علاقته السببية ؛ لأن الآخذ لهم بالعذاب هو الله تعالى والغرض من هذا الإسناد بيان وتصوير العذاب في صورة مجسمة محسوسة تبعث الرعب والهول ، وأصل مادة الأخذ تناول الشيء المأخوذ باليد واستعير هنا للإهلاك لبيان التمكن والتسلط على المأخوذ الذي لا قدرة له في الممانعة أو الفكاك ، والأخذ كان وقته مع الشروق ولذلك انتصبت كلمة (مشرقين) على الحال والصورة هنا تبرز الوقت والزمن الذي أُخذ فيه الظالمون لما في ذلك من تأثير ينبعث في النفس وهي تتصور وقت الشروق وما حصل فيه من شدة البلاء والعذاب حتى أصبح الوقت في ذاته فظيعاً ، وكلمة الأخذ وما أضفته من دلالة على العنف الذي يتلاءم مع ذكر الصحية .

وفي أخذ الصيحة[1] استعارة مكنية حيث شبهت الصيحة بالحي الكائن الذي يقوم بالفعل بجامع المباشرة والتأثير ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأخذ ، فالعذاب هنا جاء مشخصاً في صورة وهيئة ملموسة وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

والجمل هناقد تتابعت موصولة توحي بالسرعة والحسم العاجل في أمر القوم الظالمين وقد قدم الجار والمجرور (عليهم) على الخبر لإفادة التخصيص .

---

(١) في إسناد الأخذ إلى الصيحة تهويل لما أُنزل بالقوم لبيان فظاعة العذاب عندما حلَّ بهم وفي الأخذ استعارة تبعية حيث استعير الأخذ للإهلاك لبيان عنفه وشناعته واستئصاله .

وختم المشهد بجملة مؤكدة فيهاتذييل لمعاني الصورة وبيان للهدف من إيرادها حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

جاء تأكيد الجملة لتحقيق مضمونها ، وفي اسم الإشارة (ذلك) التفات إلى ما ذكر من أحداث ، والإشارة إليها بالبعيد لتفخيم شأنها وبيان عظمة أثرها ، إن التوكيد للجملة بإن واللام كان لحاجة المقام إلى مزيد تأكيد لكون الإهلاك والتدمير الحاصل من الأمور العجيبة والأفعال الخارجة عن العادة ، وكان تقديم الخبر (في ذلك) على اسم إنَّ لما فيه من اهتمام ببيان موطن العبرة ومحلها وهي هذه الأحداث المريبة ، وكان في ذلك آيات ولم يقل آية لكون هذه المشاهد تحتوي على دلائل قدرة الله وجبروته في الظالمين ، وما تضمن ذلك من نصر الله لعبده وخذلان عدوه وبقاء آثار هذا العذاب شاهدة على ما حصل لهؤلاء القوم ، وتقييد الآيات بكونها للمتوسمين لأنهم هم المعتبرون بها فيها .

« والتوسم هو التأمل في السمة أي العلامة الدالة على المعلم والمراد المتأملين في الأسباب وعواقبها وهم المؤمنون ، وهو تعريض بالذين لم تردعهم العبر بأنهم دون مرتبة النظر تعريضاً بالمشركين الذين لم يتعظوا بأن يحل بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم »(١) .

وقد أُعقبت هذه الجملة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي هذه القرية في طريق هؤلاء القوم باقية آثارها ماثلة يرونها كلما مرَّوا عليها في طريق تجارتهم

---

(١) التحرير والتنوير (١٣ / ٧٠) .

إلى الشام « والمقيم أصله الشخص المستقر في مكانه غير مرتحل وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم »[1] .

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو تذييل يشير إلى ما تقدم من القصة ، وفي التعبير هنا بالمؤمنين تنبيه وتوكيد على أن المتوسمين هم المؤمنون وليس غيرهم ، لأنهم هم الذين استفادوا واعتبروا وتدبروا فكان توسمهم نافعاً لهم . وفي التعبير بالآية هنا في التذييل وبالآيات فيما سبق للمتوسمين فيه إشارة إلى أن ما قص من حديث لوط وضيف إبراهيم وما كان من عاقبة أمرهم كل جزء في ذلك في نفسه آية ، فيكون المشار إليه بذلك عدة آيات وأما كون قرية لوط بسبيل مقيم فهو في جملته آية واحدة[2] .

لقد أظهرت سورة الحجر العنصر الزمني الذي قطع فيه دابر القوم الظالمين حيث أذهلهم صوت الفاجعة عند شروق الشمس فأهلكوا ، والمشهد يركز على التذكير والتحذير لمشركي مكة يعرِّض بهم يدعوهم إلى النظر والاعتبار .

٣) ما ورد في سورة (الشعراء ، والنمل ، والعنكبوت)

جاء السياق في سورة الشعراء مختلفاً حيث نجد السورة تعرض موقفاً من المواقف الأخيرة بين لوط وقومه ، حيث هددوه بالإخراج من قريتهم والإبعاد إن لم ينته ويبتعد عن تقبيح أعمالهم ولكنه ظل مستمراً في دعوته متبرئاً مما يقومون

---

(١) المصدر نفسه (١٣ / ٧٠) .

(٢) ينظر درة التنزيل (ص ١٨٠) .

به ولما زاد إسرافهم وتبجحهم عليه دعا ربه النجاة لنفسه وأهله ، ولذلك نجد ذكر النجاة للوط يبرز هنا ويختصر في ذكر ما حلَّ بالقوم من العذاب ؛ لأن المقام مقام انتصار وإنجاء واستجابة للوط عليه السلام حيث ورد في الآيات قوله تعالى ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الآيات : ١٦٧ - ١٧٢] إن النتيجة تبرز هنا سريعة خاطفة تبث خبر النجاة وتبرزه ، وتبين هلاك الظالمين ، والمراد هو إظهار فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين ، وأن الله ينتصر لأوليائه ويخذل أعداءهم ، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين وتسلية للرسول ﷺ وفي مثل ذلك ورد في سورة النمل حيث يقول تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ٥٦ - ٥٨] .

وأما في سورة العنكبوت وهي من السور التي نزلت متأخرة فقد امتلأ موقف القوم فيها من لوط تحدياً واستخفافاً وعناداً حيث استعجلوه بإنزال العذاب تكذيباً له وتعنتاً فاستنصر ربه فنصره حيث يقول تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ

﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾
[الآيات : ٢٩ – ٣٢] .

ابتدأ المشهد بتحدي القوم حيث قصروا جوابهم على لوط وهو يدعوهم على قولهم هذا فلم يعد لديهم جواب يمكن أن يقال غيره ، وهو من قصر الموصوف على الصفة فيه تأكيد لنبرة التحدي والتكذيب حيث أُظهرت عبر أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ، فهو من الأساليب التي تستخدم في المواقف المحتدمة ، فجاء رده عليه السلام بالتضرع إلى ربه يطلبه النصر حيث قال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ والمشهد تداخلت فيه قصة إبراهيم عليه السلام مع قصة لوط ولكن الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام قد جاء موجزاً وطويت المشاهد التي تتعلق به وبامرأته ، لورود هذا التفصيل في سور سابقة ، ولأن المقام هنا يقتضي إيراد ما يختص بهلاك قوم لوط عليه السلام ، فكانت مهمة الملائكة مهمتين مهمة التبشير لإبراهيم عليه السلام والمرور عليه ، ومهمة الإهلاك لقوم لوط ، والمتأمل في ورود (لمّا) الحينية وما أثارته في النفس من الترقب والتطلع لما سيأتي بعدها وما أحدثته من ربط مجيء الرسل بهلاك القرية يستشعر بأن ذلك هو الهدف الأهم من مجيء الرسل وإتيانهم ، وإبراهيم عليه السلام قد أدرك أن الرسل لا يأتون إلا لأمر عظيم ، ولذلك قال لهم في سورة القمر ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ ومن هنا انحدر الترهيب في المشهد منذ أن أعلن الملائكة عن مهمتهم العظمى ، وقد أكدوا لإبراهيم عليه السلام هلاك قوم لوط ونهاية

أمرهم وكان التأكيد بإن واسمية الجملة لتقوية الأمر في نفسه وهو يشفق على لوط ومن معه ولما يحمل الخبر من فظاعة وغرابة ، وفي التعبير باسم الفاعل (مهلكوا) إشارة إلى تحقق الإهلاك وثبوته حيث لا رجوع عنه ، وقد أوقع الإهلاك على أهل القرية لبيان أنهم هم المقصودون ، فهم المجرمون المفسدون ، ومن أجلهم جاء العذاب ، وأُشير إلى القرية باسم الإشارة التي للقريب للإشعار بحقارة هذه القرية ودنو منزلتها لدناءة وخسة أهلها ، وقالوا معللين لأمر الإهلاك ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ ولذلك جاءت هذه الجملة مفصولة للاستئناف البياني ؛ لأن الإخبار بإهلاكهم مثير للسؤال عن سبب إهلاكهم ، وقد صدرت الجملة بالتأكيد بإن لتحقيق الخبر وإثباته وفي ذلك إيناس لإبراهيم عليه السلام حتى لا يحزن ويفاجأ بهذا الخبر المؤلم ، وفي ذلك بيان لعدل الله تعالى، فهو لا يجازي العبيد إلا بما كسبت أيديهم . وقد أظهر كلمة (الأهل) في موضع الإضمار لإبرازهم وذمهم بالظلم وقد عبَّر النظم الكريم بـ(كانوا) بعد التأكيد لبيان عراقتهم ورسوخهم في الظلم ، وجاء التعبير باسم الفاعل (ظالمين) يؤكد ثباتهم على الظلم واستمرارهم عليه لم ينفكوا عنه ، ولما كان خبر الإهلاك الذي ألقته الملائكة وبينته لإبراهيم عليه السلام يفيد العموم والشمول بعث ذلك في نفس إبراهيم عليه السلام الخوف على ابن أخيه لوط عليه السلام كيف سيكون حاله ؟ وكيف ستكون نجاته ؟ فما كان منه إلا أن ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ وفي ذلك تنبيه أُكد بإنَّ لإرادته عليه السلام الاطمئنان على لوط ومن معه ، إنه تنبيه يبعث به إلى الملائكة وهو يعلم أن سنة الله لا تختلف في إنجاء رسله ، وإنما أراد

معرفة كيفية النجاة والدليل على ذلك أنه قال (فيها) ولم يقل منهم أو من أهلها وفي ذلك إشعار بعلمه بأن لوطاً عليه السلام غير هالك مع أهلها ، وإنما أراد الاطمئنان على كيفية سلامته من القرية المهلكة بمن فيها وقوله عليه السلام يعتبر من بليغ الإشارة وخفيها ، وجداله هنا يصوِّر لنا شفقته واهتمامه بأمر لوط ومن معه ، فجاء رد الملائكة ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ وهذا الرد جاء في جملة مفصولة للاستئناف البياني وهو جواب عن تذكير إبراهيم عليه السلام بإنجاء لوط « أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله واستحقاق غيره العذاب ، فإن الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون »[1] .

وهذا القول من الملائكة يتبين منه أنهم قد سلموا لإبراهيم عليه السلام في قوله وإنما أرادوا إعلامه بأنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام ، وفي هذا القول كناية عن نجاته من الهلاك وبث للطمأنينة في نفس إبراهيم عليه السلام عن شأن لوط ، ولما قالوا ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ ولم يقولوا نحن أعلم بلوط للدلالة على مزيد علمهم بلوط وبغيره فهم يعلمون بمن معه من أهله ، ويعلمون بالمفسدين وبامرأته التي ضلت مع قومها ، فكان في اسم التفضيل وفي حذف المفضل عليه دلالة على ذلك ، وبيان بأنهم قد أُرسلوا من لدن حكيم عليم . وقد حشدت هذه التأكيدات للتصريح بنجاته والتفصيل في ذكر مصيره لأن المقام يقتضي ذلك .

---

(١) التحرير والتنوير (٢١ / ٢٤٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ .

« جاءت هذه الجملة بياناً لجملة (نحن أعلم بمن فيها) فلذلك لم تعطف عليها وفصلت »[1] .

ولننظر إلى ما وجد في هذه الجملة من تأكيدات ، حيث كان التأكيد باللام الواقعة في جواب القسم ، والتقدير والله لننجينه وأهله ، وكذلك نون التوكيد الثقيلة وكل ذلك إشارة إلى تحقق أمر النجاة وثبوتها مع بيان أنهم معتنون بنجاة لوط ومن معه من أهله على أتم وجه وأكمله وفي تضعيف الفعل (نجّى) بيان لعظمة هذه النجاة حيث كانت بعناية من اللطيف الخبير ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فقد تقدم الكلام على نظيره في سورة الأعراف والاستثناء فيه تأكيد لخروج المرأة من أهله الناجين ودخولها مع القوم المهلكين وهو استثناء فيه إبراز لخروجها وتأكيد له ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ جاءت لما هنا تربط بين المشهد الذي دار فيه الحوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة ، وهذا المشهد هو ربط فيه تسلسل بديع لا يجعل بين المشهدين فجوة من الفجوات الفاصلة ، وفي هذا تصوير لسرعة انتقال الملائكة ومجيئهم إلى لوط عليه السلام وقد اقترنت لمّا

---

(١) التحرير والتنوير (٢١ / ٢٤٣) .

هنا بـ(أن) خلافاً لما ورد في سورة هود حيث تجردت من (أن) ولم ترتبط بها وفي ذلك يقول الزمخشري رحمه الله إن (أن) هنا « جاءت صلة أكدت وجود فعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان»[1] .

وهو كلام جميل يحتاج إلى توضيح وذلك أن وجود (أن) بعد لما هنا في سورة العنكبوت ينبئ عن النهاية القريبة والموجزة حيث ذكر فيها بعد ضيق لوط عليه السلام طمأنة الرسل مباشرة دون تفصيل لحال الكرب الذي لاقاه ، والحوار الذي دار بينه وبين الملائكة وقومه وأما سورة هود فقد بَعُد جواب الملائكة وبيانهم للوط عليه السلام بأنهم رسل الله تعالى .

« فلم تقع (أن) المؤكدة فيها لأن فيها تفصيلاً لسبب إساءته وضيق ذرعه فكان ذلك مغنياً عن التنبيه عليه في هذه الآية فكان التأكيد هنا ضرباً من الإطناب »[2] .

وللمتأمل أن يلاحظ التفصيل في سورة هود ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ وعند اشتداد المحاورة بين لوط وقومه حيث قال لهم ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ثم ما كان منهم إلا الإصرار على ما يريدون حيث يقولون ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ثم تأتي النهاية والنتيجة بعد هذا التفصيل في قول

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣ / ٤٣٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٠ / ٢٤٤) .

الملائكة ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ فكانت أن مع الإيجاز تكملة وفي خلوها من مواقع التفصيل بعد عن الاطناب وكل ذلك بديع في سياقه(١)

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ جاءت هذه الجملة مباشرة بعد قوله تعالى : ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ لأن السياق هنا يهتم بالتعجيل بطمأنة لوط عليه السلام قبل إعلامه بإنزال العذاب ، وقد طويت جمل كثيرة ذكرت في سورة هود من مثل مجيء القوم إلى لوط يهرعون إليه ، وتعريف الملائكة بأنفسهم له بعد الجدال الذي دار بينه وبين قومه وبعد أن يأس من أمرهم حيث قال له الملائكة ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ كل ذلك اختصر هنا فيما تضمنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ وعند التأمل في هذه الجمل التي جاء فيها وأُعقب بالتأكيد بأن واسمية الجملة يلحظ الحشد المتتابع من أدوات التوكيد التي تبعث في نفس النبي الكريم الطمأنينة والاستقرار في اختصار بديع ينوب عما طوي ذكره في سورة هود والتأكيد بإن واسمية الجملة يدل على ثبوت هذه النجاة وتحققها ، وقد عطفت جملة (ولا تحزن) على جملة (ولا تخف) وفي ذلك « جمع بين تأمينه من ضرِّ العذاب وبين إعلامه بأن الذين سيهلكون ليسوا أهلاً لأن يحزن

---

(١) يقول الاسكافي رحمه الله « إن اقتران (أن) في سورة العنكبوت تكملة لمعناها في نفسها ليدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متصلاً به ما يكمله ، ويخلصه لتحقيق أو بطلان ، وفي هود لم يتصل بجوابها ما يخلصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند قوله ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ فبعد هذا الجواب ولم يتصل به ما يكون من تمامه » ينظر : درة التنزيل (ص ٢٤٩) .

عليهم ، ومن أولئك امرأته لأنه لا يحزن على من ليس بمؤمن به[1].

وجملة (إنا منجوك وأهلك) جاءت بعد جملة النهي والأمر مفصولة لأنها تعليل للنهي الوارد في الجملتين السابقتين وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ والجملة هنا مستأنفة وهي مفصولة عما قبلها لأنها وقعت بياناً لما في جملة (لا تخف ولا تحزن) من الإيذان بأن ثمة حادثاً يخاف منه ويحزن له[2] ، وقد يكون البيان لما أُشير من أمر التنجية في قوله ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ حيث سينزل الله على هؤلاء القوم العذاب وينجي نبيه ومن معه وقال تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ لبيان تسلط العذاب عليهم وقهره لهم وإذلاله وفي (هذه) تعيين للقرية وتمييز لها بواسطة اسم الإشارة المحسوسة للإشعار بحقارتها ودنو منزلتها وهنا في هذا المشهد لا نجد تصويراً للعذاب في نزوله عليهم كالمطر في كثرته ، وإنما عبر عنه بالرجز لتصوير ما أصاب القوم من ألم شديد واضطراب وقلق وحيرة عندما حل بهم العذاب ، فهي تركز على أحوالهم النفسية وما داخلها عندما نزل العذاب فالرجز « عذاب يقلق المعذب أي يزعجه من قولهم ارتجز إذا ارتجس واضطرب »[3] .

وفي تنكيره إشارة إلى شدته حيث كان عذاباً من نوع خاص لم يعهدوه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠ / ٢٤٥) .

(٢) ينظر المصدر السابق (٢٠ / ٢٤٥) .

(٣) تفسير أبي السعود (٤ / ٢٥٩) .

واختتم المشهد في هذه السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ونبرة التأكيد تعلو في هذا الختام حيث أكد باللام وقد ، والفعل الماضي ، وهو تأكيد يبين ويقرر ثبوت الترك وتحققه ومع ذلك فالقوم من شدة عدم اعتبارهم والتفاتهم كأن هذه الآية المتروكة لم تكن موجودة في الأصل ولذلك حشدت هذه التأكيدات في الختام لتحقيق مضمون الخبر وتقريره وقد نزلوا منزلة من ينكر أو يشك في وجود ذلك .

ولقد بين تعالى هنا أنه ترك منها آية ومن اسم بمعنى بعض أي أنه قد ترك من القرية آثاراً دالة تدل عليها لأصحاب العقول وأوثر العقل هنا على الذكر والتفكر للإعلام بأن هناك آياتٍ كثيرة يدركها العقلاء ببديهة النظر ، وفي هذا تعريض بالمخاطبين ووصف لهم بالغفلة ، وجملة الختام جاءت معطوفة على جملة (ولوطاً إذ قال لقومه) إلخ . عطف آية على آية لأن قصة لوط آية بما تضمنته من الخبر ، وآثار قرية قومه آية أخرى بما يمكن مشاهدته لأهل البصر ، وهي آية واضحة دائمة على طول الزمان ولذلك وصفت ببينة ولم توصف آية السفينة بـ(ببينة) في قوله ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ لأن السفينة قد بليت ألواحها وحديدها أو بقي منها ما لا يظهر إلا بعد تفتيش إن كان [1] إنَّ المشهد في سورة العنكبوت قد عرض بإيجاز مرور الملائكة على إبراهيم تبشره وتعلمه بهلاك قوم لوط فما كان منه عليه السلام إلا أن جادلهم في شأن لوط فأخبرته الملائكة

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٠ / ٢٤٦) .

بعلمهم به ومن معه وأكدوا خبر نجاته والجديد في المشهد أن الملائكة قد صرحوا بمهمتهم التي جاءوا من أجلها بينما فهم ذلك ضمناً في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ ولوط عليه السلام قد تلهف لمعرفة ما سيحل بقومه في سورة هود .

وهنا نجد أن ما يريد معرفته قد بين له سريعاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ والمشهد قد انحدرت منه الرهبة منذ لقاء الملائكة بإبراهيم وحواره معهم في شأن لوط عندما يحل العذاب على القرية وعند تأمل ذلك نجد إيحاءاته العظيمة والمهولة تنبعث في النفس لترقب ما سيتلو من أحداث ولما طمأنته الملائكة في شأن لوط ومن معه بعث ذلك في النفس الثبات واليقين لكل مؤمن ومؤمنة ، بأن سنة الله لا تختلف في نصرة نبيه ومن آمن به ، وأنه يهلك الظالمين في كل وقت وزمان مهما طال وقت الظلم ، ولَمَّا حلت الملائكة بلوط عليه السلام اختصر المشهد هنا ما دار بين لوط والملائكة وما دار بينه وبين قومه من حوار حيث أُلقي إليه خبر النجاة والاطمئنان سريعاً وختم المشهد بالتأكيد على حلول العذاب الذي يؤذي هؤلاء القوم ويعذبهم عذاباً أليماً تضطرب فيه نفوسهم ، إن المشهد يركز على إبراز الأحوال النفسية المصاحبة لحال المعذب عند نزول العذاب من خلال كلمة الرجز وما حملته من دلالات وقد ساد المشهد عنصر الحوار الذي أحيا لنا صوره ونقل لنا أحداثه وجعلنا نعيش بين جنباته وهكذا نجد البيان القرآني تتكامل مشاهده في إبراز حادثة الإهلاك بما يوافق سياق كل سورة وأحوالها وبما يحقق التكامل البديع لأجزاء القصة كلها .

المبحث الثاني

تصوير هلاك قوم لوط في سورة الصافات ، والذاريات والقمر

أ) ما ورد في سورة الصافات :

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الآيات : ١٣٣ - ١٣٨] .

المشهد هنا يأتي في إيجاز وإيقاع سريع يتفق مع إيجاز السورة الكريمة ولمساتها المتدفقة في جمل موصولة وفقرات قصيرة ، والمشهد قد ابتدأ ببيان الرسالة للوط وجاء ذلك في خبر مؤكد لبيان قيامه بمهمة الرسالة على أكمل وجه وأتمه وفي ذلك مدح له وتشريف ، والتأكيد كان بإن واللام واسمية الجملة ، وفي قوله (إذ نجيناه) « متعلق بالمرسلين والمعنى أنه في حين إنجاء الله إياه وإهلاك الله لقومه كان قائماً بالرسالة عن الله تعالى ناطقاً بما أمره الله ، وإنما خص حين إنجائه بجعله ظرفاً للكون من المرسلين ؛ لأن ذلك الوقت ظرف للأحوال الدالة على رسالته إذ هي مماثلة لأحوال الرسل من قبل ومن بعد »(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣ / ١٧١) .

(٢) مرّ تفصيل القول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فيما سبق من نظائره .

.

المشهد يختتم ببيان غفلة المشركين عن هذه الآيات العظيمة ، فالله تعالى يخاطب مشركي قريش في عدم اعتبارهم مع مرورهم على قرية قوم لوط المدمرة عند إصباحهم نهاراً وبالليل[1] .

وقد أُكد الخبر لبيان تحقق المرور عليها وقد عدي بحرف الجر على لإفادة تمكن مرورهم ، ثم نجد الآية تختتم بالاستفهام الإنكاري حيث يستنفر المخاطب من غفلته وغيه ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ فالذي يعتبر هو كل عاقل يحرص على صلاح أمره ، وقد أوثر المضارع في فاصلة الآية الكريمة لما فيه بعد الإنكار ما يلحظ من حث وترغيب في البعد عما أُنكر ، والصورة هنا قد بعثت في هذه الفقرات القصيرة والإيقاع السريع بيان النجاة وما أعقبها من إهلاك القوم ، وقد عطف بحرف المهلة (ثم) وهو ما يحقق ويؤكد سبق النجاة للوط ومن معه قبل نزول العذاب ، وأن الإهلاك كان عقب ذلك ، وأن الترتيب الذي حصل في سورة الأعراف وبقية السور كان على أصله ، فالواو أفادت بسياقها ترتيب الأحداث ، والله أعلم ، إن المراد هنا في هذا الإيجاز اللافت والدفقات السريعة هو الإشارة إلى النجاة وبيان عظمتها ، فهي مسندة إلى ضمير الجلالة ، فالله قد امتن على عبده ومن آمن به بهذا الفضل حيث أهلك الظالمين ، وقد جاء ذلك في صورة سريعة تبين الحسم في أمرهم ، وبهذا فالصورة تبث الثبات والتسلية ، وفيها إيحاء بالإنذار والتحذير لكفار

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٣ / ١١٦) .

مكة ، إنها صورة سريعة متدفقة موجزة ذات إيقاع سريع يتلاءم مع إيجاز المعنى ويزيده وضوحاً في نبراته المتتالية التي تبعث صوتاً إيقاعياً يتوغل مع المعاني إلى النفس فتشع الدلالات لتتسع وتشير إلى ما طوي من أحداث قد تضمنتها الألفاظ في إيجازها البديع، والصورة والمشهد هنا فيه تصوير لفضل الله على نبيه في إنجائه وتكريمه ، وبذلك لم يكن فيها بروز لصور العذاب وهوله .

ب) ما ورد في سورة الذاريات :

يقول تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الآيات : ٣١ - ٣٧] .

ابتدأ المشهد هنا بخطاب إبراهيم عليه السلام للملائكة وردهم عليه حيث خاطبهم بالرسالة ولم نجد هذا الخطاب بالرسالة ، فيما مضى من السور الكريمة وقد صُدِّر كلامه بالفاء وفي ذلك إشارة أنه عليه السلام قد فهم أن الرسل الكرام لم يأتوا من أجل البشارة فقط ، بل كان لهم أمر آخر أهم ، فحسن قوله لهم ما خطبكم في إيجاز بديع . والفاء هنا « فصيحة على معنى إذا تحقَّق هذا فأخبروني ما أمركم الذي جئتم له سوى البشارة »(١) .

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٤ / ١٥) .

والخطب : الأمر العظيم والشديد ولقد تناسبت هذه الكلمة مع مقام الخوف والاضطراب في شأن مجيء الرسل الغريب الذي ينبئ عن أمر خطير يقول الرازي رحمه الله : « فإن قلت هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ ؟ نقول نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي تقرب منها وهي : (الشغل ، والأمر ، والفعل) وأمثالها لا تدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي ، فقال (ما خطبكم) أي لعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول ما شغلكم الخطير ؟ وأمركم العظيم ؟ للزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز »[1] وهو ما يلائم إيجاز المشهد وبناء السورة على الإيجاز وفي إضافة الخطب إلى ضمير الملائكة لأنهم هم من سيقوم بالمهمة بأمر الحكيم العليم وفي حذف حرف النداء بيان لقرب الملائكة من إبراهيم عليه السلام قرباً حسياً ومعنوياً ، وهو لم يقل هذا القول إلا بعد أن ذهب عنه الروع واستقرت نفسه وعلم بأنهم رسل الله ، فسألهم عن مهمتهم ، فجاء جواب الرسل على سؤاله ليبينوا له المهمة التي أرسلوا من أجلها ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ والجملة جاءت مفصولة للاستئناف البياني وقد صدرت بالتأكيد للخبر لتحقيقه وبيان ثبوته ولوقوعه في جواب سؤال مقدر ، وفي البناء للمفعول إشارة إلى علم إبراهيم عليه السلام بمرسلهم وهو الله عز وجل ، وجاء تنكير (قوم) للتحقير

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٧/ ٦٤٥) .

والذم ، وزيد على ذلك وصفهم بالمجرمين حيث « عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظاهر ، لتسجيل إفراطهم في الإجرام »(١) .

وهو الأمر الذي من أجله أُرسل الرسل إليهم بالعذاب . إنّ وصف القوم بالإجرام فيه مسارعة إلى إيضاح مرتكبهم وفسادهم قبل أن يتبادر إلى النفس الحزن والأسى عليهم ، وللتخفيف على إبراهيم عليه السلام وهو يجادل في قوم لوط فأمر الله لا يحل إلا على كل كافر متجبر مسرف ، إنَّ وصف القوم بالإجرام فيه تعليل منذ البداية بما سيأتيهم ويحل بهم من جزاء مقابل ، وقد اختصرت هذه الكلمة ما شرح وفصل من بيان عن أفعالهم فيما مضى من السور التي فصلت في شأنهم والصورة هنا تهتم بإبراز الفظاعة والرهبة منذ لقاء الملائكة بإبراهيم حتى تم العذاب وحلَّ بالقوم الظالمين ، فالإيجاز وطيّ الأحداث الجانبية ظاهر في المشهد هنا وقال تعالى عنهم ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ قدم الجار والمجرور هنا (عليهم) على المفعول به لبيان اختصاصهم بهذا العذاب ، وفيه تعجيل لطمأنة إبراهيم عليه السلام حيث إن هذا العذاب خاص بهؤلاء المجرمين لا يتعداهم إلى غيرهم ، فلوط ومن آمن به في مأمن منه بأمر الله تعالى وقدرته ، وجاء تنكير الحجارة لبيان فظاعتها وكثرتها ، وقال تعالى﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذه الآية وقعت موقع التذييل لقصة المحاورة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام والملائكة .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٧) .

والفاء في (فأخرجنا) فصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر هو ما ذكر في سورة هود من مجيء الملائكة إلى لوط وما حدث له مع قومه ، فالتقدير فحلوا بقرية لوط فأمرناهم بإخراج من كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم [1] (ومن كان فيها) حرف الظرفية (في) يوحي بوجود لوط ومن معه في وسط القرية وليسوا في جانب منها ، وقال من (المؤمنين) ليشير إلى سبب نجاتهم وهو الإيمان الذي رفع منزلتهم وأخّر الله عنهم بقدرته نزول الحجارة حتى خرجوا من القرية آمنين سالمين وقد غنموا الرحمة والفوز ، وقال تعالى ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ « فما وجدنا تفريع خبر على خبر ومن مزيدة لتأكيد النفي [2]

إنه ختام يبعث الحسرة والتسلية ، وهكذا نجد أن الآيات ركزت على صورة الإهلاك ، وأظهرت شخصيات الأحداث وأبرزتهم عن طريق الحوار المشخص الذي أحيا لنا الصورة وجعلها مستحضرة تبث نذر الرهبة والخوف ، وتبرز إنجاء الله لرسوله ومن معه ، وتبين أهمية الإيمان في السلامة من العذاب إن الإيجاز سمته بارزة في المشهد حيث اختُصر الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة وما كان من اهتمامه بشأن لوط عليه السلام كما ورد في سورة العنكبوت وطوي هناما دار بين لوط وقومه قبل نزول العذاب ؛ لأن المشهد مبني من أوله على الإيجاز الذي يتفق مع موضوع السورة وبنائها وسياقها المبني

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ٧) .

(٢) المصدر نفسه (٢٧ / ٧) .

على التهديد والتخويف من عذاب الله ، وقد ابتدأ المشهد بسؤال إبراهيم عليه السلام عن مهمة الرسل العظيمة فجاء الجواب في إيجاز ينفذ سريعاً إلى ذكر واقعة الإهلاك وحصول النجاة في جمل قصيرة تركز على ذكر أهمية الإيمان ، وأنه السبب الأعظم في حصول النجاة وتحققها وبدونه يكون الهلاك والدمار لمن كذب وأعرض وكان الحديث عن إنجاء لوط ومن معه « يتوارى خلف نذر العذاب ، ووطأة الانتقام حتى إن لوطاً لم يُذكر صريحاً في هذا الموضع ، مما يدل على أن القصة مسوقة للتخويف والتهديد »[1] .

وفي الختام يبين الله تعالى أنه قد ترك من الآثار الشاهدة والواضحة ما يدل على هلاك أهل هذه القرية لمن بعدهم ، ومنهم كفار مكة المعرضين الذين يمرون على هذه الآثار مصبحين وبالليل لا يعتبرون ، وفي هذا الختام تحذير مشع وإنذار لهم إن لم يؤمنوا فإن مصيرهم سيكون كمصير من سبقهم من الأمم ، وجاء التعبير بالخوف في صيغة الفعل المضارع في قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ للدلالة على تجدد الخوف واستمراره لاستمرار الآيات الموعظة في البيان والوضوح ، وأن حال المؤمن في ترقب وخوف مستمر حتى يلقى الله تعالى فيدخل في أمنه ورحمته ، إن الختام هنا يكشف عن الغرض من إيراد المشهد وهو التخويف من عذاب الله ونقمته .

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري ص ٦٧ .

جـ) ما ورد في سورة القمر :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [الآيات: ٣٣-٣٩].

ابتدأ المشهد هنا بذكر التكذيب منذ البداية ، وفي ذلك إيجاز بديع اكتفي به عن تفصيل كيفية التكذيب ، وهو ما يناسب سياق السورة في الإيجاز واكتفاءً بما ذكر في مشاهد سابقة مرَّ فيها التفصيل في السور التي نزلت قبل سورة القمر والمشهد هنا مقارنة بما ورد في سورة الذاريات يلحظ فيه التفصيل ، وهو ما يناسب تقدم السورة في ترتيبها النزولي على سورة الذاريات وتفصيل صورة الإهلاك يتلاءم مع مقام الترهيب والتهويل والتحذير الذي سارت عليه السورة وبنيت عليه وهي تهدد المشركين في إعراضهم ، ومن هنا كان الدخول مباشرة على صورة الإهلاك دون التطرق لأقوال المعرضين وجدالهم ، فجاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ في جملة مفصولة للاستئناف البياني الناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنهم كذبوا بالنذر ، وقد أُكد الخبر لأن مضمونه حقيقة عظيمة وبلاغة النظم الحكيم تصوغ هذه الحقائق العظيمة في أساليب فخمة مثل معانيها وجاء تنكير (حاصباً) للتعظيم والتفخيم وقد أُسند الإرسال إلى ضمير العظمة لتفخيمه وقدم الجار والمجرور على المفعول لبيان اختصاص القوم بهذا العذاب وفي

حرف الاستعلاء بيان لتمكن العذاب وتسلطه عليهم وقهره وإهانته لهم .

والحاصب الحجارة المرسلة[1] وكلمة الحاصب في إيقاعها وما تحمله من معنى تصور الشدة والعنف ، وتظهر لنا شيئاً جديداً من جوانب الصورة لم نلحظه فيما مضى من قبل إنها تصور لنا وقع الحجارة على القوم فنحن هنا نشاهد التعذيب النازل وما ألمحت إليه كلمة الحاصب من إشارة إلى مصاحبة الريح للحجارة فهي « ريح ترمي بحجارة »[2] .

وهذا يصوِّر شدة الوقع فالحجارة أرسلت من علو ، ثم هي تهبط عليهم في سرعة جاذبة بواسطة الريح التي توجهها للهدف ، فتحصبهم بها ، وقد قدم الإخبار بعذابهم في صدر المشهد للدلالة على تناهي الفظاعة فيما ارتكبوه من جرم عجّل لهم الله بسببه العذاب .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ الاستثناء هنا قد يكون منقطعاً على أنه استثناء من القوم ، وقد وصف القوم هنا بالتكذيب والضلال وعلى هذا يلحظ اختلاف الجنسين فيكون آل لوط غير داخلين في حكم إرسال العذاب ، وإنما هو خاص بالقوم الظالمين وعلى ذلك تكون إلا هنا بمعنى لكن أي لكن آل لوط نجيناهم بسحر ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً « من الضمير في مجرمين ، أي إلى قوم أجرموا جميعاً إلا آل لوط ، فالقوم والإرسال شاملان

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٧ / ١٢٢) .

(٢) نظم الدرر (٧ / ٣٦١) .

للمجرمين وغيرهم ، والمعنى أنا أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط لنهلك الأولين وننجي الآخرين »[1] .

فتكون مهمة الرسل مهمتين ، مهمة في الإهلاك ، ومهمة في التنجية ، فكان الإرسال هنا للعذاب لقوم لوط وللتنجية للوط ومن آمن معه .

وجاءت جملة (نجيناهم بسحر) مفصولة عما قبلها للاستئناف البياني وهو جواب لمن كأنه قال : ما حالهم ؟ فقيل : نجّيناهم أي تنجية عظيمة بالتدريج وذكر أول الشروع لإنجائهم فقال (بسحر) والسحر السدس الأخير من الليل وهو الوقت الذي يكون فيه الإنسان لاسيما النساء والأطفال في غاية الغفلة بالاستغراق في النوم ولذلك نجد أن الله تعالى يذكر التعليل للنجاة بقوله ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا ﴾ أي عظيمة جداً لشكرهم ولما كان كأنه قيل : هل هذا مختص بهم الإنجاء من بين الظالمين ، أجاب بقوله كذلك نجزي من شكر أي مثل هذا الإنجاء العظيم الذي جعلنا جزاءً لهم نجزي بقدرتنا وعظمتنا من شكر[2].

وفي قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ تقدم اسم الإشارة المفعول المطلق على عامله (نجزي) للاهتمام بمدلول اسم الإشارة ، وفي ذلك إيجاز أغنى عن التطويل ، فالجزاء لمّا كان عظيماً لا يقاس قدره شبه بمشار إليه باسم الإشارة التي للبعيد للإشعار بعلو قدره وبعد مرتبته في الكمال والفضل ، أي مثل ذلك الجزاء

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣٢) .

(٢) ينظر نظم الدرر (٧/ ٣٦٢) .

الكامل العظيم نجزي الكاملين في الشكر والإيمان وفي جعل المسند إليه نون العظمة فيه مزيد تحقيق لمضمون الجزاء وتعظيم له وجاءت الجملة عامة في الإفادة لتشمل آل لوط ، وكل من شكر من العالمين لبيان أن سنة الله تعالى مع عباده أجمعين في مجازاتهم لا تختلف ، وهذه الجملة « استئناف بياني عن جملة (نجيناهم بسحر) باعتبار ما معها من الحال ، أي إنعاماً لأجل أنه شكر ، ففيه إيماء بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا ، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين »[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ .

جاءت هذه الجملة مؤكدة دفعاً لتوهم استشراف السامع أن لا يكون لوط عليه السلام قد أنذرهم وخوفهم بوقوع العذاب عليهم إن لم يتبعوه ، فجاء التأكيد هنا بلام القسم وقد لتحقيق مضمون الخبر لدى المخاطبين وتقريره في أذهانهم وقال تعالى : ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ مضافة إلى ضمير الجلالة لبيان شديد عذابه .

« ووحد إشارة إلى أنه لايستهان بشيء من عذابه ، بل الأخذة الواحدة كافية لما لنا من العظمة فهي غير محتاجة إلى التثنية ، ودل على أن إنذاره كان جديراً بالقبول لكونه واضح الحقيقة »[2] .

وفي الكلمة وتركيبها مناسبة بديعة لجو السورة ومقامها المنذر الذي ينحدر

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٥) .

(٢) نظم الدرر (٧ / ٣٦٣) .

في سرعة إيقاع كأنه قذائف متتابعة ، والكلمات في المشهد تتلاقى وتتناسق في دلالتها ، فالحاصب ، والبطش تتآزر في إبراز صورة الترهيب والتخويف من العذاب ، وقال تعالى : ﴿ فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴾ أي كذبوا وتكلفوا الشك الواهي وجاء جمع النذر لبيان تكرر دعوة لوط لهم وإنذاراته فلم يكن منهم في كل مرة إلا أن كذبوا وأعرضوا .

ثم إنهم تجاوزوا كل ذلك الإعراض « فانتهكوا حرمة النذير فقال مقسماً لأن مثل ذلك لا يكاد يقع فلا يصدق »[1] .

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ وهنا أوجز ما ذكر فيما مضى من السور التي فصلت في هذا الشأن ، فلم يُذكر هنا نزول الضيوف عنده وما أصابه من بأس لما علم قومه بهم فجاءوا إليه يهرعون واقتحموا بيته ، اكتُفي هنا بهذا الإيجاز الموحي بألفاظه لما طُوِيَ من أحداث سابقة ، والمقام هنا مقام إيجاز وهنا نجد أن السورة تأتي بشيء جديد لم يلحظ في السور السابقة ، وهو طمس الملائكة لأعين القوم الذين جاءوا إلى لوط ، وبهذا نجد التكامل البديع في بناء صورة العذاب وقصته يُذكر في كل سورة منها ما يلائم هدف الصورة ونسقها في السياق « والمراودة : محاولة رضى الكاره شيئاً بقبول ما كرهه وهي مفاعلة من راد يرود روداً إذا ذهب ورجع في أمر ، مثلت هيئة من يكرر المراجعة والمجادلة بهيئة المتصرف ثم الراجع وضمن (راوده) معنى دفعوه وصرفوه فعدي

(١) المصدر السابق (٧ / ٣٦٣) .

بـ(عن) وأسند المراودة إلى ضمير قوم لوط وإن كان المراودون نفراً منهم لأن ما راودوا عليه هو مراد جميع القوم بقطع النظر عن تعيين من يفعله »[1] .

وطمسنا أعينهم : أي سويناها مع سائر الوجوه ، فصارت بحيث لا يرى لها شق ، وهذا قول أكثر المفسرين[2] .

وهي صورة تبرز لنا في مضمونها انطلاقهم بعد الطمس هرباً مسرعين إلى الباب لا يهتدون إليه يصادمون الجدران خوفاً مما هو أعظم ، لقد كان الوقت ليلاً وكان الطغاة قد اقتحموا داره ليصلوا إلى ضيوفه ، فأصابهم عذاب الطمس لأعينهم وما أشدها من مبادرة لحقتهم قبل أن يحل عليهم العذاب وأصل الطمس إزالة الأثر بالمحو[3] .

إن كلمة الطمس هنا تصور مسخ الله للقوم المندفعين إلى باب لوط حيث سوت الملائكة أعينهم بوجوههم فزالت صورتها وانمحى أثرها وذهب ضوءُها فكان ذلك نكالاً من الله عظيماً حيث ذهبت عنهم نعمة البصر وذلك من أشد الأضرار إن الصورة هنا أشد وأرهب من الطمس على الأعين حيث أصبح مكان العين كأن لم يكن من قبل[4] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٦) .

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢٧ / ١٢٢) ، تفسير ابن كثير (١٣ / ٣٠٢) .

(٣) المفردات كتاب (الطاء) ص ٣٠٧ .

(٤) يقول تعالى في الآية المماثلة لها ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [سورة يس : ٦٥] وهنا استعارة حيث شبه عمى البصر وفقده بالطمس وهو التغطية الحسية لتمويل ما يصيبهم من انتقام الله لهم

=

وقال تعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ وهو مقول قول محذوف دل عليه سياق الكلام للنفر الذين طمسنا أعينهم ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى ﴾ وهو العمى ، أي ألقى الله في نفوسهم أن ذلك عقاب لهم(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ ﴾ استعارة تصريحية تبعية ، والمستعار له شدة الإحساس بالألم ، وجاء عطف النذر على العذاب باعتبار أن العذاب تصديق للنذر وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أُكدت الجملة هنا لتأكيد غرض التحذير والإنذار لكفار قريش المعرضين عن دعوة محمد ﷺ .

وصبحهم : جاءهم العذاب وقت الصباح ، والبكرة هي أول النهار وفيها معنى التعجيل لتقدمها على سائر أوقات النهار ولذلك يقال لكل متعجل في أمر بكر(٢) .

وإبراز الوقت هنا يزيد من حدة الترهيب في إطار الصورة والمشهد ، وجاء الفعل المضعف (صبح) يشير إلى عظم البلاء وعظم النقمة حتى صار العذاب

=

والسياق في سورة يس يتمشى مع الآية وتعديتها بحرف الجر على فهي تعنى أن الطمس على الشيء هو حجبه وإخفاؤه كما يوحي به حرف الاستعلاء دون محو الأعين وأما في سورة القمر فقد أزال الله أبصارهم ومحا أعينهم . ينظر بتصرف (من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص ١١٧ ، ص ١١٨ .

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٦) .

(٢) ينظر المفردات مادة (بكر) ص ٥٧ .

مجسماً محسوساً يتحرك ويصبِّح ، وكأنه يغير عليهم كإغارة العدو الذي يباغت خصمه وهو في دعة وراحة وغفلة من أمره ، إنها صورة حسية مشعة تبعث في النفس هول العذاب وصورته في الخيال وجاء تنكير العذاب لتفخيمه وبيان عظمته وهوله ، وقال (مستقر) أي عذاب ثابت متمكن منهم متواصل في شدته وقوته غير منقطع حتى أفناهم ، والصورة هنا تنقل لنا معاصرة القوم للعذاب ورؤيتهم له حيث يخاطبون في قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ولا نجد في هذه الآية تكراراً حيث يلحظ أنها فيما سبق تخاطب من طمست أعينهم ، وهنا تخاطبهم جميعاً عند نزول العذاب عليهم ، فالقوم كانوا يذوقون العذاب حتى تم استئصالهم عند شروق الشمس ، فالعذاب الذي نزل بهم بدأ عند طلوع الصبح في أول النهار واستمرَّ مستقراً عليهم يذوقونه وهم أحياء حتى جاء وقت الشروق فأخذتهم الصيحة ، فالمعذب عندما يأتيه العذاب ويرى هوله ويعاصر أحداثه أشد عذاباً وهولاً ممن لا يرى ما يجري حوله أو يُقضى عليه سريعاً قبل أن يرى أهوال العذاب وشديد نقمته ، إن الصورة هنا تبعث الإيحاءات المتتالية والإنذارات المشعة لكفار مكة عندما نتدبر قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ حيث صدق الله تعالى نبيه بمجيء العذاب ، فتحقق صدق نذره ، وما ذلك ببعيد عن كل قومٍ أعرضوا وابتعدوا وكذبوا ، لقد عُرضت صورة الإهلاك في فقرات قصيرة وإيقاع سريع في سورة بنيت كلها على الإيجاز ، وكان أعظم أهدافها الزجر والردع لمشركي مكة فلذلك ابتدأت الصورة في تفصيل أحداث الإهلاك دون نظر إلى ما تم من مجادلة وحوار بين لوط وقومه أو بين لوط والملائكة قبل

نزول العذاب ، إن السورة تعرض لنا صور الإهلاك للأمم الغابرة متتابعة حتى إن المتابع لها لا يكاد يسترد أنفاسه فالأحداث تمضي منحدرة في إيجاز وسرعة إيقاع يتلاءم مع جو السورة وسياقها المنذر المرعب ، وقصة لوط قد اتسمت بهذه السمة التي اتسمت بها السورة الكريمة .

وهكذا نجد صورة العذاب لقوم لوط توجز وتفصل وفي الموجزة نرى الاهتمام بإبراز خبر النجاة ويشار إلى إهلاك الظالمين كما لوحظ في سورة الأعراف حيث ذكرت أن القوم أمطروا ولكنها لم تبين نوع العذاب الذي أُرسل عليهم وقد تناسب هذا الإيجاز مع سياق السورة وكونها قد نزلت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة(١) ثم نرى هذا الإيجاز يتوسع في سورة هود ويفصل في قصة القوم وما لقيه النبي الكريم من عنت معهم قبل أن يحل عليهم العذاب ، وفي هذا التفضيل نرى صورة الهول وفظاعة العذاب بما يوافق سياق السورة ومقاماتها التي علت فيها حدة الإنذار والتهويل ، وكان لعرض قصة قوم لوط أكبر وأعظم أثر في التسلية للرسول ﷺ ويتبع سورة هود في هذا التفصيل ما ورد في سورة الحجر إلا أنها قد كشفت لنا جانباً آخر وهو مجيء أهل المدينة إلى بيت لوط وقد كانت سورة هود من قبل وهي أسبق في النزول تصوِّر لنا مجيء عليَّة القوم والسادة وهو أفظع من مجيء أهل المدينة ، وقد لقي نبي الله لوط معهم الكرب والشدة حتى أعلمته الملائكة بأنهم رسل الله وطمست على أعينهم ، وكان مجيء

---

(١) حيث ركزت على موضوع العقيدة .

أهل المدينة أخف على لوط حيث إنه قد علم أنه في معية ربه وحفظه وقد أعلمته الملائكة قبل مجيئهم بأنهم رسل الله وهكذا تجري الأحداث كما سيأتي تفصيلها فيما بعد ، ثم نلحظ الصورة تأتي في ألفاظ موجزة مشعة في سورة الذاريات تركز على مشهد الإهلاك دون نظر إلى الحوار الذي دار مفصلاً بين لوط وقومه بل إنها تذكر حوار إبراهيم مع الملائكة في إيجاز سريع يدخلنا إلى رهبة المشهد ثم إلى صورة العذاب وكان هذا ما طبع به المشهد في سورة الذاريات بما يتفق مع جوها الحازم المنذر حتى إذا وصلنا إلى سورة القمر وجدناها تدخل مباشرة على ذكر صورة العذاب وهوله في فقرات موجزة وإيقاع سريع تذكر جانباً في الصورة لم يلحظ من قبل في الصور السابقة ، ألا وهو طمس الأعين لمن أهرع مسرعاً إلى بيت لوط يريدون بضيفه السوء ، ثم نلحظ الرهبة في المشهد وقد ذكرت فيه كلمة البطش وذكر فيه تصبيح العذاب للقوم مما يجعل المشهد في حدة يلائم جوَّ السورة المنحدر في رهبة وهو جو إنذار وزجر للمكذبين .

وها هي صورة عذاب قوم لوط تتوزع على الذكر الحكيم بما يوافق أجواء السور وسياقاتها ومقاماتها ، نرى الصورة تتدرج في حدتها حتى تصل إلى الذروة في السور التي نزلت في مرحلة شديدة من مراحل الدعوة المحمدية لتكون إنذاراً شديداً وترهيباً للمكذبين والله أعلم .

الفصل الخامس

أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم شعيب

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : ما ورد في سورة الأعراف وهود .

المبحث الثاني : ما ورد في سورتي الشعراء والعنكبوت .

المبحث الأول

ما ورد في سورة الأعراف وهود

١) ما ورد في سورة الأعراف :

يقول تعالى عن هلاك قوم شعيب : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الآيات : ٩١ - ٩٣] .

جاء ذكر عاقبة قوم شعيب عليه السلام بعد أن عرضت السورة لدعوة شعيب قومه إلى الله تعالى وما اقترن معها من دعوة إلى تصحيح ما فسد من معاملاتهم المالية حيث بخسوا الناس أشياءهم ولم يفوا بالكيل ، وهكذا نجد الحوار والجدال يستمر بين شعيب وقومه من الآية (٨٥ - ٩٠) حيث انتهت المجادلة بتهديد الملأ من قومه له بالإخراج من قريتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل حذروا الناس من اتباعه ، فجاء ذكر العقوبة لقومه حيث عجَّل السياق بها في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ جاءت الفاء هنا للتعقيب والسببية حيث ترتب على كفرهم وإعراضهم نزول العذاب عليهم ، فالأخذ متسبب عن تكذيبهم وكفرهم ، والفاء في اقترانها بالفعل أخذ تدل على السرعة في الأخذ ، وفي إسناد الفعل إلى الرجفة وفاعل العذاب هو الله تعالى لتصوير وتجسيم العذاب في صورة وهيئة ملموسة وكأن العذاب أقبل بنفسه

إليهم ليأخذهم وفي ذلك تهويل وتفظيع لأمر الرجفة ، والأخذ كما مرَّ بيان ذلك هو تناول الشيء باليد وهو هنا مستعار للإهلاك الذي أحاط بالقوم إحاطة الآخذ ، مع ما في ذلك من دلالة على الاجتثاث والاستئصال والتمكن ، فليس للمأخوذ قدرة ولا فكاك ، إنّ الرجفة هنا جاءت في صورة محسوسة تلقي في النفس ظلال الرعب والهلع ، وفي تركيب حروفها تصوير بديع للحدث عندما نتأمل في صفات تلك الحروف فالراء في تكرر صوته المتتابع عندما يطرق اللسان على اللثة في سرعة يوحي أبدع إيحاء بتلك الرعشة التي تنتاب الأرض ، يساعده في ذلك صوت الفاء وصوت الجيم وهو صوت صامت مجهور لثوي حنكي انفجاري مركب[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ عطفت هذه الجملة على ما سبقها بفاء التعقيب ، وفي ذلك تصوير لسرعة الإهلاك الذي حوّل القوم في لحظات أجساداً خامدة لا حراك بها قد حل بها الموت والبلى ، حيث وقعوا على الأرض صرعى على وجوههم قد صعقوا وأصابتهم الرجفة ، لقد وقعوا جاثمين على الأرض ، والجاثم هو المتلبد اللاصق بها على الركب والوجه كما يجثم الطائر وأصل الجثوم للأرنب وشبهها[2] .

وفي ذلك تصوير لفظاعة ما أصابهم ، وبيان لحقارتهم وحقارة مآلهم من خلال تصوير الهيئة التي أصبحوا عليها ، وقد تناسب إيراد الرجفة هنا في هذا

---

(١) ينظر : علم اللغة د/ محمود سعران ص ١٩٨ .

(٢) القاموس المحيط (مادة جثم) .

السياق الذي هدّد فيه الملأ بإخراج شعيب من قريتهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الآية : ٨٨] فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة(١) .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الآية : ٩٢] .

استأنفت الآية هنا الحديث عن صورتهم بعد أن هلكوا ، وفي ذلك بيان وتأكيد لصورة الفناء الذي يشير إلى شدة أثر العذاب المستأصل حيث شبهوا بعد إهلاكهم بحال من لم يوجد ولم يكن له مقام في الدنيا حتى إن الذي يمر بديارهم يشك في أصل وجودهم من قبل .

يقول الطاهر بن عاشور « ويرجح أن يكون أصابهم زلزال مع الصواعق بحيث احترقت أجسادهم ، وخسف لهم في الأرض وانقلبت ديارهم في باطن الأرض ولم يبق شيء أو بقي شيء قليل ، فهذا هو وجه الشبه وليس وجه الشبه حالة موتهم ؛ لأن ذلك حاصل في كل ميت ولا يختص بأمثال مدين »(٢) والفعل المضارع (يغنوا) يستحضر حالهم حينما كانوا في مغنى ونعيم وحضارة وحركة

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (١٠ / ٣٦٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ١٤) .

قد مرَّ سابقاً تقرير أن الذي أصاب القوم صاعقة أو صواعق خرجت عليهم من الظلة فأبادتهم والصواعق هي التي زلزلت الأرض من شدة وقعها وقوة صوتها والله تعالى أعلم .

ونماء كل ذلك قد فني واختفت مظاهر الحياة وكأنها لم تكن ، إنها صورة الفناء الجماعي الذي يبث النذر والرهبة في القلوب الحية والعقول المتوسمة .

و« تقديم المسند إليه في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ إذا اعتبرت (كانوا) فعلاً واعتبر المسند فعلياً فهو تقديم لإفادة تقوي الحكم وإن اعتبرت (كان) بمنزلة الرابطة ، وهو الظاهر فالتقوي حاصل من معنى الثبوت الذي تفيده الجملة الاسمية »[١] .

وفي تكرار وصفهم بالتكذيب عن طريق الموصول وصلته فيه إبراز لشناعة مرتكبهم حيث كذبوا الحق الظاهر واستحبوا عليه الضلال والعمى ، وأُبرز اسم النبي الكريم لكونه كان حجة ومبيناً للحق بليغاً ، والمقصود هو تعظيم شأن النبي الكريم لأن تكذيبه أدى إلى خسارة المكذبين ، وقد ورد في الكلام قبل الخبر في صلة الموصول لأن الخبر فيه ذم وتحقير .

وقال تعالى في ختام الآية : ﴿ كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ ليكون رداً بديعاً على قول الملأ من قبل ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فجاء قصرهم هنا على الخسارة وأكد ذلك بضمير الفصل (هم) وتعريف المسند باللام أفاد قصره على المسند إليه قصراً إضافياً بمعنى أن الخسارة لا تتعداهم إلى غيرهم ، فهم الخاسرون وليس بشعيب ومن آمن به كما كان يقرره الملأ محذرين من اتباعه ، وأطلقت الخسارة هنا لتشمل كل خسارة ، فالقوم خسروا دنياهم وأنفسهم

---

(١) المصدر السابق (٩ / ١٤) .

وخسروا آخرتهم ثم هم في عذاب ربهم سيخلدون ، فالخسارة والحسرة دائمة عليهم ، وكل ذلك يحمل من الإشارات والتنبيهات ما يعرِّض بالمخاطبين من كفار مكة فقد كذبوا محمداً ﷺ وصدَّ الملأ منهم الناسَ عن دعوته ، وجاءَ في ختام المشهد قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

والفاء هنا للترتيب والتعقيب ، حيث كان توليه عنهم بعد أن أُهلكوا ، ولعل خطابه لهم كخطاب النبي ﷺ لقتلى بدر ، ثم إنه عليه السلام خاطب نفسه باستفهام إنكاري في قوله ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ ليطرد من نفسه الحزن فهم لا يستحقون أن يأسف عليهم ، فقد اختاروا طريق التكذيب والكفر ولم يقصِّر في دعوتهم ونصحهم ، والفاء في فكيف للتفريع على قوله ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾ « فرّع الاستفهام الإنكاري على ذلك لأنه لمَّا أبلغهم ونصح لهم وأعرضوا عنه فقد استحقوا غضب من يغضب لله »[(١)] .

وقال (على قوم كافرين) عرّفهم بجريمتهم حيث أظهر في مقام الإضمار حتى يطرد من قلبه أي داع للحزن عليهم ، فقد استحقوا ما حلَّ بهم ، وهذا الختام يطبع في نفس المتلقي رحمة وعطف رسل الله تعالى على أقوامهم وقد هلكوا وكانوا يتمنون حصول المقصود من هدايتهم ، إنَّ هذا الختام يشع في نفس النبي

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٥) .

ﷺ وقد حزن على إعراض قومه بأن لا يحزن على من كفر وأعرض وارتضى هذا الطريق ، وهو ﷺ الحريص والطامع في هداية الناس أجمعين .

٢) ما ورد في سورة هود :

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ(١) أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [الآيات : ٩٤ - ٩٥] .

المشهد هنا جاء بعد أن عرضت سورة هود لدعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الله تعالى ، يخوفهم من عذابه ، ويذكرهم بمن هلك من الأمم قبلهم من الآية (٨٤ - ٩٣) حيث انتهت المجادلة والحوار بتهديد القوم لنبيهم وإعراضهم عنه فعجّل السياق بذكر العاقبة سريعاً موجزة في جمل موصولة بالواو والفاء تدل على تعاقب الأحداث ، وسرعة الإهلاك والإنجاء بما ينبئ عن السرعة في الحسم السريع بعد الإمهال الطويل ، وقد أُظهرت النجاة للنبي ومن آمن به هنا زيادة على ما ورد في سورة الأعراف لأن المقام والسياق اقتضى ذلك ، فقد هددوا شعيباً هنا تهديداً صريحاً وازدادوا في عتوهم فأظهرت النجاة التي اقترنت برحمة من الله

---

(١) المشهد هنا جاء معطوفاً بالواو على ما سبقه ولم يعطف بالفاء لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين كما في قصتي صالح ولوط عليهما السلام يتسبب عنه المجيء ويتعقبه . (نظم الدرر ٣ / ٥٧٢) . وكان العطف بالواو يدل على الترتيب أي ترتب على عدم إيمانهم وتكذيبهم مجيء العذاب وكان قد هددهم بالعذاب مجملاً فقال لهم بأن يرتقبوا العذاب حتى يصدقوا تحذيره ونذيره لما كذبوا فحسن العطف هنا بالواو دون الفاء .

وفي ذلك إشارة إلى عظيم المنة ، فالرحمة ملازمة لهم لا تنفك عنهم ، والصورة قد قارنت بين صورة الإهلاك وخبر النجاة لتبرز للمتأمل ما بين الصورتين من اختلاف يتعمق أثره في النفس ، فيرغبها في طريق النجاة ، ويرهبها من طريق الهلاك ، والصورة هنا ذكرت أن القوم أهلكوا بالصيحة وهو صوت الصاعقة المهلكة ، وقد تناسب ذكر الصيحة مع سياق السورة التي تعلو فيها نبرة الإنذار والترهيب وتناسب ذكرها مع السياق الذي يبدو فيه « الاستهزاء بنبي الله شعيب في قولهم ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم »[1] .

وهنا نجد تطابقاً بين صورة العذاب لقوم شعيب وصورة العذاب لقوم صالح ، حيث اتحدا في الإهلاك بالصاعقة ، ولعل ختام المشهد يشير إلى ذلك . في قوله تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ففي قوله (كما بعدت ثمود) فيه تشبيه للبعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود ، ووجه الشبه التماثل في العقاب فقد ورد ذكر الرجفة والصيحة في عذاب القومين ، ولعل هذا يشير إلى اتحاد عذابهما بالصاعقة ، وما الرجفة والصيحة إلا آثار لتلك الصاعقة المدوية « ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه الاستطراد بذم ثمود لأنهم كانوا أشد جرأة في مناواة رسل الله ، فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب

(١) تفسير ابن كثير (١٠ / ٣٦٩) .

أن يعاد ذكر أشدهما كفراً وعناداً فشبه هلك مدين بهلكهم[1] .

لقد تطابق المشهد في حدته وهوله مع جوِّ السورة الكريمة ، وأوثر المصدر في قوله تعالى ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ ﴾ لأن فيه نوع تأكيد لا يقوم به الفعل لكون الفعل متقيد بالزمن والمصدر عارٍ من التقييد ، ومن ثم كان أبلغ من ذكر الفعل ، وعُرِّف القوم باسمهم لذمهم ، وأوتي بلام الجر لما فيها من معنى الاختصاص .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٥٤) .

المبحث الثاني

ما ورد في سورتي الشعراء والعنكبوت

١) ما ورد في سورة الشعراء :

يقول الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الآيات : ١٨٩ - ١٩١] .

جاء إيراد صورة الإهلاك لقوم شعيب هنا موجزة كما مرّ في السور السابقة وقد وردت عقب المحاورةالتي تمت بين شعيب وقومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى ولم يكن من قومه إلا أن أعرضوا عن دعوته واتهموه بالسحر والكذب ، وتحدوه أن ينزل عليهم العذاب ، فجاء ذكر العاقبة في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ عطفت هذه الجملة على ما سبقها من حوار تبين انتهاء القوم إلى الإعراض والتكذيب ، وهي كلمة تلخص موقف القوم وتبرزه مقروناً بالعذاب الذي جاء بسببه ، فالفاء هنا « فصيحة أي فتبين من قولهم (إنما أنت من المسحرين) أنهم كذبوه ، أي تبين التكذيب والثبات عليه بما دل عليه ما قصدوه من تعجيزه إذ قالوا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ »[1] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٩ / ١٨٧) .

وفي اقتران الفاء بفعل التكذيب وفعل الأخذ إيحاء بديع بامتداد زمن التكذيب والاستمرار عليه حتى جاءهم العذاب ، والصورة هنا توضح جانباً جديداً يكشف عن طريقة العذاب الذي حصل للقوم في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ وعذاب الظلة كما يقول الطبري « سحابة ظللتهم فلما تتاموا تحتها التهبت عليهم ناراً وأحرقتهم »[1] .

ولعل القوم لمَّا تتاموا تحت هذه السحابة بعد أن أتاهم الحرُّ الشديد يريدون الظلة والبراد خرجت عليهم الصاعقة من الظلة فقطعت نياط قلوبهم بصوتها وأهلكتهم وأرجفت بهم الأرض[2] ، وقد توافقت صورة العذاب هنا مع السياق الذي ورد فيه قول القوم لنبيهم ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ حيث قالوا ذلك على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا[3] وقوعه ﴿ فَأَخَذَهُمۡ[4] عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

---

(١) تفسير الطبري (١٩ / ١٢٦) .

(٢) يقول ابن عطية : (يوم الظلة) هو يوم عذابهم وصورته فيما روي أن الله امتحنهم بحر شديد ، فلما كان في ذلك اليوم غشي بعض قطرهم سحاب فجاء بعضهم إلى ظله فأحس فيه برداً وروحاً فتداعوا إليه ، حتى تكاملوا فيه فاضطرمت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم من عند آخرهم ، وللناس في حديث (يوم الظلة) تطويلات لا تثبت ، والحق أنه عذاب جعله الله ظلة عليهم ، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب . المحرر الوجيز (٤ / ٢٤٢) .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير (١٠ / ٣٦٩) .

(٤) في إسناد الأخذ إلى العذاب تصوير يجسد العذاب ويجعله في صورة ملموسة حيث أصبح العذاب هو الذي يأتي بنفسه ويأخذ وكأنه عدو أغار على القوم في ديارهم .

وفي اقتران الفاء بفعل الأخذ تصوير لسرعة الأخذ ، وجاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ في جملة مفصولة للاستئناف البياني مؤكدة بإن حيث « كان الحال موجباً للسؤال عن يوم الظلة ، فقال تعالى مهوِّلاً لأمره ومعظماً لقدره : (إنه كان) فأكد بأن وعظم بـ(كان) »[1] .

وفي إسناد العظيم وهو صفة مشبهة بالفعل إلى ضمير اليوم مبالغة ، وهو إسناد مجازي يلفت إلى هول ذلك اليوم فإذا كان اليوم ، في ذاته عظيماً فكيف سيكون العذاب الذي سيقع فيه ؟ وفي ذلك إشارة بديعة إلى أن الزمن كأنه قد انقلب عليهم وصار عذاباً ، والصورة القرآنية تحرص على إبراز عنصر الزمن لما له من إيحاءات عميقة في إيصال نذر الرهبة في النفس وهي تتأمل زمن الأحداث وتتصوره .

وقال تعالى في ختام المشهد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

جاء هذا الختام يحمل نبرة عالية من التأكيد على كون ما حصل لهؤلاء القوم آية وموعظة للناس ، وقد أُكد بإن واللام لحاجة المقام إلى مزيد من التأكيد ، فما حصل من العذاب كان فعلاً خارجاً عن العادة في عرف البشرية ، واسم الإشارة (ذلك) وهي للبعيد تبين عظمة هذا العذاب الذي يكفي في الموعظة والتحذير وقد قدم الخبر (في ذلك) على اسم إنَّ لما فيه من اهتمام ببيان موطن الآية ومحلها

---

(١) نظم الدرر (٥ / ٣٨٩) .

وهو العبرة وجاء تنكير آية للتعظيم ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ التفات إلى النبي ﷺ لتسليته وإيناسه في إعراض قومه ، حيث إنهم لم يكونوا بدعاً من الأمم فقد كذب أكثر من سبقهم وأعرض وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

عطفت هذه الجملة على ما سبقها بالواو ، وفي ذلك تأكيد واهتمام بشأن الرسول ﷺ ، وفي الإضافة في كلمة (ربك) تشريف ، فربك المحسن إليك سيعلي شأنك ويوضح حجتك وبرهانك ، وقد أُكد ذلك بأن وضمير الفصل وتعريف المسند باللام ، وهما يفيدان القصر فصار المعنى إنّ ربك لهو العزيز الرحيم لا غيره واتباع العزيز بالرحيم للدلالة على أن عزته وجبروته مقرونة بالرحمة وأن رحمته تسبق غضبه ، فالله لم يعذب قوماً إلا بعد أن أنذرهم عاقبة ما هم فيه ، وأن الله يرحم عباده المؤمنين وينجيهم من عذابه في الدنيا والآخرة ، فتناسب إيراد صفتي العزيز والرحيم في ختام المشهد ، فالصورة حملت الرهبة في تصوير العذاب وهو ما يوافق صفة القوة والعزة ، وذُكرت صفة الرحمة وهو ما يوافق بيان اللطف مع وجود العظمة والجبروت ، فالله لطيف بعباده أجمعين ، ولولا ظلم الناس لأنفسهم لما عذبهم الله وأهلكهم وأخرج أضغانهم .

٢) ما ورد في سورة العنكبوت :

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ (١) فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآيات : ٣٦ - ٣٧] .

إن الصورة هنا جاءت موجزة تبرز لنا صورة العذاب وتجعله ملموساً ، وتركز على صورة القوم وقد هلكوا في سرعة حل بهم البلى والفناء ، وأبرزت هيئتهم على الأرض صرعى جاثمين في صورة تبعث حقارة مآلهم وضعفهم ، وتهافت قدرتهم حيث سلبتهم الرجفة ، واستلت منهم الحياة ، وقد أُبرز ذلك في جمل موصولة بالفاء تصور سرعة الأخذ وسرعة الفناء ، فكان حسماً سريعاً وأخذاً خاطفاً يمثل القدرة والقوة القاهرة وهو ما يرهِّب في السياق الذي يهتم باليوم الآخر ، وهكذا نجد أن السور الكريمة قد أوجزت في صورة إهلاك قوم شعيب عليه السلام ، ودلت على مماثلة عذابهم لعذاب قوم صالح ، وقد كان هذا الإيجاز البديع يصوِّر أخذ الصاعقة السريع في لحظات ، بخلاف ما ورد في عذاب قوم عاد الذي استمر عليهم ليالي وأياماً ليذوقوا العذاب في تدرُّج وهو أشد من الإهلاك الماحق السريع ، وكل أمة كانت تعاقب على قدر ظلمها ، فالعدل الإلهي يقضي بين الكفرة بما يلائم جرائمهم ويطابقها ، فالجريمة من جنس العمل والله أعلم .

---

(١) مرَّ دراسة نظير هذه الآية مراراً .

الفصل السادس

مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : مقارنة بين ضروب التنوع في التصوير الموجز للإهلاك .

المبحث الثاني : مقارنة بين ضروب التنوع في السور القصار والطوال .

المبحث الأول

مقارنة بين ضروب التنوع في التصوير الموجز للإهلاك

ورد ذكر مهلك الأقوام في إشارات ولمحات سريعة في السور الطوال وغالباً ما يأتي ذلك بعد الحوار الذي يتم بين النبي وقومه يدعوهم فيه إلى عبادة الله وحده ، فيعرض الأقوام ويكذبون أنبياءهم ، ويصرون على مواقف الرفض للدعوة والاستكبار ، فيأتي ذكر العاقبة بعد ذلك موجزة وهذا ما نلحظه بارزاً في سورة الأعراف والشعراء وهود[1] ولننظر إلى ما ورد في سورة الأعراف حيث يقول تعالى عن مهلك قوم نوح : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الآية : ٦٤] .

لقد وردت الصورة هنا في أسلوب خبري عبر الأفعال الماضية لتصوِّر أحداثاً ماضية وقعت وتحقق ثبوتها[2] ، وفي توالي هذه الأفعال معطوفة بالفاء والواو تصوير لتعاقب الأحداث ينبئ عن سرعة الإهلاك والإنجاء بعد المحاجة الطويلة والإمهال الطويل ، إن عرض الأحداث في إيجاز ولمحة خاطفة يستثير المخيلة لتستحضر تفاصيل[3] الحدث ويجعلها تذهب مذاهب شتى في تصوُّر الواقع مما

---

(١) باستثناء قصة الطوفان فقد ذكرت مفصلة في سورة هود وكذلك قصة قوم لوط .

(٢) وقوع المسند هنا في هذه الآية فعلاً ماضياً أفاد التحقق والثبوت (كذبوه ، أنجيناه ، أغرقنا ، كذبوا) .

(٣) التصوير الموجز للأحداث ترك للخيال هنا أن يستحضر بقية الأحداث من خلال الإيماء ، فكلمة التكذيب توحي بالموقف الرافض والجدال الساخن الذي كان قد دار بين القوم ونبيهم ، وكلمة الإغراق تشير إلى حادثة الطوفان الذي عمَّ الأرض وأهلك القوم وأنجى الله منه نبيه والمؤمنين كما جاء ذلك مصوراً في آيات أخرى .

يبعث في النفس المعرضة القلق والإيهام ، وهذا الإيجاز جاء متلائماً مع نهج السورة وسير موضوعها حيث تركز على موضوع العقيدة وتهتم بالتسرية عن الرسول ﷺ بما عرض له من صور الإعراض للأمم عن الدعوة إلى الله ، وما اكتنف هذا الطريق من مصاعب ، فجاءت صورة الإهلاك موجزة تبث في قلبه ﷺ وفي قلوب الجماعة المؤمنة به بأن الله ينصر رسله ومن آمن بهم في نهاية الأمر ، وأن العاقبة الحسنة لهم ، مع ما تبثه من إنذار وتحذير للمعرضين من كفار مكة بما صوِّر لهم من حوار الأقوام مع أنبيائهم ، وأنهم لمّا أعرضوا كانت عاقبتهم الإهلاك فكان هذا هو المقصود والهدف من عرض الصورة هنا ، وكان في عرض العاقبة موجزة في صورة سريعة يحقق التأثير القوي في النفس ويؤدي الغرض من أقرب طريق ، ويجعلنا ننفذ سريعاً إلى ما يبث الفرح والسرور للنبي والمؤمنين ، وإلى ما يبث النذر والتخويف لمشركي مكة والعاقبة هنا كانت في صورتها تظهر الحسم السريع ويا له من وقع يؤثر في النفس ، ويرهب الحس بعد أن عُرضت تلك المقدمات والحوار الذي يصور سعي الرسل الكرام إلى هداية أقوامهم ، ولكنهم لم يظفروا بشيء من ذلك ، فقد كذب أقوامهم وأعرضوا . وهكذا نجد عرض صورة الإهلاك لبقية الأمم بعد قوم نوح تسير على هذا النهج وهذا النظام حيث ورد في ذكر مهلك قوم [1] هود قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية : ٧٢]

---

(١) بعد أن ذُكرت صورة الإعراض لقومه .

وفي قوم صالح يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية : ٧٨] وفي قوم لوط يقول تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الآيات : ٨٣ – ٨٤] .

وفي قوم شعيب يقول تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية : ٩١] والملاحظ هنا أيضاً أن الله تعالى ذكر النجاة في سورة الأعراف وأبرزها في ذكر مهلك قوم نوح وهود ولوط ؛ لأن السياق قد ذكر تحدي القوم واتهامهم لأنبيائهم بالسفاهة والضلال ، وتهديدهم بالإخراج والإبعاد ، فحسن هنا ذكر الإنجاء مقابل الإهلاك ، وكل يأتي متابعاً لسياقه في دقة بالغة لا تختلف وكذلك نجد الإيجاز في صورة العاقبة يتكرر في السور التي سارت على منهج سورة الأعراف وهي تركز على موضوع العقيدة ، فتعرض لدعوة الأنبياء وطبيعة استقبال الأقوام لهذه الدعوة ، فيرد بعد ذلك ذكر العاقبة موجزة وما مضى من تمثيل على المقارنات في سورة الأعراف يكفي ومن السور التي سارت على منوالها سورة الشعراء وما قيل من تحليلات سابقة ينطبق على ما ورد فيها مع احتفاظ كل سورة بجوها وطابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها ، وأما سورة هود فقد اتفقت مع سورة الأعراف والشعراء إلا أنها قد فصلت في ذكر مهلك قوم نوح بالطوفان ، وهي صورة رهيبة وعظيمة تتوافق مع جو الإنذار والترهيب في السورة الكريمة ، ومن الملاحظات التي اطردت عند النظر في المقارنات بين هلاك الأمم أن النظم الكريم يقارن بين صورة الإنجاء والإهلاك ، ويستخدم في

المدح والذم في كلا الصورتين التعريف بالفريقين الناجي والمهلك عبر الاسم الموصول (الذين) وصلته ، وقد اطرد ذلك في جميع السور التي أوجزت في ذكر المهلك فكان ذكر الاسم الموصول (الذين) وصلته في شأن من آمن بالأنبياء ، ونجا معهم تعظيم لهم وثناء عليهم بالاتباع والإيمان، حيث عرفوا بذلك وشهدوا به ، وفي المقابل يأتي التعريف بالطرف الآخر في قوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ فكان في اسم الموصول وصلته إبراز لهم بهذا الوصف المشين الذي أدى إلى هلاكهم وفنائهم ، وهو وصف يعينهم أكثر من تعريفهم بالعلمية وفيه ذم لهم بما في حيز الصلة وعندما يقترن مصير كلا الفريقين يزداد التأثير ويتعمق في نفس المتلقي لينظر أين موقعه وكيف سيكون مصيره ومن هنا يتحقق هدف الصورة في بثها للتثبيت والإنذار ، ومن الملاحظات الدقيقة في سرد صور دعوة الأنبياء لأقوامهم وتكذيب الأقوام لهم ، ثم ورود الخاتمة التي تبين الإهلاك للمعرضين في إيجاز سريع أن ذلك كان يهدف إلى بيان أن الدين كله موحد الأساس جاء من عند الله من قبل ومن بعد ، وما دعوة محمد ﷺ بمختلفة عما سبقها من دعوات الرسل عليهم السلام ، فكلها تدعو إلى عبادة الله وحده وقد جاء النسق في الدعوة إلى الله واحداً في كلام الأنبياء لم يتغير اللفظ في عباراتهم لتصوير هذه الوحدة ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وهكذا في بقية دعوات الأنبياء .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ « فهذا التوحيد يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان ، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص ، وكان من أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ، فضلاً على أن الدين من عند إله واحد وأنه قائم على أساس واحد[1] .

ومن المقارنات البديعة في إيجاز ذكر المهلك للأقوام أن صورة الإهلاك لقوم صالح عليه السلام وقوم شعيب تتشابه ، ولعل في ذلك دلالة على أن العذاب الذي أصاب قوم صالح هو العذاب نفسه الذي أصاب قوم شعيب ، وكان في إيجاز تصوير هلاكهما إشارة إلى سرعة أخذهم ، فقد أخذوا بالصاعقة حيث أبادتهم في لحظات سريعة ، وفي ملاحظة اقتران فعل الأخذ مع ذكر عذاب القومين بالصاعقة والصيحة والرجفة دلالات بيانية بديعة ، فالأخذ فيه شدة وعنف يبرز شدة الصاعقة وعنفها ، ولذلك نراه يرتبط في هلاك الأقوام بالصاعقة والرجفة والصيحة وقد أُسند هذا الفعل إليها ، والآخذ هو الله تعالى ، وفي ذلك تصوير يجسد ويشخص لنا تلك الصاعقة والرجفة والصيحة في صورة محسوسة تُلقي التأثير في قرار النفوس ، وهي تصور مرحلة الرهبة عند نزول العذاب وكأنه أتى بنفسه ليأخذ القوم ويستلب منهم الحياة .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب (١٤٩ – ١٥٠) .

إن فعل الأخذ قد اقترن في الأكثر الأغلب في إهلاك المكذبين بالصيحة والرجفة لما تحمله الصيحة والرجفة من العنف والسرعة ، وهي آثار للصاعقة المهلكة والأخذ فيه عنف وشدة ، ولذلك حسن اقترانه بالصيحة والرجفة مع دلالته على الإحاطة والاجتثاث فالآخذ يتناول الشيء لأنه قد أحاط به ولا فكاك للمأخوذ منه ، والصورة تؤكد دائماً على أن القوم قد قطع دابرهم ، والأخذ فيه تلاؤم بديع مع معاني الاستئصال ، وفيه دلالة على السرعة بما يوافق سرعة الإهلاك للصاعقة والرجفة والصيحة ، فقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ عندما ننظر إلى الكلمة « نجد صوتها يوحي بالسرعة والقوة ، إذ تتابعت في أولها الفتحات ، ثم جاء الضم في الهاء والميم ليبين التحاق هؤلاء بتلك الصيحة العظيمة والصور مثيرة للخيال ، لكونها رابطة بين المعالم الصوتية والمعالم الجسمانية فكأن الصوت العنيف حملهم منتزعاً إياهم وكأنهم قطع صغيرة »[1] .

فالأخذ لما يحمل من دلالات العنف والسرعة وشدة القوة نجده يكثر اقترانه بالصيحة والرجفة والصاعقة مع دلالته على الاجتثاث والاستئصال السريع الذي لا يبقي ولا يذر ، وفيه تصوير لقدرة الآخذ وضعف المأخوذ وهوانه وسرعة تلاشيه وفنائه ، ولم يرد ذكر الإرسال مقترناً بالصيحة إلا مرة واحدة في سورة القمر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ لأن الصورة هنا قد ارتبطت بالسورة وبسياق الآيات السابقة عليها وتلاءمت مع ما ورد بعدها من

---

(١) دراسات فنية في القرآن الكريم ص ١٧٩ .

آيات فقد ذكر الإرسال قبل هذه الآية وجاء ذكر الإرسال بعدها ، فالصورة تركز على تصوير تسلط العذاب على المعذبين ، وجو السورة وبناؤها يحكم مسار الصورة وفعل الإرسال قد تناسب اقترانه مع ذكر الريح المدمرة لقوم عاد ؛ لأن أرسل تدل مادته على التتابع ، يقال جاءوا أرسالاً أي متتابعين والرِّسْلُ اللبن الكثير المتتابع الدر[1] ، والريح المهلكة كانت متتابعة لم تنقطع عن القوم ثمانية أيام حتى أبادتهم جميعاً ، وهكذا نجد أن التنوع كان لدقة بالغة يصف لنا صورة العذاب وهوله كما كانت ولذا لم نجد في صورة إهلاك قوم عاد فعل الأخذ لأنه يدل على الاستئصال السريع ، وهؤلاء القوم لم يهلكوا جميعاً إلا بعد أن تم عليهم العذاب أياماً وليالي فمنهم من فني في أول يوم ، ومنهم من بقي إلى آخر يوم ليذوق وبال أمره ، ومن خلال المقارنات لوحظ اقتران فعل الإرسال والإمطار بالجار والمجرور (عليهم) وقد تقدم على المفعول لم يختلف ذلك فيما ورد من صور إهلاك المكذبين .

فقد جاء في عذاب قوم هود قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ .

وقال تعالى عن قوم صالح : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وعن قوم لوط : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ وقال

---

(١) المفردات كتاب (الراء) ص ١٩٥ .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

وفي هذا التركيب المتتابع الذي عُدِّي فيه الإرسال والإمطار بحرف الجر (على) نجد التركيز على إبراز صورة تمكن العذاب من المعذب . تمكن المستعلي على المستعلى عليه في تسلط قاهر ومذل ، حيث شُلّت قواهم فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين لقد هلكوا جميعاً ، وفي التقديم بيان لاختصاص هذا العذاب بالمعذبين ، وفيه تعجيل بذكر ما يسيء ويرهِّب مع إفادته لمجيء العذاب من فوقهم لقد أُرسل عليهم العذاب من السماء فتمكن منهم واستأصلهم والصورة الموجزة في اهتمامها بإبراز عنصر الترهيب والتهويل نراها تبرز وتشيع صورة الحركة والحياة قبل الإهلاك [(١)] ، ثم تعقبها بصورة الخفوت والموت والفناء السريع ، وكل ذلك له أبعاده التأثيرية في نفس المتلقي بما يبعث هول الفاجعة بعد صورة الحياة والحركة والنماء كما يلحظه المتأمل، في قوله تعالى﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ . وكل مشاهد الإهلاك للأمم المكذبة لوحظ فيها الحضور الإلهي البارز ، حيث أُسندت الأفعال إلى ضمير الجلالة مباشرة تفظيعاً لهول العذاب ، وبياناً لشدة الغضب والنقمة وكذلك نجد هذا الإسناد يأتي في مقام الامتنان بالرحمة والنجاة أو في مقام التحذير من العذاب والغضب ، وهذه الملاحظات نجدها تتابع في صور

(١) وقد عرضت عناد الأقوام وصور تكبرهم على الحق ومدافعتهم له وكيف أنهم أصبحوا بعد ذلك في ذلة مرتهنين قد فنوا وولوا في لحظات يسيرة .

الإهلاك لقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في نسق يجعل الصورة تعكس للمتلقي عظمة الإله المتصرف في الكون كله ، فكيف بمن أعرض عنه وعن هدي أنبيائه وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الضرَّ ويجلبوا لها الخير ، إنها رسائل عظيمة تبث التحذير والإنذار لكفار مكة .

وهكذا نجد التصوير الموجز لحادثة الإهلاك للأقوام يأتي في الغالب في السور الطوال بعد ذكر دعوة الأنبياء لرسلهم وحوارهم وجدالهم ، وما أسفر عن ذلك من إعراض وتكذيب للأقوام جاءت بعده العاقبة موجزة تصور الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل والإنذار والإقناع ، فلا مكان إذن للتفصيل في صورة الإهلاك ، فالحسم السريع في هذا الموضع بذكر حلول العذاب سريعاً كان ذلك هو الأوقع في هذا السياق ، والأعظم في مجال التسلية للنبي ﷺ حيث عجل السياق بذكر الفرج والحل المفرح والنهاية السعيدة في سرعة بعد طول المحاجة وطول المكابدة لكل نبي مع قومه فقمة الحدث كانت في جدال النبي مع قومه وتهديد القوم له ورده عليهم رداً مفحماً ، إنها معركة حوارية بين الحق والباطل ، فمن سيكون المنتصر بعد ذلك ؟ ، فتأتي الإجابة سريعة بانتصار النبي الداعي إلى الحق ونجاته هو ومن آمن وهلاك الظالمين والمعاندين .

المبحث الثاني

مقارنة بين ضروب التنوع في السور القصار والطوال

إذا انتقلنا إلى صورة الإهلاك في السور القصار وجدنا نبرة الغضب فيها عالية ، ولذلك جاءت العبارات قصيرة والإيقاع شديد والألفاظ ضخمة ، لتحقيق التخويف والتأثير الديني ، وتركت التفصيلات التي ذكرت في السور الطوال في شأن تكذيب الأقوام لرسلهم وإعراضهم ، حيث اهتمت الصورة بالدخول مباشرة إلى وصف العذاب وبيان كيفيته ، وقد جاء ذلك في أسلوب تصويري لا يخلو من تشبيه أو استعارة أو مجاز لتوضيح الحدث وإبرازه ، وقدجاء ذلك عبر الجمل القصيرة الموجزة والإيقاع السريع الذي تظهر فيه نبرة الغضب، فالصورة هنا تخاطب المعرضين وتزجرهم ، إنها دفقات متتالية تشبه القذائف المتتابعة .

إننا هنا قد انتقلنا من مرحلة الإقناع والحوار الذي لوحظ في السور الطوال إلى مرحلة تخاطب المعاندين وتزجرهم ، حيث لم يفلح معهم من قبل الإقناع ، فكان الترهيب هنا أعظم والإيقاع الشديد والألفاظ الضخمة تحقق التأثير البالغ في النفوس ، ولمّا كانت السور الطوال تجمع بين الترهيب والتبشير نجدها تقارن بين صورة المهلكين والناجين ، وتحذر من مغبة الإعراض والتكذيب ، وهذا الأمر لا نراه في السور القصار ؛ لأن الصورة تتجه إلى مشهد العذاب فتقتصر عليه لتكون خطاباً صارماً للكفرة ، فيه زجر شديد وإنذار عظيم يشير إلى شدة الغضب ويوحي بقرب نهاية الظلم وأهله . فالكفار من أهل مكة اشتدَّت مواجهتهم لدعوة محمد ﷺ واشتد أذاهم وإعراضهم وقد غلب على هذه المشاهد

في السور القصار استخدامها للتصوير البياني ، فلا تكاد تخلو المشاهد من تشبيه أو استعارة أو كناية أو مجاز ينقل لنا تلك الصور الحسية ، وقد اهتمت باستحضار الحدث الماضي وتجسيده ، كما مرَّ بيان ذلك مفصلاً في باب الصورة . وقد لوحظ أن مشهد إهلاك قوم عاد قد جاء في تفصيل يصور لنا بداية العذاب ونهايته ، بينما نجد عذاب قوم صالح وشعيب يمرُّ سريعاً ؛ لأنه تصوير يصور سرعة أخذ الصاعقة لهم وقد أُبيدوا جميعاً في لحظات وجيزة ، فكان النظم القرآني يعطي لكل صورة ما يطابق أحداثها في السرعة أو الطول .

كما أن المتأمل يلحظ الاتساق البديع بين الأحداث وصورها التعبيرية في كل مشاهد الإهلاك ، وهي كذلك في القرآن الكريم كله ، وعند النظر في خصائص التصوير القرآني للإهلاك في السور الطوال والقصار نلحظ أنه قد اهتم بالجانب الحسي والمحسوس له أثره البالغ في النفس والقرآن حيث يشبه محسوساً بمحسوس ، فإنما يرمي إلى رسم الصورة كما تحسها النفس ، ومثال ذلك ما يظهر في تشبيه الأمواج بالجبال في صورة إهلاك قوم نوح ، فالجبال تُصورها للعين هذه الأمواج الضخمة كما تنقل إلينا ذلك الإحساس الذي كان يشعر به ركاب السفينة من خوف ورهبة صاحبت موقف الطوفان الهائج ، ويلاحظ أن الصورة تبتعد عن التفاصيل المشتتة للذهن والمشغلة عن الحدث ، والتي قد تحول عن المقصود والغاية من إيراد المشهد ، ومن ذلك ما لوحظ في قصة الطوفان حيث لم تلق الصورة اهتماماً بذكر عدد من كان على ظهر السفينة ممن نجا مع نوح من المؤمنين ، ولم تذكر لنا هل كان الطوفان عاماً للأرض كلها أم كان مقتصراً على

القوم المهلكين ؟ وأرضهم ولم تبين لنا كما مكث نوح ومن معه من الوقت على ظهر السفينة . كل هذه التفاصيل تركت ، فالصورة القرآنية لا تهتم بالتاريخ وإنما هي صورة تنقل لنا من الحدث ما يكون عظةً وعبرة ، وهذا هو المقصود ، ثم إن هدف الصورة كان ينصرف إلى نقل الحدث المفجع في تتابع حثيث يجعل النفس مرتبطة مشدودة إلى صورته لا تنفك عنه ، وكأنه طرقات متتابعة تطرق على الحس تستثيره وتنبهه إلى العاقبة الوخيمة والنهاية المؤلمة ، كما أنه يلحظ أن التصوير لمشاهد الإهلاك يجعل المتلقي يعيش الحدث حيّاً يتمثل في شعوره ، ثم إنه يحوِّل تلك الانفعالات العابرة إلى عواطف ثابتة بواسطة التكرار والإيحاء كما يلحظ ذلك في الاستفهام المكرر في سورة القمر﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ .

والصورة القرآنية غالباً ما تختم بالتأكيد على أن الله تعالى قد أبقى من الآيات والآثار ما يدل على تلك العقوبات الشاهدة على قدرته وسطوته ، ومع ذلك لم يعتبر المعرضون ومن سار على نهجهم من أُمة محمد ﷺ يقول تعالى مخاطباً كفار مكة ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

إن هذا الخطاب الإلهي يشعر المؤمن بأن الله بجلاله وعظمته هو الذي يقص هذه الأنباء ، ويكشف لنا عما خفي من أسرارها ، ومما لوحظ من المقارنات البديعة أن العقوبات والجزاء كانت مطابقة لجرائم الأقوام والأمم والجزاء من جنس العمل والصورة القرآنية قد أظهرت لنا هذه العقوبات في أسلوب بياني يطابق الواقع الذي جرى دون تخييل يبعد عن الحقيقة من أجل زيادة الترهيب كما يفعل الشعراء وصناع البيان ، بل نقلت لنا الصورة القرآنية الواقع كما كان دون

زيادة أو نقصان وصورت لنا استكبار الأقوام وعتوهم حيث أهلك الله تعالى عاداً بالريح وقد اعتدوا بقوتهم فجعل الله الريح اللطيفة الخفيفة هي التي تصرعهم وتشل أركانهم بعد أن تحولت في قدرة ربها إلى ريح مدمرة لا تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالرميم ثم إن الصورة تركز على إبراز الإهانة والإذلال للمهلكين جزاء استكبارهم وإهانتهم فتصور لنا مآلهم المهين ، حيث شبهوا بالغثاء وبالرميم وبالهشيم المحتظر وبأعجاز النخل الخاوية ، وكذلك صورتهم صرعى جاثمين على الأرض والجثوم للأرنب وشبهه ، كل هذه الصور تبرز صورة الإذلال والإهانة والحقارة مما يبعث في النفس ضعف وتهافت المستكبرين المعاندين ، وما كفار قريش وصناديدها بأشد منهم قوة ، إن هذه الصور تبعث الإنذار والترهيب لهم وأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولكن الكافرين لا يعلمون ، إن الصورة القرآنية في تصويرها للأحداث الماضية لم تجعلها في أسلوب يروي أحداثاً قد مضت وانتهى أمرها في غابر الزمن بل إن الصورة تعبر عن الحدث بما يجعله حاضراً مشاهداً لترينا صورة المهلكين وكأننا ننظر إليها ونبصرها فتزرع في النفوس الرهبة والحذر .

ويظهر هذا في استخدام الصورة للفعل المضارع في أكثر من مشهد كقوله تعالى في صورة هلاك قوم عادبالريح ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ إنها تصور النزع وتستحضره لنا وكأننا نناظره مباشرة ونلاحظه وكقوله تعالى عن سفينة نوح ﴿ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ إن الصورة تستدعي الحس الرائي لاستحضار الصورة ومتابعة الأحداث ومثل ذلك نراه في قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ .

كذلك نجد الصورة تهتم بتصوير العواطف والانفعالات ، وأبرز ما يظهر في هذا الجانب الحوار الذي دار بين نوح وولده ، ويالها من صورة تبعث الرهبة والوجل والعظة ، وتصور لنا عاطفة الأبوة في موقف محدق بالرهبة والخطر والصورة في عمومها وهي تصور أحداث الإهلاك لا نراها تقف « عند الحدود البلاغية المعروفة من تشبيه ومجاز واستعارة ، وإنما هي قد تعدت ذلك كله إلى كلية الصورة التي يرفدها الإيقاع والتآلف الصوتي فضلاً عن إثارة مجالات الحس والذهن عبر ظلال من متممات الصورة كالتلوين بتماثله وتضاده والحركة في علوها وانخفاظها وضجتها وسكونها ، والصوت المنبعث من الحروف اللفظية ، أو من حوار الشخيات ، أو من هدوء النغم وارتفاعه إنه التصوير الحي المنتزع من عالم الأحياء »[1] ويلاحظ أن عرض صورة الإهلاك موجزة في سور ومفصلة في أُخرى كان ذلك تبعاً لما يتطلبه سياق السورة وموضوعها ووقت نزولها كلها اعتبارات حدَّدت الحلقة المطروحة من صورة الحدث ، ثم إن متابعة هذه الحلقات يوصلنا إلى صورة كلية للحدث ، ومثال ذلك ما لوحظ من تصوير هلاك قوم عاد حيث صُورت لنا بداية العذاب ونهايته وقد جاءت البداية والنهاية مرتبطة بالترتيب النزولي ، فقد عرض في سورة القمر وهي أسبق في النزول بداية فعل الريح بالقوم وأنها هبت عليهم في يوم نحس مستمر والناس يقاومون فعل هذه الريح العنيفة بتشبثهم بالبقاء دون فائدة حيث كانت تقتلعهم

(١) من جماليات التصوير في القرآن ، محمد قطب عبد العال ص ٥٦ .

الريح من أماكنهم وتدفعهم ، ونجد سورة الحاقة يعرض فيها ما يكمل الصورة حيث ظلت الريح تدفعهم وتصرعهم حتى أبادتهم جميعاً ، فأصبحوا صرعى مطروحين منتشرين كأنهم أعجاز نخل خاوية وفي سورة الذاريات ينتقل التصوير إلى مآل تلك الجثث المطروحة من البلى والتفتت ، وبذلك نجد التكامل البديع بما يوافق ترتيب السور في نزولها وسياقاتها حيث نخرج من ذلك بصورة متكاملة عن هلاك قوم عاد وأنه قد مرَّ بمراحل متعددة للتنكيل بهم بما يناسب عتوهم واستكبارهم ، وهكذا نجد أن الصور المعروضة في السور القصار كانت تتميز بالإيقاع السريع والفقرات القصيرة التي بثت أشد النذر والتوعد والترهيب خصوصاً وأن موضوعات السور ومقاماتها متقاربة في سورة (الحاقة والقمر والذاريات) حيث تهتم بزجر المكذبين والمعاندين من أُمة محمد ﷺ .

وصور الأحداث نجدها تتجلى فيها وحدة الموضوع ووحدة الأثر النفسي ووحدة الإيقاع المنسجم مع تصوير الحدث وهذا من أجل خصائص الصورة القرآنية .

الباب الثالث

أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه

ويشمل ستة فصول :

الفصل الأول: أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم نوح.

الفصل الثاني : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم هود.

الفصل الثالث أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم صالح.

الفصل الرابع أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم لوط.

الفصل الخامس أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم شعيب.

الفصل السادس :مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها .

الفصل الأول

أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه(١)

في هلاك قوم نوح

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرار التنوع في علاقات المشهد الموجز في سورة (الأعراف ، ويونس ، والشعراء ، والأنبياء) .

المبحث الثاني : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد المفصل من سياقه في سورتي (هود ، والمؤمنون) .

---

(١) إن دراسة تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه يبين للمتأمل مناسبة المشهد لسياقه ولما يتبعه من مشاهد وقد سيقت كلها ونظمت في سياق واحد ولاشك أن النظر في هذه العلاقات والمناسبات له قيمة تكشف وتوضح لنا بجلاء عظيم بيان القرآن الكريم ومتانة تراكيبه إن النظر في علاقات المشاهد ببعضها له قيمته البلاغية العظيمة فالبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومن الحال حال السياق ، والنظرة الكلية تحتم النظر إلى علاقة المشهد بما قبله السياق وما بعده (اللحاق) ثم بالسياق الكلي للسورة حتى نصل إلى معرفة دقيقة للإيجاز في المشاهد أو في تفصيلها كما اقتضته سياقات السور الكريمة وأجواؤها ومناسباتها .

المبحث الأول

أسرار التنوع في علاقات المشهد الموجز في سورة (الأعراف ويونس ، والشعراء ، والأنبياء)

١) ما ورد في سورة الأعراف :

جاء المشهد في هذه السور الكريمة في إيجاز سريع يشير إلى حادثة الإهلاك لقوم نوح عليه السلام دون تفصيل أو إيضاح لقصة الإهلاك كما وردت في سورتي (هود ، والمؤمنون) ، وذلك لأن هذه السور الكريمة لها مقاصد وأهداف جعلتها تجنح إلى الإيجاز والإشارة ، فكل سورة تذكر من المشهد الجانب الذي يتلاءم مع موضوعها وسياقها ، وهذا ما يتضح للمتأمل في سورة الأعراف وهي من أطول السور المكية وأول السور التي عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء عليهم السلام وهي في موضوعها تتفق مع سائر السور المكية في تقرير أصول الدعوة ، من توحيد الله عز وجل ، والاعتقاد بالبعث والجزاء وتقرير الوحي والنبوة ، وقد اتخذت السورة الكريمة في عرض هذا الموضوع طريق الإنذار والتذكير فكانت بحق سورة الإنذار في مقامها وسياقها وتفصيلاتها ، وهي مع ذلك تهتم بالنبي ﷺ فتركز على جانب التسلية والتثبيت وعند النظر إلى الجانب المعروض من قصة نوح عليه السلام يلحظ أنها جاءت تعقيباً لما تقدم في السورة من الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك بالله سبحانه والتكذيب بآياته فالهدف « هو تصوير العقيدة وطريقة التبليغ وطبيعة استقبال القوم لها بما في ذلك حقيقة

مشاعر الرسول وتحقق النذير »[1] .

ولذلك أُطيل في عرض ما دار بين نوح وقومه وأوجز الحديث عن مهلك القوم كما يتضح من خلال الآيات في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الآيات : ٥٩ - ٦٤] .

إن الجدل في المشهد هنا يعد من أهم العناصر التي سادت فيه وقد صدّر بقال من جهة نوح عليه السلام ، وذلك يمثل أنموذج الداعية الصابر المتلطف بقومه رغم ما يرد منهم من رد يتجلى فيه جمود العقل والاغترار فيرمونه بالضلال والسفاهة ، وهذه المواقف المعروضة وإطالتها بالنسبة لما عرض من إيجاز في قصة الإهلاك كان للربط بين دعوة محمد ﷺ وموقف كفار قريش منه بدعوة نوح عليه السلام وإعراض قومه عنه ، وهذا مما يزيده ﷺ تثبيتاً وتسلية وهو يواجه عنت قومه وإعراضهم بما عرض له من صبر نوح وتلطفه مع قومه رغم إلحاحهم على الإعراض والبعد ، وهذا المشهد نراه يرتبط ارتباطاً بديعاً بما ورد في أول السورة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (المجلد الثالث / ص ١٣٠٨) .

من نهيه ﷺ من أن يضيق صدره من إعراض قومه عن رسالته في قوله تعالى :

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إن عرض ما دار بين نوح وقومه كان تخفيفاً وتسلية للرسول ﷺ فيما ألم به من ضيق تجاه قومه فكان التطويل هنا والاختصار في خاتمة المشهد في إشارة موجزة لحادثة الإهلاك في سرعة خاطفة ونتيجة حاسمة تبث في قلب النبي ﷺ وفي قلوب المؤمنين أن العزة والنصر والعاقبة الحسنة للرسول ومن آمن معه مهما طال زمن الإعراض واشتدت وطأة الظالمين ، وفي ذلك تعريض بالمشركين من كفار مكة بأن عاقبتهم ستكون مثل عاقبة من سبقهم ، فلم يكن الغرض من المشهد إذن التفصيل في عرض صورة الإهلاك والترهيب .

بل كان الغرض ينصرف إلى عرض الدعوة وما اكتنفها من مصاعب وعقبات وما كان يواجه به النبي من قبل قومه ، وهذا ما يلائم معاني التسلية والتثبيت في تلك المرحلة التي نزلت فيها سورة الأعراف ، فقد نزلت في مرحلة(١) متقدمة من مراحل الدعوة حيث كان الجدال وعرض الدعوة يدور بين الرسول ﷺ وقومه في مكة .

هذا وقد جاءت قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف في ترتيبها

---

(١) ولذلك كان هذا الموقف المعروض في هذه السورة من أوائل المواقف التي دارت بين نوح وقومه بدليل إفصاحه عن موضوع رسالته وهو التبليغ والنصح وتحذيرهم من العذاب في المستقبل ونزول السورة قبل سورة هود والمؤمنون التي جاء الحوار فيهما في آخر المراحل التي نزل بعدها العذاب وحلّت النقمة .

التاريخي والزمني لأن السورة « تعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى ، وتعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق ، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة »[1] والمشهد المعروض من القصة يرتبط بما أشارت إليه السورة في مقدمتها من إنذار المشركين إجمالاً بما حصل للأمم المكذبة من قبلهم في قوله تعالى :﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الآية : ٤] .

فجاء التفصيل بعد ذلك في ذكر ما حل بهذه الأمم منذ أول أمة أهلكت وهم قوم نوح عليه السلام ومع هذا التفصيل الذي جاء لبيان الإجمال في أول السورة إلا أن المشهد هنا لم يعطف على ما سبقه كما عطف المشهد بالواو في سورة هود وفي هذا الشأن يقول ابن الزبير رحمه الله : « إن آية الأعراف لم يتقدمها ذكر إرسال ولا أمر بدعاء الخلق ولا جملة يناسبها عطف إرسال الرسل إلى الأمم ودعاء الخلق إلى الإيمان ، إنما تقدم قبلها ذكر أصحاب الأعراف ثم قوله تعالى :
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الآية : ٥٤] إلى قوله ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الآية : ٥٨] ثم ابتدأت قصص الرسل مع أممهم فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الآية :٥٩] وتتابع قصصهم ، أما آية هود فقد تقدم قبلها ذكر رسالة محمد ﷺ وبذلك افتتحت السورة قال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الآيات :١ – ٢] .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٣٠٤) .

ولم يعدل بالآي عن هذا الغرض وما يرجع إليه إلى ذكر إرسال نوح عليه السلام ، فوردت الآي بذلك منسوقة على ما تقدمها بواو العطف على أتم مناسبة »(١) .

ولكن الذي يظهر من السورتين أن المقدمتين فيهما متساويتان ، فسورة الأعراف يلحظ فيها أنها قد ابتدأت بذكر رسالة محمد ﷺ في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية: ٢] .

إلا أن سورة هود تسلسل فيها الحديث عن رسالة محمد ﷺ وشأنه حتى وصل إلى قصة نوح فعطفت على ما سبقها على أتم وجه وأكمله ، وهنا محل التفاوت بين السورتين حيث جاء المشهد في سورة الأعراف في سياق مختلف عن ذكر رسالة محمد ﷺ حيث ورد في سياق الحديث عن طبيعة أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ومشابهة هؤلاء وأولئك للأرض الطيبة والأرض الخبيثة كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الآيات: ٥٧-٥٨] .

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير (١ / ٥١١ - ٥١٢) .

ومن هنا لم يعطف المشهد المعروض من قصة نوح على ما سبقه بل جاء متلائماً مع هذا السياق الذي ورد فيه ولذلك لم نجد في المشهد تفصيلاً لما حصل للقوم من العذاب بل اقتصر المشهد على بيان رفضهم للخير الذي جاء به نوح عليه السلام ، فهو نعمة من الله جحدوا بها رغم ما كان يحاول في هدايتهم وهاهي الخاتمة في المشهد تبين انتهاء القوم إلى الرفض والتكذيب ، فكانت العاقبة سريعة حاسمة ، فتلاءم المشهد مع ما ورد فيه ، فنوح عليه السلام نعمة وخير أرسله الله إليهم فلم يتقبلوا هذا الخير فكانوا كمثل هذه الأرض الخبيثة التي لم تتقبل الخير ولم تستفد منه ، وهكذا نجد التلازم والتناسب من أول السورة إلى آخرها ومن أولها إلى أن نصل إلى المشهد المعروض من قصة نوح عليهالسلام وقد كان لموضوع السورة وسياقها الأثر والطابع الذي رسم معالم المشهد وحدد وقائعه .

وهكذا نجد سورة الأعراف تصوِّر أول المواقف التي دارت بين نوح وقومه وقد تناسب فيها إعلان نوح عليه السلام عن وظيفته وموضوع رسالته وهو التبليغ بما لا نجده في السور القادمة وهو هنا يدعوهم ويناديهم إلى عبادة الله وحده ويخوفهم بالعذاب إن هم استمروا على إعراضهم وكفرهم ولما أعلن لهم عن مهمته ورسالته نراه يستنكر عليهم في تعجبهم من أن خصه الله بالرسالة ثم تنتهي المحاورة سريعاً بقول القوم إنا لنراك في ضلال مبين ونصل إلى ذكر النتيجة سريعاً في تكذيب القوم وورود النجاة وإغراق القوم الظالمين ، هكذا تتابعت المعاني في المشهد في هذا السياق من سورة الأعراف ولمّا كانت المحاورة مختصرة

بين نوح وقومه لم نلحظ هنا تهديداً للقوم إلا ما كان منهم من اتهامه بالضلال ولذلك لا نلحظ إيغالاً في المشهد أو تفصيلاً في صور العذاب ، فالسياق وبنية المشهد تناسب معها إيراد هذه الخاتمة الموجزة السريعة ، وسنلاحظ حركة المعنى ونمائه في السور القادمة بما يتلاءم مع ترتيب السور الكريمة في نزولها والله أعلم بمراده .

وأما المشهد المعروض من القصة في سورة الشعراء فيبتدأ بقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾
إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى
كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الآيات : ١٠٥ – ١٢٢] .

إنّ الآيات هنا تبين للمتأمل عند النظر فيها ما يشير إلى وقت نزولها .

فقد نزلت في أواسط العهد المكي ولذا ترك النص في موقعها على الأمر بالعبادة لله وحده اعتماداً على ما قبلها في سورة الأعراف السابقة في النزول قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ والسورة نزلت

في وقت اشتدت فيه معركة المعجزات التي أثارها مشركو مكة ، وكان لها تأثير كبير في نفس النبي ﷺ وفي أنفس المؤمنين ، وقد قص القرآن الكريم كثيراً من المعجزات الحسية وخوارق العادات التي أيد الله بها الرسل السابقين فأراد مشركو مكة أن يؤيد الله رسوله بمعجزة حسية كما أُيد من سبقه فيصدقوا به ويؤمنوا فيخاطب المولى عز وجل نبيه خطاباً فيه إيناس وعتاب رقيق ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ وبيّن لنبيه أنه لو شاء لأجبرهم على الهداية ﴿ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ ولكن هؤلاء القوم مجبولون على الإعراض حتى ولو حقق لهم ما طلبوا من الآيات ، فالآية تحمل الوعد والوعيد لكفار مكة وجاءت الآية التالية لها تبين مدى ما هم فيه من استكبار وإصرار في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴾ [الآية : ٥] ومع ذلك فسيناله الجزاء ﴿ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ وهذا يوضح لنا موضوع السورة الذي يدور حول المعجزات والتكذيب وإثبات الهدف الذي جاء من أجله المرسلون وهو طاعة الله وتقواه ، ولذلك تقدمت قصة موسى على قصة نوح عليه السلام لما فيها من ذكر للمعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها نبيه موسى في مواجهته لفرعون ، فكانت معجزة العصا واليد ومعجزة انشقاق البحر ونجاة موسى وبني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده والقصة تبين للرسول ﷺ وهي في سياق التسلية أن هذه المعجزات الحسية الخارقة والواضحة لم تؤثر على فرعون وقومه ، بل زادتهم طغياناً وكفراً وظلوا على عنادهم وكبريائهم حتى أهلكهم الله بالغرق ، وفي هذا بيان للسبب الذي من

أجله لم يلتفت إلى المعجزات الحسية لتكون برهاناً على صدق الرسالة .

فكان من رحمة الله ولطفه أن صرف هذه الأمة إلى معجزة القرآن الكريم وما أودعه تعالى من آيات بينات في كونه لكل متفكر تدل على ألوهيته وصدق رسالة عبده ، فانتقلت البشرية من المعجزات الحسية المدركة في ابتداء عهودها إلى المعجزات المعنوية التي تخاطب العقل والوجدان وتنقلهما إلى قوة الإيمان وثباته وتأتي قصة نوح لتبدأ بكلمة (التكذيب) لتكون أوقع في التسلية للرسول ﷺ وهو يواجه تكذيب قومه وطلبهم للمعجزات والخوارق الحسية ، ولتبين له أن قومه ليسوا بدعاً في تكذيبهم وصدهم ، وأن حاله كحال غيره من الرسل الكرام قد أدى ما عليه من البلاغ ، ولكن طبيعة هؤلاء وأولئك التكذيب والإعراض الذي تسلسل عبر تاريخ البشرية منذ أن بعث الله رسله إلى أن وصل العهد بمحمد ﷺ ، والتكذيب في الآية ، قد أوقع على المرسلين كلهم (كذبت المرسلين) في حين أن قوم نوح كذبوا رسولهم فقط وهذا التعبير يؤكد وحدة الرسل ووحدة الدعوة ووحدة مصير المكذبين ، ثم إن المشهد يركز على عناصر الدعوة وما دار بين نوح وقومه ثم يأتي التعجيل بالنتيجة الحاصلة للتكذيب ، في إيجاز سريع يبث الرعب ويقذفه في القلوب ويبين لنا سرعة انقضاء عهد الظالمين وسرعة انتصار الله لنبيه والمؤمنين ، والمشهد في إطالته لما دار بين نوح وقومه وبيانه لموقف قوم نوح من الإيمان وقد رفضوه بسبب أتباع نوح عليه السلام وهم من طبقة دنيا بالنسبة لهم وما كان من رده عليهم بأنه لم يكلف العلم بأعمالهم ولا ببواطنهم ولا سبيل له إلى ذلك لأن حسابهم مقصور على الله لا يتجاوزه إلى غيره

كل ذلك يحمل المشابهة والمطابقة لما كان يحدث لمحمد ﷺ مع قومه .

ولذلك أطيل في هذا المشهد لهذا ولموافقة دعوة السورة إلى تقوى الله عز وجل في مقاماتها وسياقها ، وهو الهدف الذي أُرسل من أجله المرسلون ، ولذا نجد السورة تعرض في كل أقوال المرسلين عليهم السلام وفيما دار بينهم وبين أقوامهم هذه الكلمة (ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون) .

ومن هنا وبعد عرض كل ما مضى يتبيّن أن السور الكريمة قد اختصرت وأوجزت في إيراد مشهد الإهلاك والتدمير وفصلت وركزت على المحاجة بين الرسول وقومه وعناد الأقوام وتمردهم من أجل التسرية والتسلية للرسول ﷺ وهو يواجه عنت الإعراض والتكذيب في تلك المرحلة التي نزلت فيها السورة الكريمة .

إنَّ السورة الكريمة جعلت تكذيب المكذبين بما أُنزل على محمد ﷺ وعدم تصديقهم برسالته هو المحور الذي يدور من حوله كل ما تضمنته السورة ولقد هيأ مطلع السورة وهيأ سياقها لسوق أخبار المكذبين وما حلَّ بهم ليكون الاعتبار والاتعاظ وللمتأمل أن ينظر إلى قوله تعالى في مطلع السورة لرسوله ﷺ وهو حزين لتكذيب قومه ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الآية: ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الآية : ٦] .

كان هذا تهديداً لأهل مكة ولكل من عارض دعوة رسول الله ﷺ وهذه الآية بينت تصميم القوم على التكذيب وكان الإتيان بأنباء من سبقهم من الأمم وأنباء رسلهم من الآيات (٥٩ – إلى ١٠٠) فيه توضيح لهذه الآية التي في المقدمة وتفصيل لإيجازها .

وبهذا نجد المقدمة هيأت لسوق أنباء المكذبين في سياق واحد يوجه المعرضين من كفار مكة إلى التفكر ، ويوقفهم على مصائر المكذبين من أمثالهم من الأمم .

وهكذا يلحظ أن سورة الشعراء قد جاءت امتداداً لما ذكر قبلها في سورة الأعراف ولذلك نجد أن نبي الله نوحاً عليه السلام لم يأمرهم بالعبادة هنا فقد أمرهم بها فيما سبق في سورة الأعراف فهو عليه السلام لَمَّا لم يفلح معهم في أمرهم بالعبادة ، وبخهم هنا وأنكر عليهم عدم التقوى وصرف العبادة له وحده إنه هنا يحرِّك جمودهم ، وهنا تبين لنا سورة الشعراء أسباب رفض القوم لرسالة نوح بما لم نلحظه في سورة الأعراف وهو اتباع الأراذل ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ فيرد عليهم عليه السلام مدافعاً عن نفسه وعن أتباعه مؤكداً تمسكه بأتباعه وأنه لن يطردهم مبيناً لهم أنه لم يكن إلا نذيراً مبيناً لهم فلما رأوا منه الإصرار هددوه بالرجم ، إنَّ الموقف هنا يشتد ويحتدم الحوار بما لم نلحظه في سورة الأعراف ولذلك نجد نوحاً عليه السلام يدعو على قومه ويطلب من ربه النصر والنجاة له ولمن معه فجاءت الخاتمة موجزة سريعة تبرز فيها النجاة لنوح ومن معه حيث استجاب له ربه وأغرق الظالمين .

وبهذا نجد الموقف يحتدم ويشتد في سورة الشعراء حيث هدد القوم نبيهم فطلب النصر من ربه فجاء النصر والإجابة في سرعة وهنا نجد تلاؤم الخاتمة مع سياقها وقد وافقت الخاتمة في سورة الأعراف في إيجازها لاتفاق السورتين في الموضوع وهكذا نجد حركة المعنى ونموه من سورة الأعراف إلى سورة الشعراء بما يوافق طابع السورتين وخصائصهما التي تتفرد كل واحدة بها عن غيرها .

ويأتي الموقف في سورة يونس محتدماً كما في سورة الشعراء .

يقول تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ٧١ – ٧٣] .

إن المتأمل في مجيء هذه الحلقة المختارة من القصة يجد التلاؤم البديع مع موضع السورة وجوها الذي يبرز فيه تعنت الكافرين وتكذيبهم للوحي وعجبهم من أن يرسل الله إليهم بشراً رسولاً ، والسورة في جملتها تشترك مع السور المكية في موضوع تقرير العقيدة وهذا الموقف الذي جرى بين نوح وقومه يعد من المواقف الأخيرة التي جرت وهذا ما يوضحه قوله ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ حيث يدل هذا على أنه قد سبق بلقاءات وحوارات

دعاهم فيها إلى الله وهم لا يستجيبون حتى وصلوا إلى مرحلة لم يعد يروقهم فيها سماع شيءٍ من دعوته ، فلم يكن منه عليه السلام إلا أن أعلن لهم التحدي والإصرار على منهجه ودعوته غير آبه بضجرهم وتهديدهم ، إن السورة الكريمة قد أخذت من القصة « حلقة التحدي الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ، ولا الطوفان ، ولا التفصيلات في تلك الحلقة ، لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة ، لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة »[1] إن هذا التحدي الصريح والمثير من نوح عليه السلام ينبئ عن تلك الفترات الأخيرة التي واجه فيها نوح قومه وهو في عزة من ربه وثقة عظيمة حتى إنه ليغري خصومه في نفسه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الآية : ٧١] وتظهر المناسبة الدقيقة في إظهار حلقة التحدي من نوح لقومه بما يلائم تلك الفترة التي نزلت فيها سورة يونس فقد نزلت بعد سورة الإسراء وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وفي تلك الفترة اشتد إعراض المعرضين وأذاهم وارتد ضعفاء الإيمان ممن دخلوا الإسلام بعد حادثة الإسراء والمعراج يوضح ذلك ما ورد في السورة عقب القصص

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (المجلد الثالث) ص / ١٨١٠ .

المعروضة فيها قوله تعالى لنبيه ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ينبئ عن حزنه ﷺ في إعراض المعرضين وارتداد المرتدين ، فكان عرض حلقة التحدي والثبات والعزيمة لنوح عليه السلام فيه تسلية للرسول ﷺ وأن عليه أن يصبر ويتوكل على ربه فالله معه ولن يخذله ولعل في إيراد مثل هذه الحلقة كان للتنبيه والإشارة إلى مقاربة انتهاء عهد الصمت والصبر على الأذى ودنو مرحلة الصدع بالدعوة واقتراب الفرج بالأمر بالهجرة من مكة ولتبدأ مرحلة الحق الجديدة وتنتهي فترة المواجهات والمواقف التي تدور بين الرسول ﷺ وقومه إلى مواقف صارمة ومحتدمة يعلن فيها التحدي والمقاومة ولينتصر الحق جهراً على الباطل ويمكن الله لدينه ونبيه ومن آمن معه .

وأما عن علاقة المشهد بسياق السورة فقد جاء معطوفاً بحرف الواو على ما سبقه في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ حيث جاء التفصيل بعد العطف لما أُجمل من قبل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الآية : ١٣] ومن مسوغات العطف على ما سبق أن الحديث كله كان متتابعاً في السورة عن المشركين من كفار مكة وعن مجادلتهم بالحجج الظاهرة على بطلان ما هم فيه وما تخلل ذلك من المواعظ والوعيد بالعذاب العاجل والآجل حتى وصل الحديث إلى ذكر قصة نوح مع قومه ، وذكر أحوال الأمم المماثلة أحوالهم لأحوال هؤلاء القوم من كفار مكة في ابتداء الإعراض وتطوره فالعطف وعود الضمير

يرجع إلى كفار مكة وهكذا نجد التلاحم والترابط وكيف كان العطف بالواو على ما سبق في أحسن موضع وأتمه « وبهذا يظهر حسن موقع (إذْ) في قوله (إذْ قال لقومه) فإن تقييد النبأ بزمن قوله (لقومه) إيماء إلى أن محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محل العبرة لأن وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صم آذانهم عن دعوة رسولهم وقوله ذلك لهم إنما كان بعد أن كرر دعاءهم زمناً طويلاً »[1] .

ولذا ابتدئ بقصة نوح في السورة على ترتيبها التاريخي فلم يتقدمها قصة أحد من الأمم لهذه المشابهة ولهذا المراد ، ومن هنا نصل إلى معرفة الإيجاز في عرض قصة الإهلاك لهذه المناسبات والعلاقات والله أعلم .

إن احتدام الموقف هنا يتواصل مع احتدام الموقف في سورة الشعراء بين نوح وقومه حيث يلحظ هنا أنه عليه السلام يبرز لهم التحدي والثبات والعزيمة على المضاء على طريقه رغم ما يواجهه من قومه من إعراض وصدٍّ واثقاً بتأييد ربه له ومتوكلاً عليه والسورة تتفق في مواضيعها مع سورة الأعراف والشعراء وبهذا نجدها توجز في الخاتمة في تسلسل بديع والله أعلم .

وتأتي سورة الأنبياء فيعرض فيها من المشهد قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الآيات : ٧٦ - ٧٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٥) .

وقد اختصرت قصة نوح مع قومه إلى هذه الحلقة المعروضة من المشهد فليس هنا ذكر للمحاورات التي دارت ، ولا المقدمات التي حصلت قبل نزول العذاب بل لا نجد إلا نداء نوح ودعوته لربه ثم ورود الاستجابة وما حل بالقوم في إيجاز سريع متلاحق ؛ لأن علاقة المشهد هنا تحتم هذه الحلقة المعروضة فقد وردت في سياق رحمة الله بأنبيائه وحفظه لهم في الابتلاء وعند شدته عليهم سواءً كان الابتلاء بتكذيب أقوامهم لهم أو إيذائهم كما يتضح ذلك في قصة إبراهيم ولوط[(١)] ونوح أو كان الابتلاء بالنعمة كما في قصة داود وسليمان أو بالضر كما في قصة أيوب عليه السلام ثم تعرّضت السورة لقصة يونس عليه السلام وقد ضاق صدره ولم يتحمل تكاليف الدعوة فألقاه الله في مأزق عظيم حينما التقمه الحوت واشتد عليه الكرب ولولا أن رأى برهان ربه وأناب إليه لما فُرِّج عنه إذن فالسورة تعرض لفضل الله سبحانه على أنبيائه وتبين ما وقعوا فيه من شدة أعقبها الله تعالى بالفرج والنصر وكل ذلك فيه تسلية للنبي ﷺ فيما يناله من صعوبات وتقوية لقلبه على أداء الرسالة .

فالأحداث قد عرضت من النهاية ، بعد يأس نوح من قومه ودعوته عليهم فجاء الإهلاك والإغراق والنصر وعند هذا يسدل الستار على الأحداث بالإغراق دون تفصيل فكان هذا التصوير السريع للأحداث يقصد منه تطمين الرسول ﷺ والمؤمنين معه بأن الله يستجيب لرسله ويحفظهم في الوقت واللحظة

(١) وقد تقدمت على قصة نوح في هذه السورة الكريمة .

المناسبة وأن القوة الفاعلة المهيمنة في الكون كله هي قوة الله فتكريم الله واضح في هذا المشهد وفي المشاهد المعروضة في السورة والتصوير للأحداث على إيجازه يترك للنفس والخيال أن يستحضر بقية الأحداث فالدعاء والنداء لنوح عليه السلام يوحي بما قبله من أحداث ودعوة وتكذيب وعناد ، والإغراق يوحي بالسفينة كما جاء ذلك مصوراً في سورة هود .

وفي السورة من اللفتات البديعة ما يلحظه المتأمل لها حيث ذكرت السورة أسماء الأنبياء واستعرضت الكثير منهم وفي ذكرهم بأسمائهم إشارة إلى ما حدثت به السورة من اعتراض المشركين من كفار مكة أن يرسل الله إليهم بشراً رسولاً فكان ذكر الأنبياء وإبراز أسمائهم إشارة إلى أن محمداً ﷺ واحد منهم وهو بشر مثلهم ويلحظ في السورة أنها قد ذكرت أمة الرسل وقد تعاقبوا على رسالة مضمونها واحد على مرِّ الأمم وهي رسالة التوحيد وهذا يرجع إلى صلب الموضوع الذي اهتمت به السورة وركزت عليه ، وعند النظر إلى ترتيب قصة نوح عليه السلام بين القصص المعروضة في السورة يلحظ أنها لم تأت في ترتيبها الزمني حيث ابتدأت القصص بإشارة موجزة إلى إنزال الفرقان على موسى وهارون وفي هذه البداية مناسبة بديعة يوضحها الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الآية : ٤٥] وهذا الخطاب يوضح سرَّ مجيء ذكر رسالة موسى هنا وذلك للقرب الزماني بين رسالتي موسى ومحمد ﷺ فالكفار من مكة قد أنكروا ما أُنزل على محمد وأعرضوا عنه والخطاب للرسول ﷺ يوضح أن الإنذار

لهم بهذا الوحي الذي يصدقه ويقرره حقيقة خبر رسالة موسى عليه السلام فقد كانت بالوحي ولكون خبرها ثابتاً عند اليهود ، والعرب لديهم علم بذلك عن طريق مخالطتهم .

« وقدمت قصة إبراهيم على قصة نوح عليهما السلام لصلته الوثيقة بالعرب ، فهو أبوهم الذي يقدرونه ويفخرون بالانتساب إليه وقصته مع قومه شديدة الشبه بقصة الرسول ﷺ فقومه كانوا يعبدون الأصنام والعرب كانوا كذلك وقد خاض في سبيل إبطال عبادتها جهاداً مريراً ونال كثيراً من الأذى والضرر وحاله في هذا يشبه حال الرسول ﷺ في محاربته عبادة الأصنام ، ولعل هذا من أسرار البسط والتفصيل في قصة إبراهيم عليه السلام والإيجاز في غيرها من القصص »[١] . وقصة نوح عليه السلام وجميع القصص جاءت معطوفة بالواو على ما سبقها لتنظير أحوال هؤلاء الرسل وأقوامهم بأحوال النبي ﷺ مع قومه وكيف أن الله قد نصر رسله على المعرضين والمكذبين واستجاب لدعواتهم أجمعين .

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم (ص ١١٥ - ١١٦) .

ولكون إبراهيم عليه السلام أبو العرب فالمشهد يضع قصته أمامهم وهو يدعو إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ليكون دافعاً لهم إلى الاقتداء به .

المبحث الثاني

أسرار التنوع في موقع المشهد المفصل من سياقه في سورتي (هود ، والمؤمنون)

أ) علاقة المشهد في سورة (هود) :

ورد المشهد متكاملاً ومفصلاً في هذه السورة الكريمة بما لا يوجد في غيرها من السور الكريمة في قوله تعالى من السورة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [الآيات : ٢٥ – ٢٧] واستمر الجدال إلى أن قالوا ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الآية : ٣٢] ويستمر الجدال حتى نصل إلى صور الإهلاك والإغراق من الآية (٣٢ إلى ٣٩) .

اهتم المشهد هنا بجانب الدعوة فصوَّر ما كان يدور بين نوح وقومه من جدال ومحاجة فكان ذلك أهم عنصر يسود المشهد وقد ظهر فيه نوح عليه السلام صابراً لطيفاً مع قومه في حواره وجداله يرد على شبهاتهم وحججهم وكان همه منصرفاً إلى هدايتهم لم يعبأ بإهانتهم وتجريحهم له وما كانوا عليه من عناد وطبيعة رافضة لم تتغير أو تتبدل ، ويبدو أن هذا الموقف من المواقف الأخيرة التي دارت بين نوح وقومه يوضحه ما ورد في قوله تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهذا يظهر أن هذا

الموقف كان قد سبق بمواقف كثيرة وهنا يطلبون من نوح أن يأتيهم بالعذاب للدلالة على أنهم قد بلغوا الغاية في تكذيبهم حيث يجزمون بكذبه فجاء قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ للدلالة على انتهاء أمرهم وهذا الوحي لم يصدر إلا بعد أن استنفد نوح عليه السلام ما بوسعه وبعد أن بذل كل المساعي ودعاهم في ليلهم ونهارهم فلم تزدهم دعوته إلا نفوراً واستكباراً ، ولعل هذا الموقف قد توافق مع آخر المواقف التي دارت بين النبي ﷺ وقومه في مكة وقد جاء هذا المشهد معطوفاً على ما سبقه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ لأنه جاء في سياق الحديث عن إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما كانوا يواجهون به النبي ﷺ من إعراض وحجاج شديد فكان انتقالاً من إنذار المشركين ووصف أحوالهم إلى موعظتهم بما حل بالمكذبين من قبلهم ولذا ابتدأ بالتأكيد بلام القسم وقد وذلك لتحقيق مضمون القصة لدى المخاطبين وتقريره في أذهانهم حتى تتم العبرة والالتفات إلى المقارنة والتدبر أو « لأن المخاطبين لما غفلوا عن الحذر مما بقوم نوح مع مماثلة حالهم نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته »(١) .

فكان العطف هنا من عطف القصة على القصة(٢) والمتأمل في السياق يدرك

---

(١) التحرير والتنوير (١٢ / ٤٣) .

(٢) وليس من عطف الجملة على الجملة لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى وهما قوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ فكان العطف من عطف القصة على القصة . كما سيتضح من المناسبة الحاصلة بينهما والواو هنا تسمى بواو الاستئناف أو الابتداء

=

ذلك حيث ابتدأت السورة بذكر رسالة محمد ﷺ ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ [سورة هود : ٢] .

ثم أتبعت بذكر حال المشركين وعنتهم مع رسولﷺوإعراضهم عما جاءهم به ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ ﴾[سورة هود ٥] .

وما ورد عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [سورة هود : ٧ – ٨] .

ثم بينت الآيات ما يمر به ﷺ من ضيق بهم وبما يطلبون من حجج وما يسعون إليه من شبه باطلة يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ

=

فالمنظور إليه هنا إنما هو في التناسب بين الغرضين دون آحاد الجمل الواقعة فيهما وبذلك يسمى هذا العطف بعطف القصة على القصة ، فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلي المنبثق من جزئيات متعددة على مضمون كلي مثله .

مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود : ١٢ - ١٤] .

ثم إن ارتباط السياق بالمشهد من قصة نوح يتضح أكثر عندما ننظر إلى الإلتفات الحاصل في قصة نوح إلى موقف كفار مكة من محمد ﷺ والوحي الذي جاءه ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾ [هود : ٣٥] .

وهذا يشير إلى مشابهة المعاندين من كفار مكة للمعاندين المعرضين من قوم نوح فاتضح هنا سبب الإطالة في عرض المحاجة والجدال الذي دار بين نوح وقومه لمشابهته بما كان يدور للنبي ﷺ مع قومه في تلك الفترة من الدعوة وكون تلك الفترة تعد من الفترات التي اشتدت فيها المواجهات بين النبي وقومه في مكة وكل ذلك من أجل التثبيت والتسلية له ﷺ وقد أُبين عن هذا المقصد بما ورد في السورة من قوله تعالى : ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

وجاء التفصيل في صور الإهلاك في هذه السورة الكريمة لأن سياقها وجوها يعلو فيه الوعيد والتهديد وهو ما يناسب غرض السورة في إشاعة الرعب والفزع في قلوب الطغاة من كفار مكة وقد اشتدت مقاومتهم للدعوة في تلك الفترة إن السورة الكريمة تحذرهم من المصير الذي لقيه من سبقهم من الأمم ، ومن

الإشارات البديعة أن قصة نوح قد ابتدأت بالتأكيد بالقسم وقد للفت وللإشارة إلى عظيم ما ورد من عذاب شديد حل بقوم نوح وهو أعظم موعظة وأعظم خبر يبث النذر والحذر .

لقد أضافت سورة هود ما لم نجده من قبل في سورة الأعراف والشعراء ، فنوح عليه السلام هنا يواصل دعوته لقومه لم ييأس بعدما حصل له منهم الصد والإعراض والتهديد إنه يعيد عليهم هنا الدعوة وينهاهم عن عبادة غير الله وهو في سورة الأعراف أمرهم بعبادة الله وفي الشعراء أمرهم بتقوى الله وهنا ينهاهم عن عبادة غير الله ولمَّا رموه في أول موقف بالضلال نجدهم هنا يتهمون أتباعه بالكذب وفي هذا إضافة لا نجدها في السور السابقة ، ويلحظ أن سورة الشعراء من قبل بينت موقف نوح عليه السلام من أتباعه الذين سموهم أراذل حيث بين لقومه أنه ليس من شأنه طردهم وأنه لا يمكن أن يقع ذلك منه وفي سورة هود نرى تأكيد ذلك واستحالة أن يفعل ذلك ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ ، وهنا نجد رداً قوياً على قومه كان أقوى من الرد في سورة الشعراء حيث قال لهم ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ لأن القوم هنا قد نصّوا على تشويه من آمن بنوح وخصوهم بصريح العبارة بالأراذل حيث قالوا ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ بينما كان ذلك أخف حدةً في سورة الشعراء ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ ثم إن نوحاً عليه السلام بين لهم في سورة الشعراء أنه لا يريد من دعوتهم إلى الهدى

أجراً وجاء في سورة هود مثل ذلك إلا أنها قد حددت هذا الأجر وبينته بالمال في قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ ﴾ وقال بعد ذلك ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ ونرى المحاورة تمتد في سورة هود بعد أن رد عليهم شبههم نراهم بعد ذلك يردون عليه يريدون قطع المحاورة وإنهاء المجادلة في هذا الأمر حيث يقولون ﴿ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إن القوم هنا يطلبون بأنفسهم إنزال العذاب الذي توعدهم به وكان حالهم في سورة الشعراء يختلف حيث هددوا نبيهم بالرجم أما هنا فإنهم قد ازدادوا تحدياً وتجبراً حيث طلبوا العذاب إمعاناً منهم في التكذيب فكان موقفهم هنا أشد من المواقف التي مرَّت في سورة الأعراف والشعراء ، ويونس ، فردّ عليهم بأن الله هو الذي يأتي بذلك فناسب هنا التوسع في إيراد صورة العذاب مفصلة تبيِّن عاقبة القوم الذين تحدوا نبيهم واستكبروا على ربهم .

ب) علاقة المشهد في سورة (المؤمنون)

ورد المشهد في هذه السورة مبتدئاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ

وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآيات : ٢٣ – ٢٨] .

جاء المشهد في هذه الآيات الكريمة مرتبطاً بموضوع السورة ومقاصدها وسياقها والسورة يتضح موضوعها من خلال اسمها حيث ابتدأت بذكر المؤمنين وامتدحتهم بتعديد صفاتهم التي تميزهم عن غيرهم ثم عرضت لدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق واهتمت بعرض حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله عليهم السلام ابتداءً من نوح عليه السلام حيث ذكر من قصته ما جاء متناسباً مع هذه القضية ، فعرَض المشهد شبهات المكذبين واعتراضاتهم حول حقيقة الإيمان وما كان من ضلالهم في اتهامهم لنوح عليه السلام بالسفه والجنة حتى طلب النصر من ربه فأهلك الله المكذبين ونجى نبيه ومن معه ثم بينت السورة اختلاف الناس بعد الرسل في هذه الحقيقة التي لا تختلف ومن هنا يكون حديث السورة عن موقف المشركين من محمد ﷺ فيستنكر موقفهم وعندها تنتهي السورة وتختتم بذكر عذابهم وما سيلقونه يوم القيامة .

وقصة نوح في هذه السورة جاءت تتحدث عما يحول بين الإنسان وبين الإيمان وهو الاتباع والرضا لأولئك الملأ وعلية القوم الذين استضعفوا الناس فأطاعوهم وألقوا عليهم الشبهات فصدقوهم وانصرفوا إليهم كما وضحت الآيات دور الملأ في الصرف عن الإيمان والهدى .

ولقد جاء المشهد معطوفاً على ما سبقه لأنه جاء في سياق يناسب عطفه على ما قبله[1] .

وهو سياق النعمة والفضل حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾[الآيات: ١٢ - ١٤] وبعدها يأتي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [الآية : ١٧] .

فذكرهم بإيجادهم وانتقالهم متقلبين في أطوار مكتنفين بتوالي إنعامه منسوقاً بعض ذلك على بعض مفتتحة المطالع بما يتأتى به القسم من قوله تعالى تحكيماً وإظهاراً للظاهر من اكتناف إنعامه وإحسانه ، ثم عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرسل فذكر أولهم إرسالاً إلى الخلق ليناسب ما بدأوا به من النعم الأولية فقال :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وكل ما ذكر في هذه الآي نعم متناسبة وآلاء متوالية ، ولهذا لم يذكر في هذه الآية ذكر عذاب إلا بالإيماء الوجيز .

وخصت بقوله عقب الأمر بالعبادة (أفلا تتقون) فذكرهم بالتقوى المجردة لنجاتهم ومخلصهم من العذاب ، ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدم من التذكير بإحسانه سبحانه وإنعامه من أول السورة إلى هنا[2] .

---

(١) وكذلك ما سبقت به من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وفيه تضمين لذكر نوح عليه السلام فهو أول من صنع الفلك ونجى الله عليها نسل البشرية .

(٢) ينظر ملاك التأويل لابن الزبير (١ / ٥١٢ - ٥١٣) .

إذن نجد المشهد يتوافق مع موضوع السورة الكريمة ويتوافق مع سياقه موافقة بديعة فنوح عليه السلام وكل الرسل ما هم إلا نعم أنعم الله بها على البشرية .

وسياق النعمة والفضل من محفزات الإيمان وبواعثه لكل نفس تتطلع إلى الحق والنور .

الفصل الثاني

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلال قوم عاد)

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه في سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء) .

المبحث الثاني : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة (القمر ، والحاقة ، والذاريات) .

المبحث الأول

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه في سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء)

(أ) - ما ورد في سورة الأعراف .

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ٦٥ - ٧٢] .

جاء المشهد معطوفاً على ما سبقه من قصة نوح عليه السلام مع قومه .

بأن يقدر بعد واو العطف « أرسلنا » لدلالة حرف (إلى) عليه ، مع دلالة سبق نظيره في الجملة المعطوف عليها ، والتقدير وأرسلنا إلى عادٍ ، فتكون الواو لمجرد الجمع اللفظي من عطف القصة على القصة وليس من عطف

المفردات(١) وساغ هذا العطف البديع لأن المضمون واحد والرسالة واحدة والتعنت من قبل الأقوام واحد وسنة واحدة لا تختلف وهؤلاء القوم من ذرية الذين نجوا مع نوح عليه السلام في السفينة وحادثة الطوفان ليست ببعيدة عنهم والقول الذي قاله هود في دعوته قد قاله نوح من قبل مع قو مه ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ والمشهد جاء في سياق يعرض قصص الأمم المهلكة والسورة تهتم بعرض سير الركب البشري منذ عهد آدم إلى أن وصل الحديث إلى ذكر الأقوام المهلكين ابتداءً بقوم نوح أول المرسلين ثم أُتبعت قصته بقصة هود عليه السلام مع قومه وقد عرضت القصة هنا في ترتيبها الزمني لتنتظم مع مراد السورة من قبل والمشهد هنا ير تبط بموضوع السورة حيث تهتم بموضوع العقيدة وتركز عليه ولذلك غلبت على المشهد قضية الدعوة إلى التوحيد وما اكتنفها من صعوبات كانت تتمثل في إعراض القوم وصدهم عن السبيل فجاء التفصيل في عرض ما دار بين هود وقومه ، حيث بدأ هود عليه السلام بدعوة قومه إلى عبادة الله تعالى وقال لهم تلك المقولة التي قالها نوح من قبل لقومه ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ، فكان الهدف هنا كما كان الهدف في المشهد المعروض من قبل في قصة نوح عليه السلام يهتم بتصوير طبيعة العقيدة وطريقة التبليغ وطبيعة استقبال القوم لها وكل ذلك يؤكد معاني التسرية والتثبيت للرسول ﷺ في عرض ما ووجه به أنبياء الله تعالى من إعراض وصدٍّ

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٠) .

والمشهد هنا يظهر فيه تلطف هود عليه السلام بقومه ولعل هذا الموقف المعروض يكون من أول المواقف التي دارت[1] بين هود وقومه حيث يظهر فيه النصح والتوجيه وإعلان هود عليه السلام عن وظيفته ورسالته ﴿ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ والموقف يغلب عليه الهدوء والملاينة يظهر هذا من خلال نداء النصح والملاينة وإضافة القوم إلى ضميره لتذكيرهم بأنه منهم وهو مشفق عليهم مريد الخير لهم وفي ذلك تحبيب وترقيق واستنزال لطائر النفور من نفوسهم ، وكذلك نجد الأوامر تأتي في المشهد للنصح والتوجيه وليس فيها للتهديد إلا أمر واحد جاء بعد إعلانهم للإعراض والتحدي في قوله ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهكذا نجد المشهد يفصل في عرض دعوة هود عليه السلام يتبين من خلاله معاناته عليه السلام مع قومه وذلك يظهر في كثرة ما ورد من قول له وقلة ما ورد من القوم من ردود تبين عن تبرمهم وأنفتهم من المجادلة لعدم رغبتهم في دعوته ، وبعد هذا العرض المفصل نرى أن السياق يعجل بإبراز النتيجة في عبارات قصيرة متتابعة وإيقاع سريع يصور سرعة الإنجاء وسرعة الإهلاك وقد تناسب مع انتهاء القوم إلى التكذيب واستعجالهم للعذاب سخرية وتحدياً فلم يكن الغرض هنا إظهار صورة الإهلاك والتدمير مفصلة ، بل كان الهدف ينصرف إلى تصوير طبيعة الكفر والإعراض في نفوس المعرضين وكيف كانت محاولة الرسل الكرام بتأييد

---

(١) يؤيد هذا ترتيب نزول السورة الكريمة حيث نزلت قبل سورة هود والشعراء .

من الله ووحي إنقاذ البشرية من هاوية الضلالة والغواية ، وهذا هو المقصد من المشهد المعروض فكان التفصيل في عرض دعوة الرسول وما ووجه به من إعراض وصد ، وبهذا طويت تفاصيل أحداث النجاة والإهلاك وفي طيها يتم الوصول إلى ذكر النتيجة الحاسمة سريعاً وفي هذه النتيجة يكون موطن العبرة من القصة ويكون مركز الاهتمام الذي يبث في قلب النبي ﷺ ومن معه أن الله معهم ولن يخذلهم وإن طال ليل الظالمين وإعراضهم وهذا المشهد يرتبط بما أشارت إليه السورة في مقدمتها من إنذار المشركين إجمالاً بما حصل للأمم المكذبة من قبلهم في قوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فجاء التفصيل بعد ذلك في ذكر ما حل بالأمم منذ أول أمة أهلكت وهم قوم نوح ومن تبعهم من الأمم منهم قوم هود عليه السلام ومما يلاحظ في ابتداء قصة هود مع قومه أنه قد ورد فيها قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ بدون عطف للقول كما ورد في قصة نوح من قبل [1] وذلك لأن الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن قصة هود لما وردت عقب قصة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقباً معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم فكان ذلك مثار سؤال في نفس السامع أن يقول : فماذا دعا هود قومه وبماذا أجابوا ؟ فيقع الجواب بأنه قال : يا قوم اعبدوا الله مع ما في هذا الاختلاف من تفنن في أساليب الكلام [2] .

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ٢٠١) .

من هنا يمكن أن نلاحظ أن هذا المشهد يمثل اللقاء الأول لهود عليه السلام مع قومه حيث أمرهم هنا ودعاهم إلى عبادة الله وحده وكان نداؤه لهم نداء استمالة وتحبيب إلى ما يدعوهم إليه ، حتى إنه لم يصرح في دعوته في هذا الموقف بالمخوف منه أو يذكر ما يرهب به ، والقوم هنا اتهموه بالسفاهة في هذه الدعوة ونراهم يظنون أنه يكذب عليهم أي أن القوم لم يقرروا بعد قذفه بالكذب ويأتي رده عليهم لطيفاً حيث يناديهم ويضيفهم إلى ضميره ترقيقاً لقلوبهم ينفي عن نفسه السفاهة ويعلن لهم عن وظيفته وهي الرسالة وما هولهم إلا ناصح أمين وكان مما يلائم المقام الأول أن يذكرهم بنعمة الاستخلاف بعد قوم نوح وهم لا يخفى عليهم ما حدث لقوم نوح من هلاك وإفناء فكان تحذيره هنا غير صريح حيث لم يبرز لهم ما ينتظره م من عذاب إن هم استمروا على غيهم إنه هنا يحاول استمالتهم إلى الخير ونفسه متطلعة إلى استحبابهم وعدم نفورهم ولكن القوم لما فوجئوا بهذه الدعوة في أول لقاءاتهم واستغربوا قالوا ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ إنهم لا يريدون أن يتغيروا ع مَّا كانوا عليه من شرك وضلال وكأنهم يرون في هذا التغيير الكذب والافتراء فأمعنوا وأقروا أن ما جاءهم به هود كذب وافتراء حيث طلبوا منه سريعاً أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين تهاونا منهم وتكذيباً وتحدياً وهم لا يرون في نفوسهم لدعوته من شأن أو قبول لديهم وسنرى في المواقف القادمة كيف يتدرج الإعراض وكيف يتدرج عليه السلام في دعوته لهم .

(ب) ما ورد في سورة الشعراء :

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ
(١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(١٣٥) قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧)
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] [الآيات : ١٢٣ - ١٤٠] .

بدأ المشهد هنا من نهاية القصة ليبرزها ظاهرة منذ البداية ولتكون أكثر إثارة للتسلية والتسرية عن الرسول ﷺ ثم يلحظ بعد ذلك التفصيل في عرض دعوة هود لقومه وهو ما يوافق السورة في اهتمامها بموضوع العقيدة وقد كان ذلك متلائماً مع تلك الفترة التي نزلت فيها سورة الشعراء والرسول ﷺ يواجه عنت قومه وتكذيبهم وطلبهم للمعجزات الحسية حتى يصدقوه ويؤمنوا بدعوته ولعل موقف هود هنا مع قومه يمثل الموقف الثاني له بعد الموقف الذي عرض في سورة الأعراف وهي أسبق في ترتيبها النزولي من سورة الشعراء ، وهو هنا يدعوهم إلى الله تعالى مستنكراً ومستبعداً عدم اتقائهم وموبخاً لهم على ذلك

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠١) .

حيث لم يتقوا عذاب الله تعالى بعد أن علموا ما حل بقوم نوح فالاستفهام في قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ للإنكار[1] ويظهر فيه كما ذكر أبو حيان الاستعطاف والتحضيض على حصول التقوى[2] ويتكرر الاستفهام الإنكاري في المشهد في قوله ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ حيث أنكر عليهم الالتهاء بالدنيا واتخاذها وسيلة للهو والبعد عن الحق ويذكرهم بنعم الله العظيمة عليهم بعد أن أنبأهم بأنه رسول أمين في أسلوب توكيدي يقرر لهم أنه مخلص صادق يريد الخير لهم واتبع ذلك ببيان أنه لا يبتغي الأجر منهم فأجره إنما هو على ربه وهو في الموقف الأول في سورة الأعراف فيما يقول تعالى حكاية عنه ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٦٧ - ٦٨] (بين أنه لم يأت بشيء من عنده حتى تكون له فيه مصلحة ، ولكنه مبلغ رسالة ربه فهو في ذلك ناصح أمين ويلخص ذلك في الموقف الثاني هنا - في الشعراء - ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ اعتماداً على ما سبق من البيان في الموقف الأول)[3] .

وهو في هذه السورة الكريمة يكشف عن التحذير قليلاً بعد أن كان غير صريح في الموقف الأول من سورة الأعراف حيث يقول لهم هنا بعد أن ذكرهم

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٤ / ١٧٣) .

(٢) ينظر البحر المحيط (٧ / ٣٩) .

(٣) الحوار في القرآن الكريم (ص ٣١٢) .

بنعم الله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ وهكذا نجد كل مشهد يرتبط بموقف معين من مواقف الرسول مع قومه (فالقرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافي ء للموقف وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، ونجده في الوقت ذاته متناسقاً مع سياق السورة وجوها وموضوعها)[1] وهكذا نجد بعد ذكر مجادلة هود مع قومه أن السياق يع ج ل بذكر العاقبة في إيجاز سريع في قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وهذا الإيجاز السريع فيه إيحاء متدفق يبعث في نفس النبي ﷺ عمق الإيناس ويبعث في نفوس المعرضين عمق التأثير والتحذير وهكذا نجد في سورة الشعراء ما لم نجده في سورة الأعراف فالمشهد في سورة الشعراء يبرز تكذيب القوم منذ البداية قبل البدء في بيان الحوار الذي دار وانتهى إلى تكذيبهم كما لوحظ في سورة الأعراف ثم بينت السورة هنا وحدة الرسل وأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب المرسلين جميعاً وهو عليه السلام بعد أن دعاهم في سورة الأعراف إلى التوحيد وإلى عبادة الله نجده هنا يوبخهم في عدم تقواهم لربهم بعد أن دعاهم وهم جامدون لم يتغيروا حرَّك هذا الجمود في سورة الشعراء بالتوبيخ والاستفهام الذي يهز النفوس والعقول في قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وكان في سورة الأعراف لا يصرح لهم بالذي يخوفهم به وفي سورة الشعراء نجده يصرح

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٨٤٣) .

بذلك حيث يقول لهم ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ ونجد التخويف يتواصل في أمره لهم بتقوى الله ثلاث مرات ونجد سورة الشعراء تضيف بعد سورة الأعراف أن هوداً عليه السلام لا يطلب من قومه الأجر وإنما أجره على الله والقوم هنا يؤكدون كذب هود عليهم حيث يقولون ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي إن هوداً عليه السلام جاءهم باختلاق الأولين من الكذبة قبله وقالوا ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يرفون ويؤكدون كذبه فيما توعدهم به من العذاب إن القوم في سورة الأعراف يتهمون هوداً بالسفه وهنا يتهمونه بالكذب ونجد ردهم على نبيهم هنا فيه تأ يس وتقيط له في قولهم ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ بعد أن كان ردهم في سورة الأعراف فيه إنكار غير صريح وفيه تعجب ، إنهم يريدون في موقفهم في سورة الشعراء قطع هذه الدعوة عنهم غير مبالين أو مهتمين سواءً دعاهم أم لم يدعهم ، إن القوم هنا يزداد إعراضهم وصدودهم مع نبيهم وبهذا نبصر نماء المعاني في إضافتها على ما سبقها أو توكيدها لما مضى .

(جـ) – ما ورد في سورة هود :

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ

مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن
نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ
أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴾[1] [الآيات : ٥٠ – ٥٨] .

تتفق سورة هود في موضوعها مع سورة الأعراف والشعراء في الاهتمام بالعقيدة ولذلك جاء البسط هنا في عرض دعوة هود لقومه وقد جاء المشهد معطوفاً على قصة قوم نوح من عطف القصة على القصة على تقدير الفعل (أرسلنا) بعد واو العطف بدلالة حرف (إلى) عليه ، مع دلالة سبق نظيره في الجملة المعطوف عليها والتقدير وأرسلنا إلى عاد كما مر تقرير مثل ذلك من قبل وموقف هود عليه السلام هنا يعبر عن الموقف الصارم والموقف الأخير بعد المواقف التي مرت في سورة الأعراف والشعراء وقد كانتا قبل سورة هود في النزول ودعوة هود عليه السلام يتضح من خلالها التدرج في الدعوة بين الملاينة والتحذير والتلميح بالعذاب دون التصريح به أما هنا فموقفه صارم وصريح حيث يقول ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٨٤٣) .

حيث لم تنفع معهم من قبل أساليب النصح واللطف والتحذير فواجههم هنا بعيبهم وقررهم به فهم مفترون على الله في اتخاذهم الأصنام شركاء وقد قرر ذلك عن طريق القصر ثم يلحظ أنه يحذر تحذيراً يشوبه السخط والضجر منهم بعد أن حاول استمالتهم بأنهم إن عادوا إلى ربهم واستغفروا أمدهم بالنعم والخير في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ ثم إن القوم هنا إزداد إعراضهم حتى وصلوا إلى الشدة في الرفض واتهموا نبيهم بالجنون وأن هذا الجنون كان بفعل آلهتهم فهم هنا يتمسكون أشد التمسك بعقيدتهم ويظهر هذا في قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .

فجاء رد هود عليه السلام على القوم في تحدٍ وإيمان عظيم بربه بعد أن صمم القوم على موقفهم المخزي ، وحينما أعلن لهم التحدي أعلن لهم التوكل على الله فهو ربه ونصيره ، وظلال هذا المشهد يتآزر مع ما عرض من مواقف أخيرة لنوح من قبل مع قومه ولما يمرُّ به ﷺ في هذه الفترة من تحديات وصعوبات أملتها عليه ظروف الدعوة لقومه حيث اشتد عنت كفار مكة وتحديهم إلى الحد الذي ضاق به صدر الرسول ﷺ فاحتاج إلى التسرية والتثبيت وهي فقرة صعيبة (تلت وفاة أبي طالب وخديجة وحادث الإسراء وجرأة المشركين على رسول الله وتوقف حركة الدعوة تقريباً وهي من أقسى الفترات التي مرَّت بها الدعوة)[1] .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٨٣٩) .

ولهذا رأينا المواقف التي اتسمت بالحدة [١] من الأنبياء وأقوامهم في هذه السورة لتكون تسلية ودافعاً إلى مزيد من الصبر والثبات في وجه الظلم والظلمات ، فنصر الله قد اقترب ومرحلة التحدي قد آن أوانها لكفار مكة ، فالله عز وجل سينصر نبيه ويخذل المعرضين وهنا نجد السياق يعجل بالنتيجة بعد هذه المفاصلة والتحدي الدائر بين هود وقومه ليكون تعجيلاً بما يبشر المؤمنين وتعجيلاً بما يسيء إلى نفوس المعرضين وهكذا نجد التلاؤم في عرض كل مشهد للحلقة المطروحة وقد جاءت ملائمة لوقت نزول السورة وملائمة للأحداث التي تمرُّ بالمصطفى ﷺ في مكة وملائمة لجو السورة وسياقها في نظام لا يختلف ولا يتبدل من سورة إلى أُخرى والله أعلم وهكذا نجد التدرج في مواقف النبي الكريم مع قومه في السور الثلاث وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهو هنا لما بَلَغ إعراضهم مداه نجده يوبخهم ويقررهم بعيبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ إنه يصفهم ويذمهم بالكذب وقد كان في أول لقائه في سورة الأعراف يستلطفهم ومع ذلك يرمونه بالسفاهة فيرد عليهم باللين نافياً عن نفسه السفاهة ، ثم نجد سورة الشعراء تجمع بين اللين والتحذير الذي يشوبه التهديد بعد أن زاد القوم في عتوهم ونرى هوداً عليه السلام يبين لهم أنه يخلص لهم النصح في سورة الشعراء ويؤكد لهم أن أجره على الله رب العالمين ولكنه في سورة هود يقول ﴿ إِنْ أَجْرِيَ

(١) نزلت سورة هود بعد يونس ونزلت يونس بعد الإسراء وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها وهي من أحرج الفترات وأشقها في تاريخ الدعوة بمكة .

﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾ وفي قوله الذي (فطرني) زيادة وإضافة يبعث بها في نفوسهم لينبههم إلى أن أصنامهم التي يتخذونها آلهة من دون الله لا قدرة لها ولا حيلة ولا تستطيع أن تقدم لهم شيئاً ، وأما إلهه وهو الله تعالى فهو الذي فطره وبيده كل شيء وهو في بيانه لهم أن أجره على الله يؤكد لهم أنه لا يبتغي من وراء دعوته منهم مصلحة غير إرادة الهداية لهم إلى الحق ، إن القوم لما ردوا على نبيهم هنا نجدهم يرفضون دعوته رفضاً مؤكداً ويزدادون تأكداً من قدرة آلهتهم وأن هوداً عليه السلام يكذب عليهم قد أصابه الجنون والمس من قِبَل آلهتهم ومن هنا نجد موقف هود عليه السلام يظهر فيه التحدي لهم ولآلهتهم ويعلن لهم التوكل على ربه حتى إنه ينهي حواره معهم بالتهديد بإهلاكهم حيث يقول ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّى قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ وفي هذا إضافة لم نلحظها من قبل إن المواجهة هنا طويلة ومحتدمة حيث وصفهم بالكذب وظهر تضجره منهم ولذلك نجد الخاتمة في سورة هود تأتي فيها زيادة لم تلحظ في سورة الأعراف والشعراء حيث ذكرت النجاة مرتين لبيان عظمتها ولكون الذي نزل بقومه من العذاب أمر فظيع وجاءت الإشارة إلى عاد باسم الإشارة التي للبعيد لذمهم وبيان بعد منزلتهم في الظلم والعتو ثم بين تعالى أنهم أُتبعوا باللعنة في الدنيا ويوم القيامة وقال تعالى في الختام ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود وهذا لم نلحظه من قبل في السور الماضية حيث أوجزت وكل ذلك يعود إلى حدة موقفهم الأخير هنا وما أبرزوه من تصميم واعتزاز بآلهتهم وما أبدوه من تكذيب واستخفاف شنيع وبهذا نرى حدة المواقف تتدرج والدعوة معها تتدرج والله أعلم .

المبحث الثاني

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة (القمر ، والحاقة ، والذاريات)

(أ) – ما ورد في سورة القمر :

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [الآيات : ١٨ – ٢١] .

السورة هنا تهتم في موضوعها بمكابرة المشركين في الآيات البينات وهي إنذار لهم باقتراب يوم القيامة الذي ينكرونه وفيها تحذير لما سيلقونه حين البعث من الشدائد والعذاب والمشركون قد طلبوا من الرسول ﷺ أن يريهم آية تبين صدقه فأراهم الله القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما (١) فكان مقصود السورة يهتم بزجر منكري البعث والآيات البينات التي تدل على صدق رسالة محمد ﷺ فجاء في مقدمة السورة بيان إعراض المعرضين بعد أن جاءتهم البينة في قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [الآيات : ١ – ٢].

والسورة الكريمة نزلت في أواسط العهد المكي والمشركون قد اشتد

---

(١) ذكر ذلك البخاري رحمه الله في الحديث رقم (٣٨٦٨) في كتاب مناقب الأنصار ، باب انشقاق القمر .

إعراضهم وكفرهم ولما جاءتهم البينة المشاهدة كذَّبوا وأخذوا كل مأخذ ونصحوا وبيَّن لهم الحق فلم يهتدوا حيث قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [الآيات: ٤ – ٥] ولما كان هذا حالهم جاء قوله تعالى لنبيه ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [الآية : ٦] أي أعرض عن مجادلتهم لأنهم قوم لم تنفعهم الآيات والنذر أي إنك قد بلَّغت فما أنت بمسؤول عن استجابتهم وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وتطمين له بأنه قد أدى رسالته وبعد أن أنبأتنا السورة الكريمة بتصميم القوم واستمرارهم على الإعراض جاءت الآيات بعد ذلك تسرد وقائع الإهلاك والتدمير للمعرضين من الأمم السابقة ليكون ذلك زجراً وترهيباً لقلوب هؤلاء المعرضين ، وهذا هو السياق الذي تلاءم معه المشهد الوارد في السورة من قصة قوم عاد ولذلك فُصِّل في مشهد الإهلاك ليتوافق مع جو السورة وموضوعها الذي يركز على الزجر والإنذار لكفار قريش المعرضين والسورة من مطلعها إلى ختامها حملة رهيبة على قلوب المعرضين بما عرض منها من مظاهر القدرة الإلهية في عذاب الأقوام ودمارهم وما سيجري من عذاب شديد في يوم الحساب ثم إن السورة تلتفت بعد ذلك إلى المعرضين من كفار مكة بعد أن ذكرت قصص الأمم المكذبة في قوله تعالى ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ (وقد غير أسلوب الكلام من كونه موجهاً للرسول ﷺ إلى توجيهه للمشركين لينتقل

عن التعريض إلى التصريح اعتناءً بمقام الإنذار والإبلاغ)[1] .

إذن جاء المشهد من قصة قوم عاد في سياق الإنذار والتهديد وقد عرضت منه حلقة صورة الإهلاك والتدمير وهو الأوفق لمقصود السورة وجوها الذي اتسم بالحسم والهول المنذر لقوم كافرين وهنا لم نجد عرضاً لدعوة هود ولم يعرض ما يبين لنا كيف كانت نهاية إعراضهم إلا بما توضحه كلمة التكذيب التي ابتدئ بها في مقدمة المشهد لتكون اختصاراً يبين لنا انتماء القوم إلى الإعراض والكفر وليتوافق ذلك مع المشهد العظيم الذي يتتابع في فقراته ينقلنا من كلمة التكذيب إلى صورة الإهلاك والتدمير سريعاً وهذا هو الهدف من المشهد هنا وهدف السورة في بثها للرعب وإشاعته في قلوب ونفوس المعرضين ولتهتم السورة بالتسلية للرسول ﷺ حين عرضت كلمة التكذيب في أول المشاهد عن كل أمة من الأمم المكذبة لتبعث في نفسه أن إعراض قومه لم يكن بدعاً بين الأمم والصورة هنا قد اعتمدت على التصوير البياني للمشهد لتجعله حياً ماثلاً يعيشه المتلقي المعرض ويصطلي بعجائبه وليكون أدعى للزجر والموعظة فقد انتقل الأسلوب في عرض الدعوة من أسلوب الإقناع والمناصحة في المشاهد المعروضة للأنبياء مع أقوامهم[2] إلى أسلوب الزجر والردع في فترة لم يعد يجدي فيها اللين والإقناع ، والمشهد المعروض هنا لم يعطف على المشهد الذي صور هلاك قوم نوح عليه السلام من قبل وكان مقتضى الظاهر أن يعطف على ما سبقه ولكنه

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٩) .

(٢) في سورة الأعراف والشعراء وهود .

أوثر الفصل (ليكون في الكلام تركيز التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير)[1] .

وهكذا نجد أن سورة القمر جاءت مخالفة لما كان عليه الأمر في سورة الأعراف والشعراء وهود حيث لا يوجد فيها ذلك الحوار المطول بين النبي وقومه لقد تركت الحوار كله واختصرته في كلمة واحدة وهي كلمة التكذيب تبين أن القوم كذبوا ثم نراها تدخل مباشرة على صورة الإهلاك تبين كيف كان ولذلك يمكن أن يقال هنا إن صورة الإهلاك فيها توضيح وتفصيل إذا قورنت بما ورد في سورة الأعراف والشعراء وهود لأنها هنا توضح لنا نوعية العذاب الذي أنزل على قوم هود وهي الريح الصرصر التي انتزعت القوم وأهلكتهم وهو ما يوافق غرض السورة وهي تركز على زجر المكذبين من كفار مكة فاكتفت هنا بما يحقق الترهيب .

وبهذه المقارنات نلاحظ كيف وضحت صورة العذاب المجملة في تلك السور الكريمة وسيلحظ كيف تتوسع صورة العذاب وتتوضح أكثر فأكثر في السور التي نزلت بعد سورة[2] القمر .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٩١) .

(٢) سورة القمر نازلة قبل سورة الأعراف وهود والشعراء ولذلك نجد الإيضاح يسبق الإجمال .

(ب) – ما ورد في سورة الذاريات :

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الآيات : ٤١ – ٤٢] .

اهتمت السورة الكريمة باثبات وقوع البعث والجزاء ، وما فيه من أحوال وأهوال وبينت بطلان مزاعم المكذبين به ، ومن ثم بدأت بالإقسام بآيات الله الكونية على صدق وقوعه وجاء ذكر قصة قوم عادٍ في السورة الكريمة على سبيل الإيجاز ضمن مجموعة من قصص الأمم لتكون عبرة وموعظة لمشركي قريش الذين يكذبون بيوم الدين والسورة الكريمة تنطبع بجو الحزم والإنذار منذ افتتاحها وهي (تشير إلى تبديد الباطل مهما بدا منتفخاً ، وظهر منتفشاً ، وطغى زبده وطال أمده ، وفي موضوع السورة ومقاطعها ما يشير إلى ذلك ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الآيات : ٥ – ١١] .

وما جاء من خبر عاد يتناسب مع هذا الموضوع ، موضوع الذاريات حيث تبديد الباطل) [١] . والحلقة المعروضة هنا صوَّرت لنا تبديد الريح لقوم عاد لم تذر منهم أحداً .

والمناسبة تلحظ من هنا وما وصفت به الريح من أنها لا تذر شيئاً أتت عليه

---

(١) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته د/ فضل حسن عباس ص (١٠١) .

إلا جعلته كالرميم اختصت به هذه السورة دون غيرها وقد تناسب مع افتتاح السورة بقوله تعالى ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾ حيث تم الإقسام بالذاريات ولا يقسم الله إلا بعظيم مخلوقاته ، وها هي الريح العظيمة تقضي على قوم هود لم تبق منهم ولم تذر وهكذا نجد القصص جاءت في سياق الإنذار والموعظة والاستدلال لتكون في محل الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة أحوالهم لأحوال الكفرة المكذبين من قريش وهذه القصص كانت أدل على إظهار القدرة والعظمة والسطوة وبمجيء قصة إبراهيم عليه السلام قبل قصة نوح وهود لصلته الوثيقة بالعرب حيث جرى الحديث عن المشركين من العرب في مقدمة السورة وخوطبوا بشنائعهم فكان في عرض قصة إبراهيم عليه السلام في مقدمة القصص تشنيع بهؤلاء المشركين وتعريض بهم حيث خالفوا ملة أبيهم إبراهيم ونهجه في توحيد الله وعبادته (وكان في الابتداء بذكر قوم لوط على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط أن المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية وأن المشركين وصفوا آنفاً بأنهم في غمرة ساهون فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط) (١) وقصة لوط تقدم مع قصة إبراهيم عليه السلام لعلاقة لوط بإبراهيم والملائكة جاءت بالبشرى لإبراهيم وجاءت لإهلاك قوم لوط وقد جادلهم إبراهيم في شأن لوط عليه السلام ولذلك تشترك قصة قوم لوط مع قصة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٥٧) .

إبراهيم عليه السلام ويتقدم ذكرها لهذه العلاقات .

إن سورة الذاريات تضيف على ما في سورة القمر أن هذه الريح قد دمرت قوم عاد وأفنتهم .

فكانت سورة القمر تصور لنا بداية الإهلاك وسورة الذاريات نراها تنقل لنا صورة نهاية العذاب .

وقد تناسب هذا مع ترتيب النزول للسورتين فسورة القمر سابقة في نزولها على سورة الذاريات .

(د) – ما ورد في سورة الحاقة :

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الآيات : ٦ – ٨] .

يتضح موضوع السورة الكريمة منذ افتتاحها بكلمة (الحاقة) يوم القيامة حيث يشغل هذا الموضوع معظم السورة فتذكر مشاهد ذلك اليوم وأحداثه وأهواله لتهديد المكذبين بوقوعه وجوُّها جو حزم وهول وروع والسورة الكريمة قد ذكرت أخبار قوم عادٍ بعد تلك المقدمة المروعة المنذرة ليكون تذكيراً للمكذبين بما حل بالأمم التي كذبت من قبل وقُدِّم ذكر ثمود قبل قوم عاد وخولف في الترتيب الزمني هنا لكون (بلادهم أقرب إلى قريش وواعظ القرب

أكبر) [1] وفي التقديم مناسبة لكون وقعة عذابهم صيحة واحدة خاطفة والسورة ابتدأت بالجمل القصيرة والفقرات القصيرة فتناسب ذكر ذلك مع ما سبقها من الجمل وجاء ذكر قوم عاد متأخراً لمناسبة التفصيل الوارد في قصة مهلكهم وهكذا نجد السور الثلاث سورة القمر والذاريات والحاقة تفصل في كيفية إهلاك القوم وقد اتخذت في نقل صور العذاب الأسلوب التصويري البياني وقد اتفقت السور في مقاماتها وأغراضها في زجر المعاندين والمكذبين من أمة محمد ﷺ وكان أوفق مقام لذلك اتخاذ التفصيل في كيفية مهلك قوم عاد في فقرات موجزة سريعة تنذر القوم وتزجرهم إلا أن صورة الرهبة والعذاب كانت مفصلة أكثر في سورة الحاقة فهي تفصل لنا شدة العذاب الذي تتابع على القوم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً حتى أفناهم وهي من السور التي كانت في نزولها بعد سورة القمر وسابقة لسورة الذاريات التي صورت النهاية للعذاب ومن هنا نجد التكامل كما مرَّ بيان ذلك سابقاً في باب الصورة ولعل نماء صورة العذاب وتفصيلها في سورة الحاقة يتابع شدة عتو الطغاة من معرضي مكة حيث تأتيهم السور الحازمة الشديدة بما يتلاءم مع أحوالهم من الإعراض والعتو والله أعلم .

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٢١) .

الفصل الثالث

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم صالح)

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة (الأعراف ، والشعراء ، وهود) .

المبحث الثاني : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة (الذاريات ، والقمر) .

المبحث الأول

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة الأعراف والشعراء وهود)

(أ) ما ورد في سورة الأعراف :

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الآيات : ٧٣ - ٧٩] .

(لَمَّا انقضت قصة عادٍ على ما أراد سبحانه ، أتبعها قصة من كانوا عقبهم في الزمن ومثلهم في سكنى أرض العرب وعبادة الأوثان والمناسبة في الأمر المعذب به) [1] .

---

(١) نظم الدرر (٣ / ٥٤٧) .

ولذلك عطفت هذه القصة على قصة عاد بالواو لهذه المناسبات ولهذا الاشتراك ولكونها قد جاءت في سياق واحد كما مرَّ بيان ذلك في قصة نوح وهود عليهما السلام ، والعطف بالواو على تقدير الفعل (أرسلنا) بدلالة حرف (إلى) عليه مع سبق نظيره في قصة نوح .

والمشهد هنا يرتبط بموضوع السورة الكريمة وهو موضوع العقيدة ، ولذلك نجد أَنَّ دعوة صالح لقومه تسيَّدت الموقف ، وفي هذا موافقة لموضوع السورة وغرضها في عرض جوانب دعوة الرسل الكرام لأقوامهم وتصوير ما كان يعترضهم من صعوبات في سبيل ذلك ، ولم يكن المراد هنا التفصيل في عرض صورة الإهلاك إلا بالقدر الذي يبرز النتيجة سريعة توافق مقاصد السورة في جمعها بين التذكير[1] والإنذار بخلاف ما ورد في سورة هود من إيجاز التذكير بالنعم حيث يغلب على جوها الإنذار والتهويل وهو هنا في سورة الأعراف يحذرهم من العذاب دون أن يهددهم ، ولعل هذا يشير إلى الموقف الأول في الدعوة لصالح عليه السلام والمشهد يبرز دور المستكبرين من عليَّة القوم وهم يريدون إلقاء الشك في قلوب المؤمنين المستضعفين علهم أَن يرتدوا عن دينهم ويبتعدوا عن صالح عليه السلام ، ولكنهم لَمَّا رأوا إصرارهم على دينهم أعلنوا التحدي للدعوة والإصرار على الكفر حتى أقدموا على عقر الناقة وعتوا عن أَمر ربهم ، فكان المقصود من التفصيل في عرض الدعوة وما ووجهت

---

(١) ما مرَّ من تفصيل في علاقات المشاهد في قوم نوح وعاد في سورة الأعراف ينطبق على المشهد هنا ولذلك أوثر الإيجاز خشية التكرار .

به ينصرف إلى تصوير طبعية الكفر والإعراض في نفوس المستكبرين من عليَّة القوم ، وكيف كانت محاولة الرسول الكريم بتأييد من الله إنقاذ قومه من هاوية الضلال والغواية فلما أصرُّوا على موقفهم من الإعراض والاستكبار جاءت العاقبة وعجل السياق بذكرها موجزة سريعة تصور سرعة الإهلاك للظالمين بعد طول وقت الدعوة وصبر النبي الكريم ، وهكذا يلحظ في أول المواقف أن نبي الله يدعو قومه إلى التوحيد ويبرز لهم آية صدقه وهي الناقة التي جعلها الله لهم حاضرة بين أيديهم وقد أبرز هذه الآية في المقدمة بعد ندائه لهم إلى عبادة الله ، ونراه يحذرهم من مسها بالسوء وينذرهم بالعذاب الأليم إن فعلوا ذلك ، وكان من المناسب في أول لقاء أن يبين لهم نعمة الاستخلاف بعد قوم عاد المهلكين ويذكرهم بفضل الله عليهم وهنا يفصل في تذكيرهم بالنعم حيث عمروا الأرض واتخذوا من سهولها قصوراً ونحتوا الجبال بيوتاً ، ولكن لا يطول الحوار حيث يأتي الرد في هذا الموقف في سرعة من الملأ والسادة لا يردون على نبيهم وإنما يخاطبون من اتبع صالحاً عليه السلام يريدون إثناءهم عن الحق خوفاً من أن تنتشر دعوة صالح عليه السلام في بقية الناس ولَمَّا بينت السورة موقف هؤلاء الملأ بينت حماقتهم في ارتكابهم عقر الناقة والعتو على الله ، فجاءت الخاتمة سريعة موجزة تبين نهاية القوم الظالمين وسيلحظ في المواقف القادمة جوانب أخرى في الحوار الدائر بين صالح وقومه تكشف لنا عما حصل في لقاءاته مع القوم من إعراض وصدَّ وهو يكرر دعوته عليهم .

(ب) علاقة المشهد في سورة الشعراء بسياقه :

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾
قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الآيات : ١٤١ - ١٥٩] .

جاءت قصة قوم صالح هنا تالية لقصة قوم عادٍ في ترتيبها الزمني ، وكان مقتضى الظاهر العطف ولكنه عدل عن ذلك وأوثر الفصل ليكون في الكلام تركيز على التوبيخ والتهديد والتشنيع بكلمة التكذيب في بداية كل مشهد ، وهذا الفصل يوحي بانقطاع كل أمة عما قبلها لأنها لم تتعظ بها وتعتبر بما حلَّ بها من عذاب وعقاب جُعلت آثاره واضحة وبياناته ساطعة(١) ، وموقف صالح عليه السلام هنا يختلف عن الموقف في سورة الأعراف فخطابه لقومه لم يكن على وتيرة

(١) المشهد هنا يركز على دعوة صالح عليه السلام لموافقة ذلك لموضوع السورة التي تهتم بالعقيدة وتركز على عرض جوانبها وقد مر بيان السياق في الحديث عن قوم نوح وعاد في سورة الشعراء .

واحدة حيث انتقل من أسلوب النصح والملاينة في سورة الأعراف إلى أسلوب الخطاب الذي يكثر فيه الاستفهام والنداء ليلفتهم وينكر عليهم ويقررهم . بذنبهم حيث يقول لهم (ألا تتقون) إنه ينكر عليهم فجورهم ويحثهم على التقوى وترك عبادة غير الله ويتبع الاستفهام بالأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ونجد الاستفهام يتكرر مرة أخرى في تذكيرهم بنعم الله تعالى ، إنه يريد في هذا الموقف أن يهزهم من غفلتهم حيث ناداهم في الموقف الأول فلم تجد نداءاته ، فأخذ في هذا الموقف يستنكر عليهم إعراضهم وغفلتهم ويحثهم على تقوى الله ويأمرهم بعبادته ، فلذلك ورد الاستفهام الإنكاري وكثر وروود الأوامر والنواهي للفت القوم وتحريكهم من غفلتهم وجمودهم حيث قال (ألا تتقون ، فاتقوا الله ، وأطيعون) ثم نهاهم فقال (ولا تطيعوا أمر المسرفين) وفي هذا النهي إشارة إلى ما كان يفعله المستكبرون من الملأ في الموقف الأول في سعيهم لإغواء الناس عن دين الله تعالى ، وما كان لهم من أثر ، وكل ذلك يشير إلى أن هذا الموقف يعبر عن المواقف التالية للموقف الذي دار بين صالح وقومه في سورة الأعراف يؤيد ذلك سبق سورة الأعراف لسورة الشعراء في النزول ، وهكذا نجد المشهد يتلاءم مع السورة التي ركزت على موضوع العقيدة ففصل في دعوة صالح لقومه وعجل السياق بإبراز العاقبة سريعاً موجزة تشع دلالات ساطعة تبين سرعة نهاية أمر القوم ، ولم يذكر في هذا النهاية أمر نجاة صالح ومن معه للإيجاز المنبيء عن شدة النقمة ، والمشهد جاء مع القصص الوارد في سياق ينذر المكذبين من قوم محمد ﷺ لما طلبوا منه الآيات والمعجزات الحسية لتدلهم على صدق رسالته وما لقي النبي ﷺ من عنت قومه وتكذيبهم ، ولذلك ابتدأت

السورة بالتخفيف عنه ﷺ في أمر إعراضهم وأن عليه ألا يهتم بذلك فقد كذبت الأقوام من قبلهم بعد أن جاءتهم الآيات والمعجزات فلم تغن الآيات والنذر ، وهكذا نجد الموقف هنا يعتبر من المواقف التالية للموقف في سورة الأعراف إلا أنه يضيف إلى ذلك الموقف أن صالحاً عليه السلام يحرك جمود قومه هنا ويبين لهم أنه لا يريد منهم أجراً ليؤكد لهم إرادته الخير والهداية إلى الحق لا مطمع له في غير ذلك ، ونرى تذكيره لهم بالنعم هنا يأتي محفوفاً بالتخويف حيث يبين لهم أن هذه النعم لا تبقى آمنة مستقرة إلا بطاعته فيما جاءهم به ، ونرى الموقف هنا في حواره يرتبط بالموقف الأول ، حيث يلحظ أن نبي الله هنا يخاطب قومه وينصحهم من اتباع أمر المسرفين إشارة إلى الملأ وكبراء القوم من الأشراف الذين صدوا عن دعوته وطلبوا في الموقف الأول من المؤمنين أن يبتعدوا عنه وأما موقفهم هنا وردهم فكان قولهم له (إنما أنت من المسحرين) يتهمونه هنا بالسحر ، وكأنهم يرون فيما جاءهم به من الآية البينة سحر كما رأى المسرفون من قومهم ذلك ، حيث يرون أن ما جاءهم به من البينة سحر وكأنهم في هذا الموقف يريدون بينة أخرى ، فرد عليهم بأن هذه ناقة حاضرة ترونها وكأن في قوله هنا تنبيهاً لهم على حقيقة هذه البينة ، لأنها باقية بينهم فأرشدهم بعد ذلك إلى عدم التعرض لها ، وبين لهم أن لها شرب يوم معلوم ولهم شرب يوم كذلك وهذا لا نجده في سورة الأعراف وكان ذكر الناقة هنا جاء بعد رد القوم وحوارهم بعكس ما ورد في سورة الأعراف حيث أبرز ذكرها في المقدمة وهو يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، وهكذا نجد نماء المعاني ونجد الخاتمة تأتي سريعة موجزة تتفق مع ما ورد في سورة الأعراف من إيجاز .

(جـ) ما ورد في سورة هود :

وما يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [الآيات: ٦١ – ٦٨].

نجد المشهد هنا يتلاءم مع موضوع السورة وهو موضوع العقيدة لذلك نجد أن الدعوة إلى الله تعالى قد تسيدت الموقف وقد جاء المشهد في سياق الحديث عن إنذار المشركين بما حلَّ بالمكذبين من الأمم منهم قوم صالح عليه السلام ، وجاء عطف المشهد بالواو على ما سبقه من قبيل عطف القصة على القصة(١) .

وقد جاءت القصة في ترتيبها الزمني وابتدأت بدعوة صالح لقومه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ ثم بدأ يذكرهم بنعم الله عليهم حيث

---

(١) وقد مرَّ بيان ذلك في قصة قوم هود .

استعمرهم في الأرض ، ولكن هذا التذكير يختصر هنا مقارنة بما ورد في سورة الأعراف ليتوافق هذا الإيجاز مع جو الإنذار والتهويل الذي يسود السورة في كل مقاماتها ، والموقف هنا يزداد حدة بين القوم ونبيهم ، فهم يصرون على تمسكهم بعقيدتهم ودين آبائهم ويشكون فيما جاءهم به صالح عليه السلام أكدوا ذلك بالنون واللام وبالإشارة بالظرف إلى إحاطة الشك بهم إحاطة الظرف بالمظروف وهو شك مفض إلى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين [1] ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

ويقابلهم النبي بمثل يجعل فيه رسالته على سبيل الفرض أنها صحيحة من عند الله استثارة لبواعث التفكير والتأمل فيهم واستنزالاً لطائر الإنكار في نفوسهم ، فلما لم يجد معهم ذلك عاد إلى لفتهم إلى الآية التي طلبوها ، فلما تحققت جحدوا بها ، إن هذا الموقف من المواقف التي عقبت الموقفين الدائرين في سورتي الأعراف والشعراء ولعله من المواقف الأخيرة حيث هدَّدهم صالح عليه السلام بالعذاب القريب[2] إذا تعرضوا للناقة ، ولم يكن هذا التهديد إلا بعد أن علم ويئس من صلاح أمرهم ، فقد أعلنوا التمسك بدين آبائهم وأعلنوا الريب والشك المؤكد فيما جاء به ، ثم هم هنا لم يلقوا بالاً لتحذيره عليه السلام فأقدموا على قتل الناقة فأخبرهم بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم ، وفي

(١) ينظر نظم الدرر (٩ / ٣٢٠) .

(٢) وفي سورة الشعراء هددهم بالعذاب دون تحديد حيث قال (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) .

إبراز التحذير هنا والترهيب في انتظار العذاب بما حدد من وقت وزمان يجعل النفس تترقب هول الفاجعة بعد انقضاء المدة ، حيث عجل السياق بذكر عاقبتهم وقد عطفت بالفاء على ما سبقها لبيان سرعة الإهلاك المنبيء عن شدة الغضب والنقمة ، وكل ذلك يتوافق في نظام بديع مع ما اتجهت إليه السورة من إبراز صور الإهلاك والتدمير ، وما بثته من إنذار شديد لكفار مكة وقد اشتد إعراضهم وأذاهم ، إن تذكير صالح عليه السلام لقومه في سورة هود بنعمة الخلق والحياة جاءت مختصرة بالنسبة لما عرض في سورتي الأعراف والشعراء ونجد سورة هود تبرز جانباً لم يلحظ من قبل ، حيث نرى قومه يبينون منزلته ومكانته بينهم ، وأنهم كانوا يسمعون له حتى دعاهم إلى عبادة الله وحده حيث يقولون ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ ونجد نبي الله عليه السلام يرد عليهم هنا رداً يحاصرهم في أفكارهم ويدفع ضلالتهم في دعوته لهم إلى التفكير في صدق ما جاء به ، والذي يظهر في سورة هود من إضافة ورود المدة التي أمهلها القوم عقب عقر الناقة ، وهذا لم يلحظ من قبل في السور السابقة ولا في السور اللاحقة ، فكانت سورة هود تبين الحال بعد عقر الناقة في الإمهال ثلاثة أيام وسورة الشعراء تبين حالهم وقد ندموا على فعلتهم ، ولعل ذلك بعد أن حلت بوادر العذاب بهم ، وكانت سورة الأعراف من قبل تبين حالهم ساعة ارتكابهم لهذه الجريمة النكراء وهم معتدون في شدة ، وشراسة وبهذا نتبين التدرج حيث جاء ندمهم بعد فعلتهم وشراستهم لَمَّا حلت بهم بوادر العذاب وحددت لهم المدة التي يمهلون فيها بين عقرهم للناقة ونزول العذاب عليهم في سورة هود .

المبحث الثاني

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة الذريات والقمر)

(أ) ما ورد في سورة الذاريات :

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ [الآيات ٤٣ - ٤٥] .

وفي ثمود عطفت على قوله تعالى ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ من عطف القصة على القصة لكون قوم ثمود تالين لقوم عاد في الزمن وخالفين لهم لقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ .

وقد غلب في القرآن مجيء قصة ثمود بعد عاد وكما مرَّ معنا من مشاهد سابقة والمشهد هنا ورد مختصراً بذكر نهاية قوم صالح وهلاكهم دون أن يتطرق إلى المقدمات التي كانت تتحدث عنها السور الطوال من دعوة الرسول لقومه ومحاولاته المتكررة في صرفهم عن الغي والإعراض ، لقد طوي ذلك كله وأوجز في بيان يظهر أن القوم قد عتوا وأعرضوا فجاءهم العذاب ، إن السورة تركز على نهايات الأمم وتصور هلاكهم على كيفية تحقق الردع والزجر ، فالمهم هنا هو عرض نتيجة التكذيب بما يتوافق مع إيجاز السورة وإيقاعها السريع وهو ما يلائم سياق المشهد الذي ينذر المكذبين بيوم الدين وبما حلَّ بالأمم السابقة المكذبة ، منهم قوم صالح وعند النظر إلى تتابع نهايات الأمم حتى نصل إلى قوم صالح

عليه السلام نجد ذلك التأثير المتدفق المتتالي الذي يقطع الأنفاس ويستولي على القلوب بما فيها من أحداث مذهلة وما عرض في المشهد كان موافقاً لغرض السورة وموضوعها وجوها الحازم المرعب حيث أبرزت الحلقة المختارة من القصة مظاهر سطوة الرب جلَّ وعلا على القوم الظالمين ، وأظهرت تبديد الباطل مهما كان طغيانه وتجبره ، لقد أهلكت الصاعقة القوم وأظهرت لنا مدى ضعفهم وتهافتهم فهم لم يستطيعوا القيام أو الحركة حيث شلت قدراتهم واستلبت أرواحهم في سرعة عاجلة .

(ب) ما ورد في سورة القمر :

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [الآيات : ٢٣ – ٣١] .

جاء المشهد هنا في سياق الإنذار والتهديد للمعرضين من كفار مكة ولقد ابتدأ بكلمة التكذيب ولم يعطف على ما سبقه حتى يتم التركيز على التوبيخ والتهديد والتشنيع بهذه الكلمة في بداية كل مشهد في السورة الكريمة .

وهي كلمة جاءت موجزة ومجملة ، وقد جاء التفصيل بعدها يوضح هذا الإجمال فكان في ذلك تشويقٌ وإثارة للنفوس يجذب الانتباه لمتابعة ما سيرد من

تفصيل حتى إذا ورد استقر المعنى في النفس وتبين ، وكانت كلمة التكذيب في بداية المشهد تبين أن هذا التكذيب كان هو السبب الأكبر في عتوهم ونهاية أمرهم والمشهد هنا نجده يتفق مع المشهد في سورة الذاريات في إيجازه وطيه للحوار الذي دار بين صالح وقومه وهو يعرض عليهم دعوته ؛ لأن الهدف هنا هو الزجر والردع الذي جاء في صور سريعة متتابعة تتناسب مع سياق الإنذار والتهديد والحزم الذي تنطبع به السورة وجوها من أولها إلى آخرها ، ولكن المشهد هنا يظهر فيه التفصيل إذا قورن بالمشهد في سورة الذاريات لكون سورة القمر نزلت قبلها ولذلك ناسب التفصيل فيها والله تعالى أعلم .

الفصل الرابع

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في قصة هلاك قوم لوط)

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه في السور الطوال .

المبحث الثاني : أسرارتنوع العلاقات في موقع المشهد المفصل من سياقه في سورتي (هود ، والحجر) .

المبحث الثالث أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة (الذاريات ، والقمر) .

المبحث الأول

(أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه في السور الطوال)

(أ) ما ورد في سورة الأعراف[1] :

يقول تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الآيات : ٨٠ - ٨٢] .

عطفت قصة لوط عليه السلام وقومه هنا على ما قبلها [2] في قوله (ولوطاً إذ قال لقومه) .

ولم يقل كما سبق (وإلى عاد) ، (وإلى ثمود) وما تلاها (وإلى مدين) .

ولعل ذلك ينبيء عن أن العامل (واذكر) وليس بـ (أَرسلنا) حيث كان جهد لوط عليه السلام ينصرف في دعوته إلى تصحيح ما انتكس من فطر القوم وأخلاقهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد كما دعا إلى ذلك نوح ومن أتى بعده من

---

(١) جاء المشهد هنا في إيجاز سريع يشير إلى حادثة الإهلال وذلك فيه تناسب مع ما ورد في السورة الكريمة من قبل في شأن قوم نوح وهود وصالح والسورة في موضوعها تهتم بعرض قضايا الدعوة والعقيدة ولذلك نجد المشهد هنا يركز على عرض ما دار بين لوط وقومه ويختصر في إيراد العاقبة ولم تختلف سورة الأعراف في هذا الترتيب والنمط وما قيل في سياق المشهد في شأن قوم نوح وعاد وثمود يقال هنا لأنه سياق واحد .

(٢) من عطف القصة على القصة .

الرسل الكرام وكما عرضت لنا سورة الأعراف وفي ذلك إشارة إلى عدم أهليتهم لهذه الدعوة الشريفة ما داموا على رذائلهم قد انسلخوا من الطهارة وانجرفوا إلى الدناءة والخساسة ، ولكن هذا القول يرده عموم الأدلة في القرآن الكريم والتي تخبر بأن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلا وقد دعا قومه إلى الله تعالى فالقوم هنا قد جمعوا بين الشرك وانتكاس الفطرة ولذلك (عدل النسق عن أسلوب القصص فلم يقل وأرسلنا لوطاً إلى قومه ونحوه ، ليكون من أعظم المقاصد في ذلك تسلية النبي ﷺ في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب ، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين ، وأما قصة قوم لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش ، فعدل عن ذلك النسق تنبيهاً عليه وتهويلاً للأمر وتبشيعاً له ليكون في التسلية أشد وفي استدعاء الحمد والشكر أتم) (١) .

والمشهد هنا قد ابتدأ بعرض دعوة لوط لقومه ينكر عليهم ما هم فيه من الخزي والضلال وقد وبخهم وقرعهم عبر الاستفهام الإنكاري وبين لهم مجملاً ما قد اقترفوه ، ثم فصل لهم بعد ذلك ليقررهم بما هم عليه ويزيدهم استنكاراً واستهجاناً بالبيان بعد الإجمال وقد أطلعهم على أنهم هم أول من ابتدع هذه الفعلة الشنيعة في العالمين ، وأول من سن هذا الباب من الشر ، وناسب هذا القول هنا ما جاء في السورة الكريمة من عرض لأحوال الأمم السابقة وقد تفرد

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٦٢) .

قوم لوط من بينهم بهذه الجريمة ، وموقف لوط هنا مع قومه قد يكون من المواقف الأولى[1] والقوم قد بادروا بالإعراض ولم يستسيغوا الإجابة على نبيهم بل ردوا بالتهديد له بالإخراج ، ويلحظ أن مجادلة لوط هنا مختصرة وردهم وجيز وكل ذلك يصوِّر أن هؤلاء القوم في أول لقاءاتهم مع لوط كانوا شديدي النفور تنزعج نفوسهم من أدنى موعظة أو تذكير ، بل تضيق بهم الأرض بخلاف ما لوحظ في لقاءات نوح عليه السلام مع قومه حيث كانت المحاجة والجدال يطول ، أما هؤلاء القوم لَّما جمعوا بين الشرك والفحش كانت نفوسهم في الإعراض أشد فكان جدال لوط لهم في أول لقاءاته موجزاً ، وكان ردهم أوجز وكل ذلك له دلالاته وإشاراته المنبئة عن صورة تلقي القوم للدعوة ورفضها وبغض من يسعى بها إنهم لا يحبذون الجدال ولا يريدون أن يسمعوا صوتاً مخالفاً لما هم عليه من الرذيلة ، ولَّما كان الرد فيه تهديد ناسب هذا السياق إيراد العاقبة موجزة سريعة تنبئ عن الحسم العاجل في أمر هؤلاء القوم ، ويظهر فيها إبراز النجاة للنبي ومن معه لأن المقام مقام نصرة للنبي ومن معه والموقف هنا فيه تهديد .

(ب) ما ورد في سورة الشعراء[2] :

يقول تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

---

(١) سيأتي يزيد بيان لذلك وتوضيح عندما تتم المقارنة بين مواقف لوط عليه السلام مع قومه .

(٢) ما قيل عن سياق المشاهد في هلاك قوم نوح وهود وصالح ينطبق على المشهد هنا في سورة الشعراء والسورة تهتم بموضوع الدعوة إلى الله وتقواه ولذلك كان المشهد يفصل في عرض ما دار بين لوط وقومه ويوجز في إيراد العاقبة .

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ١٦٠ - ١٧٣] .

إن موقف لوط عليه السلام هنا مع قومه يمثل الموقف التالي لموقفه في سورة الأعراف وهو هنا يجمع في دعوته لهم بين الملاينة والإنذار ويبين لهم أنه لا يريد منهم شيئاً وليس بمستفيد منهم أجراً ، وإنما أجره على الله ليعلمهم أنه لا يريد لهم إلا الخير وليس له غير ذلك ، وقال ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فزاد في المبالغة في الوعظ .

حيث ركز لهم على الجنسية فكان في الموقف الأول يوعظهم ببيان اكتمال الرجولة ، وهنا يبين اكتمالهم في القوة والفحولة ، فكيف يحولوا إلى الليونة والانكسار ، ولهذا جاء بعدها قوله تعالى : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ فالذي يوافقكم إنما هو الجنس الآخر والنوع الآخر ، وهنا نجد أن هذه الآية الكريمة تقيد الإطلاق الذي وجد في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ حيث قال من دون النساء بدون تحديد فجاءت آية الشعراء محددة لهم ما أُبيح لهم من النساء من أزواجهم ثم إن المتأمل ليلحظ الملاينة هنا في بداية دعوته لهم حتى نجد الإضراب في قوله

﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ يجمع مع الملاينة السابقة الشدة والصرامة حيث واجههم بذنبهم ، فهم قوم قد جاوزوا الحدود ، وفي ذلك إسراف كما ورد في سورة الأعراف من قبل وبعد أن هدَّدْ القومُ بإخراج نبيهم إن لم ينته عن دعوتهم ونصحهم ، وبعد أن دعا ربه في النجاة منهم جاء ذكر الإجابة وأُبرزت النجاة حيث يقول تعالى : ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ ومن هنا نلمس كيف توسعت المعاني وتنامت من سورة الأعراف إلى سورة الشعراء فسورة الأعراف لمّا صوَّرت لنا الموقف الأول ناسب فيها تذكير لوط لقومه بأنهم لم يسبقوا في هذا الفعل الشنيع بأحد من العالمين ، ويلحظ فيها ذكر الفاحشة مبهمة في الإنكار الأول ثم توضح ويحدد نوعها في الإنكار الثاني ، أما سورة الشعراء فقد جاء الحديث عن الفاحشة محدداً وصريحاً دون إبهام ولم يتكرر فيها الإنكار للفاحشة حيث إن القوم لمَّا لم يرتدعوا في المقام الأول أنكر عليهم هنا ووبخهم على عدم تقواهم ومخافتهم .

وأما ما أضافته سورة الشعراء على سورة الأعراف فإنه يلحظ في إنكاره على قومه عدم التقوى والخوف من الله تعالى وما بينه لهم من أنه رسول أمين ، وأنه لا يبتغي الأجر على دعوته ، وهنا نلحظ الحوار يمتد إذا قورن بالحوار الموجز في سورة الأعراف وأضافت السورة أن القوم كانت لهم أزواج ولكنهم تركوهم ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ ﴾ وكان جواب القوم في سورة الأعراف قولهم ﴿ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ ﴾ يأنفون من الرد على نبيهم فيتحاورون فيما

بينهم ويقولون هذا القول ، وفي سورة الشعراء لما كرر عليهم الدعوة خاطبوا نبيهم ونصَّوا على اسمه حيث اشتهر بطهره ودعوته إلى التنزه من هذه الأفعال المشينة وليست بينهم من يفعل ذلك أو يدعو إليه غيره ، وتتفق السورتان في إبراز جواب القوم وتهديدهم لنبيهم بالإخراج من القرية ، إلا أن الخطاب مباشر للوط عليه السلام في سورة الشعراء ونجد أن سورتي الأعراف والشعراء لم تحددا نوعية العذاب بل اكتفي بأنه مطر ، وزادت سورة الشعراء بأنه مطر سوء (فساء مطر المنذرين) وعند النظر في السور التالية لسورة الشعراء في النزول سيلحظ أنها تفسر وتوضح لنا نوعية هذا العذاب بما يفسر للمتأمل صورة هذا التدرج والتكامل البديع بين مشاهد السور الكريمة والله أعلم .

(جـ) ما ورد في سورة النمل :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الآيات : ٥٤ – ٥٨] .

عطف المشهد هنا على ما سبقه بالواو وهو من عطف القصة على القصة ، وقد جاء بعد مشهد عذاب قوم صالح حيث اختتمت القصص في السورة بقصة لوط مع قومه وكل ما سبق عرضه قبل قصة لوط نجدها تتلاءم

مع موضوع السورة الكريمة[١] .

ومن خلال المقارنات بين المواقف للوط عليه السلام تبيَّن أن الموقف هنا يعبر عن الموقف التالي للموقفين الواردين في سورتي الأعراف والشعراء وسورة النمل نزلت بعد الشعراء وإنكار لوط فيها على قومه يزيد حدة حيث قال ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ بإدخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ ، وكان الإنكار للفاحشة في سورة الأعراف والشعراء من قبل على العموم ، وهو إنكار لما هم عليه من واقع شنيع ، ولكنه لما زاد في إنكاره لهم وتوبيخه زيدت الهمزة لبيان ذلك ، وجاء هذا الاستفهام بعد أن أنكر عليهم وقوع الفاحشة على العموم في قوله ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ ﴾ وهو استفهام إنكاري ، وجاء الاستفهام الثاني في سورة النمل توكيداً للأول وتبييناً لما فيه من إبهام الفاحشة ، وقد أكد بـ إنَّ واسمية الجملة ثم ازدادت حدة إنكاره عليهم في إتيانهم الفاحشة ، علانية وهم يبصرون فالإنكار والتوبيخ والتقريع ازدادت حدته في سورة النمل مما يؤكده كون هذا الموقف تالياً للموقفين في سورتي الأعراف والشعراء حيث ازداد القوم في شناعتهم فازداد لوط عليه السلام في إنكاره عليهم وتوبيخهم وتبيين ما

---

(١) هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ، وهي تمضي على نسقها في الأداء وموضوعها هو العقيدة : الإيمان بالله وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله وأن الحول والقوة كلها لله ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني وتصوير عاقبة المكذبين بها وعاقبة المؤمنين . ينظر (في ظلال القرآن (١٩ / ٢٦٢٥) ولذلك نجد المشهد هنا يركز على عرض دعوة لوط لقومه ويختصر في ذكر العاقبة .

هم عليه من سخط وسذاجة ثم قال هنا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ حيث أضرب عن إنكارهم إلى النعي عليهم بالجهل والحمق ، وقال (تجهلون) لبيان أنهم مستمرون في الجهل ، ووصْفُهم بالجهل هنا أفظع وأشد على نفوسهم من وصفهم بالإسراف في الموقف الأول في سورة الأعراف ولذلك نجد القوم هنا بادروا بالرد على لوط عليه السلام دون تريث ، فقد بلغ بهم الضيق مبلغاً عظيماً ، إنهم يريدون إخراج لوط وآل بيته من قريتهم سريعاً يدل على ذلك اقتران الفاء بـ(ما) في قوله تعالى ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ .

ثم إنهم هنا نصوا على اسمه صراحة حيث قالوا ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ بينما لم يصرحوا بذلك في الأعراف فجاءوا بالضمير فقالوا (أخرجوهم) (وذلك أنه لما زيد في تعنيفهم هنا وتقريعهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها أو مع مشاهدة بعضهم بعضاً وعدم استخفائهم بها وذلك أقبح في المرتكب ، فلما زيد في تعريفهم زيد في تعليل الإخراج التنصيص على الآل لأن قوله (آل لوط) أنص في إخراج من للوط عليه السلام من ذويه وأهله من قوله (أخرجوهم))[1] .

ولما بدر منهم هذا التهديد جاء إيراد العاقبة سريعاً حيث عجل بها السياق كما وردت في سورتي الأعراف والشعراء فالمقام مقام تهديد ووعيد من القوم

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٥٠ .

يقول تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

(د) ما ورد في سورة العنكبوت :

يقول تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الآيات : ٢٨ - ٣٠] .

إلى أن قال تعالى عن مهلكم ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الآيات : ٣٣ - ٣٤] عطفت القصة هنا على ما سبقها من القصص ، وقد جاءت في سياق السورة الذي يهتم بعرض قضية الإيمان والفتن التي تتعرض طريق كل من استمسك بالحق والهدى فليس طريقاً سهلاً معبداً ، بل له تكاليف لا يصبر عليها إلا ذوو النفوس المؤمنة المتعلقة بربها الصابرة على المكاره والمحن ، وهكذا نجد السورة تستعرض قصص الأنبياء مع أقوامهم استعراضاً سريعاً يتمشى مع هذا السياق تصوِّر لنا ما لحق الأنبياء عليهم السلام من فتن في طريق الدعوة إلى الإيمان وما لحق الأمم المعرضة عن الحق من

عقوبات وقد عطفت قصة لوط على ما سبقها من القصص في هذا الإطار والسياق ولذلك ركز المشهد على عرض دعوة لوط لقومه واختصر في ذكر العاقبة والإهلاك حيث جاء ذكرها سريعاً يتمشى مع سياق التهديد والتحدي الذي جابه به القوم نبيهم حتى طلب النصر من ربه فجاء النصر والإنجاء سريعاً، والموقف يتبين من خلاله أنه من المواقف الأخيرة وسورة العنكبوت من السور التي نزلت في مرحلة متأخرة عن السور السابقة التي تعرضت لقصة قوم لوط وهو هنا عليه السلام قد أكثر من الاستنكار عليهم والنصح ، لانغماس القوم في فسقهم وازدياد أفعالهم في نواديهم وقطعهم للسبيل ، فأصبح القوم هنا يمثلون جرائم ثلاثة قد أُظهرت وجعلت محصورة في حيز الاستفهام لابرازها حيث يقول تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ لقد تعددت جرائمهم وعطف بعضها على بعض بحرف العطف الواو وبلاغة العطف بالواو حيث قاربت بين المعطوف والمعطوف عليه تبرز لنا الجرائم وقد تعاقبت وتعددت ، وفي قوله تعالى ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ صورة مستحضرة لحالهم وهم يقعطون الطريق على المسافرين والمارين ببلدتهم ليعتدوا على أموالهم وأجسادهم ، لقد بلغ بهم السخف غايته حتى زاد من سخفهم أنهم لا يتورعون من إتيان المنكرات في نواديهم علانية ، وفي قوله تأتون تصوير ينبئ عن انغماسهم في ذلك واستمرارهم عليه حتى أصبح عادة لهم لا يرون فيها عيباً ولا رذالة ولما أغلظ عليه السلام في هذا الموقف وأكثر عليهم في تعداد جرائمهم وقاذوراتهم لم يعد له في نفوسهم من الصبر من سبيل حيث ردوا عليه في سرعة لم يتريثوا فالغضب قد أحاط بهم .

في قوله تعالى عنهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إنهم يطلبون نزول العذاب عليهم ، وفي هذا تحدٍّ منهم صارخ ، يقول ابن الزبير رحمه الله (فكان تعداد مرتكباتهم أشد توبيخاً وأنكأ لتمييز أفئدتهم ، وكان مظنة تهييج واشتعال لسيء أخلاقهم وقبيح جوابهم ، فجاوبوا جواب من استحكم حنقه وطبع على قلبه فقالوا (ائتنا بعذاب الله) تحكيماً وتحقيقاً لتكذيبهم وشاهداً بتصميمهم على المعاندة والكفر ، لأن قولهم في الموضعين قبل (أخرجوهم من قريتكم) على شناعة مرتكبهم فيه ليس كقولهم (ائتنا بعذاب الله) [1] .

وهكذا وجدنا التدرج في المواقف والاختلاف وكل ذلك يصور لنا تكرر الدعوة واختلاف المقامات التي أنذرهم فيها لوط عليه السلام ، فقد جاءهم من بين أيديهم ومن خلفهم ولكن لم تغن الآيات والنذر عن قوم كافرين .

(هـ) ما ورد في سورة الأنبياء :

يقول تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الآيات : ٧٤ – ٧٥] .

المشهد هنا يبرز فضل الله على نبيه وفيه امتداح له وبيان لمنزلته عند ربه وقد اختصرت قصته مع قومه هنا فلم يذكر ما دار بينه وبين قومه ولم تذكر تلك

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٥٠ .

المقدمات التي حصلت قبل نزول العذاب كل ذلك يطوى هنا ويبرز جانب الإنجاء والاحتفاء بالنبي من قبل ربه ، فقد جعل الله له الحكم والعلم وأدخله في رحمته وامتدحه تعالى بأن كان من عباده الصالحين ، وهذا الإيجاز وبيان المنزلة والامتداح والحفظ له بالنجاة من القوم الظالمين ، كل ذلك جاء في سياق السورة التي تهتم بإبراز رحمة الله بأنبيائه وحفظه لهم في الابتلاء وعند شدته عليهم حيث ابتلى لوط عليه السلام بشدة إعراض قومه وشدة فحشهم حتى إنهم هددوه وتآمروا عليه ، فكان لطف الله تعالى في إنجاء نبيه ونصرته وتكريمه ، وهكذا نجد المشهد يتلاءم مع سياقه في السورة ، فلم يذكر منه إلا ما ناسب السياق وأجواء السورة الكريمة التي تهتم بإبراز فضل الله على أنبيائه وتكريمه لهم وما كان لهم من منزلة ودرجة عند ربهم .

المبحث الثاني

أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد المفصل من سياقه في سورتي (هود ، والحجر)

١ - ما ورد في سورة هود :

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [الآيات : ٧٧ - ٨٣] .

ورد المشهد في هذه السورة الكريمة متكاملاً مفصلاً وقد عرضت مشاهد الأقوام المهلكة في السورة في تفصيل من قبل فالسورة على وتيرة واحدة تعلو فيها نبرة التهديد والتهويل تحمل شحنة من الإنذار والوعيد لكفار مكة ، وقد جاء المشهد هنا في سياق الحديث عن إنذارهم ووصف أحوالهم وما كانوا يواجهون به النبي ﷺ من إعراض وحجاج ، فكان المشهد هنا والمشاهد قبله فيها انتقال من إنذار المشركين إلى موعظتهم بما حل بالمكذبين من قبلهم .

وكان التفصيل في المشهد يناسب التسلية والتسرية عن الرسول ﷺ وما كان فيه من ضيق بما يعرض عليه من صورة الأحداث العظيمة التي واجهت لوطاً عليه السلام بين قوم مشركين قد انتكست فطرهم واشتد فسقهم وعتوهم ، ولقد جاءت الأحداث هنا مترتبة على حسب حدوثها في الواقع ، فلا تقديم فيها ولا تأخير ، إنها ترسم لنا وتجسد موقف لوط عليه السلام وقد انتابه الضيق واجتاله الكرب وانقطعت به السبل وهي تذكر لنا كل شيء بدقة وتفصيل ، وكأن عرض ما حصل للوط من ضيق يتابع حالة المخاطب ﷺ وهو يمرُّ بالضيق والأزمة تجاه قومه ، وفي هذا العرض تسلية واهتمام به فليس الأوحد في هذا الطريق ،
والسورة تبدأ بعرض قصة لوط منذ أن جاءه الرسل حين باح لهم بما اعتراه من ضيق ، فقال (هذا يوم عصيب) ثم بينت السورة شدة المأزق في تصويرها لسرعة توجه القوم إلى داره يسعون لغاية نكراء ، فابتدأ الحوار بين لوط وقومه يحاول مدافعتهم عما جاءوا لأجله ، وهنا تبرز قمة المعاناة حتى قال عليه السلام (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) .

ولم تأت طمأنة الملائكة للوط عليه السلام وتبشيرهم له إلا بعد أن بلغ به الكرب مبلغاً عظيماً ، وعندها جاء الفرج والحل المفرح في قول الملائكة له ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ وإلى هنا ما زال التسلسل للأحداث يتتابع على ترتيبه في الواقع ، وبعد أن اطمأن لوط عليه السلام وعلم أنه في منعة عظيمة من ربه جاءت تعليمات الملائكة له بأن يسر بأهله بقطع من الليل ، فموعد إهلاك قومه سيكون في وقت الصباح ثم جاء بعد ذلك تفصيل مهلك القوم في صورة

تبعث الفزع والرعب ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾ وهكذا نجد المشهد يحقق لنا هدف السورة في إبراز عنصر الترهيب والتهويل ليكون ذلك أعظم أثراً في إنذار المشركين وترهيبهم ، وأمّا في سورة الحجر فقد وردت قصة لوط عليه السلام في بناء يختلف في تسلسل أحداثه عما وجد في سورة هود حيث يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الآيات : ٦١ – ٧٧] .

جاء هذا المشهد في سياق قوله تعالى ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الآية : ٤٩] .

فجاء ذكر مهلك الأقوام في السورة مصداقاً لنبأ العذاب .

والسورة الكريمة بدأت بوصف الكتاب الكريم وتقرير أمر النبوة ، ثم انتقل الحديث فيها إلى ذكر دلائل القدرة في الكون كله سمائه وأرضه ، ثم تطرقت إلى ذكر خلق آدم عليه السلام ، وفصلت ما جرى بشأنه ، ثم ذكرت أحوال القيامة ومصير الأشقياء والسعداء ، وذكرت قصص الأنبياء في السورة لبيان مصير المعرضين لتنبيه العرب وتحذيرهم بمصير من كذب الرسل ممن سبقهم وما حل بهم من العذاب ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ومحذراً من المعصية التي تهبط بأصحابها إلى دركات الأشقياء(١) .

ولذلك وجدنا المشهد يفصل في عاقبة القوم ويفصل في بيان ضلالهم وما كانوا فيه من إصرار على الغي حتى هلكوا وفنوا جزاءً لذنوبهم وإعراضهم وقد قدم في المشهد هنا كشف الملائكة عن طبيعتهم منذ اللحظة الأولى لنبي الله لوط (لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذي وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإنما ينزلون للعذاب فلا ينتظر القوم ولا يمهلون) (٢) .

إذن السياق هنا يلائمه سير القصة وترتيبها على هذا النمط المخالف لما جرت عليه في سورة هود ولعل ذلك أيضاً كان يرتبط بحال المخاطب في كلا السورتين حيث عرضت القصة كاملة في سورة هود ليهتم بإبراز ما لقيه لوط عليه السلام

---

(١) ينظر التفسير الكبير للرازي (٧/ ١٥٠) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ، المجلد الرابع (٢١٤٧) .

من كرب قبل نزول الرحمة ومجيء الفرج ، وفي ذلك تسلية لما أصاب نفس المخاطب ﷺ من ضيق إزاء قومه المعرضين ، ولذلك (كان الزمن هو المحور الذي يربط الأحداث في تسلسل وتتابع يفضيان إلى نتائج معنية) [1] توصل إلى الغرض من القصة في السياق الذي عرضت فيه ولما كانت سورة هود أسبق في النزول من سورة الحجر ناسب ذلك إيراد التفصيل والتوضيح بما يتناسب مع موضوع السورة وسياقها وسورة الحجر تهتم بإظهار عاقبة القوم ومصيرهم سريعاً فكان كشف الرسل عن مهمتهم قبل مجيء القوم ومجادلتهم مع نبيهم ينبيء عن سرعة الحسم وسرعة إنزال العقاب على القوم المجرمين ، ولعل الاهتمام بإبراز الطمأنينة منذ بداية المشهد وبيان النصرة فيه اهتمام بتسلية المخاطب ﷺ وبث البشرى في قلبه ، وهنا نجد أن القصة جرت على خلاف الترتيب التسلسلي للأحداث في سورة هود ولذلك لم يكن الترتيب في سورة الحجر قائماً على الترتيب الزمني ، ولأن القرآن يقدم في أحداث القصة ويؤخر على حسب سياقها وأهدافها وما يتمشى مع أحوال المخاطب في نسق ونظم عالٍ من البلاغة يبين عن وجه من أوجه إعجازه ، ولا يكون هنالك شيء من التناقض أو التخالف وهذا التحليل يتمشى مع أقوال الأئمة في أن الواو في سورة الحجر لا تفيد الترتيب حيث إن مجيء أهل المدينة ومحاورة لوط مع قومه كان ذلك كله

---

(١) سكلوجية القصة في القرآن الكريم ، التهامي نقرة ، ط (الشركة التونسية ، تونس ، ١٩٧٤ م) ص ٩٥ .

قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله كما ورد في ترتيب الأحداث في سورة هود[1] .

أما ابن عطية فإنه يقول (ويحتمل أن يكون المجيء والمحاورة بعد علمه بهلاكهم ، وحاور تلك المحاورة على جهة التكتم عنهم ، والإملاء لهم ، والتربص بهم) [2] .

وقد ضعف هذا الاحتمال الألوسي حيث يقول (ولا يخفى أن كون المساءة وضيق الذرع من باب التكتم والإملاء أيضاً مما يأبى عنه الطبع السليم) [3] وقد أحسن الدكتور فضل حسن عباس في ذهابه إلى أن الواو هنا في سورة الحجر تفيد الترتيب ، وأنه لا تقديم ولا تأخير ، وأن قول ابن عطية كان هو الأولى بالقبول لأن المجيء في سورة هود يختلف عن المجيء في سورة الحجر فسورة هود تصوِّر مجيء قومه[4] حيث ضاق بهم ذرعاً وطمأنته الملائكة بعد ذلك ، أما المجيء في سورة الحجر فهو مجيء أهل المدينة بعد أن وصل إليهم النبأ وكان لوط قد اطلع على الأمر من الملائكة عليهم السلام فقال لهم ما قال على سبيل التبكيت وتعمية الخبر عنهم ، والذي يرجح ذلك أن آيات سورة الحجر لم تحدثنا بشيء عن ذلك الألم الذي كان يكتنف نفس النبي الكريم وقال وما ذهبنا إليه أولى بنظم الكتاب

---

(١) ينظر البحر المحيط (٥ / ٥١٣) ، روح المعاني (٧ / ٣١٤) التحرير والتنوير (١٤ / ٦٦) .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣ / ٣٦٨) .

(٣) روح المعاني (٧ / ٣١٤) .

(٤) وقد يكون هذا المجيء اختص بعلية القوم والسادة فهم وهم فئةٌ جاءت مسرعة لتظفر بالغنيمة .

العزيز ونسقه[1] ، وبعد هذا كله يتضح أن التدرج في المعاني كان يسير على منهاج واضح على حسب ترتيب السور الكريمة في نزولها ، فقد رأينا في سور الأعراف والشعراء والنمل أنها قد أجملت ولم توضح لنا نوعية العذاب الذي أنزل على قوم لوط ، ورأينا الإفصاح والإظهار لنوعية العذاب تتجلى في سورة هود التي جاءت في ترتيبها النزولي بعد هذه السور الكريمة ، وهو ما يوافق جوها المنذر المرعب وكذلك في سورة الحجر نرى هذا الإيضاح ويلحظ أن السورتين قد أضافتا إلى القصص من قبل مجيء الملائكة ومجيء القوم وحوار لوط مع قومه وحوار الملائكة معه ، ثم نجد أن سورة هود تتفرد بالتفصيل في حالة لوط عليه السلام وما انتابه من ضيق وكرب بما لا نجده في غيرها من السور ، وقد بيَّنْت أَنْ القوم لَّما جاءوا إلى بيت لوط كانوا من قبل مجيئهم يعملون السيئات ، وهذا ما لم يلحظ في سورة الحجر ونجد فيها هذا التوبيخ والإنكار (أليس منكم رجل رشيد) وأما في سورة الحجر فإنها تنقل لنا توبيخ قومه له (أو لم ننهك عن العالمين) ونجدها تضيف شيئاً آخر غير مجيء القوم والسادة وهو مجيء أهل المدينة يستبشرون فرحين ، وتضيف تكرار النهي عن الفضيحة والإخزاء ، وقد ورد ذلك في سورة هود مرة واحدة ، وأما سورة هود فقد بينت أن القوم يعلنون عن عدم حاجتهم ورغبتهم في النساء بما لا يلحظ في غيرها من السور ، والسورة بينت أقصى ما هم فيه ونقلت صورة العذاب على وجه أشد وأرهب مما مضى

(١) ينظر القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته د/ فضل حسن عباس ص ١٩٨ - ١٩٩ .

قبلها من السور ونجد أن سورة الحجر وهي نازلة بعد سورة هود ويوسف تضيف قول الملائكة للوط (واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون) هنا نجد (واتبع أدبارهم) فيها إضافة وفي تحديد المكان إضافة في قولهم (وامضوا حيث تؤمرون) ونجد الحديث عن موعد العذاب ووقته فيه تلاؤم في التدرج حيث بينت سورتي هود أن وقت العذاب يحل عليهم صباحاً وسورة الحجر بينت أن العذاب يأتيهم عند شروق الشمس فكان ابتداء العذاب عليهم مع بزوغ الفجر وكانت نهايته مع شروق الشمس ، وبهذا نجد كيف تكاملت المعاني في السور الكريمة وكيف تنامت متسلسلة على حسب ترتيب السور في نزولها ، وكيف أن كل سورة أضافت إلى السورة السابقة ما يوضح إجمالها أو يؤكد معانيها في نظام بديع يفصح عن جانب من جوانب الإعجاز في الذكر الحكيم والله أعلم .

المبحث الثالث

أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة الذاريات ، والقمر

١ - ما ورد في سورة الذاريات :

يقول تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الآيات : ٣١ - ٣٧] .

جاء المشهد هنا في سياق سورة الذاريات وهي تهتم بإثبات وقوع البعث والجزاء وما فيه من أحوال وأهوال وتبين بطلان مزاعم المكذبين (١) ومن ثم بدأت بالإقسام بآيات الله الكونية على صدق وقوعه ، وجاء ذكر قصة قوم لوط على سبيل الإيجاز ضمن مجموعة قصص الأمم المكذبة لتكون عبرة وموعظة لمشركي العرب الذين يعرضون ويكذبون بيوم الدين وبرسالة محمد ﷺ ، وقد كان المشهد هنا مرتبطاً بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه جاء في ثنايا حديث إبراهيم عندما جاءه الرسل من الملائكة مبشرين ، وبعد أن هدأت نفسه وذهب عنه الروع سأل الملائكة فيما جاءوا من أجله فهم لا يأتون إلا لأمر خطير وعظيم .

---

(١) السورة في عمومها تعالج أصول العقيدة كما هي عادة السور المكية الكريمة فنجدها تهتم بالواحدانية والإيمان بالوحي والرسالة والحساب والجزاء ولكن الإهتمام باليوم الآخر وإثبات الجزاء والعقاب كان بارزاً في السورة الكريمة ويكاد يكون محورها الرئيس والله أعلم .

فأجابوه ، ومن هنا تقدمت قصة إبراهيم عليه السلام وقد اقترنت بها قصة قوم لوط وخولف في الترتيب الزمني للقصص هنا فكان البدء (بذكر قصة إبراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب حيث يعتبرونه أباهم الأعلى ، وقد جرى الحديث عن مشركيهم في صدر السورة ، وخوطبوا بجرائمهم وشنائعهم ، وفي ذكر قصته مزيد تعريض بهم ، لأنهم لم يتبعوا أباهم ولم يسيروا على نهجه في توحيد الله تعالى وعبادته) [1] .

والسورة من أولها إلى آخرها تنطبع بجو الحزم والإنذار ، تشير إلى تبديد الباطل ، وقد جاء المشهد المعروض يركز على ذلك حيث أهلك الله قوم لوط وقد استفحل باطلهم ، فبدَّد الله ذلك الباطل بإهلاكهم وجعل الله بعد ذلك الدلائل على عقوبتهم ماثلة لأولئك المعرضين من مشركي العرب .

٢- ما ورد في سورة القمر :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [الآيات : ٣٣ - ٣٩] .

جاء المشهد هنا في سياق الإنذار والتهديد يركز على صورة وقع العذاب على القوم المهلكين وقد حمل من الإنذار والتهويل ما تناسب مع سياقه ومع جوِّ

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام د/ إبراهيم الشحات محمد / ص ٣٠٥ .

السورة الكريمة في انطباعها من أولها إلى آخرها على ذلك في إيقاع سريع وفقرات قصيرة عرضت لنا صور الإهلاك متلاحقة تطبع في النفوس هولها ، إن المشهد هنا في حلقته المعروضة قد تناسب مع موضوع السورة وسياقها الذي يهتم ببيان مكابرة المشركين في الآيات البينات وما اهتمت به من إنذارهم وزجرهم باقتراب يوم القيامة الذي ينكرونه ، فكان المقصود زجر المكذبين من مشركي العرب في شركهم وإنكارهم للبعث والآيات البينان التي تدل على صدق رسالة محمد ﷺ ولَمَّا أبرزت السورة تصميم المعرضين من كفار قريش واستمرارهم على التكذيب والإعراض اهتمت السورة بعد ذلك بسرد وقائع الإهلاك والتدمير للمعرضين السابقين ليكون ذلك زجراً وترهيباً لقلوبهم ، وكان لعرض هذه الحلقة من قصة قوم لوط وقومه موافقة بديعة لهذا السياق ومن أجل ذلك اكتفى بإيراد كلمة التكذيب في أول المشهد ، وقد أغنت عن ذكر تفاصيل ما دار بين القوم ونبيهم من دعوة ومن جدال انتهى إلى الإعراض والتكذيب ؛ لأن الهدف هنا هو الزجر والترهيب .

فخلص المشهد إلى ذكر صورة العذاب والإهلاك سريعاً في فقرات قصيرة وإيقاع سريع وفي تتابع صُور الإهلاك في السورة الكريمة وتلاحقها وقد جمعها سياق واحد مما جعل في النفس طرقات متتابعة للهول والرهبة تكاد أن تهوي بالقلوب وتقطع الأنفاس ، وهكذا هو أسلوب القرآن الكريم في التركيز على ما يناسب سياق السورة وجوها وموضوعاً في تسلسل والتحام بديع يشد المتلقي لا يفلته حتى يقف عند العبرة والعظة .

هذا ويلحظ أن سورتي الذاريات والقمر فيها تأكيد لما مضى في السور الكريمة أو إضافة لم تلحظ في تلك السور وسورة الذاريات تؤكد أنه لم يؤمن بلوط أحد من قومه سوى أهل بيته ما عدا امرأته وسورة القمر تبين كيفية نزول الحجارة على قوم لوط ، وأنها أنزلت عليهم من السماء ، بينما فهم هذا ضمناً فيما سبق من السور ، وتضيف سورة القمر وتوضح لنا أن نجاة لوط ومجاوزته لمواقع العذاب كانت في وقت السحر(١) .

ونراها تضيف إضافة أخرى لم تلحظ في غيرها من السور وهي طمس الملائكة لأعين من ذهب مسرعاً إلى بيت لوط يدافعونه في شأن ضيفه وهي من السور التي كانت سابقة في نزولها على سور الأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر فكان البيان للعذاب وأمره أسبق من الإبهام والإجمال والله أعلم .

---

(١) مضى تبيين لكيفية المجاوزة وقد نهو عن الالتفات ، والنهي عن الالتفات لا يكون إلا وهم قريبون من أرض العذاب ولعل مجاوزتهم كانت مستمرة من السحر حتى طلع عليهم الصبح وهم في سيرهم لم يبتعدوا كثيراً عن أرض العذاب أو لأن هذا العذاب الذي كان فيه رمي بالحجارة وخسف للأرض كانت آثاره بعيدة تصل إلى المكان الذي اجتازوا إليه فأمروا بعدم الالتفات وأن عليهم المواصلة في السير والله أعلم .

الفصل الخامس

أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في قصة هلاك قوم شعيب

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : ما ورد في سورتي (الأعراف والشعراء) .

المبحث الثاني : ما ورد في سورتي (هود ، والعنكبوت) .

المبحث الأول

ما ورد في سورتي الأعراف والشعراء

(أ) ما ورد في سورة الأعراف :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الآيات : ٨٥ – ٨٦] .

ويستمر الحوار والجدال إلى أن قال الملأ من قومه في نهاية الموقف ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فأعقبها ذكر العاقبة موجزة في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

والمتأمل يلحظ طول المحاورة بين شعيب وقومه من الآية (٨٥ – ٩٠) والمشهد جاء هنا معطوفاً على ما سبقه من قصة لوط عليه السلام مع قومه فالعطف من عطف القصة على القصة ، وقد رجع النسق على ما كان عليه في قصة قوم صالح عليه السلام من قبل ليكون في ذلك تنبيهاً على اختلاف نسق قصة قوم لوط لاختلاف شأنهم حيث جمعوا بين الشرك والرذيلة في تفرد لم

يسبقهم به أحد من العالمين ، ولم يأت أحد من بعدهم بمثل ما أتوا به كقوم شعيب فكان العامل مقدراً بعد الواو بـ (أرسلنا) لدلالة حرف (إلى) عليه مع دلالة سبق نظيره في قصة نوح أول القصص المستعرضة في سورة الأعراف والتقدير يكون (وأرسلنا إلى مدين) .

وقد جاء المشهد ضمن القصص المعروضة للأمم المهلكة في سياق الحديث عن طبيعة أصحاب الجنة وأصحاب النار ومشابهة هؤلاء وأولئك للأرض الطيبة والأرض الخبيثة ، فعرض من المشهد رفض القوم للخير الذي جاء به شعيب عليه السلام فهو نعمة من الله جحدوا بها رغم ما كان يحاول في هدايتهم وهاهي الخاتمة في المشهد تبين انتهاء القوم إلى الرفض والتكذيب فكانت العاقبة سريعة موجزة تصور الحسم السريع بعد الإمهال الطويل ، إن عدم تقبلهم للخير جعلهم كمثل الأرض الخبيثة النكدة التي لا تقبل الخير ولا تستفيد منه .

كما أن المشهد جاء موافقاً لموضوع السورة في اهتمامها بالعقيدة حيث غلب عليه عرض دعوة شعيب إلى الله تعالى وما قوبلت به من صدٍّ وإعراض فكان ذلك ملائماً لسياق السورة وموضوعها .

ولعل موقف شعيب عليه السلام مع قومه هنا يعد من المواقف المتقدمة في دعوته حيث بدأ يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وهي تلك المقولة التي قالها الرسل من قبله (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فكان الهدف هنا كما كان الهدف في المشاهد المعروضة من قبل يهتم بتصوير طبيعة العقيدة وطريقة التبليغ وطبيعة استقبال القوم لها ، والملاحظ هنا أن المشهد فيه إطالة في عرض ما

دار بين شعيب وقومه إذا قورن بما سبقه في السورة من عرض دعوة الرسل لأقوامهم لأن دعوة شعيب تضمنت شيئاً آخر غير قضية التوحيد وهي قضية المعاملات المالية التي انحرف فيها القوم عن الحق إلى الباطل ودين الله تعالى هو دين التكامل وليس بمعزل عن حياةِ البشر وعن معاملاتهم ، وشعيب عليه السلام جاء يدعو قومه إلى التوحيد وإلى إحقاق الحق في الإيفاء بالكيل والميزان والبعد عن الإفساد في الأرض ، وموقفه هنا يغلب عليه النصح والإرشاد ولا يلمح في دعوته هنا التهديد ، بل التحذير اللطيف دون التصريح بالعذاب ، وهذا يتضح من خلال متابعة الأوامر التي صدرت منه عليه السلام فقد قال لهم (اعبدوا الله) .

(وأوفوا الكيل والميزان) وأعقب ذلك بالنهي (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) وذكرهم بنعم الله عليهم (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) ثم كان الأمر الأخير في قوله (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) للحث والاعتبار ولم يكن فيها شيء من التهديد ، وهذا ما يؤكد كون هذا الموقف من المواقف الأولى ، وخصوصاً عندما نتأمل في ترتيب نزول سورة الأعراف وهي من السور المتقدمة في ترتيب النزول .

ويبرز في المشهد هنا إعراض الملأ وهم السادة والأشراف من قومه وفي هذه الصورة ما يشابهها في وضع محمد ﷺ في ابتداء دعوته لقومه ، فالسادة من قومه كانوا هم من يصد الناس عن دعوته ويعلنون التحذير والتهديد لكل من يتبع دعوته كما فعل قوم شعيب في صدِّ الناس عن دعوته وإشاعة التهديد والتحذير وشعيب هنا في موقفه الأول لم يناد قومه إلا مرة واحدة وهو ما يوضح للمتأمل

كون هذا الموقف من المواقف الأولى ، إنه هنا يستميل قومه وينصحهم وناسب في هذا الموقف أن يعدد أخطاء القوم وانحرافاتهم بما لا نجده في السور التالية والتي تعبر عن المواقف التالية ، فقد ذكر هنا من عيوبهم وضلالاتهم مع ما هم عليه من الشرك ، عدم الإيفاء بالكيل والميزان ، بخس الناس في حقوقهم ، سعيهم في الإفساد في الأرض وصد الناس عن سبيل الله ، والمشهد وقد عُرض فيه موقف الملأ من قوم شعيب يلحظ فيه أن الملأ والسادة لم يحتملوا دعوة شعيب فسارعوا وبادروا من أول مرة وفي أول موقف لهم مع شعيب بتهديده بالإخراج أو العودة[1] في ملتهم وهذه هي عادة سادة القوم المتكبرين ، إنهم لا يريدون النزول إلى الحق في إتباع شعيب عليه السلام ؛ لأن ذلك يبعدهم عن علوهم وإفسادهم وسيطرتهم ، وهكذا هي صورة الملأ المستكبرين في كل عصر وزمن لقد توافق عرض المشهد هنا مع سياقه وجوِّ السورة الكريمة الجامع ما بين الملاينة والإنذار وتوافق مع ترتيب السورة في نزولها على محمد ﷺ لتكون تثبيتاً له وتسلية تتابع تلك المرحلة من دعوته وما يلقاه من عنت في مواجهة كفار مكة الملحدين ، هذا ويلحظ مما سبق في سورة الأعراف في ذكرها لقصص الأمم المهلكة حتى نصل إلى قصة قوم شعيب نجد وحدة السياق المتصل الذي ترابطت مشاهده في سوق أنباء قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، ونرى السورة

---

(١) قول المستكبرين (أو لتعودن في ملتنا) خطاب جاء على طريق التغليب ، ويفيد ذلك أن من آمن بشعيب كانوا قبل إيمانهم في ملة قومهم وأما شعيب عليه السلام فقد كان معصوماً من الشرك بفضله تعالى .

تشير إلى هذه الوحدة والترابط بما جاء في قوله تعالى بعد ذكر هذه المشاهد ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الآية [١٠٩] - الأعراف ، إن الإشارة في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ نراها تشير إلى هذا الترابط والاتحاد في المضمون والسياق الواحد ، ونراها تلخص الهدف من إيراد هذا القصص وتلتفت الآية في قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى التعريض بكفار مكة أي أن الله تعالى سيطبع على قلوبهم مثل ما طبع على قلوب المكذبين من قوم نوح وهود وصالح ، ولوط ، وقوم شعيب ، وسيطبع الله على كل قلب كافر ملحد لا يرتضي دعوة الحق ويعرض عنها ، إن السورة تتلاحم وتترابط في إرسالها للتحذير والإنذار لمن أنزلت عليهم هذه الآيات .

(ب) ما ورد في سورة الشعراء[1] :

يقول الله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

(١) سبق تفصيل واسع عن المناسبات والدقائق للمشاهد المعروضة في سورة الشعراء فيما سبق .

﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الآيات : ١٧٦ - ١٨٩] .

جاء المشهد ضمن مشاهد الإهلاك للأمم الغابرة في سياق السورة وهي تهتم بعرض موقف المشركين من القرآن الكريم وطلبهم للمعجزات الحسية غيره فجاءت القصص وهي تعرض معاندة الأقوام ومعارضتهم لدعوة رسلهم تسلية للرسول ﷺ في إعراض قومه ومكابرتهم ، ولذا عرض ممن المشهد هنا ما يوافق هذا السياق ففصل في عرض ما دار بين شعيب وقومه ، وما كان منهم من إعراض ويبقى هنا معرفة ما تميز به هذا الموقف من خصوصية عن غيره من المواقف السابقة واللاحقة ، فالموقف هنا يمثل الموقف الثاني بعد الموقف الذي سبق في سورة الأعراف يدل على ذلك ما يلحظ في قوله لقومه ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ترك الأمر بالعبادة لله وحده ولم ينص عليها اعتماداً على ما جاء قبل هذه السورة في الموقف السابق في سورة الأعراف وهي نازلة قبل سورة الشعراء وهو في دعوته لهم في سورة الأعراف قال ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ فلما لم يستجيبوا له قال لهم في الموقف الثاني هنا (ألا تتقون) وفي ذلك توبيخ وإنكار لعدم اتقائهم وتحريك وحث على تحقيق ذلك ، ثم نراه هنا يلخص لهم موقفه في قوله (إني لكم رسول أمين) وقد خلا ذلك من سورة الأعراف لأنه هنا يزيد من الحث والحض على تحقيق التقوى والبعد عن الإعراض ، وقد اتبع ذلك بقوله (فاتقوا الله وأطيعون) وهو هنا لا يناديهم حيث ناداهم في الموقف الأول وقد هيأ ذلك للموقف الثاني ويلحظ أنه

يجمع بين الاستمالة والتحذير وأن التخويف لهم يأتي في ظل التوجيه والتذكير كما يبدو من خلال الأمر بالتقوى (واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) .

ويأتي بعد ذلك موقف القوم ولكنه هنا يزداد سوءاً وافتراءً حيث اتهموا نبيهم بالسحر والكذب ، وأكدوا ذلك عن طريق القصر بإنما يشيرون بذلك إلى أن السحر والكذب فيه ظاهر بين لا يجهله أحد ، وهذا يشير إلى شدة سخفهم وما وصلوا إليه من إعراض وصد وازداد واتحدياً في قولهم (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) .

فهنا نلحظ أن القوم قد ازدادوا في سخريتهم وإعراضهم عن موقفهم في سورة الأعراف وازدادت شناعتهم وتحديهم لنبيهم وانصرافهم عنه ، فجاء إيراد العاقبة والنتيجة موجزة سريعة ، وكل ذلك يتوافق مع موضوع السورة وسياقها وجوها ويتلاءم مع الترتيب النزولي للسورة وهي سورة تتسم بالإيقاع السريع المريح في فقرات قصيرة يتتابع فيها عرض أحوال الأمم مع رسلهم وقد أعرضوا وكذبوا لتثبت في نفس النبي ﷺ التسلية والتسرية ، وعند متابعة العلائق بين السور في مشاهدها نجد أن سورة الأعراف كان الحوار فيها يدور بين شعيب عليه السلام والملأ من قومه وهم سادة القوم وأشرافهم ، وهم من تكبر على الدعوة وأعلنوا الحرب عليها منذ أول نداء يناديه شعيب عليه السلام يدعو فيه إلى عبادة الله وحده ، لقد أعلنوا الإعراض والتحدي والاستكبار حتى إنهم هددوا شعيباً ومن آمن معه بالإخراج والإبعاد من قريتهم إن لم يعودوا إلى ملتهم، وهذا يدل على استبدادهم وسيطرتهم على القرية ، ولذلك قال شعيب

عليه السلام راداً عليهم (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً) ويختم المشهد بآخر قول للملأ يحذرون فيه قومهم من اتباع شعيب ، ولهذا لم يخل الموقف هنا من التحذير والتهديد من قبل شعيب عليه السلام في قوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) ولكنه عليه السلام مع ذلك لم ييأس في أول لقاءاته بل قال ما يبين أمله في هدايتهم حيث قال (على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) وأما سورة الشعراء فإنها قد أضافت إلى سورة الأعراف الأمر بالتقوى وأضافت بيانه عليه السلام لوظيفته ، فما هو إلا رسول أمين من الله يطلب منهم طاعته لا يبتغي منهم أجراً أو شيئاً يدعوه إلى هذه الدعوة غير ابتغاء هدايتهم إلى الحق ، إنه يركز في خطابه هنا على عامة قومه وكان خطابه في سورة الأعراف يركز على الملأ يدل على ذلك قوله (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً) وهذا هو عمل الملأ من القوم الذين بيدهم السيطرة وهم من يسعى إلى صد الناس عن الدعوة ، وبذلك نراهم في حوارهم مع نبيهم في سورة الأعراف يحذرون قومهم من اتباع شعيب وأما سورة الشعراء فإنها تضيف أيضاً قوله ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ وبتتابع القول فيها يؤكد فيه نهيه السابق في سورة الأعراف وزاد هنا قوله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ولكن القوم أجمعوا هنا على كذبه وافترائه عليهم ، واتهموه بالسحر وازدادوا تحدياً وتكذيباً لما قالوا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ويلحظ أن السورتين تختتمان ببيان العاقبة في إيجاز يتناسب كل

واحد منهما مع المشهد تناسباً محكماً وبديعاً ولما كان القوم في سورة الشعراء يتحدون بينت الخاتمة بأنهم أُخذوا بعذاب يوم الظلة وبينت بأنه كان عذاب يوم عظيم في إيجاز ينبئ عن سرعة زوالهم ، والسورة هنا بينت جانباً جديداً ووضحته وهو أن عذاب القوم بالظلة وهو عذاب جاءهم من فوقهم وهي الصاعقة التي أهلكتهم وأرجفت بهم الأرض ، ومن هنا ندرك كيف تتنامى المشاهد وصور الإهلاك مع المواقف وما احتشد فيها من حوارات ولقاءات محتدمة بين النبي وقومه والله أعلم .

المبحث الثاني

ما ورد في سورتي (هود ، والعنكبوت)

(أ) ما ورد في سورة هود :

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [الآيات : ٨٤ - ٨٩] .

جاء المشهد معطوفاً على ما سبقه بالواو من قبيل عطف القصة على القصة وقد جاءت القصة في ترتيبها الزمني المتسلسل بعد قصة قوم لوط ، وهي في سياق الحديث عن كفار قريش وعنتهم وما يواجهون به النبي ﷺ وما يمر به من ضيق مقابل جدالهم وتكذيبهم ، ولذلك فُصِّل في عرض دعوة شعيب لقومه وما كان منهم من إعراضٍ وصد وكل ذلك جاء ملائماً للسياق وموضوع السورة في

اهتمامها بالعقيدة واختصر في إيراد العاقبة سريعة موجزة تلقي ظلال التحذير والرهبة وتبث تباشير النصر والفرج للرسول ﷺ ومن آمن به .

ولقد مرَّ تفصيل ملاءَمة القصص للأمم المهلكة لسياق السورة ، ويبقى هنا معرفة ما في هذا المشهد من تدرج وتلاؤم مع ما ورد من قبله من مواقف ، فالموقف هنا يمثل الموقف الثاني للموقفين السابقين في سورتي الأعراف والشعراء حيث نجد نداء شعيب لقومه هنا يكثر وتحذيره لهم بالعذاب يأتي فيه التصريح في قوله ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ .

ثم هو يحذرهم مما حل بالأمم من قبلهم قوم نوح وهود وصالح ويذكرهم بمن اجتالتهم العقوبة وهم قريبوا عهد بهم ، ألا وهم قوط لوط ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ إن الموقف هنا فيه تطويل يحتدم فيه الحوار ويكثر فيه نداء شعيب لقومه بما لم نلحظه من قبل فيما سبق من مواقف ، فقد ناداهم كما ناداهم في سورة الأعراف إلى عبادة الله تعالى ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ .

ثم يتتابع النداء في قوله ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ وفي قوله ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ﴾ وفي قوله ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ ﴾

وقال رداً عليهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وقال في نهاية الحوار ممهداً لهم بعد أن صمموا على إعراضهم ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ

إِنِّي عَـٰمِلٌ ﴾ وكل ذلك يصوِّر لنا معاناة النبي الكريم وهو يحاول استنقاذ قومه وهدايتهم قبل أن يحل بهم العذاب وهو لم يناده على هذه الطريقة إلا لأن القوم قد انصرفوا عنه ولم يبالوا بكلامه ، وقد رأينا من قبل كيف تدرج في دعوته حيث لم نلحظ في الموقف الأول إلا نداءً واحداً بينما يخلو الموقف الثاني من النداء ، فلما رآهم ازدادوا بعداً وإعراضاً في هذا المقام جدد النداء وأكثر منه حرصاً منه على لفتهم إليه ، وفي ذلك تصوير لمعاناته عليه السلام وعزيمته في إصلاح قومه ، ثم إن القوم هنا في موقفهم من دعوة شعيب نراهم يزدادون تهكماً واستهزاءً وسخرية حيث يقولون ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ وتظهر السخرية جلية في قولهم ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ ثم أكدوا عدم جدوى دعوته بتيئيسه منهم غير مبالين في سخرية وتحدٍ وتهديد ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ إنهم هنا قد صرحوا بما لم يصرحوا به من قبل وأعلنوا له تهديدهم وموقفهم من دعوته بما لا يدع مجالاً للنظر في العودة إلى دعوتهم مرة أخرى ، وهو هنا قد أكثر من ندائهم ودعوتهم فاشتد الجدل وتصاعد الإنذار وهكذا نجد التدرج في المواقف بما يلائم جوَّ السورة وموضوعها وسياقها وترتيبها في النزول ، ونرى سورة هود تعجل بذكر العاقبة والنتيجة بعد الحوار الطويل والجدال الساخن فتبرز لنا نجاة شعيب عليه السلام ومن آمن به وحسن إبراز النجاة هنا بعد التهديد والتوعد من قومه لقد أنجى الله

نبيه وأخذ الظالمين في سرعة كأن لم يكن لهم حياة من قبل ، وكل هذه اللمسات البديعة تتوافق وتتلاءم مع معاني التسلية والتثبيت للنبي ﷺ – والله أعلم – .

(ب) ما ورد في سورة العنكبوت :

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآيات : ٣٦ – ٣٧] .

جاءت القصة هنا موجزة معطوفة على ما سبقها وهو من قبيل عطف القصة على القصة وقد جاءت في ترتيبها الزمني بعد قصة قوم لوط وقد جاءت في سياق السورة الذي يهتم بالدعوة إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأن المؤمن والداعية لا تخلو حياتهما من الابتلاء والفتن ، ولكن تلك الفتن والعقبات تهون إذا اعتصم العبد بربه فالله ينصر عباده وأولياءه ويمكن لهم دينهم ، إن الحلقة المعروضة هنا جاءت متلائمة مع هذا السياق الذي يصور العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان على امتداد الأجيال ، وأن هذه هي سنة الله تعالى فما على المؤمنين إلا الصبر حتى يأتيهم نصر الله وفضله ، وشعيب هنا دعا قومه وذكرهم باليوم الآخر فما كان منهم إلا أن كذبوا فأخذهم الله بالرجفة ، إن الحلقة هنا تصور نصر الله العاجل في أمر المكذبين وقد تناسبت هذه الحلقة مع حلقات القصص المعروضة من قبلها وقد جاءت في هذا السياق .

تبين أن الله تعالى ينصر رسله في كل زمان ومكان وقد تتابعت القصص تبين فصل الله وتأييده ، ويلحظ أن سورة العنكبوت أضافت إلى السور الماضية والسابقة عليها تذكير شعيب لقومه باليوم الآخر .

ومن هنا نلحظ كيف تصاعد الإنذار والتحذير في السور الكريمة .

فسورة هود لما صرح القوم بتهديدهم لشعيب عليه السلام تصريحاً عنيفاً لم يلحظ مثله من قبل احتدم الحوار فيها ويلحظ أن الحوار في سورة هود حوار ممتد وكذلك نجد العاقبة فيها تذكر الصيحة العنيفة التي أخذتهم ومع الصحية تجمع الديار والصورة فيها تتلاءم مع شدة الموقف ولا يعني هذا أن صورة العاقبة مختلفة بل العاقبة واحدة ، ولكن النظم القرآني يختار من جوانبها ما هو أرهب وأعنف وما هو أنسب لسياق السورة والله أعلم .

الفصل السادس

مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسراره

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أثر السياق في تحديد الحلقة المعروضة من المشاهد .

المبحث الثاني : أثر السياق في ترتيب القصص .

المبحث الأول

أثر السياق في تحديد الحلقة المعروضة من المشاهد

اقتضى السياق الإيجاز في عرض مشاهد الإهلاك للأمم المكذبة في السور التي اهتمت بعرض قضية التوحيد ومن هنا ناسب التفصيل في عرض دعوة الرسل لأقوامهم ، وما كان من الأقوام من رفض وتكذيب وإعراض وما لقيه الرسل من معاناة في دعوتهم ، وقد عرض ذلك عبر الحوار المصور والمشخص فجاء التعجيل بذكر العاقبة للأقوام موجزة سريعة بعد طول إعراضهم وتكذيبهم للإشارة إلى سرعة انقضاء عهدهم وزوالهم وهذا ما اقتضاه السياق في هذه المواضع على أحسن ترتيب يتوافق مع غرض التسلية ، ويتزامن مع مراحل الدعوة المحمدية ، وقد ظهر ذلك جلياً في سور الأعراف وهود والشعراء ، ويلاحظ أن التفصيل في صور الإهلاك غالباً ما يأتي في السور التي اقتضى سياقها زجر المكذبين وتقريعهم فيأتي التركيز على الجانب الذي يحقق الترهيب ، وهذا ما يلحظ في سورة الذاريات والقمر والحاقة ولذلك نجد هذه السور الكريمة تخلو من ذكر دعوة الرسل لأقوامهم ، وما فصّل في هذا الشأن كما في سورة الأعراف والشعراء وهود لأن السياق هنا ومقام السور كان له الأثر الأكبر في تحديد الوجهة نحو صور الإهلاك والتدمير ، فجاء ذكر مهلك الأمم فيها متتابعاً في إيقاع سريع مدوي يوحي بدوي تلك الصواعق يتوالى في تتابع كالقذائف لتلقي الصورة الرعب والهلع في نفوس المعرضين من كفار مكة ، وتأتي بعض السور لها مواضيع ونسق وسياق يحتم عرض القصة والمشهد من آخره كسورة الأنبياء

حيث جاءت القصص والمشاهد فيها في سياق رحمة الله بأنبيائه ونصرته لهم ، وقد اعتصموا به من قبل الكرب وعند حدوثه وشدته فاستجاب لهم ونجاهم وامتدح صبرهم وجهادهم ، فاقتضى السياق فيها أن تعرض المشاهد والقصص على نسق يوافق الغرض ، ومثاله ما عرض من قصة نوح حيث عرضت من النهاية[1] بعد يأس نوح من قومه ودعوته عليهم ، فجاء الإهلاك والإغراق والنصر وعند هذا الحد يسدل الستار على الأحداث بالإغراق دون تفصيل ، فكان هذا التصوير السريع للأحداث يقصد منه تطمين الرسول ﷺ والمؤمنين بأن الله يستجيب لرسله ويحفظهم في الوقت واللحظة المناسبة ، وهنا يظهر في هذه الحلقة الجانب الذي لاءم السياق ، وهو سياق الرحمة بالأنبياء والنصر لهم والبيان بأن القوة الفاعلة في الكون كله والمهيمنة عليه هي قوة الله وقدرته ، وكذلك نجد السياق يعجل بإبراز النجاة وذكر العاقبة في المشاهد التي هدَّد الأقوام فيها أنبياءهم بالإخراج إن لم ينتهوا عن دعوتهم أو عند تحدي الأقوام لأنبيائهم بإنزال العذاب عليهم عاجلاً سخرية منهم وتكذيباً وهذه الملاحظة نجدها تتكرر كثيراً ومن أمثلتها ما ورد في صورة هلاك قوم لوط بعد أن جادلهم نبيهم ودعاهم حيث يقول تعالى عنهم : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ فجاء التعجيل بذكر النجاة وإبرازها عقب هذا القول في قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

(١) وهذا ما يلحظ في بقية القصص للأمم المهلكة في سورة الأنبياء .

كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ سورة الأعراف (٨٣ - ٨٤) .

ومثال تحدي القوم بإنزال العذاب عاجلاً قول قوم هود في سورة الأعراف ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

فجاء تهديده لهم في قوله ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ واقتضى السياق التعجيل بعقوبتهم والإسراع في تنجية النبي ومن معه ، لقد أبرز ذكر النجاة هنا حيث يقول تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ الآية (٧٣) .

ويلحظ أن ما عرض من مواقف الأنبياء عليهم السلام قد كان ملائماً لسياقات السور ، وقد عبر عن مواقف متعددة وليست تلك المواقف مكررة عن موقف واحد فمواقف الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم لأقوامهم في سورة الأعراف تختلف عن مواقفهم في سورة هود حيث يلحظ أن المواقف تتدرج حتى تصل إلى مراحل محتدمة بين الأقوام وأنبيائهم تصور لنا المراحل الأخيرة في الدعوة ، وقد لحظ أبو السعود رحمه الله أن مواقف الأنبياء في السور الكريمة كانت مواقف متعددة عندما نظر إلى قول نبي الله هود في سورة الأعراف في قوله ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وفي سورة هود قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حيث يقول (ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما ، وقد اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته

في موطن) وقال (وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره في سائر القصص لاسيما في المحاورات الجارية في الأوقات المتعددة والله أعلم) [1] .

هذا ويلاحظ أن هذه المواقف كانت تتناسب في عرضها مع مراحل الدعوة المحمدية وما كان يعانيه المصطفى ﷺ من عنت وإعراض فكان يعرض عليه في بدايات دعوته ما كان يحدث لإخوانه الرسل عليهم السلام في أول مواقفهم ، ثم يعرض له ما اشتد من المواقف بين الأنبياء وأقوامهم بما يوافق شدة الموقف مع الدعوة في مكة في نظام بديع يُظهر للمتأمل عناية المولى العظيم بنبيه وبمن آمن معه فإذا كانت العناية بمحمد ﷺ تلمس في كل سورة فإن ذلك يؤكد لكل مؤمن ومؤمنة عظيم المنزلة وشرف المكانة التي حظي بها النبي ﷺ عند ربه فهو خير الرسل وخاتم النبيين ، هذا ويلحظ أن مجادلات الأقوام لأنبيائهم كانت تختلف من قوم إلى آخرين وإن اتسمت في عمومها بالاختصار المنبيء عن ضيقهم من المجادلة والحوار ، وتبرمهم من قبول وسماع الحق ، وقد لوحظ أن مجادلة قوم لوط من أقل المجادلات وأخصرها وأن هؤلاء القوم قد بادروا نبيهم في أول لقاءاتهم بتهديده بالإخراج من قريتهم وذلك لشدة بغضهم لسماع الحق فقد اشرأبت نفوسهم بالكفر وارتكاب الفواحش بما لم يسبقوا به من قبل فكانت نفوسهم عن الحق وسماعه أبعد وأغلظ ، وهاهي حضارة الغرب قد انتهجت نهجهم في جمعها

(١) تفسير أبي السعود / (٢ / ٢٦٠ ، ١٦١) .

بين الكفر وارتكاب الفواحش وإباحتها ، بما يؤذن بأن سنة الله فيهم ستتحقق كما تحققت في غيرهم من الأمم البائدة وما ذلك على الله بعزيز .

ومما لوحظ أن جدال قوم شعيب قد طال وأن الحوار فيما بينهم وبين نبيهم يختلف عن الحوارات التي كانت تدور بين النبي وقومه فيمن سبقهم من الأمم والتي كانت تتسم بالإيجاز ، وذلك ينبيء عن تغيير طبيعة الأمم في قبول الحقائق فقوم شعيب كانوا في إنكارهم للرسالة أقل عنفاً وذلك لأنهم قد سبقوا بدعوات ورسالات جعلت من رسالة شعيب أمراً ليس بالمستغرب عليهم والله أعلم .

المبحث الثاني

أثر السياق في ترتيب القصص

وردت القصص في ترتيبها الزمني والتاريخي متتابعة في سورتي الأعراف وهود وذلك لأن موضوع السورتين وسياقهما يركز على قضية العقيدة والدعوة إلى الله ، فجاء عرض سير الدعوة وتاريخها منذ أول أمة ، فتتابع القصص على حسب تسلسله الزمني يعرض لنا حالة النفور والتكذيب والإعراض متتابعاً وهو أدخل في باب التسلية للرسول ﷺ وقد اهتمت السورتان بهذا الشأن والغرض ، وكان هذا التتابع يصوِّر كل أُمة وكل جيل لم يأخذ العظة والعبرة فيمن خلا من قبله وسبق وكان العهد بحالهم قريباً والقرآن هنا في جعله للقصص متتابعاً من الناحية التاريخية والزمنية يهتم بمواضيع السور وسياقاتها المنذرة والمحذرة من عواقب التكذيب والإعراض ، ولم يكن الهدف الاهتمام بالتاريخ لأزمنة الإهلاك بدليل اختلاف هذا الترتيب على حسب سياقات السور ومواضيعها ومنا سباتها التي تطلبت التقديم أو التأخير وما كان الترتيب إلا لعرض قضية التكذيب المتتابع لبيان تكرر الإعراض دون تمنع من تكرره وعلة ذلك تكمن في الاستكبار والعتو الذي اتسمت به كل أمة ، ومن أمثلة التقديم تقدم قصة موسى وذكر رسالته في سورة الأنبياء لأن السورة الكريمة ذكرت في مقدمتها رسالة محمد ﷺ وبينت أنها جاءت عن طريق الوحي منزلة من عند الله فذكرت رسالة موسى وقدمت قصته لقربها الزمني من رسالة محمد ﷺ وأعرضوا عنه فكان في ذكر رسالة موسى وتقديمها هنا لكون خبرها ثابتاً عند

اليهود ، والعرب على علم بها عن طريقهم ، وفي هذا إشارة تؤكد صدق رسالة محمد ﷺ والتي جاءت عن طريق الوحي كما جاءت رسالة موسى ، ولذلك قدم ذكر موسى ورسالته على قصص الأمم المهلكة ، ثم نرى أن قصة إبراهيم عليه السلام قدمت على قصة نوح عليه السلام ومن جاء بعده من الأمم لأن الغرض يهتم بإبراز إشاراتٍ للعرب المخاطبين وهم على صلة وثيقة بإبراهيم فهو أبوهم الذي يقدرونه ويفخرون بالانتساب إليه ، ولشبه قصته مع قومه بقصة الرسول ﷺ مع قومه في عبادتهم للأصنام وقد جاهد جهاداً عظيماً في إبطالها والسياق في هذه السورة يهتم في جميع أجزائها بإثبات الرسالة ، وقد ذُكر الأنبياء بأسمائهم وبُيِّنَ فضلهم لتبيِّن السورة أن محمداً ﷺ ما هو إلا واحد من هؤلاء الرسل وكلهم من البشر فلم يرسل الله تعالى إلى البشر أحداً من ملائكته فيظهر هنا أثر السياق والغرض في تقديم القصة ونرى في سورة الشعراء وقد نزلت في وقت اشتدت فيه معركة المعجزات التي أثارها مشركو مكة وكان لها أثر كبير في نفس الرسول ﷺ فيلاحظ أن السورة قدمت قصة موسى لعلاقتها بموضوع المعجزات التي جاء بها موسى لفرعون وملئه ، فلم يؤمنوا بها ، وهكذا يلاحظ التقديم والتأخير في القصص القرآني من أجل أغراض السور وسياقاتها المختلفة ومقاماتها والله أعلم .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة التي عشتها في رحاب آيات الله تعالى مع صور إهلاك المكذبين من الأمم أصل هنا إلى بيان أهم النتائج التي استخلصتها هذه الدراسة حيث يلحظ في الباب الأول : أن المفردة القرآنية إذا درجت على معنى واحد قد يظن بأنها مكررة وهي ليست على ذلك فقد حملت في كل سياق ما يجعلها تعطي من الدلالات والبيان مالا يوجد فيها من قبل في سياقات أخرى مثل كلمة (نجَّى) المضعفة حيث وردت في سياقات تبين عظيم المنة في هذه النجاة وأنها كانت نجاة عظيمة ، ومرَّة وردت بمعنى المكث والتمهل مع دلالتها في جميع المواضع على عظيم الأمر وأن المُنجَّى قد أُحيط بالعذاب ولكن قدرة الله تعالى كانت أعظم في الإنجاء والتخليص وبهذا تكون الدراسة قد نفت ما توصل إليه بعض علماء المتشابه من أن أنجى ونجَّى لا فرق بينهما فهما بمعنى واحد لا يزيد أحدهما على الآخر في الدلالة ، ومما استظهرته الدراسة في هذا الباب أن مفردة أمطر ومطر لا ترد إلا في باب العقوبات والشر وأن صيغة الفعل (أمطر) يلمح منها أن هذا المطر من جنس آخر ليس من جنس المطر المعهود وإنما هو ذلك العذاب الذي أرسله الله على الظالمين ومما لوحظ أيضاً في هذا الباب أن تعدد القراءات في المفردة يأتي لبيان وتوضيح الصورة ، حيث تتكامل القراءات في أداء المعنى أو التوضيح أو إبراز جانب خفي لم يكن قد برز إلا عن طريقها ، وقد بينت الدراسة أهمية العودة إلى المعنى اللغوي للكلمة ودراسة الأسرار عن طريق تلمس استعمالها دون غيرها من الكلمات المرادفة لها كما ورد في كلمتي الحمل

والسلك ، وقد بيَّن أهل التأويل أنهما بمعنى واحد وهو الإدخال ، ولكننا عندما نتلمس المعاني اللغوية لكل منهما ندرك ما قد أحدثته كل كلمة في سياقها من لطف وتميز ودقة لا تفسر بالتكرار وإنما بالإضافة والإبانة التي يتكامل بها المعنى وتتضح الصورة ومما استظهرته الدراسة أن التذكير والتأنيث في المفردة في تصوير الإهلاك كان له أثره في إبراز درجة العذاب المنزل وأن الإفراد يأتي لبيان القوة وعظمة العذاب كما في إفراد الريح وإفراد الموج الطاغي على قوم نوح وقد كان لإفراد كلمة الدار مع الرجفة وجمعها مع الصاعقة معان ودلالات كثيرة تجتمع ولا تتعارض بل تدلنا على عظمة إعجاز مفردات القرآن الكريم في الوصول إلى المعاني من أقصر الطرق وأقربها وأبينها مع إيجازها الجامع لهذه الدلالات المتسعة .

وأمَّا ما استنتجته الدراسة واستخلصته في الباب الثاني أن ورود الإيجاز في صور الإهلاك أو البسط فيها قد كان يتابع سياقات السور وأجوائها ويلائم مواضيعها فتأتي الصور الموجزة في سور الأعراف والشعراء وهود ما عدا قصة الطوفان تشير إلى ما حل بالأمم المهلكة لأنها كانت تعرض ما دار بين الأنبياء وأقوامهم وشدة ما وصلوا إليه من إعراض لدعوة أنبيائهم حتى هددوهم بالإخراج ورموهم بالضلالة والسفاهة فطالت المحاجة فناسب ذلك إبراز النجاة سريعة للنبي ﷺ ومن معه وإيراد خبر الإهلاك في إيجاز يبث التسلية في نفس النبي ﷺ وهو يواجه عنت قومه كما واجه هؤلاء الأنبياء الكرام عنت أقوامهم ، ونرى خبر الإهلاك يعطف موجزاً على خبر الإنجاء يبث الهلع في قلوب المعرضين وقد كان هذا هو سياق الصورة الموجزة في كل صور الإهلاك

للأمم المكذبة ومع ذلك فإن المتأمل يلحظ أن طرائق عرض الصورة وأساليب إظهارها لما وردت في عدة مواضع كانت تبدو جديدة في كل موضع ، وقد يظن عند النظرة السريعة أن ذلك تكرارٌ قصد به ترسيخ المعاني والصور في الأذهان ، ومما استظهرته الدراسة أن صور الإهلاك في تفصيلها كانت تأتي في السور التي كانت تهتم بزجر المكذبين وترهيبهم كما في سور القمر والذاريات والحاقة ، وأما السور التي عرضت فيها الدعوة والمحاجة بين الأنبياء وأقوامهم فكانت تشير إلى حادثة الإهلاك في إيجاز سريع مثل سور الأعراف والشعراء وهود ما عدا صورة إهلاك قوم نوح عليه السلام في سورة هود وفي ذلك تعلق بترتيب السور في نزولها فسورة الأعراف والشعراء وهود نزلت قبل سورة الحاقة والذاريات والجاثية وقد كانت تهتم بإبراز جانب الإعراض والمحاجة في وقت نزلت فيه على النبي ﷺ وهو في أشد الحاجة إلى التسلية والتثبيت حيث يواجه إعراض قومه وعنتهم ، ولما بلغ الأمر شدته نزلت السور التي فصلت في صورة الإهلاك تزداد فيها الرهبة وتدخل مباشرة إلى صور الإهلاك متتابعة ليكون ترهيبها أشد ووقعها أعظم ، وكان تفصيل صور الإهلاك يأتي في السور التي تعلو فيها نبرة التهويل والترهيب كسورة هود ، والقمر ، والحاقة ، والذاريات ، والله أعلم .

ومما استظهرته الدراسة اهتمام الصورة القرآنية بإبراز وتصوير الحالات النفسية وآثارها عبر الحوار المصور الذي وصل إلى القمة في حوار نوح عليه السلام مع ابنه وما كان في نفسه من رهبة وخوف عليه يحذره من الخطر ثم هو لم يسمع لتحذيره ، فيغرق أمام عينيه وإنه لبلاء عظيم .

وأما الباب الثالث : فقد استظهرت الدراسة فيه عدة نتائج مهمة منها ، أن الحلقة المعروضة من مشاهد الإهلاك لكل قوم نجدها ترتبط بروح السورة في موضوعها وسياقها وتتلاءم مع بقية أحداثها المعروضة في تناسق بديع وتماسك قوي يؤكد أن ترتيب الآيات والسور توقيفي ، إنَّ هذا الباب يوضح تناسق البناء في كل سورة مع مشاهد الإهلاك الواردة ، وقد بنيت الآيات بعضها مع بعض في تلاحم وتسلسل بديع ، حيث يلحظ لكل سورة شخصيتها التي تختص بها ويلحظ أن المشاهد المعروضة في السور تأتي مفصولة مرة وموصولة بما قبلها ، وكل من الفصل والوصل جاء دقيقاً في سياقه وموضعه ، وكان أشد بياناً عن المقصد ، وبذلك تتحقق العلاقة القوية بين الآيات في مفرداتها ومعانيها في الآية مع ما قبلها وما بعدها ، في ترابط قوي وبناء متماسك لقد كان التنويع في إيجاز المشاهد وتفصيلها يرجع إلى السياق وإلى سوابق الآيات ويتلاءم مع لواحقها ، ومن هنا وجد التنوع اللطيف في الأساليب وهو وجه ومظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم وسر من أسرار بيانه ، لقد كان لموضوع السورة وسياقها الأثر في تحديد الحلقة المختارة من مشاهد الإهلاك للأمم الغابرة في كل سورة مع تقديم الإضافة والجديد الذي يكمل جانباً من جوانب القصة حتى نصل صورة المشاهد متكاملة في نظام بديع ينفي عن تلك القصص والمشاهد صفة التكرار .

وأخيراً أجد أني في هذه الخاتمة لم استقص كل نتائج البحث ، وإلا لطال المقام ، حيث كان لكل فصل من فصول الرسالة وهي سبعة عشر فصلاً نتائج ولكني اقتصرت على أهم النتائج للبحث ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين .

قائمة المصادر والمراجع

١ -القرآن الكريم .

٢ -إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع ، للإمام الشاطبي ، تأليف الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة ، تحقيق محمود عبد الخالق محمد جادو ، من مطبوعات الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، عام ١٤١٣ هـ .

٣ -الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (المكتبة العصرية ، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

٤ -الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم ، د. محمود موسى حمدان ، ط(١) ، (مكتبة وهبة – القاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

٥ -أدوات التشبيه دلالالتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ، د. محمود حمدان ، ط(١) ، (مطبعة الإمانة – القاهرة – ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) .

٦ -إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود (ت ٩٥١ هـ) ط(٢) ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت : ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م) .

٧ -الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، د. صباح دراز ، ط(١) (مطبعة الأمانة – القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

٨ -أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، د. صباح عبيد دراز ط(١) (مطبعة الأمانة ، القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

٩ -أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط « إن وإذا ولو » ومواقعه في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، محمود موسى حمدان ، إشراف د. محمد أبو موسى ١٤٠٩ هـ - جامعة الأزهر .

١٠ -الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، عام ١٩٩٢ م .

١١ -الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم ، د. محمد الأمين الخضري ، ط(١) (مطبعة الحسين الإسلامية - القاهرة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م) .

١٢ -الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية ، ط(٢) (دار المعارف - القاهرة) .

١٣ -الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن الكريم ، د. عودة الله منيع القيسي ، ط(١) (دار عمان - الأردن ، عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م) .

١٤ -إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة تأليف ، شمس الدين محمد بن خليل القباني ، دراسة وتحقيق د. أحمد خالد شكري ، ط(١) (دار عمار - عمان ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م) .

١٥ -الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح، تأليف العلامة الخطيب القزويني (نشر دار إحياء العلوم ، بيروت - لبنان ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٣ م) .

١٦ بدائع الفوائد ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ، تحقيق بشر محمد عيون ، ط(١) (مكتبة دار البيان ، دمشق ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م) .

١٧ بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع ، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، (بدون تاريخ) .

١٨ البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط) (المكتبة العصرية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

١٩ البرهان في متشابه القرآن الكريم ، للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق أحمد عز الدين عبد الله ، ط(١) (دار صادر ، بيروت ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م) .

٢٠ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ، ط(المكتبة العلمية - بيروت) .

٢١ تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ، ط(١) (دار الفكر - بيروت ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

٢٢ التبيان في إعراب القرآن ، لأبي البقاء العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث - بيروت .

٢٣ -التبيان في علوم المعاني والبديع والبيان ، للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي ، تحقيق د/ هادي عطية الهلالي ، ط(١) ، عالم الكتب ، ١٤٠٧ هـ .

٢٤ -تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

٢٥ -التشبيه البياني في نظم القرآن ، د. هاشم الديب ، ط(١) (دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م) .

٢٦ -تفسير البحر المحيط ، لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي ، ط(١) (بيروت - لبنان ، دار إحياء التراث العربي) .

٢٧ -التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني ، ط(١) (مكتبة وهبة ، القاهرة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م) .

٢٨ -تفسير التحرير والتنوير ، للإمام محمد الطاهر بن عاشور ، ط(الدار التونسية للنشر) ، (بدون تاريخ) .

٢٩ -تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، طبعة دار الفكر ، (بدون تاريخ) .

٣٠ -تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون ، ط(١) (الرياض ، دار عالم الكتب ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) .

٣١ -التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي ، ط(٤) (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) .

٣٢ -تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ، ط(١) (عالم الكتب - بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

٣٣ -التمهيد في علم التجويد ، لشمس الدين أبي الخير محمد بن الجزري ، تحقيق غانم قدوري حمد ط(٤)، (مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م) .

٣٤ -التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، د. أحمد سعد محمد ، ط(٢) ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م) .

٣٥ -التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم ، د. صبري المتولي ، ط(دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة) .

٣٦ -ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة .

٣٧ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ضبط وتعليق محمود شاكر ، ط(١) (دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان) .

٣٨ - الجمان في تشبيهات القرآن ، لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي ، حققه د. محمد رضوان الداية ، ط(١) (دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م) .

٣٩ - حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي) ، للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، على تفسير البيضاوي ، ط(١) (دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م) .

٤٠ - حجة القراءات ، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، ط(٥) (مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) .

٤١ - الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية ، رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، إعداد الباحث محمد إبراهيم شادي إشراف د. محمد عبد الرحمن الكردي (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

٤٢ - الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ، ط(٢) (دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م) .

٤٣ - خصائص بناء الجملة القرآنية في كتاب التحرير والتنوير ، إعداد إبراهيم الجعيد ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية .

٤٤ -خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم ، د. الشحات محمد أبو ستيت ، ط(١) (مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م) .

٤٥ -دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمه ، ط(دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م) .

٤٦ -دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، مناهج تطبيقية في « توظيف اللغة » ، د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، ط(١) (مكتبة وهبة – القاهرة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م) .

٤٧ -دراسات فنية في القرآن الكريم ، د. أحمد ياسوف ، ط(١) (دار الكتبي ، دمشق ، ١٤١٧ هـ/ ٢٠٠٦ م) .

٤٨ -دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل ، د. محمد فاضل السامرائي ، ط(١) (دار عمار ، عمان ، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٦ م) .

٤٩ -درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ، اعتنى به خليل مأمون ، ط(١) (دار المعرفة – بيروت ، عام ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م) .

٥٠ -دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود شاكر ، ط(مكتبة الخانجي ، القاهرة) .

٥١ -ديوان الأعشى ، ط(دار صادر ، بيروت ١٤١٤ هـ) .

٥٢ -ديوان امرئ القيس ، ط(دار صادر ، بيروت) .

٥٣ - ديوان جرير ، ط(دار صادر - بيروت) .

٥٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ، ط(٢) (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م) .

٥٥ - سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط(دار الريان للتراث ، المكتبة السلفية) .

٥٦ - سيكلوجية القصه في القرآن الكريم ، التهامي نقرة ، ط(الشركة التونسية ، تونس ، ١٩٧٤ م) .

٥٧ - شرح شافية ابن الحاجب ، للشيخ رضي الدين محمد بن الحسين الاستراباذي ، تحقيق محمد نور الحسين وآخرون ، ط(دار الكتب العلمية - بيروت) .

٥٨ - عروس الأفراح في شرح تلخيص هنداوي ، ط(١) (المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م) .

٥٩ - الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ، د. عيد محمد شبايك ، ط(١) (دار حراء ، القاهرة ، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م) .

٦٠ - فتح الباري ، بشرح صحيح الإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر ، حققه محب الدين الخطيب ، ط(دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ) .

٦١ -فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، لشيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري ، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسين ، ط(١) (مكتبة الرياض - الرياض) .

٦٢ -فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ط(٢) ، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٢٤ م) .

٦٣ -الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف سليمان عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ، دار الفكر للطباعة والنشر ، (بدون تاريخ) .

٦٤ -في ظلال القرآن الكريم ، لسيد قطب رحمه الله ، (دار الشروق - مصر ، ١٤١٤ هـ / ١٩٢٤ م) .

٦٥ -القاموس المحيط ، للفيروزأبادي ، ط(٢) (مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر ، ١٣٧١ هـ) .

٦٦ -القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، فضل حسن عباس ، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع عمان الأردن ، ط(٢) ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

٦٧ -الكتاب لسيبويه ، تحقيق ، عبد السلام محمد هارون ، ط(٢) (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

٦٨ -كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، تأليف يحيى بن حمزة ، مراجعة وضبط ، محمد عبد السلام شاهين ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

٦٩ -كشف المعاني من المتشابه من المثاني ، لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة ، تحقيق د. عبد الجواد خلف ، ط(١) (دار الوفاء - القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) .

٧٠ -الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجمها ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق د. محي الدين رمضان ، ط(مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م) .

٧١ -لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، ط(٣) (دار صادر - بيروت ، عام ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

٧٢ -المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي ، ط(١) (دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

٧٣ -مذكرة في التوحيد ، لمحمد نبهان المصري ، ط(١٤) (دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

٧٤ -معاني القراءات ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ط(١) (بيروت - لبنان ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) .

٧٥ -معاني القرآن ، لأبي زكريا ، يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، ط(٣) (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م) .

٧٦ -معاني القرآن ، للأخفش سعيد بن مسعدة البلخي المجاسقي ، دراسة وتحقيق الدكتور ، عبد الأمير محمد أمين الورد ، ط(١) (عالم الكتب ، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م) .

٧٧ -معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، أبي إسحاق إبراهيم السري ، تحقيق د. عبد الجليل عبد شلبي ، ط(١) (بيروت - لبنان ، عالم الكتب ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م) .

٧٨ -معاني النحو ، للدكتور ، فاضل السامرائي ، ط(٢) (دار الفكر ، عمان - الأردن ، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م) .

٧٩ -معترك الأقران في إعجاز القرآن ، لأبي الفضل جلال الدين السيوطي ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين ، ط(١) (دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م) .

٨٠ -المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، ط(١) (دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٩٧ م) .

٨١ -معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين حمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، (دار الجيل - بيروت) .

٨٢ - المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ، د. محمد سالم محيسن ، ط(٣) (مكتب الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

٨٣ - مفتاح العلوم ، للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، علق عليه نعين زرزور ، ط(٢) (دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) .

٨٤ - المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد ، ط(دار المعرفة ، بيروت) .

٨٥ - ملاك التأويل القاطع ، بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ، ط(١) (دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) .

٨٦ - من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، د. محمد محمد أبو موسى ، ط(٢) (مكتبة وهبة - القاهرة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) .

٨٧ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، د. محمد الأمين الخضري ، ط(١) (مكتبة وهبة - القاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) .

٨٨ - من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، الفاء ، ثم ، د. محمد الأمين الخضري ، ط(١) (مكتبة وهبة - القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) .

٨٩ -من بلاغة القرآن ، د. أحمد أحمد بدوي ، ط(مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥٠ م) .

٩٠ -من بلاغة القرآن الكريم ، د. إبراهيم طه أحمد الجعلي ، نشر (مكتبة المتنبي الدمام) بدون تاريخ .

٩١ -من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط(١) (دار عمار ، الأردن ، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م) .

٩٢ -من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، محمد قطب عبد العال ، ط(٢) (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م) .

٩٣ -من روائع القرآن ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، ط(١) (مكتبة الفارابي ، دمشق ، ١٤٢٥ هـ) .

٩٤ -من غرائب آي التنزيل ، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، تحقيق ، د. عبد الرحمن المطرودي ، ط(١) (دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م) .

٩٥ -من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين ، آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام ، د. فؤاد محمود سندي ، ط(١) (مكة المكرمة ، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٢ م) .

٩٦ -المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر للإمام ابن الجزري ، تأليف د. محمد سالم محيسن ، ط(١) (المكتبة الأزهرية للتراث ، ٢٠٠٢ م) .

٩٧ -النشر في القراءات العشر ، لمحمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري ، تحقيق د. محمد سالم محيسن ، نشر ، مكتبة القاهرة .

٩٨ -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، ط(٢) (دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م) .

٩٩ -نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، عبد الرحمن حبنكه ، ط(١) (دار القلم ، دمشق ، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م) .

١٠٠ -وضح البرهان في مشكلات القرآن ، للعلامة محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري العزنوي ، تحقيق صفوان عدنان ، ط(١) (دار القلم - دمشق ، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م) .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ١

الباب الأول : أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك المكذبين ٧

الفصل الأول أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم نوح عليه السلام ٨

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات ٩

أ - أسرار تنوع المفردات في تصوير النجاة لنوح عليه السلام ومن معه .. ٩

ب - أسرار تنوع المفردات في المتشابه من سورتي (هود) و(المؤمنون)...٢٢

المبحث الثانيأسرار تنوع المفردات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات.٢٩

١ - ما ورد في سورة الأعراف ٢٩

٢ - ما ورد في سورة هود ٣١

٣ - ما ورد في سورة القمر ٧٨

الفصل الثاني أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك قوم هود عليه السلام ٨٨

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات ٨٩

المبحث الثاني : أسرار تنوع الكلمات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات١

الفصل الثالث أسرار تنوع المفردات في تصوير هلاك قوم صالح ١٢٥

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات ١٢٦

المبحث الثاني : أسرار تنوع الكلمات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات١٣

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع أسرار تنوع المفردات واصطفائها في تصوير هلاك
قوم لوط وشعيب عليهما السلام.................. ١٥٤

المبحث الأول : أسرار تنوع المفردات في المتشابه من الآيات ١٥٥

المبحث الثاني : أسرار تنوع الكلمات واصطفائها في غير المتشابه من الآيات ١٦٥

المبحث الثالث : أسرار تنوع المفردات في تصوير هلاك قوم شعيب ١٩٠

الفصل الخامس مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها.. ١٩٧

المبحث الأول : مقارنة بين أسرار التنوع الحاصل بين كلمتي (نجَّينا)
و(أنجينا) في قصص هلاك الأمم.................... ١٩٨

المبحث الثاني : مقارنة بين أسرار التنوع في المفردات في هلاك الأمم.... ٢٠٧

الباب الثاني : أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك الأقوام المكذبين............... ٢١٧

الفصل الأول أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم نوح ٢١٨

المبحث الأول : الصورة الممتدة في سورة هود........................ ٢١٩

المبحث الثاني : الصورة الموجزة في سورتي المؤمنون والقمر ٢٧٧

المبحث الثالث : الصورة فيما أشار إلى قصة الإهلاك ٣٠١

الفصل الثاني أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم هود ٣٠٩

المبحث الأول : الصورة الموجزة في سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء) ٣١٠

المبحث الثاني : الصورة المفصلة في سورة (الذاريات ، والقمر ، والحاقة) ٣١٧

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم صالح ٣٣٤
المبحث الأول : ما ورد في سورة الأعراف ، وهود.................. ٣٣٥
المبحث الثاني : صورة الإهلاك في سورة الذاريات والقمر............. ٣٤٩
الفصل الرابع أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم لوط ٣٥٦
المبحث الأول : تصوير هلاك قوم لوط في السور الطوال ٣٥٧
المبحث الثاني : تصوير هلاك قوم لوط في سورة الصافات ، والذاريات ، والقمر ٣٩٥
الفصل الخامس أسرار تنوع بناء الصورة ووجه دلالتها في هلاك قوم شعيب.. ٤١٢
المبحث الأول : ما ورد في سورة الأعراف وهود ٤١٣
المبحث الثاني : ما ورد في سورتي الشعراء والعنكبوت..................... ٤٢١
الفصل السادس مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها.. ٤٢٦
المبحث الأول مقارنة بين ضروب التنوع في التصوير الموجز للإهلاك... ٤٢٧
المبحث الثاني : مقارنة بين ضروب التنوع في السور القصار والطوال .. ٤٣٦
الباب الثالث : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه ٤٤٢
الفصل الأول أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في هلاك قوم نوح ٤٤٣
المبحث الأول : أسرار التنوع في علاقات المشهد الموجز ٤٤٤
المبحث الثاني : أسرار التنوع في موقع المشهد المفصل من سياقه ٤٦٢

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في هلاك قوم عاد ٤٧١

المبحث الأول أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه.. ٤٧٢

المبحث الثاني : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في سورة
(القمر ، والحاقة ، والذاريات) ٤٨٥

الفصل الثالث أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في هلاك قوم صالح ٤٩٣

المبحث الأول : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في سورة (الأعراف ، والشعراء ، وهود) ٤٩٤

المبحث الثاني : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في سورة (الذاريات ، والقمر) ٥٠٣

الفصل الرابع أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في قصة هلاك قوم لوط............................ ٥٠٦

المبحث الأول : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد الموجز من سياقه
في السور الطوال ٥٠٧

المبحث الثاني : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد المفصل من سياقه
في سورتي (هود ، والحجر)........................ ٥١٩

المبحث الثالث : أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه
في سورة (الذاريات ، والقمر) ٥٢٧

الموضوع **الصفحة**

الفصل الخامس أسرار تنوع العلاقات في موقع المشهد من سياقه في قصة هلاك قوم شعيب ٥٣١

المبحث الأول : ما ورد في سورتي الأعراف والشعراء ٥٣٢

المبحث الثاني : ما ورد في سورتي هود والعنكبوت ٥٤١

الفصل السادس مقارنة بين ضروب التنوع في كل فصل وأسرارها .. ٥٤٦

المبحث الأول : أثر السياق في تحديد الحلقة المعروضة من المشاهد ٥٤٧

المبحث الثاني : أثر السياق في ترتيب القصص.............................. ٥٥٢

الخاتمة ٥٥٤

قائمة المصادر والمراجع ٥٥٩

فهرس الموضوعات ٥٧٣